

تَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ

المُسَمَّى بِكِتَابِ الْعَبَرِ وَدِيَوَانِ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ

فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْبِ وَمَعَ صَحْفِهِمْ مِنْ فَوَاسِلِ السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

ملحق للجزء الأول

يشتمل على ما علق به على غوامض أبحاثه

كاتب العصر الأكبر

أحمد رشيد

١٣٥٥ هـ حقوق الطبع محفوظة للنشر ١٩٣٦ م

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان
وفروعها بالاقطار المغربية

الطبعة الخامسة
شأن النشر ٣٥ تموز ١٩٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ابن خلدون أمة وحده

لم نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران وما يستقضى اليوم بعلم الاجتماع ، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التي لا تجول فيها أفكار الحكماء . وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا إليه في تصانيف مباحثهم ، ولكنهم لم يبالغوا فيه شيئاً من الإحاطة التي بلغها ابن خلدون ، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذي جعله في هذا الموضوع نسيج وحده ، حتى ألقي إليه فيه بمقاليد الرئاسة . فهو واضع علم الاجتماع بالاحكام ، وهو الذي لم يدع منه غملاً غير معلم ، ولا وشياً غير منمنم .

قال البارون المستشرق « كارادوفو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » في الجزء الأول من تأليفه هذا : أُنشئت افرقة الاسلاميه اجتماعياً من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصوراً عن فلسفة التاريخ أصبح ولا أجل من تصوره ، فان أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأنطوار وتنوع المدييات وعوامل نموها أو تقامها ، كل ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه ، وذلك في مقدمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر ، المسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أقفالا مستحجبة تعذر فتحها ، فكان ابن خلدون في العقل والادراك من فضيلة « مونتسكيو Montesquien » أو الألب « مابلي Mably » وهو من دون شك الجدة الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين الحديثين مثل « تارد Tarde » أو المستشرق « غوبينو Gobineau » اه .

ثم ذكر صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » شيئاً عن حياة ابن خلدون وقال إن الأب « بورغيس Bargues » قدح في ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة ، وزعم أن قاعدته في السياسة كانت التحول من حزب إلى حزب آخر بحسب ما كانت تقضى عليه به مصلحته الشخصية ، أو اتقاؤه للضرر ، ونسى بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذى يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون . على أن بورغيس نفسه يسمى ابن خلدون « بالمؤرخ الفيلسوف » برغم ما زنه به من عدم الثبات .

ثم ذكر كارادوفو كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيراً عن سلطان غرناطة إلى « بطرة » الفاشم سلطان قشتالة في بعض المهات ، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده ولم يحصل من ذلك على طائل ، وذكر بحديثه إلى مصر وولايته للقضاء ثم صحبته لسلطان مصر في خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، ثم ما جرى بينه وبين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالاذن له في الرجوع إلى مصر توفى سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن أربع وسبعين سنة . وقال : إنه كان رجلاً سرياً بهيئة الطلعة ، حسن الصورة والشورة ، خبيراً بالسياسة ، عارفاً بأخلاق الملوك .

ثم قال : إن عمل هذا الكاتب العظيم كان عبارة عن تاريخ عام مجموع من كتب كثيرة ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو « دوسلان de Slane » إلى الفرنسية ، وقدّم عليه مقدمة تضمنت فلسفته السياسية . وهذه المقدمة هي في حد ذاتها انسيكلو بيرية شاملة ، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية ، والتاريخ نفسه معدود فيها من جملة فروع الفلسفة .

قال ابن خلدون « إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجى وجدنا مهمته تقييد الحوادث التى تتابعت على ممر الأعصار ، وتعاقب الأدوار ، مما كانت الأجيال الماضية شاهدة له ، وإنه لأجل سرد هذه الحوادث تنقّحت العبارات ، وتطرّز الانشاء بحلى البلاغة ، وبهذا التاريخ زهت مجالس الأدب ، وتداعى اليها الناس من كل حدب ، والتاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلّبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ، وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض . كل أمة إلى

المدة المقدرة لها من الحياة ، فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ ، فأعظم أسرارها هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها ، والتأمل في الأسباب التي أنشأتها وفي كيفية جريانها وتطورها . فالتاريخ بالجملة إنما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل في عداد العلوم الجليلة التي لها المكانة الأولى .

فأنت ترى أن التاريخ في نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها . وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران ، وكان ابن خلدون يرى العمران في زمانه قد أجمحف به النقصان ، وأكدى كما أرى فيذهب إلى أن المدنيات قد أشرقت شمسها على العالم من مشارق متعددة ولكنه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور المعالم ، فهو يقول : إن العلوم التي وصلت إلينا هي أقل من العلوم التي لم تصل إلينا ؛ فأين علوم الفرس ، والسكندانيين ، والبابليين ، والآشوريين ، والأقباط القدماء ، فإنها كلها قد ذهبت . ولم يبق من العلوم التي وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التي انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون في ترجمتها وإنفاقه الأموال الطائلة عليها .

وقد عقب كارادوثو على كلام ابن خلدون هذا بقوله : إن فيه شيئاً من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تذكر أهميتها من معارف الفرس ، والهنود واليهود . ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة عطن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية .

ثم إن ابن خلدون يتكلم عن الاجتماع البشري فيقول : إن أساس الاجتماع الإنساني إنما هو ضعف الإنسان منفرداً بنفسه ، فانه إذا عاش وحده فلا يكون مليئاً بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشتة ، بل لو عاش وحده لما قدر أن يثبت في وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة . ثم إن الاجتماع يستلزم السلطان الذي هو في الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ، فلا بد فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين ، فهذا في الأصل هو منشأ السلطان قال : وهذا غير محصور في الآدميين ؛ بل هو يوجد في الحيوانات أيضاً ، فقد تحقق عند بعضها مثل النحل والجراد ، وغيرها ؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع ، ويكون لصاحب

تلك الرئاسة امتياز في الشكل أو بسطة خاصة في الجسم . والفرق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرد غريزة مركوزة في فطرته ، وأن الانسان ينقاد إلى هذه الرئاسة بناء على تفكير وروية .

وقد أطل ابن خلدون البحث في تأثير الأقاليم بطباع البشر ، وأورد على ذلك الأمثال ، واستخلص منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكانا ، بخلاف الأقاليم الأولى والثاني والسادس والسابع فإن أهلها يسكنون في بيوت من القصب أو الطين وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش ، وهم في الغالب عراة الأجسام وإذا اكتسوا فإنما يخصصون على أبدانهم من ورق الأشجار . فأما الأقاليم المتوسطة فأهلها عندهم مزية التعديل في الأمور واتخاذ الأليق من التدابير ، والأليق من مظاهر الحياة . وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهي ، والنظام والملك ، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسست الدول والممالك ، وسُنَّت القوانين ، ووضعت العلوم ، وتشيدت الأمصار وغُرست المغارس ، وحرثت المحارث ، وتولدت الصناعات النفيسة ، وترففت المعيشة ، وإنما الأمم التي تنسب إلى هذه الأقاليم هي العرب ، والرومان ، والفرس والاسرائيليون ، واليونان ، والهند ، والصين .

وقد أمعن ابن خلدون في البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق في البشر ، فهو يتساءل لماذا الزوج مثلا تغلب عليهم الحفة والطرب ؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسمودي صاحب التاريخ المسمى «مروج الذهب» فقال : إن هذا يوجد عند الأمم التي يسهل عليها القوت ، بعكس الأمم التي تضرب في المناطق الباردة التي لا يسهل فيها إيجاد الغذاء . وضرب ابن خلدون مثلا مدينة « فاس » فقال : إنها لكونها محاطة بالملاذ الباردة تجدد الواحد من أهلها سائرا وهو مطرق رأسه في الأرض يظهر للناس أنه حزين ، وذلك من شدة تفكيره في العواقب ، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدة سنين ، وهم مع ذلك يذهبون كل يوم إلى الأسواق لا ابتياع لوازم معيشتهم !! ثم قال : إن لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوعة في طباع البشر ، فمن الأقوام من يعيشون في أرضين دائرة بالخيرات ، وتتوافر لديهم الآلات ، فتكثر عندهم الحبوب والثمار ، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من

القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشى وألبانها ، وتقلّ عندهم الأخطا . قال : وإن قلّة الأخطا تزيد الناس بسطة في العلم والجسم . فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى ، وأكثر تناسبا ، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجاً ، وأذهانهم أشد لحظاً وثقوباً .

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التي يكمل بها الإنسان . وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسذاجة المعيشة ، ورغم أنه كان مترفاً متبحراً في العلوم ، عارفاً بقدر الصناعات ، تراءى يحمداً دائماً معيشة البداوة ، ويراهما أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وهو يقول : إن البداوة أصل ، والحضارة فرع وإن الأمصار إنما عمرت بأهل البادية ، وإن هؤلاء هم أحسن أخلاقاً من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم . والحال أن أهل المدن ينغمسون في النعيم ويتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وأموالهم ، فالمدن والخواضر تعيش في ظلال حمايتها وأسوارها ، بينما سكان البوادي يأفون من السكنى وراء الأسوار ، وتحت خفارة الجنود ، ويرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، وهم دائماً على حذر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً ، لأنهم أبداً يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأه هبّوا مستعدين لمقاومة الخطر الواقع ، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة .

والذي يظهر من كلام ابن خلدون ، أنه كان نزاعاً إلى المجد ، ميّالاً بطبيعته إلى الاستقلال وشمم الأنف ، وهو يقول : إن الشعوب لا ينبغي أن تكون على العموم سلسلة القياد ، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك ، ويقول أيضاً إن القبائل التي ليس لها حظ من المدنية هي أقوم على فتح الفتوحات من غيرها ، ولقد ساق الله تعالى بني إسرائيل إلى الصحراء وأخرهم في بادية التيه أربعين سنة حتى يعتادوا الاستقلال ويتمكنوا من فتح أرض الميعاد . وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر ، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثم تكتمل ثم تدخل في سن الشيخوخة — أي تهرم — ثم تأخذ بالتردى — أي أرذل العمر — وهو يعرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها وهنا قد قصر ابن خلدون كثيراً من آمار الدول . ثم يقول : عند ما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادي إلى الخواضر ، يأخذون بعادات أهلها الذين يكونون تغلبوا

عليهم . فلما تغلب العرب على فارس ، وكانوا يجهلون ما آخذ الحضارة ومنازعها ، قيل إنهم وجدوا في مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها ، ووضعوا الكافور في المعجين مكان الملح ، ثم تعلموا دقائق المدنية شيئاً فشيئاً من الفرس ، ولكن هذه الخشونة لا يطول في العادة أمرها ، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف ، ولا يلبثون أن يتأقنوا في المأكل والمشرب ، والملبس والمفرش، والمركب واتخاذ الآنية النفيسة ، وامتداد البسط الوثيرة ، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بد من أنواع الصناعة ، وإفنان الفنون وكل ما تعددت أسباب الترف تعددت الصناعات بقدرها .

قال : وإذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف ، وأخذ حكام الاطراف بالتمرد عليها . والخروج عن طاعتها . وقال : إن تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر ، وذلك لأن بناء المدن يستلزم إيجاد الصنائع ، والعملية الذين لا مفرّ لهم من أن يفيثوا إلى ظل نظام ثابت . وهنا يتكلم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة ويقول : إن تقدم الصناعة إنما يكون على نسبة استتجار العمران ويقول : إن الصناعات المبنية على الضرورات كالخياطة والحداة والنجارة الخ تيسّر في كل مكان . ولكن الصناعات التي تتعاق بالترف لا توجد إلا في المدن التي قد زخر عمرانها ، ففيها تجد الصاغة والزجاجين والعطارين والطباخين وما أشبه ذلك . وفي المدن وحدها توجد الحمامات التي هي من لوازم الترف ورفاهة المعيشة .

قال كارادوفو : إننا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون في جميع آرائه وتعليقاته العلمية للقضايا التي تلقف كرة البحث عنها ، ولكنه على كل حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادئ ، ملازماً لتحقيقاته ، وفي الغالب كان على أثر سديد وكانت له نظرات صائبة وكثيراً ما يأتي في مباحثه بالادلة المقانع والشواهد على آرائه ، وقد يستشهد بالكتب التي يستظهر بها ويسمّيها ويذكر أسماء العلماء الذين يتوكأ على أقوالهم . فقدم ابن خلدون تشتمل على مباحث قيمة في السياسة ، والزراعة ، والنجارة ، والنساجة والخياطة ، وفن البناء ، والطب ، والتوليد ، وغيرها ، وكذلك تبحث في الموسيقى

والوراقة ، والعلوم القرآنية ، والعلوم العددية ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، والكيمياء والمنطق ، والنحو ، والبيان ، الخ . فهذا التنقيب الذى نقبه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها فى جميع مناحى العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الأفرىقى الذى عاش فى القرن الرابع عشر نداءً لأعظم فلاسفة أوروبا الحديثة انتهى ملخصاً .

ولندكر الآن على وجه الاجمال مَنْ من الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية ، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول :

إن القسم السياسى من فلسفة أفلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائى الحافظ للمجتمع الانسانى الكافل لانسجامه . وهو يرى أن المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة » . وفى كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشرى يقول فيه : إن المدنية إنما هي وليدة الحاجة ، وهي فى الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . وإن هذه الوسائل لا تنهياً إلا بتوزيع الأعمال . ففى اجتماع عدة أشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج اليه الآخرون فهذه هي المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشئ كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . إذ المدنية ليست بمجتمع أشخاص متماثلين متساوين فى كل شئ ؛ بل هي بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلاً يأتى المتخصص بعمل السكك الزراعية ، وبجانب أصحاب المحاصيل تأتى الطبقة القائمة بالأخذ والمطاء فى البر والبحر . وهذا إتقان للعمل وإكمال له ، ولكن المبدأ الأصيل واحد . ثم إن هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسمة المجتمع و يصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة إذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس أو الحفظة تهيمن على إجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث أى المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كل مدنية .

ويقول أفلاطون : إنه لا يجوز استغلال مدنية لفائدة شخص واحد ؛ وإن المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة ، وإنما هو إسماع المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فإذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأى أفلاطون أن احتياجات المجتمع المنظم يجب أن ينظر فيها إلى طبيعة الخلق إذ مهما كان الثقاف ذا تأثير فإن الأصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندي ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : إن أقسام هذه الغرائز في البشر هي تحت تأثير البيئات التي يعيشون بها ، فالعلوم الحسائية التي تدرج بعض الناس إلى الفلسفة هي عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة في التحليل لا في العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأي إلا تعسفاً .

ويوصي أفلاطون كثيراً باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذكاء الخ . ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده ويحصر حركته في هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . وإذا تأمل القارىء في عقلية أفلاطون الاجتماعية وجدها داخلية في علم النفس ، وفي علم الاخلاق ، فهو يذكّر الاحوال لا على ما تكون عليه في الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبي محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية في البشر حتى يأتى العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردى ؛ ويدخل أفلاطون حينئذ في شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم أن نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد إلا إجمالاً . وإنما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجر المدنية عن التردى ، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح ، إنما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء ، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تبلغ المدنية السعادة إلا إذا كان الفيلسوف ملكاً ، أو الملك فيلسوفاً . ومن رأى أفلاطون أن كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطواريء .

وإن السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بها في كل زمان ومكان . ويترب على رأى أفلاطون هذا أن رجل الدولة يكون أحياناً فوق القواعد والاضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية أنها مجمع منازل وعائلات تتوخى في معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف أفلاطون في حصره المدنية بتوزيع الأعمال ومجرد المبادلة ، ويقول : إن الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وإن علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الكافلة للوصول إلى هذه الغاية وهو يأتي بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيتات . ومن رأيه أن الاستقلال الزراعى هو شرط في صحة الأخلاق ، وأنه كلما استقلت مملكة عن غيرها في احتياجاتها المعاشية استقلت في أمورها السياسية والعكس بالعكس ، وكلما أكثر أخذ المملكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسى وتعرضت للحروب ، وهى حقيقة قد انطبخت حتى احترقت ، وقضية قد ابتقرت حتى انفاقت . فالأمة التى ليس لها استقلال اقتصادى هيئات أن يتم لها استقلال سياسى .

ومما يذهب إليه أرسطو أن الرق أمر طبيعى لا ينبغي التعجب منه ، وأن الطبيعة في قسمتها البشر إلى طبقتين سادة وأرقاء ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد في آسيا في الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمكنه أن يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فالليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو في ذلك أشد المبالغة ورأى الناس في رأيه هذا مجرد تسويق وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر في الشرق .

أما اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا كثر فيهم الحكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو :

في الأقاليم الرابع أعدل العمران ، والذي حَقَّاقِيهِ من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والاقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، حتى النبوات فانما توجد في الأكثر فيها . ولما نقف على خبر بعثة في الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التي فيها الحر الزائد ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وخلقهم « اهـ هذا وأن أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية ، وهي أنه لا بد لكل عائلة من رأس ، وأن هذا الرأس هو الرجل الذي يدبر النفوس القاصرة أي نفوس النساء والأولاد . ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقاء ، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة . ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة ، بل كان حكمه عليها حكم الوالي على رعيته ، وفي العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية .

ثم إن أرسطو لا يمد في الوطنيين الأحرار طبقة الصنائع والأكرّة ، بل يقول إن أعمال هؤلاء خسيصة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة ، وللاشتغال بسياسة المجتمع . وهذا القول مردود من جهة شقه الأول ، وهو ممارسة الفضيلة التي تكون عند الصنائع والزراع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثاني وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فإن هذه الطبقات قلما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجال الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، وإنها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأصلاء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة في الثروة تؤدي إلى الحكم المطلق المنحصر في بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هي تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلي بمكارم الاخلاق وذلك لا يكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض

شروط اقتصادية لامناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التي لا تقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها . فهي بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولا تقصد الاجتماعات الشعبية إلا عند الضرورة . أما إذا وجد في المجتمع من يستغنى عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فإن الديمقراطية تضعف في مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي في مبادئ العمران أيضا وأجاد وأفاد ونقل كارادو و أكثر نظرياته السديدة في المدنية . ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسي المتوفى بعد زمن الفارابي بقرن واحد قال : أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلاني المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر ، فبذل جميع أهل الاسلام فيها ، وأتى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرها وقرب تناولها ، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الإشارة ، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل ، وإنحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وأفاد وجود الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية السكافية ، والنهاية الفاضلة . ثم له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم^(١) والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه . وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس^(٢) يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة ، والتحقق بفنون الحكمة ، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً ؛ وبين كيفية التدرج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً (إلى أن يقول) : ثم له بعد هذا في العلم الالهي والعلم المدني كتابان لا نظير لهما ، أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة »^(٣) عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهي

(١) وقد طبع في مصر حديثاً (٢) وهو مطبوع في مصر أيضاً

(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة

على مذهب أرسطاطاليس في مبادئ السنة الروحية ، وكيف تؤخذ عنها الجواهر
الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرف فيها بمراتب الإنسان
وقواه النفسانية ، وفرق بين الوحي والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة
واحتمياج المدنية إلى السير المملوكية ، والنواميس النبوية . انتهى . ولكن ليس من هؤلاء
واحد لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابي يعدّ واضعاً لعلم فلسفة التاريخ الذي هو
حق وليّ الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب بل مفخرة الإسلام كله .
ولقد كان محرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا
العبقري العظيم ، إلى أن كنت أطلعها المرة بعد المرة ، وفي كل مرة أجد لها طلاوة
لا تمثّل وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لي في الأول ، وأشرف منها
على آراء طريفة ، ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها في غير هذه المقدمة
التي لا تخلق ديباجتها ولا تذهب بهجتها . وكأني استبرأت بطول الزمن الكتب
العربية المعروفة فكنت أرجع في النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد أمنيته
إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسقي غيثاً
لا يطره غير ذلك العارض ، ولم يكن إعجابي بما في كلام ابن خلدون من مبادئ
سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يمزّ وجودها في كتب غيره من أساطين
الحكمة ؛ بأقل من إعجابي ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى
كأنه يخطب من فوق منبر ، ويصول في المواضيع صولة عضنفر ، فينزل بيانه من
نفوس الأدباء - الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه - المنزلة التي لا تعلوها منازل
الأقمار ، في أعين السمار . فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع
على أسلوبها في الانشاء العربي دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات
سنّية ، وعلوم جمّة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لسكانت
مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة في فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من تفانيس ما كتب
العرب ، ولعل عشق أسلوب هذا الامام في كتابة التاريخ ، وغرامى بطريقته في
تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً في ملكتي بلغ من العمق أنه

قلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكارى والافضاء بجلاجل نفسى ، وخوانس صدرى ، إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون . أقول هذا وإن كان المشبه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاوّل . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلاً وشيخاً ، وبقيت أنظر إليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامى بمحاسنها ، ولكنى لم أكن مطالعاً من التاريخ الكبير إلا لمحات يسيره ، وربما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر مما طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير ، فما زال يحز في صدرى أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق ، وعدوّاء الأشغال تعدو عن هذه الأمنية ، وتحول بينى وبين هذا الغرض المُلحّ ، والوجد المبرّح ، إلى أن جاءنى في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن السكتبى النبیه الساعى في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمد المهدي الحبّابى » أخذ الله بيده ، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرزة بالحواشى القيّمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم ، مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرح عن مداها البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر مهاباً في صعيد ، أعني كلا من المحققين الكامنين ، والجهابدين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسى الفهرى ، وعبد العزيز بن ادريس زين الله بمثلها مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامها مربع العربية اذا جدّ ب ، فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر ، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر بذهاب الصبر ، وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدنى أن أعلق أنا أيضاً على هذا التاريخ حواشى بما يعنى لى من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أواقفه . وأفارقه في وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدى من النظريات المصرية في علم الاجتماع ماتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه .

وقد صادف محيىء هذا الاقتراح أنى كنت من « الحلال السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » فى شغل شاغل عما سواها أ كاد أنوءبها وحدها فضلاً عن أن أتعدها فاعتذرت عن خوض هذا البحر المعجاج وقلت : من ذا الذى يجرى مع ابن خلدون إذا أقرَّ أنملَه على مَهْرَق ، وقد خاب من يساجل البحر الخضم ، ومن يزحم البحر يفرق . فما زال بى إبرام الاخوان وإصرارهم ، وإيرادهم فى هذه الحاجة وإصدارهم حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلّق بعض الحواشى على بعض المظان ، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد ، ومكتفياً من القلادة بما أحاط بالجد ، ولما كان قد ورد فى متن المؤلف ذكر الأمم الكبار ، ومن جملتها أمة الترك علق تحت هذه اللفظة خلاصة صافية فى نسب هذه الأمة وأوليائها ومصايرها ، ثم لما كان لا بد فى هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بنى عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الإسلامية ردحاً من الدهر ، دخلت فى هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الاجمال سبيلاً ، فاذا بى مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلص من هذا التاريخ إلا فى مجلد كبير ، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض ، وشجعت عروقها ، وامتدت شماريحها ، من حدود المغرب الأقصى غرباً إلى بحر الخزر شرقاً ، ومن أواسط أفريقية جنوباً ، إلى المانيا وبولونيا شمالاً ، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفتى الليل والنهار ، ففضيت فيه متوكلاً على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً فى الوصف الحد المتوسط ، متجانفاً عن خطى المفرط والمفرط ، ولا أظن كتاباً قد وُضع فى العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لاسيما فى العصر الحاضر . فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ، ريثما أكون عرفت ما يجب أن أملكه فى هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد ، والله أسأل العون والتيسير ، إنه تعالى من وراء السداد .

الصقالبة

تعليق على ماجاء بسطر ١٥ صفحة ١ جزء أول من ابن خلدون

الصقالبة هم الأمة التي يقال لها السلاف ، وهم أمة عظيمة من الأمم التي يقال لها هناك « القند » أو « القنيد » Wendes ou Wenedes واستقر آخرون على شواطئ البحر الأسود وضاف الطونة ، ويقال لهؤلاء « Jazyges » و « باستارن Bastarnes » و « روكسولان Roxolans » وأول من سماهم السلاف « چورناندس » المؤرخ القوطي ، ومعنى السلاف الشرفاء ، وقد انتهى هذا المعنى بأن يفهم منه الأمم المستعبدة ، وانقلب عن معناه الاصلى فجاء من لفظة السلاف « Slaves » لفظة إسكلاف « Esclaves » ومعناها عبد . وأيام زحفة البرابرة الكبرى على الدولة الرومانية كان السلاف ينقسمون إلى سلاف غربيين وهم التشيك الذين سكنوا بوهيميا ، والبوليز الذين سكنوا بولونيا ، والليتون أهل ليتوانيا ، والموراف أهل مورافيا ، والسوراب أهل بوميرانيا وبراندبورج ، والسلاف الشماليون : وهم الذين منهم الشعب الروسي ، والسلاف الجنوبيون : وهم الذين عبروا الطونة وسكنوا على شواطئ بحر الأدرياتيك ، وهم البشناق ، والصرب ، والحزوات ، والاسكلافون . وأول ما عرف العرب هذه اللفظة كان بسبب مجاورتهم للدولة البيزنطية وكانت كثيراً ما تمتد سلطاتها على السلاف الجنوبيين ، ولما كان العرب لا يوجد عندهم حرف الثاء الفارسية ، وكانوا يقابلونها باء ، فلفظوا الاسكلافون أصقلابون ومنها جاءت لفظة صقلبي وصقالبة . ولما كانوا في القرون الوسطى يسترقون منهم فقد صار الصقلبي بمعنى رقيق كما هو في اللغات الافرنجية . وقد جاء في اللسان العربي أن الصقلاب هو الرجل الأبيض ، وقيل هو الرجل الأحمر ، وأنه قيل له صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة كما في معجم البلدان ، وقال المتنبي في وصف حرب بين سيف الدولة وملك الروم :

يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها وتجمع الآجالا
 فمن هنا يعلم أن الصقالبة والبلغار مثل اليونان كانوا يخضعون لملك الروم ، وأن
 العرب القدماء لم يكونوا يقولون «سلاف» بل صقالبة للجميع ، سموا الجميع باسم البعض
 الذين كانوا على شطوط الادرياتيك ، والآن الصقالبة هم الروس ، والاوكرانيون
 والروتينيون ، والروس البيض ، ويقال لهم صقالبة الشرق . وقسم من البلغار ، وجميع
 الصرب ، والحزوات ، والبوشناق ، والسلوئين ، ويقال لهم صقالبة الجنوب
 والبولونيون ، والقنيد ، والسلوفاك ، والتشيك ويقال لهم صقالبة الغرب ، وأكثر
 الصقالبة تابعون للكنيسة الشرقية ، ماعدا البولونيين والتشيك والسلوئين والحزوات
 فانهم كاثوليكيون ، ومن الصقالبة مسلمون وهم البشناق .

إغريقية هي ما يسميه الاوروبيون « إغريق » والافرنسيس يقولون « غريس »
 والألمان يقولون « غريش » . وهي تطلق على البلاد الممتدة من شبه جزيرة البلقان
 إلى الجنوب بين بحرى إيجه والادرياتيك ، فهي شبه جزيرة صغيرة ناتئة عن شبه
 جزيرة كبيرة . والقسم الشمالى منها يقال له تساليا والقسم الجنوبى يقال له بيلوپونيز .
 ومن جملة أقسامها البلاد المسماة إبير ، وبيوسية ، وايونية ، وأتيكيا ، على جانب البحر .
 ولجاورة أيونية والاتييك للبحر كانتا أول البلاد اليونانية التى تلقت المدنية من الشرق
 فان الشرق هو أصل مدنية اليونان ، ومن لفظة يونية جاءت لفظة يونان التى عمت
 الجميع فيما بعد فى عرف العرب .

ويقال لليونان الهيلانيون أيضاً ، ولا يوجد أعرق فى الظلمة من تاريخ أوائل
 اليونان ، إلا أن المؤرخين بحسب ما عثروا عليه من الآثار يؤكدون أن اليونانيين
 هم من أصل آرى ، وأول اسم عرف من أسماء الأولين من سكان هذه البلاد هو
 اسم البيلاجيين « Pélages » ثم عرفت أسماء الليليجيين « Lélèges » والكاريين
 « Cariens » ثم « الآشين Acheens » ثم « الدوريين Doriens » .

الأنساب

تعليق على ما جاء بسطر ٧ صفحة ٢ جزء أول من ابن خلدون

إن علم الأنساب هو العلم الذى يبحث فى تناسل القبائل والبطون من الشعوب وتسلسل الأبناء من الآباء، والجدود، وتفرع النصوص من الأصول فى الشجرة البشرية بحيث يعرف الخلف عن أى سلف انحدر، والفرع عن أى أصل صدر، وفى هذا العلم من الفوائد النظرية والعملية، بل من الضرورات الشرعية والاجتماعية والأدبية والمادية، ما لا يحصى. فليس علم الأنساب بطراز مجالس يتعلمه الناس لمجرد الاستطراف أو للدلالة على سعة العلم، وإنما هو علم نظرى عملى معاً. عملى لأنه ضرورى لأجل إثبات المواريث التى يتوقف توفيرها لأهلها على ثبوت درجة قرابة الوارث من المورث، وهذا لا يكون إلا بمعرفة النسب.

وكذلك هو ضرورى لأجل الدول الراقية المهذبة التى تريد أن تعرف أصول الشعوب التى اشتملت عليها ممالكها، والخصائص التى عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها، فكما أن العالم المتمدن يعنى بتدريس جغرافية البلدان من جهة أسماء البلاد ومواقعها وحاصلاتها وعدد سكانها ومقدار جباياتها، فإنه يجب أن يعنى بمعرفة أنساب أولئك السكان وطبائعهم وعاداتهم وميزة كل جماعة منهم، وغير ذلك من المعارف التى لا يجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية، ولما كان من الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكام، كما هى مقررة عند الأدباء والشعراء، أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية، والدماء الجارية فى العروق، فقد كان لابد من معرفة الأنساب حتى يسمى كل فريق فى إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب استعدادها الفطري، لأن الاجتهاد فى تنمية القرائح الطبيعية

والمواهب اللدنية لا يمكن أن يثمر ثمره في قبيل إذا جاء معاكساً لاستعداداته الفطرية وهذه الاستعدادات أحسن دليل عليها هو علم الأنساب .

وليس هذا العلم منحصراً في العرب - كما يتوهم بعضهم ويظنون أن سائر الأمم قليلة الاحتفال به - فإن الأمة الصينية الكبرى هي أشد الأمم قياماً على حفظ الأنساب ، حتى أنهم ليكتبون أسماء الآباء والجدود في هياكلهم ، فيعرف الانسان أصوله إلى ألف سنة فأكثر . وقد تناهوا في الاعتناء بهذا الأمر إلى أن قدسوا آباءهم وجدودهم ، وعبدوهم كما يعبدون آلهتهم . وكذلك الافرنج كانت لهم عناية تامة بالأنساب في القرون الوسطى والأخيرة ، وكانت في دولهم دوائر خاصة لأجل تقييدها وضبطها ، ووصل آخرها بأولها ، وقد بقي ذلك معمولاً به إلى أن ساد الحكم الديموقراطي في أورو با فضعف عندهم الاعتناء بهذا الأمر بالغاء الامتيازات التي كان يتمتع بها النبلاء ، وكانوا يدققون في الأنساب من أجلها ، وبقي الاهتمام بالأنساب من الجهة العلمية لا العملية .

فأما العرب فلا شك في أنهم في مقدمة الأمم التي تحفظ أنسابها ، وتتجنب التخليط بينها ، فلا تجعل الأصل هجيناً ، ولا المهجين أصيلاً ، ولا تحتقر قضية الكفاءة في الزواج ، بل تعض عليها بالنواجذ . ولا يقيم العربي زناً لشيء بقدر ما يقيم للنسب لاسيما في البوادي التي اقتضت طبيعة استقلال بعضها عن بعض ، وتنافسها الدائم فيما بينها ؛ أن كل قبيلة فيها تعرف نفسها ، وتحصى أفرادها ، وتحفظ بطونها وأفخاذها حتى تكون يداً واحدة في وجه من يعاديه من سائر القبائل . فاقضى ذلك أن يكون العرب علماء بأنسابهم ، يحفظون سلاسلهم العائلية بصورة مدهشة لاتجدها عند غيرهم ، فتجد البدوي أحياناً يجهل أقرب الأمور إليه ، ولكنه إذا سأله عن أبيه وجده ومنتهبه فانه يسرد لك عشرين اسماً ولا يتتبع .

وأما في الحواضر فليس الأمر بهذه الدرجة من الضبط ، وذلك لعدم الاحتياج الذي عليه البوادي من هذه الجهة ، فإن الحواضر مشغولة بصناعاتها ومهنها ومتاجرها ومكفولة بالسلطان الذي يغنيها عن تماسك الفصيلة أو القبيلة ، وعن اعتناء كل فريق

بجمع أفراده ليقف في وجه عدوه . وكما استبحر العمران في مصر من الأمصار قل الاعتناء بالأنساب ، وصار الناس ينسبون إلى حرفهم ومهنتهم ، أو إلى البلاد التي جاءوا منها . وكما قرب المجتمع من حال البداوة اشتدت العناية بالأنساب ، واستفحلت العصبية التي هي من طبيعة الاعتناء بالنسب . وقوانا إن البوادي أشد من الحواضر عناية بهذا الأمر لا يعني أن الحواضر العربية لا تقيم للأنساب وزناً ، فالعرب غالب عليهم الاحتفال بالنسب حاضراً وباديهم ، وأبناء البيوتات منهم ، ولو كانوا في أشد الحواضر استبحار عمارة يحفظون أنسابهم ويقيّدونها في السجلات ، وكثيراً ما يصدقونها لدى القضاة بشهادات العلماء الأعلام والعدول ، ويسجلونها في المحاكم الشرعية . وإذا كانوا من آل البيت النبوي - وهو أشرف الأنساب بالنظر إلى اتصالهم بفاطمة الزهراء التي هي بضعة الرسول عليه السلام ، وهو أشرف الخلق - حرروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف ، وكتبوا به الكتب المؤلفة ، وهذا أمر بديهي لانزاع فيه ، لأن هذا الشرف هو مما يتنافس به ، ومما يستجلب لصاحبه مزايا معنوية ، وأحياناً منافع مادية ، فلا يريد منتسب إلى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه . ولئن كان البيت النبوي هو أشرف الأنساب بالسبب الذي تقدم الكلام عليه فليس سائر بيوتات العرب من ذراري الملوك والأمراء ، والأئمة والعلماء والأولياء بأقل حرصاً على حفظ أنسابهم من آل البيت الفاطمي . وجميع قریش مثلاً سواء كانوا من الطالبين أو من غيرهم يفتخرون بنسبهم القرشي ، وكذلك ذراري الأنصار من الأوس والخزرج يفتخرون بأنسابهم القحطانية ، وكذلك سلالة الملوك من لحم وغسان ، وأمثالهم من العرب القحطانية ليسوا بأقل حرصاً على حفظ أنسابهم من تلك البطون العدنانية الشريفة . والعرب بالأجمال سائرون في النسب على مقتضى قوله تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) فكل قبيلة راضية بنسبها ، تحفظ مآثر قومها ، وتعزّز بالاعتزاز إلى سافها ، مع أن القبيلة الثانية التي تنافسها تحفظ لها عورات ومعرات تعيّر بها عند المفاخرة والمنافرة .

ولشدة اعتنائهم بالأنساب تجد انتصار بعضهم لبعض على نسبة درجة القرابة

فكلما كانت القبيلة أقرب إلى القبيلة كانت أولى بنصرها ، لا يتخلف ذلك فيهم إلا لعوامل غير معتادة . ومهما اشتدت العداوة بين أبناء فخذ واحد فانهم يجتمعون بطناً واحداً على بطن آخر يناوئهم من قبيلتهم ، وكذلك تجتمع البطون المنتسبة إلى عمارة لمقاومة عمارة أخرى ، وهلم جرا . ولا بد أن ينزع عرق النسب في العربي فيميل به إلى الأقرب مهما كان هذا الأقرب بعيداً في الحقيقة ؛ فالقحطاني ينتسب إلى شعب طويل عريض يحصى بالملايين ، والعدناني ينتسب إلى شعب لا يقل عنه في العدد والمدد ، ولكن إذا اختصما في موقف من المواقف وجدت عرق العصبية نزع في كل عربي ، فمال القحطاني إلى قبائل الين ، ومال العدناني إلى قبائل الحجاز ونجد ، أي مضر وربيعة . وقد يؤاخي الفريق منهم من كان يعاديه بغضاً بفريق آخر أشد عداوة لأنه أبعد نسباً ، وعليه قول شاعرهم :

وذوى ضبابٍ مضرين عداوة قرحى القلوب معاودى الأفناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم وهو إذا ذكر الصديق أعادى
كيا أعدتهم لأبعد منهم ولقد يُجاء إلى ذوى الأحقاد

ومن أجل هذا التدقيق في قرب النسب وبعده ، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات هذا القرب وهذا البعد ؛ انقسم العرب إلى ذينك الشعبين الكبيرين عدنان ، وقحطان ، وغاب على قحطان اسم الين ، لأن أكثر منازل العرب القحطانية هي في الين ، ومن وجد منهم خارجاً عن الين كالأوس والخزرج في المدينة ، وكطى وغيرها في نجد مثلاً ؛ فأنما خرجوا بعد أن انهزم سد مأرب ، وتفرقت القبائل في البلدان .

وأشهر القحطانيين حمير ، ومنهم قضاة ، ومن قضاة بلى ، ومنهم الآن في شمالي الحجاز ، وجهينة ، ومنهم على سواحل الحجاز يبلغون ١٠٠ ألف نسمة ، وكلاب وهم في بادية الشام ، ويقال لهم اليوم الشرارات ، وعُدرة المشهورون بالعشق ، ولهم بقايا بمصر وبقايا بالشام ، وبهراء ومنهم ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، ونهد ، وجرم ، وتنوخ وهؤلاء كانوا في شمالي بلاد الشام .

ومن القحطانية كهلان ، ومنهم الأزد ، ومن الأزد غسان وكانوا بالشام ، وكان منهم نصارى ، ولذلك تجد كثيرين من نصارى سورية ينتسبون إلى غسان - أو يحبون أن ينتسبوا إلى غسان - ومنهم الأوس والخزرج في المدينة المنورة ، وقد تفرقوا في البلاد ولا يكاد يوجد منهم أحد في المدينة في هذه الأيام . ومن كهلان طيء . وهم من أكبر القبائل ، ويقال لهم اليوم شمر . و بطون طيء كثيرة منها نعل ، وجديلة ، وبنهان و بولان ، وهناء ، وسدوس ، وسلامان ، و بخت الذين منهم البحتري الشاعر ، وزبيد بضم أوله ففتح فسكون ، وكثير من قبائل الشام هي من زبيد ، وسُنْبِس ، وجرم ومنهم في بلاد غزة ومصر . وثعلبة ، ومنهم كثير في الديار المصرية . وغزية ، ومنهم بطون في العراق وفي الشام والحجاز . و بنو لام ، وهم بالعراق ومنهم الظفير ومن كهلان مُذَحِج ، ومن هؤلاء خولان ، وجنب ، وسعد العشيرة ، ومن سعد العشيرة بنو جُمَفي بضم فسكون والنسبة إليهم جعفي على مثل لفظه ، وكان المتنبي الشاعر جعفياً . ومن سعد العشيرة قبيلة يقال لها أيضاً زبيد بضم فسكون وهم زبيد الحجاز الذين ينتسب إليهم عمرو بن معد يكرب . ومن كهلان النخع ، ومنهم الأشتر النخعي عامل الامام على رضى الله عنه على مصر . ومنهم عنس ، الذين منهم عمار بن ياسر رضى الله عنه . ومنهم الأسود العنسي الكذاب . ومنهم بنو الحارث الذين يسكنون في الجنوب الشرقي من الطائف ، ومن كهلان همدان ولا يزال منهم في اليمن جموع غفيرة ، فضلا عن تفرقوا في البلاد . ومنهم الحمداني صاحب كتاب «الكليل» وكتاب «صفة جزيرة العرب» ومن كهلان كِنْدَة ، وكان لهم ملك ومنهم امرؤ القيس الكندي الشاعر ، وأبو إسحق يعقوب الكندي فيلسوف العرب . وهم متفرقون في البلاد فمنهم أناس في اليمن ، وآخرون في الشام ، ومنهم قوم يقال لهم السكون وآخرون يقال لهم السكاسك ، جاء في صبح الأعشى : أن النسبة إلى السكاسك سكسكى ، رداً له إلى أصله ، وهذا صحيح . وقبل صيدا في سواحل سورية مكان يقال له السكسكية . ومن كهلان مراد الذين منهم قاتل سيدنا علي بن أبي طالب . وأغار ، ومن أغار تتفرع بطون كثيرة مثل بجيلة ، وخثعم ، وهم متفرقون في البلاد . ومن كهلان

جذام ، وقيل إنهم من العدنانية ، ولكنهم انتقلوا إلى اليمن . وكثير من أعقاب جذام في الديار المصرية في الصعيد ، وفي الشرقية ، والدقهلية ، ومنهم بنو صخر في الشام ، ومن كهلان لحم ، وكان منهم ملوك الحيرة من بلاد العراق ، وكان منهم بنو عباد ملوك اشبيلية . ومن لحم أمراء لبنان الأرسلائيون ، والتنوخيون ، وهؤلاء على الأصح ليسو من التنوخين سكان شمالي سورية ، بل هم ينتسبون إلى جد يقال له تنوخ من سلالة اللخمين ملوك الحيرة . ومن لحم بطون كثيرة في الديار المصرية ومن لحم بنو الدار رهط تميم الداري الصحابي ، وذريته في خليل الرحمن بفلسطين ومن كهلان الأشعريون رهط أبي موسى الأشعري الصحابي . وعاملة ، ومن عاملة أهالي جبل عاملة بالشام بين صور وصيدا ، وهم شيعة الشام . إلا أن رؤساءهم بنو حلي الصغير ينتمون إلى وائل كما علمت منهم .

وأما العدنانية فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وتوارىخ العرب تتفق على أن هؤلاء يقال لهم العرب المستعربة ، وأن القحطانية هم العرب العاربة ، ولكن في مسألة القحطانية يوجد خلاف ؛ لأن بعضهم زعم أن العرب العاربة ليسوا قحطان ولكن الذين قبلهم ممن يقال لهم العرب البائدة ؛ عاد وثمود وعملق وطسم الخ . والرأي الذي عليه الجمهور أن العرب العاربة هم القحطانية ، وأن العرب المستعربة هم العدنانية ، وهؤلاء العدنانية هم سلالة اسماعيل بن ابراهيم تعلموا العربية من جُرهم الذين هم من القحطانية ، جاء إلى مكة وأقام بها واختلطوا بذرية اسماعيل .

والعدنانية هم نزار بن معد بن عدنان . ومنهم إياد الذين ينسب إليهم قس بن ساعدة ، ومنهم بنو أنمار بن نزار ، ومنهم ربيعة ويعرف بربيعة الفرس ، ومن ربيعة أسد وضبيعة وديارهم بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة ، وفي نجد كثير من ربيعة الفرس ، وأسد أكثرهم أخذاً . ومن أسد بنو عنزة ، وكانت منازلهم خير من ضواحي المدينة . ثم رحل قسم كبير منهم إلى بادية الشام ، وهم أكثر عرب هذه البادية . فمنهم الرولة ، وولد علي ، والمُعجل ، والحسنة ، ويقال لهؤلاء ضننى مسلم ثم السبعة ، والفدعان ، ويقال لهم ضنى عبيد . وآل سمود الذين منهم ملك الحجاز

ونجد عبد العزيز بن سعود في هذا العصر ليسوا من عنزة ، ولكنهم مجتمعون مع عنزة في ربيعة . ومن ربيعة جديلة ، وكانت ديارهم بتهامة . ثم خرجوا إلى البحرين ومنهم فريق في الجزيرة الفراتية ، ومن جديلة بنو وائل ، ولوائل بكر وتغلب ، ومن تغلب بن وائل كليب الذي قتله جساس واشتعلت لأجله الحرب المعروفة بالسوس . وكان الحمدانيون ملوك حلب قديماً من تغلب ، وكان من تغلب نصارى كما كان من غسان ، ولما ظهر الاسلام أسلم منهم أناس ، وبقى الآخرون متمسكين بنصرايتهم وأبوا أن يدفعوا الجزية كسائر النصارى بحجة أنهم عرب ، وأصر سيدنا عمر على أخذها منهم ، وكان سيدنا على فكر في منعهم من تنصير أولادهم وذلك حتى ينشأ أحداً منهم في الاسلام . ولهم حكم خاص في الفقه الاسلامي ، واختلفت في شأنهم الأقوال ، وجاء في فتوح البلدان للبلاذري عن ابن عباس قال : لا تؤكل ذبائح نصارى بني تغلب ، ولا تنكح نساؤهم ، ليسوا منا ولا من أهل الكتاب وتظاهرت الروايات على أنه لما أراد عمر أخذ الجزية منهم لحقوا بأرض الروم ، فقال زرعة بن النعمان لعمر : أنشدك الله في بني تغلب فانهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم . فأرسل عمر في طلبهم فردهم ، وأضعف عليهم الصدقة . وكتب عمير بن سعد إلى عمر يسأله رأيه فيهم لانهم هموا باللاحاق بمملكة الروم ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمة وأرض ، وإن أبوا ذلك حاربهم حتى يبيدهم أو يسلموا ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة ، وقالوا « أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا » .

وقال الزهري : « ليس في مواشى أهل الكتاب صدقة إلا نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشى ، فان عليهم ضعف ما على المسلمين . وكان عثمان رضى الله عنه أمر أن لا يقبل من بني تغلب في الجزية إلا الذهب والفضة ، فجاء الثبت أن عمرأ أخذ منهم ضعف الصدقة فرجع عن ذلك ، واتفقوا على أن سبيل ما يؤخذ من أموال

بنى تغلب سبيل مال الخراج ، لأنه بدل من الجزية . وبالاختصار أبت بهم عروبتهم أن يؤدوا كنفارى الأعاجم ، وأبى الخلفاء الراشدون أن يعاملوهم معاملة المسلمين فوجدوا لذلك طريقاً وسطاً .

ومن بنى تغلب الأخطل التغلبى الشاعر النصرانى المشهور وهم كثيرون فى نجد . وأما بكر بن وائل فمنهم شيان ، ومنهم بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب وأكثر سكان الرياض عاصمة نجد اليوم من بنى حنيفة ، ومن بكر بنو عجل بن لجيم وأما القسم الثانى من العدنانية فهم سلالة مضر بن نزار ، ويقال مضر الحمراء ولذلك تجتمع عدنان كلها فى ربيعة ومضر .

ولمضر فرع جمع عدة قبائل وهو قيس ؛ ويقال له قيس بن عيلان بن مضر وقيل هو قيس بن مضر لصلبه وعيلان مضاف إليه ، قيل فرسه وقيل كلبه . ولكثرة بطون قيس غلب على سائر العدنانية ، حتى صار فى مقابل اليمن كلها ، فصاروا يقولون قيس ويمن ، وفى جميع الديار الشامية انقسم العرب إلى قيس ويمن ، وكانت حروب القيسية واليمنية فى لبنان متصلة وانتهت بواقعة عين دارة منذ ٢٢٥ سنة . وأما فى فلسطين فلا تزال هذه القسمة موجودة . وأما فى الأندلس فكانوا يقولون المضرية واليمنية ، ومن أشهر قبائل قيس هوازن ، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ، ويقال لهوازن اليوم عتيبة . وهم من أكبر قبائل العرب منهم أناس فى الحجاز وآخرون فى نجد . وينقسمون اليوم إلى فرعين ؛ الروقة ، والبرقة وبعضهم يرى أن أحد الفريقين وهو البرقة من عامر بن صعصعة . ومن هوازن بنو سعد الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم رضيعاً فيهم . ويقال لهم بنو سعد بن بكر ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم فرقة بنواحى باجة من المغرب . ومن هوازن بنو عامر بن صعصعة . ومنهم بنو كلاب ، وكان لهم فى الاسلام دولة باليامة ، ثم انتقلوا إلى الشام وملكوا حلب مدة من الزمن . ومن بنى عامر بن صعصعة بنو هلال وهم أشهر قبائل العرب . وكانوا فى الحجاز ونجد . وقد انتقلوا إلى المغرب فملاؤه . ثم إن قبيلة حرب الكبيرة فى الحجاز من بنى هلال ، وهم بطون ثلاثة ؛ بنو مسروح

وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . هكذا في صبح الأعشى . وأما في كتاب « الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » فقد جاء في الصفحة ٣٧٢ ذكر قبائل الحجاز النازلة بين الحرمين ، وقد كنت نقلتها عن سجلات الحكومة في المدينة المنورة فهناك أقول : « أهم هذه القبائل حرب ؛ وهم بنو حرب بن هلال بن عامر بن صعصعة من العرب العدنانية . وحرب خلف أربعة أولاد : سالم ، ومسروح ، وعبد الله وعمرو . فمسروح أكثرهم ولداً ، وقد دخلت بطون بني عبد الله وبنو عمرو في مسروح » أما صبح الأعشى فيقول نقلاً عن الحداني أنهم ثلاثة بطون ؛ بنو مسروح وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . وقال : إن من حرب زبيد الحجاز ، وذكر أن منهم بني عمرو . ومنازل مسروح من مكة إلى المدينة المنورة وعددهم يزيد على ستين ألف نسمة . وأما بنو سالم من حرب فمنازلهم من مكة إلى المدينة إلى وادي الصفرة إلى الحديدة إلى ينبع البحر ، وهم يزيدون على خمسين ألفاً . فحرب إذا اجتمعت تزيد على مائة ألف نسمة ، وكان شيخ مشايخ حرب خلف بن حذيفة الأحمدى ، وكان ناصر بن نصار الظاهر ، ومنصور الظاهري ، من مشايخ المرواحة من بني سالم من حرب . وبنو مزينة الذين بأطراف المدينة والذين منهم زهير بن أبي سلمى المزني صاحب المعلقة ؛ داخلون الآن في بني سالم من حرب . والحال أن مزينة في الأصل هم بنو عثمان وأوس ابني عمرو ابن أد بن طابخة ، واسمهم عمرو بن الياس بن مضر على ما في صبح الأعشى . وكان شيخهم حجاب بن بنحيت معدوداً من مشايخ المرواحة من بني سالم إلى آخر ما ذكرناه من أسماء شيوخ حرب في العصر الأخير .

وأخبرني العلامة النسابة الشيخ عبد الله بن بلهيد قاضي قضاة المملكة السعودية أن ما ذكرته عن قبائل الحجاز هو أصح ما اطاع عليه في هذا الباب . ومن بني عامر ابن صعصعة أيضاً بنو عقيل ، وكانت مساكنهم بالبحرين ، وكانوا أعظم القبائل هناك واجتمعوا هم وبني تغلب على بني سليم بن منصور فأخرجوهم من البحرين ، ثم تغلب بنو تغلب على بني عقيل فأخرجوهم إلى العراق ، ثم عادوا إلى البحرين وتغلبوا على بني تميم . ومن بني عقيل بنو عبادة ، وبنو خفاجة في العراق ومنهم المنتفق .

ثم من بطون هوازن بنو جشم ؛ كانت مساكنهم بالسراوات بين تهامة ونجد ، ومن بطون هوازن ثقيف ، و يقال للطائف سوق ثقيف ، لأنهم سكانها ومحيطون بها من كل جهة . وفي كتابنا « الارتسامات اللطاف » استوفينا الكلام على ثقيف . ومن قبائل قيس باهلة ، و بنو مازن ، و بنو غطفان ، ومن غطفان بنو عبس جماعة عنتره الشاعر الفارس المشهور ، ومنهم أشجع ، ذكر صاحب صبح الأعشى أن منهم حياً عظيماً بسجلامة في المغرب . ومن غطفان ذبيان ، ومنهم النابغة الذبياني ، ومن ذبيان فزارة ومنهم بنو صبيح في برقة ومن هؤلاء رواحة وهيب بأرض برقة إلى طرابلس الغرب و بأفريقية والمغرب ، ومنهم جماعة بالديار المصرية .

ومن قبائل قيس بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان وكانوا في عالية نجد بالقرب من خيبر ، وفي وادي القرى وتيماء ، ولكن أكثرهم رحلوا إلى مصر ، ثم إلى برقة ، وأكثر عرب برقة منهم . ومن شاء أن يتوسع في معرفة قبائل برقة فعليه بحواشينا على « حاضر العالم الاسلامي » فانه يجد في الفصل المتعلق بطرابلس الغرب من صفحة ٦٤ من المجلد الثاني إلى صفحة ١٦٥ كل ما يلزم من المعلومات عن ذلك القطر ، ولا سيما عن القبائل بأسمائها القديمة والجديدة مما يطول بنا استيفاءه هنا . ونحن إنما ذكرنا هنا مجمل أنساب العرب على سبيل التمثيل .

ومن قبائل قيس بنو عدوان وكانوا بالطائف ، ثم غلبهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة ، و بأفريقية منهم أحياء بادية ، وفي شرقي الأردن اليوم عرب العدوان ، وهم رؤساء البدو في تلك الناحية ، ولا يعلم هل هم من عدوان هؤلاء ، أم هو اتفاق في الاسم ومن مضر الياس ، وكانت تحت خندف بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال وهي بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، عرف بنوه بها فقبل لهم خندف وغلب على سائر قيس قال الشاعر - وقد أهانه العدنانية في أسوان وأعزه القحطانية في اليمن :

إذا تم لي في أرض مارب ماربى فلست على أسوان يوماً بأسوان
إذا جهلت قدرى زعانف خندف فقد عرفت فضلى غطارف همدان

ومن الياس طابخة ، ومن طابخة هذه تميم وهي من أكبر القبائل . ومن بطون تميم بنو العنبر ، و بنو حنظلة ، ومن قبائل طابخة بنو ضبة الذين منهم ضبة الذي هجاه المتنبي وقتل بسبب هجوه إياه . ومن بني تميم قبائل في نجد منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي ينتسب إليه أهل نجد ، فيقال لهم الوهابية . وهم يقولون لأنفسهم السلفية إشارة إلى أنهم على عقيدة السلف الصالح . ومنهم أناس في الدرعية ومنهم كثير من سكان القصيم ، ومنهم فريق في جوار حائل مثل أهل قفار والسميرة ، وقرى أخرى . ومن قبائل طابخة مزينة الذين منهم زهير بن أبي سلمى ولكنهم دخلوا في حرب كما تقدم الكلام عليه . ومن هؤلاء الامام المزنى صاحب الامام الشافعي . ومن الياس بن مضر بنو قعدة ، ثم بنو مدركة ؛ ومن مدركة هذيل ومساكنهم جبال الطائف العليا ، وقد ذكرت ذلك في « الارتسامات اللطاف » وهم مجاورون لثقيف . ولمدركة خزيمة وله فرعان الهون وأسد . ومن بطون أسد الكاهلية وهم بنو كاهل بن أسد ومن خزيمة كنانة وهم قبيلة شهيرة ذات فروع منها مديكان ، وعبد مناة ، وغفار رهط أبي ذر الغفاري . و بكر بن عبد مناة ، ومن بكر الدؤل الذين منهم أبو الأسود الدؤلي . والليث ، وبني الحارث ، و بنو مدلج و بنو ضمرة . وجميعهم متفرقون في بلاد العرب .

ومن كنانة عمرو ، وعامر ، ومالك . ومن مالك هؤلاء بنو فراس بن غنم الذين اشتهروا باعجاب سيدنا علي بفروسيتهم : (لو أن لي بالف منكم سبعة من بني فراس ابن غنم) ومن العرب العدنانية قريش ، وهم فهر بن مالك ، ومنهم بنو الحارث بن فهر ، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه وبنو محارب بن فهر ، ومنهم الضحاك بن قيس أحد الأصحاب . و بنو الجد الذين كانوا في الأندلس ، ثم صاروا إلى فاس . ومنهم الأمراء والرؤساء والعلماء هم من بني فهر . ومن قريش بنو غالب بن فهر ، ومنهم بنو لؤي بن غالب ، ومن هؤلاء بنو سعد و بنو خزيمة ، و بنو عامر بن لؤي ، و بنو كعب بن لؤي . ومن بني كعب بن لؤي هُصَيص ، ومن هؤلاء بنو سهم رهط عمرو بن العاص رضى الله عنه . ومنهم بنو جمح

ومن كعب بن لؤي بن غالب بنو عدى ، ومنهم سيدنا عمر بن الخطاب ، وسعيد بن زيد رضى الله عنهما .

ومن قريش مرة بن كعب ، ومن بنى مرة بن كعب تيم ، ومن هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق ، وطلحة رضى الله عنهما . ومن مرة بن كعب بنو يقظة ، وبنو مخزوم . ومن بنى مخزوم سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومنهم سعيد بن المسيب التابعى المشهور .

ومن قريش كلاب بن مرة ، ومنهم بنو زهرة ، ومن بنى زهرة الصحابيان سعد ابن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف من العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنهما ومن قريش قصي بن كلاب بن مرة ، ومنهم بنو عبد الدار الذين بأيديهم مفاتيح الكعبة . ومن بنى عبد الدار بنو شيبه وهم الشيبيون الذين بأيديهم مفاتيح بيت الله إلى يومنا هذا . ومن قصي بن كلاب بن مرة بنو عبد العزى . ومن هؤلاء بنو أسد الذين منهم سيدنا الزبير بن العوام أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة رضى الله عنه . ومنهم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

ومن قريش بنو عبد مناف ، وهم بنو عبد شمس بن عبد مناف ، ومن هؤلاء بنو أمية ، وهم بنو أمية الأكبر ، وأمية الأصغر ابنى عبد شمس ، ومن بنى أمية الأكبر سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن أبى سفيان . ومن عبد مناف ابن قصي نوفل ، وبنو المطلب . ومن بنى المطلب الامام الشافعى رضى الله عنه . وأما هاشم بن عبد مناف فاسمه عمرو ، وسمى هاشم لشمه الثريد أيام المجاعة ، وكان سيد قريش فى وقته . وله عبد المطلب بن هاشم ، وكان اعبد المطلب اثنا عشر ولداً عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد سيدنا على ، والزبير وعبد الكعبة ، والعباس ، والد عبد الله بن عباس ، وضرار ، وحمزة ، وحجل وأبو لهب ، وقثم ، والغيداق ، والحارث ، والعقب منهم لسته ؛ حمزة ، والعباس وأبى لهب ، وأبى طالب ، والحارث ، وعبد الله . فأما عبد الله فمن ولده سيد الوجود محمد بن عبد الله عليه السلام ، وأما العباس فمن ولده الخلفاء العباسيون ، وأما أبوطالب

فكان له عدداً من المؤمنين علياً كرم الله وجهه جعفر ، وعقيل . وذرية أمير المؤمنين من فاطمة منتشرة في جميع العالم الاسلامي . ويقال لهم آل البيت ، وهم السنام الأعلى في الشرف .

ومن خيبر إلى الحائط ، والحويط ، إلى الحرّة ، قبيلة هتيم . وليست من القبائل المعروفة بالأصالة في العرب ، ولكنها كثيرة العدد تصادم شمر ، وتصادم حرب وتصادم أية قبيلة كبيرة ، ويقال إنها نحو من مائتي ألف نسمة .

جاء في انسيكلوبيديّة الاسلام أن هتيم مشهورون بالقنص ، وأن منهم قيوناً كثيرين ، وأن بينهم وبين الشرارات مصاهرات .

ومن القبائل التي لا يختلط بها سائر العرب الصليبي ؛ ولا يعرف أصلهم . وقد ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا الصليبيين ، واستدلوا على ذلك بمشابهة الاسم والحقيقة مجهولة ولا يعادون أحداً ولا يعاديهم أحد ، وكلما وقعت واقعة بين العرب وفشت الجراحات جاء الصليب هؤلاء وأخذوا الجرحى من الفريقين ، وعالجوهم ، فهم يتخذون لأنفسهم مهنة الصليب الأحمر في أوروبا . ولذلك لا يعتدى عليهم أحد وأحيائهم آمنة .

وكل من العرب كما تقدم آناً مفتخر بنسبه ، مستمسك بأصله ، فإذا كان عدنانياً لم يرض أن يكون قحطانياً ، وإذا كان قحطانياً ساءه أن ينتسب إلى عدنان قال الشاعر :

وما قحطان لي بأبٍ وأمّ ولا تصطادني شبه الضلال

وليس إليهم نسبي ولكن معدّياً وجدتُ أبي وخالي

ومن أراد أن يطلع على سلاسل قبائل العرب وشجرات أنسابهم ؛ فعليه « بسائك

الذهب في معرفة قبائل العرب » للسيد محمد أمين السويدي البغدادي ، فهو كتاب

قد جمع فأوعى في هذا الباب . على أن إفراط العرب في التمسك بأنسابهم قد أوجد

بينهم من العصبية بعضهم على بعض ما لا يوجد في أمة سواهم ، حتى أن « دوزي »

الهولندي الممدود من أوسع المستشرقين علماً ذكر في كتابه عن مسلمي إسبانية أن

العداوة التي بين العدنانية والقحطانية قد تكون أشد من العداوة التي بين العرب والأعاجم . والحقيقة أن هذه العداوة نفسها هي التي كانت الأصل الأصيل في فقدهم الأندلس ، بل في نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم ، وكادوا يستولون على تلك القارة . وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الأجانب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومُضري ، ففشلوا وذهبت ريحهم ، واضطروا أن يعودوا من حيث أتوا . ولم ينحصر ضرر هذه العصبية في الأندلس والمغرب ، بل قد أفنت القبائل العربية بعضها بعضاً في المشرق أيضاً ، وصرفتهم عن التبسط في الفتوحات فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلوهمهمهم ؛ فقد فقدوه في منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم ، لا سيما بين هذين القبيلتين ؛ قيس واليمن . وكثيراً ما كانت تقتتل ربيعة ومضروكلا الفريقين من العدنانية ، ونظراً لكون مضر أكثر عدداً كانت ربيعة تلجأ إلى اليمن حتى تقف في وجه مضر . وكل عربي تنزع فيه العصبية إلى قومه ، فلا يسلم من ذلك أحد ، حتى الملوك والخلفاء كانوا يتمصبون للقبائل التي هم منها وهم مع ذلك سادة الجميع .

ومن الأمثال التي تدل على غلوهم في هذا الباب أن جرير بن عطية الشاعر - وكان من تميم - قال في إحدى مفاخراته للأخطل التغلبي :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا
مضراً أبي وأبو الملوك جميعهم فاعلم فليس أبوكم كأيدينا
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ضحك وقال : ما زاد ابن الفاعلة على أن جعلني شرطياً عنده ! ! ثم قال وقد نبض به عرق العصبية لمضر : أما والله لو شاء لسقتهم إليه . ولم يكن ليفت في عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الإسلامية التي جعلت الاسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة . ولذلك قيل : إن العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلى يوم القيامة ، و بأسهم أبداً

بينهم . فلما جاء الاسلام ووحد بينهم في الدين ، وقال الله تعالى : (وكنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) لم يابشوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ؛ ففتحوا نصف العالم في ثمانين سنة ، ولم يقف في وجههم شيء !! ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشدين ؛ ضعفت فيهم العقيدة التي كانت هي مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبية الموروثة عن الجاهلية ، فرجموا يقتتلون على المضرة واليمنية في الاسلام ، كما كانوا يقتتلون قبل الاسلام ، ورجع بذلك زرعهم هشياً ، وبذرهم عرجوئاً قديماً .

فكما أن الانساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح المنافس الحافز لهم على طلب الجدد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والعن التي تصدع وحدتهم وتحمّد في النهاية جبرتهم ، فأضرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون ، واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد ، وغرامها في منافسة بعضها بعضاً .

ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها ، ويتمكن بها المصاحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب تفاوتها أفلا ترى كيف ثار الألمان في هذه السنين الأخيرة ، وأوجدوا قضية النسب « الآرى » ومنعوا بجميع الوسائل اختلاط « السامى » مع « الآرى » بالمصاهرات حفظاً للنسب الذي ينتمون اليه ، والذي لا يرون لهم رقياً إلا به وضمن خصائصه . وما فعلوا ذلك إلا بناء على نظريات علمية ثابتة ، وهم وإن كانوا غلوا في هذا الأمر إلى حد أوجب انتقاد سائر الأمم لهم ؛ فلا يمكن أن يقال إن قاعدتهم هذه غير راجعة إلى أصل صحيح .

ونحن لو نظرنا إلى السبب في حفظ النسب لا نجد منه منحصراً في معرفة التاريخ ولا في الامتيازات المادية التي يحوزها أصحاب النسب في العادة ؛ ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التي تهتف بالفضائل ، والأفعال المجيدة (٢ — تعليقات)

وتركى الأنفس . فمن المعلوم أن أصل البيوت الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه ، ويبدأ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة في نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، وإنما تظهر آثارها في أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، ويشيع ذكره ، ويرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسلا اجتهد نسله أن يقتدوا به بقدر الامكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التي امتاز بها أبوهم ، ويحوزوا مثملا حازه من الشرف والسؤدد ، وتعب رهطهم في تقوية هذه الروح فيهم طمعا في استبقاء هذه الغرائز التي أورثهم إياها سلفهم وهي التي تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرذائل ، وترتفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد .

ولهذا كان من العادة أنه إذا أقدم أحد أبناء البيوت الكريمة على عمل خسيس كان أول ما يقرعه به الناس ، ويهيبون به إلى التوبة منه ؛ أن يقولوا له : أفلست أنت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك أن تفعل ما هو كذا وكذا ! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الأقوال التي تدل دلالة واضحة على أن الأصالة مفروض فيها أن تقترن بالنبالة ، وبعبارة أخرى أن الأصيل في نسبه ينبغي أن يكون فاضلا في عمله ، بارعا بأدبه . وما جاء على خلاف هذه القاعدة فيعد شادا .

فاذا تقرر عندنا هذا ؛ تقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل في المجتمع ترقى الأمة وعرجت في سلم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالبية ، لأن الأخلاق الفاضلة هي الأساس الذي يبنى عليه كيان الأمم .

وقد تقدم لنا أن الأور وبيين شديدو العناية بالأنساب ، خلافا لما يتوهم الشرقيون ، وأن الكمالة في الزواج طالما كانوا يراعونها ولا يزالون يراعونها حتى اليوم وإن كان قد خف ذلك التحمس القديم بعض الشيء ، وذلك بأن النبلاء لا يزوجون بناتهم من الطبقات التي ليست في درجتهم . وأشد الأور وبيين منعة في هذا الأمر هم نبلاء الانجليز ، الذين يأتي الأميركي المثرى فيبذل القناطير المقنطرة من الذهب حتى ينال شرف مصاهرتهم ، ولا ينالها إلا لأيا ، وكل هذا لأجل أن « يستعطر

بأنبيق ديناره دمهم الشريف في دن نسبه » كما قال أحمد فارس في « كشف المحبا عن فنون أوروبا » . وما قاله أحمد فارس من ثمانين سنة في هذا الموضوع لا يزال تصداقه جارياً إلى الآن .

وكذلك نجد النبلاء في ألمانيا وفرنسا وغيرها محافظين على أنسابهم ، مفتخرين بها ، مستظهريين على صحتها بالكتب والوثائق والشجرات التي يمتقدونها مع أنفس أعلامهم وذخائرهم ، وكثيراً ما اجتمعنا بأناس من هؤلاء يرفعون أنسابهم إلى عهود بعيدة جداً ، ويذكرون أن أصول عائلاتهم معروفة من ألف سنة ، وألف ومائتي سنة ، ولم نجد أشرف العرب أشداً اعتناءً بأنسابهم من نبلاء الافرنج ، وهم يزدوننا في شيء واحد ؛ وهى هذه الأشجرة « جمع شعار » التي تمتاز بها كل عائلة منهم وتحفظها من عهود متطاولة . ونحن العرب لا يوجد عندنا هذا الاصطلاح إلا ما ندر وأكثراً ما يكون في الاعلام والرايات . فالعباسيون رايتهم السواد ، والأمويون رايتهم بيضاء ، والفاطميون رمزهم اللون الاخضر ، وأمراء مكة رايتهم عنابية وما أشبه ذلك . فنحن نستظهر على حفظ أنسابنا بالتواريخ والوثائق والصكوك القديمة وكثيراً ما نثبتها بالحكم الشرعية ، فأما أن تتخذ كل عائلة من بيوتات العرب شعاراً خاصاً تمتاز به كما هو الشأن عند الافرنج فليس بمعهود ، وإنما جرت العادات عند العرب بأن يتخذ عشائريهم أسماء خاصة يتنادون بها في ميادين القتال ، فهؤلاء يقال لهم « إخوة بلجاء » وهؤلاء يقال لهم « إخوة شيخة » وأولئك يقال لهم « رعاة العليا » أو « فرسان الصباح » وما أشبه ذلك من الألقاب والكُنَى . فأما نبلاء الافرنج فلا تكاد تكون منهم أسرة شهيرة بدون شعار تجد صورته على آنياتها ومواعينها وحلأها وفي كتبها ، ويقال إن أصل هذا الاصطلاح عندهم هو من زمان الصليبيين . وقد غلا نبلاء الافرنج في التمسك بأنسابهم ، ورفعوها أحياناً إلى أبعد ما يكون من الأعصر ، حتى دفع ذلك العقل . وغلا أيضاً علماء الأنساب في مراعاة قواعدهم ودخل بينهم المتزلفون الوضائع الذين كانوا يتقربون إلى الأسر النبيلة بزيادة رفع الأنساب - أو بوضعها اختراعاً - حتى وقعت الشبهة في الصحيح منها ، واتهم الدسايون جميعهم بالكذب ، وفي أوروبا با مثل سائر يقولون « هو أكذب من نسابة » .

وكان يوجد عند الملوك في أوربة وظيفة اسمها وظيفة « نساب الملك » وهو ضابط من ضباط رهبانية روح القدس ، ترجع إليه مهمة تثبيت الأنساب ، لا سيما أنساب الفرسان الذين يقال لهم « شيفالير Chevalier » وذلك أن النبلاء كانت لهم حقوق لم تكن للعامة ، فكان النبيل يدخل في نظام الفرسان عند الملك مثل نظام مالطة ، وليون ، وسانت كلود ، وغيرها . فكانوا يحتفظون بأنسابهم لتكون لهم وسيلة إلى الدخول في هذه الأنظمة ، وكان للنساء النبيلات أيضاً رهبانيات يدخلن فيها ، ويلتزمّن لأجل الدخول فيها تثبيت أنسابهن .

وإثبات النسب كان عبارة عن إظهار ورقة المعمودية التي تثبت أن فلاناً هو ابن أبيه فلان ، وأن هذا هو ابن فلان وهلم جرا . وكانوا يقدمون مع أوراق المعمودية الوصايا ، وعقود الزواج ، وصكوك الشراء والبيع والهبة ، وما أشبه ذلك من الوثائق وكانوا إذا حرروا نسب عائلة وضعوا جميع فروعها في السجل ، وجعلوا بجانب كل فرع جميع ما يتعلق به من وصايا وعقود أنكحة ، وصكوك مهمة بتوارينها مع براءات الملوك المتعلقة بذلك الفرع .

وهذه البراءات هي التي يقال لها في الدولة العثمانية « الفرامين » جمع « فرمان » ومعناه الأمر ، ويقابل فرمان في الدولة المغربية « الظهير » . وكانوا في أوربة يذكرون أيضاً في سجلات الأنساب تواريخ الأشخاص المشهورين ، ومن قتل منهم في الحروب ، ويقال إن هذا الاصطلاح بدأ في فرنسا منذ سنة ١٦٠٠ وإنه من قبل ذلك التاريخ لم تكن للأنساب دائرة خاصة بل كانت الحكومة عند ماتريد التحقيق عن نسب من يُدلى إليها بطلب ترسل مأمورين إلى البلدة التي ينتسب إليها طالب الوظيفة فيسألون الشيوخ وأهل الخبرة ، ويرفعون خلاصة التحقيق إلى الحكومة .

ولما قدمت إلى ألمانيا في أيام الحرب الكبرى ، كان ممن تعرفت إليهم من العلماء مؤرخ جليل اسمه الدكتور « ستراد ونتر » وكان مديراً لمصلحة الأنساب في البلاد الجرمانية ، وقد تذاكرت معه طويلاً في مسألة الأنساب ، وذكرت له أنساب العرب وسألته عن أنساب الألمان فعلمت منه أن أقدم أسرة معروفة في ألمانيا ينتهي قدمها إلى

القرن التاسع بعد المسيح ، ولا يوجد أسرة معروفة يعرف لها نسب لأبعد من هذا التاريخ . قال : وإن الأسرة المالكة في الساكس هي أقدم بيت في ألمانيا ، ويوجد من لهم نسب إلى القرن الثاني عشر للمسيح .

وذكر لي أسراً عريقة من جملتها آل هولوهيه وكنت عرفت منهم برنساؤياً وشاهدته في الأستانة ، وتكلمنا على نسب آل هوهنزولون قياصرة ألمانيا ، وأن أصلهم من جهة بحيرة كونستاتزا في بلاد بافاريا ، ومنذ نحو من ستمائة سنة قام جدهم بخدمات جليلة للوطن فأعطاه الامبراطور سيجموند لقب شرف وجعله أميراً على براندنبورغ ، وهذا هو مبدأ سيادتهم . ومن هناك لم يزالوا يعظمون ويغالبون أمرهم ويتسع ملكهم حتى أوائل القرن الثامن - أي منذ مائتين وعشر سنوات - إذ ترقوا إلى درجة الملك ، وصاروا ملوك بروسية . وفي سنة ١٨٧٠ بعد الغلبة على فرنسا توج الملك غليوم الاول امبراطوراً على ألمانيا كلها كما هو معلوم . ومما ذكره لي هذا الاستاذ المؤرخ أنه يوجد في جبال سويسرة أسرة رومانية ، أي من الرومانيين القدماء محفوظة النسب ، يقال لها « پلاتنا » وكان ذلك متواتراً عندهم والناس تنكره ولا يجدون له سنداً حتى كشفوا بطريق الاتفاق كتابة لاتينية على حجر كان قد طمسه التراب فاذا به يؤيد تواتر نسب هذه الأسرة ، فهي الآن أقدم عائلة معروفة في أوروبا . انتهى .

وعلم الأنساب مهم جداً للتاريخ ، مشتبك به اشتباك تاماً ، لأنه به يعرف تاريخ مشاهير الرجال الذين قاموا بأدوار عظيمة في العالم ، فيقبين من هذا العلم أصاهم ، كما يتبين من التاريخ فصلهم . وكذلك تعرف من الأنساب علاقات المصاهرة ، وما يحصل بسببها من التوارث ، وما ينشأ عن هذا التوارث من دعاوى وخصومات قد تجر إلى الحروب . ولم تنحصر الأنساب في العترة الأدبية ، بل للطبقة العالية من الحيوانات الداجنة أنساب معروفة ، ولحفظ أنسابها فائدة عظيمة في تنشئة هذه الحيوانات وتنميتها ، فإن تأثير العرق غير مشكوك فيه ، وانتقال النجابة من بطن إلى بطن هذا معدود من القواعد العلمية ، وإن كان قد تعرض أحيانا عوارض تمنع انتظام سير هذا التوارث .

ومن الغريب أن الانسان قد يهمل نفسه أحيانا ، ولا يحافظ على صحة بدنه ولا على متانة عقله ، ولا يكثر لقضية تسلسل النجاسة في عرقه ، ولا لصيانة المزيا التي انتقلت اليه بالإرث الطبيعي من آباءه ؛ وبينما هو يهمل نفسه هذا الإهمال ، تجده يعتنى بحفظ نسل حيواناته حتى لا يكون الفرع مقصراً عن الأصل . ولهذا كانت أنساب الحيوانات معتنى بها في كل مكان ، وكان ذلك بها جدير ، وإن كثيراً من الكتب قد كتب لحفظ أنساب العجاوات . قال لاروس في معجمه الكبير : « إن العرب سبقوا جميع الأمم في حفظ أنساب حيواناتها ، وإذا كان الجواد العربي قد بقي محفوظا بجميع مزياه الباهرة ، فما كان ذلك إلا بطهارة أصله وصفاء عرقه منذ قرون لا تحصى ، وهذا بفضل العرب الذين وجهوا لصفاء عرق الجواد أشد الاهتمام ، وإن جميع حيوانات العرب الفارسة لها أنساب يعتنى العرب بحفظها بمزيد الدقة . قال : وليس عند العرب دفتر نفوس عمومي للخيول ، ولكن كل فرس كريم معه حجة يتبين منها نسبه ، فلا تختلط عندهم الخيل الأصلية بغيرها . أما الانجليز فقد نظموا ذلك وجعلوا للخيول دفاتر نفوس رسمية ، منها ما يسمونه « Stud - Book » يذكرون به أصل الحصان وسلسلة نسبه ، ومنها المسمى « Cing Calender » يذكرون فيها أوصاف الحصان وشيئاته . وما عملوه لأجل الخيل وحفظ أرسائها ؛ عملوه أيضا لأجل البقر ، ولأجل الغنم . ولكن الفرق بين البقر والغنم أن النسب في البقر يكون للثور بمفرده ، وأما في الغنم فلا يكون للشاة بل للقطيع كله . ويرى العلماء في تربية الحيوانات أنه لأجل إصلاح جنسها يكون ضروريا الوقوف على أنسابها » انتهى .

والانساب معروفة للهرة أيضا ، فهي كالخيل الأصلية ، كلما كان الجواد عتيق الأصل كان أحسن جريا ، وكذلك كلما كان الهر أصيلا كان أحسن صيدا للفيران . وبالأجمال إصلاح الأجناس بالتزاوج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان في الآدميين أو كان في الحيوانات الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعقتها . ولا يزال الحديث الشريف : (اطلبوا أكرام المناكح فانها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلمية ، والحقائق العالمية .

الخبرفة واشتراط القرشية فيها

تعليق على ما جاء بسطر ١٠ صفحة ٣ جزء أول من ابن خلدون

لست هنا في صدد وجوب الخلافة في الاسلام ، وهو البحث الذي وفاه علماء هذه الملة حقه ، ولم يتركوا في قوسه منزعا ، وقد قال في هذا المقام ابن خلدون والماوردي وغيرهما كل ما يجب أن يقال ، وإنما أقول : إنه اتفق المسلمون - إلا الخوارج والمعتزلة - على وجوب نصب الامام لحراسة الدين والدنيا ، فكان هذا المنصب جامعاً بين السلطة الروحية - لكن بدون العصمة التي يقول بها الكاثوليكيون في البابا - وبين السلطة الدنيوية وهي ما يسميه النصارى بالسلطة الزمنية - لكن بدون الامتيازات التي تسجلها القوانين الأوروبية للملوك - ولا نبال بما يتشدد به بعض الطاعنين في الاسلام من أنه جمع بين السلطتين فكان في ذلك عائق للمجتمع عن الترقى ، فهو قول عريق في التحامل ، يخالف لسنة الله في خلقه . إذ أن الدين متصل بالدنيا في كل مجتمع بشري ، والدنيا ممتزجة بالدين بدون انفكاك ، ولا يتصور وجود أحدهما بدون الآخر .

وقد وقينا هذا الموضوع حقه في « حاضر العالم الاسلامي » بما لاحتاجة إلى إعادته هنا ، وأثبتنا ما في جملة « فصل الدين عن السياسة » من السفسطة التي لاتستند على شيء من الواقع . لأن جميع الحكومات الأوروبية التي جعلها الشرقيون هي المُثُل العليا في العالم ، ولم يبق لهم عمل إلا أن يحطبوا في حبالها ، وينسجوا على منوالها ؛ لم تقدر أن تفصل الدين عن السياسة فصلاً حقيقياً . وغاية ما هناك أنها فصلتهما فصلاً إدارياً لا غير ، بحيث أن للأمور الدينية مراجع مخصوصة ، وللأمور الدنيوية مراجع مخصوصة . وهذا ما هو أيضاً في الحكومات الاسلامية . وقد كان في الدولة العثمانية كما يعلم كل أحد . فالصدر الأعظم كان ينظر في الامور السياسية والادارية خاصة وشيخ الاسلام كان ينظر في الأمور الشرعية والدينية خاصة ، وكل من المرجعين كان يعود إلى السلطان .

وإذا نظرنا الى أوضاع الدول الأوروبية ، نجد أن ملك انكلترة مثلاً هو في المركز نفسه ، فكما أنه ملك الأمة الانكليزية ومرجعها في الحكومة ؛ فهو رئيس الكنيسة الانكليكانية ، وبالتالي فرجع الانكليز في العقيدة . ومثل ذلك قيصر ألمانيا الذي كان رئيساً للكنيسة الاوثيرية ، فكانت له السلطة الروحية العليا لانفترق في شيء عن سلطة الخليفة في الاسلام ، وهي مجموعة فيه الى السلطة الدنيوية التي تجعل في يده زمام الأمة الألمانية في الأمور الدنيوية . ولما آل أمر الامن الى الجمهورية - وهي مؤقتة - قام مقام القيصر في الأمرين رئيس الجمهورية الألمانية . وقد زعم بعضهم أن من الدول من فصل الدين عن السياسة بالمرّة كفرنسة مثلاً ، والحقيقة أن فرانسة اتفقت مع الطبقة الاكليريكية على وضع نظام خاص يكفل راحة الفريقين ، ولكن الحكومة لا تزال هي مرجع رجال الدين عند حدوث المشكلات لما تقدم من أن الدين والدنيا في المجتمع لا يستغنى كل منهما عن الآخر . وايس في عصرنا هذا حكومات لا دينية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة سوى ثلاث حكومات ، إحداها الروسية البلشفية والثانية الجمهورية المكسيكية ، والثالثة الجمهورية التركية الكمالية . وما دامت الأمة الافرنسية تعلن عن نفسها أنها أمة مسيحية - يتجلى ذلك في جميع حرركاتها وسكناتها - فيكون مخالفاً للمحسوس الزعم بأن حكومتها في واد والكنيسة في واد !! إذاً فالاسلام لم يأت في هذا المعنى بوضع مبتدع ، بل هي سنة الله في أرضه . وما دامت الأمم لا تستغنى عن الأديان ؛ فلو كها وحكوماتها لا تستغنى عن الجمع بين الدين والسياسة . غير أن الاسلام في أصله يفترق عن غيره من الملل بأن الخلافة فيه وإن أشبهت الملك من جهة الأمر والنهي - على شرط مشاورة أهل الحل والعقد - فهي لا تشبه الملك في مزايا الترف وخصائص الالهة التي يجيزها ملوك الأمم الأخرى . وقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا المقام في « حاضر العالم الاسلامي » فقلنا في صفحة ٢٤٠ من الجزء الاول : (الخلافة في الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هي رعاية عامة للأمة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف في الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهي لا تنعقد الا بإرادة الأمة ، والسلطان الذي

يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لاسلطان له عليها الا منها . وقد فهم لو ثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم ، وعرف الخلافة التعريف الصحيح ، بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومى من الأمة إنما هو من الأوضاع الغربية الاوربية ، قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجراهم على الخلط .
 ومن أغرب الأمور أن كثيراً من الشرقيين - ومن المسلمين أنفسهم - يتابعون الافرنج متابعة عمياء في هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام في هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الاربعة - وهو أشد صور الحكم الاسلامى انطباقاً على الشرع - لرأوه أمراً شعبياً محضاً ، ووضعاً ديمقراطياً بحتاً ، وأبعد شئ عن السلطان المطلق والقرآن في هذا صريح بقوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) وقوله : (وأمرهم شورى بينهم) . نعم إن الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم إلى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات اليوم ، ولم يكن العرب لذلك العهد - بسداجة البداوة - يعرفون هذا الضرب من الترتيب ، ولكنه لا جدال في أن الخليفة لم يكن شخصاً مقدساً غير مسؤول كما هو عند الأوربيين ، ولم تكن له مزية شخصية على سائر الأمة ، وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة ، بل كانوا يلقونها عن ظهورهم إلقاء من يريد الخلاص من تبعتها ، فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتأمل في سيرة الخلفاء الراشدين ، فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام .

ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة في ما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الأمر ، جاء في « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال . حدثني قيس بن الربيع عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سلمان أن عمر قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الله بن الحارث عن أبيه عن سفيان بن أبي العرجاء قال قال عمر بن الخطاب : والله ما أدري !؟ خليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت

ملكاً فهذا أمر عظيم . قال قائل : يا أمير المؤمنين ؛ إن بينهما فرقاً . قال ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق ، فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا . فسكت عمر . ولما بويج أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لوددت أن بمضكم كفانيه ، ألا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي ، وعصمه به ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم ، فراعوني فاذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وإن رأيتموني زغت فقوموني » (اهـ . إلى آخر ما ذكرنا في « حاضر العالم الاسلامي ») ومنه يظهر أن الخليفة ليس معصوماً عند أهل السنة ، وأنه لا يمتاز عن غيره من الرعية ، وأنه مقيد بالشورى ، وأنه ليس له أن يستبد بالأمر . ولعل قائل يقول : إن ملوك العصر الحاضر أيضاً مقيدون بالدساتير التي وضعتها الأمم التي يلون أمورها وليس لهم أن يستبدوا في شيء . ! وهذا لا جدال فيه وأن الأمم الحديثة قيدت الملوك ولكن يبقى بينهم وبين الخلفاء الراشدين الفرق العظيم بأن ملوك الأعصر الأخيرة هم غير مسؤولين في أحوالهم الشخصية ، وأن الخلفاء في الاسلام هم مسؤولون كسائر الرعية . ويبقى فرق آخر بأن الخلفاء كانوا من السذاجة والتقص في معيشتهم ما لم يكن أحد قبلهم ولا بعدهم ، ولم يكونوا يأخذون من بيت المال إلا ما يسد عوزهم الضروري والحال أن الملوك ورؤساء الجمهوريات في الأعصر الأخيرة يتمتعون بالجرايات الوفرة ويعيشون في ترف عظيم لا ينازع فيه أحد .

وكذلك الملوك في هذا العصر ينتقل الملك منهم الى أولادهم فأحفادهم ، والخلفاء الراشدون كانوا يمهّدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم . فروح الاسلام الحقيقي هي مراعاة الكفاية والأهلية دون أي اعتبار آخر . ولهذا لم أكن ممن يذهب الى اشتراط القرشية في الخلافة ولو كان هو مذهب الجمهور ، فان حصر الامامة في أسرة أو عائلة ، أو عشيرة ، لا ينطبق على هدى الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعمد بالأمر لولده ، والحال أنهم لم يفعلوا ذلك . فلا أبو بكر فكر في العهد

لمحمد بن أبي بكر ، ولا عمر فكر في العهد لعبد الله بن عمر ، ولولا خروج معاوية على علي لكان علي أيضاً اقتدى بهما في اختيار من هو الأصلح لأمر الأمة . ولو كان حصر الامامة في قريش محتماً ما كان عمر يقول : لو أدركني أحد رجائين فجعلت هذا الأمر إليه لو ثقته به ؛ سالم مولى أبي حذيفة ، وأبي عبيدة بن الجراح . وقد كان سالم مولى أبي حذيفة من الأعاجم كما لا يخفى ! . وقد رُد على هذا الدليل بأن عمر صحابي ، وأن مذهب الصحابي ليس بحجة . ولكن يرد على هذا بأن عمر بن الخطاب وإن لم يكن معصوماً فهو الذي روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال في حقه « لو كان نبي بعدى لكان عمر » . فهو صحابي ولكن ليس كغيره من الصحابة ولقد منع عمر المتعة واحتج بعمله الفقهاء من أهل السنة . وعلى كل حال لم يكن عمر بالذي يخفى عليه حكم الشرع في مسألة هي أجل المسائل ، ولم يكن أيضاً سعد بن عبادته ورهطه من الأنصار بالذين يمارون قريشا في أمر الامامة لو كانوا يعلمون أنها لا يجوز أن تتعدى قريشاً . وأين تذهب مع قوله صلى الله عليه وسلم : « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبينة » . فهل هذا ينتظم مع حصر الخلافة في قريش ؟

إن الذين يقولون بحصر الخلافة في قريش إنما يستندون على الحديث الشريف « الأئمة في قريش » . ولكن هذا جاء في زمن كانت الرئاسة فيه لقريش فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب في صدر الاسلام تطيعها مالا تطيع سواها . ولا ينبغي من ذلك أن هذا الأمر يجب أن يكون أبداً سرمداً في قريش مهما تقابلت الأحوال ، وتبدلت الأطوار ، ومادامت تطاع الشمس ، وما بلّ بحر صوفة . وما بالهم لا يذكرون أنه جاء في رواية هذا الحديث . « الأئمة في قريش ما أقاموا الدين » . وجاء هذا الحديث في بعض المساند التي يعول عليها مثل صحيح مسلم . فان كان حصر هذا الأمر في قريش معلقاً بهذا الشرط ؛ فيكون قد انحل الاشكال . وليس من ينازع في رئاسة قريش في كونها الأولى بالامامة من غيرها من عرب وعجم ، وإنما النزاع واقع في أنه إذا وجد من الخارجين عن قريش من هم أقوى على حمل الخلافة

منها ، وأشد عصبية في وقتهم ، وأقدر على حفظ حوزة الاسلام في وجه الأجانب فهل يجب حصر الخلافة الاسلامية في القرشي مع ضعفه وإقصاء غير القرشي عنها مع كفايته ورجحانه ؟ هذا هو المترك الذي كان ينبغي أن يجزأ العلماء أن يفصلوا فيه فصلاً يتلاءم مع روح الاسلام المبني على قاعدة (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وعلى قاعدة (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) فليس في الاسلام طبقات كما هي عند البراهمة ؛ الدين في هذه الطبقة ، والحكم في تلك الطبقة ، والصناعة في هاتيك الطبقة ، الخ وليس الاسلام في شيء من مشابهة اليهودية في أن الملك هو في السبط الفلاني ، وأن الكهنوت هو في السبط الفلاني الخ . فكل هذه الأوضاع لا يعرفها الاسلام ، ولا يعرف إلا عمل الانسان نفسه . وكما قال عمر رضي الله عنه : « لو جاءت الاعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، وليعمل لما عند الله ، فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه » أفتكون الشريعة التي يقول فيها عمر مثل هذا القول هي الشريعة التي تجعل الامامة إراثاً خاصاً بعشيرة خاصة إلى أبد الدهر ، مهما كان في الخارج عنها من كفاية تزيد على كفايتها ، وقدرة على حفظ بيضة الاسلام ترجح على قدرتها ؟ ! لا جرم أن هذا غير معقول . ولذلك لانعجب من أن يكون مثل القاضي أبي بكر الباقلاني وغيره من العلماء قد أسقطوا شرط القرشية في الخلافة بعد أن رأوا مارأوا من ضعف قریش ورجحان غيرها عليها .

ولو أن الذين اشتروا القرشية في الخلافة استدركوا الأمر بقولهم : إنه إذا تساوى القرشي وغير القرشي في الاشتغال على شروط الخلافة فالقرشي بمكانه من قرابة الرسول عليه السلام ، ومن رئاسته القديمة ؛ أولى من غير القرشي لهان الخطب . ولكن مقتضى كلامهم أن القرشي بسلطان ذلك الحديث المتعاقب بقریش في عهد كانت فيه هي الأول - مهما بلغ من الضعف ومن عدم الكفاية - فإنه أولى من غير القرشي مهما بلغ من القوة على حفظ حوزة الاسلام ، ومهما بلغ من الضلعة والكفاية . فهذا الذي نراه مخالفاً لروح الشرع ، ولما يتجلى من جميع أحكام الكتاب والسنة .

لقد كان لقریش التقدم على جميع العرب ، وعلى جميع المسلمين ، فكان ذلك الحديث

لو صبح على ما روه وارتفعت فيه كل شبهة ؛ مطابقاً لحالة قریش في أيام تقدمها فأما من بعد أن غلبت الأعاجم ، وقام فيها من رجح ميزانه على قریش في القوة والمنعة رجحاناً محسوساً لا يمتري فيه عاقل ؛ فقد أصبح من العبث أن نجعل المرجوح أولى من الراجح . ولعمري أن ابن خلدون رحمه الله قد جمع فأوعى عند ما قال في مقدمته : إذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لدفع التنازع بما كان لهم من العصبية والغلب ، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بجبل ولا عصر ولا أمة ؛ علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية فرددناه إليها ، وطردنا العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية . فاشتربطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية على من معها في عصرها ليستتبوا من سواهم ، وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ، ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية . إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية ، فغلبوا سائر الأمم ، وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة .

وإذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم ، ويردهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقل أن يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي . اهـ

فلعمري ليس بعد هذا القول مجال لقائل ، فانه القول الذي لا يحسن بعده المراء وإن هذا الدين هو دين العقل لم يقم بالأسرار غير المفهومة ، ولم يتمتعن اتباعه بما تعي به العقول ، ولا بما لا تظهر فيه وجوه المصالح . وهو كما قال ابن خلدون : لا نجد فيه الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي . ولا يمكن أن يتقدم فيه المرجوح على الراجح . وكل معترك هذا المسألة هي القدرة على حماية الاسلام ، وإقامة الشريعة على وجهها ، فمن كان أضلع بهذا الأمر من غيره بين المسلمين فهو الذي يريد الله ورسوله قياساً على ما لدينا من قواعد الشرع الأخرى التي هي ومبادئ العقل توأمان متلازمان .

مذهب النشوء والارتقاء

تعليق على ماجاء بسطر ٢١ صفحة ٤ من الجزء الأول من ابن خلدون

قول ابن خلدون إن النسابين كلهم اتفقوا على أن الأب الأول للخلقة هو آدم عليه السلام كما وقع في التنزيل النخ . هذا ما كان عليه الناس في القرون الوسطى التي عاش ابن خلدون في آخرها ، وما لا يزال عليه المتمسكون بالأديان في عصرنا الحاضر ولكن علماء هذا العصر في العلوم الكونية ، وإذا قلنا علماء هذا العصر في العلوم الكونية فانما نغنى بهم علماء أوربة - قد عدلوا عن نظرية ابتداء العائلة البشرية بدم وحواء ، وعما يقوله اليهود والنصارى من أن عمر البشرية خمسة آلاف أو سبعة آلاف سنة ، ورجحوا - ولكن بدون جزم - أنه مضى على وجود العائلة الانسانية على وجه الارض نحو من مائة ألف سنة !! وذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك فقدروا لوجودها مائتين وثلاثين إلى مائتين وأربعين ألف سنة !! وقد وقعوا لأجل ذلك في مشكل من جهة تطبيق هذه النظريات على التوراة ؛ فمنهم من حل هذا المشكل برفض التوراة بتماماً وهؤلاء هم الفئة التي لاتقول بالأديان ، والفئة المسماة بالالهييين وهم الذين يعتقدون بوجود الصانع ولا يقولون بالنبوءات ، ومنهم من بقي متمسكا بالديانة المسيحية ولكن مع الاعتقاد بأن التوراة دخلها تحريف كثير ، وأن فيها كثيراً مما أدخله اليهود .

وهذه الفئة تشابه أقوالها أقوال علماء الاسلام الذين يقولون إن التوراة كتاب منزل لاشك فيه ، ولكن اليهود قد حرفوها - بل بدلوها - إلى أن صاروا يقولون من جملة الأمثال : « توراة مبدلة » وبالاختصار لايوثق بالنسخ الموجودة منها بين أيدينا . وكذلك يضمفون كثيراً من الروايات الواردة عن السلف الصالح بحجة أنها منقولة عن أحبار اليهود ، ويسمون هذا الضرب من الروايات الكونية والقصص (بالاسرائيليات) ويقولون إنها أدخلت في الاسلام وليست منه . فما يقوله المسلمون عن التوراة المبدلة وعن الاسرائيليات هو بعينه الذي يقوله العلماء المصريون في

أوربة الذين لا يقدرّون أن يطبقوا بين ما جاء في التوراة عن بدء الخليقة ؛ وبين ما يقرره العلم الحديث ، وهم مع ذلك لا يريدون أن يفارقوا العقيدة النصرانية التي فارقها الفئة المعطلة ، والفئة الأخرى التي يقال عنها الالهيون .

وهناك الفئة الثالثة التي لا تقبل التأويل والتخريج في التوراة ، ولا ترضى بأن يقال إن فيها من أوضاع اليهود - وبالتالي فليس من التنزيل - كما أنها لا ترضى بأن يقال إن الكتب المنزلة إنما تخاطب الناس على قدر عقولهم وتتجنب التصريح بما هو فوق أفهامهم خشية الفتنة وإدخال الشك على العقائد . فهذه الفئة الثالثة هي الفئة المتدينة الباقية إلى اليوم على العقائد التي كانت عليها النصرانية في القرون الوسطى وهي التابعة للكنائس سواء كانت الكنيسة الكاثوليكية ، أو الأرثوذكسية ، أو البروتستانتية التي يقال عنها الأنجيلية ، ومن هذه الفئة السواد الأعظم في الحقيقة من الأوربيين والأمريكيين . وهم يقولون بأن البشر تناسلوا من آدم وحواء وفقاً لما في التوراة ، ويردّون مذهب النشوء والارتقاء الذي يردّه أيضاً أناس كثيرون من الفئة المعطلة ، ومن الالهيين ، لا من جراء مخالفته للدين ؛ بل من ضعف الأدلة اللازمة للقطع به ، وانحرام كثير من الحلقات التي يفترض وجودها بين الحيوان والإنسان ، أو بين الإنسان في أصل تكوينه والإنسان الحالي . وفقد هذه الحلقات وعدم وجود أثر لها في الآثار الحفرية هذا لا يساعد على الجزم عندهم بمذهب النشوء والارتقاء الذي غاب عليه اسم المذهب الدارويني نسبة إلى « دارون » وهو عالم طبيعي من علماء الإنكليز مات في أواخر القرن التاسع عشر للمسيح .

ولما كان تاريخ ابن خلدون مما يصلح لكل العصر بالنظر إلى ما فيه من قواعد أبدية، ونظريات في الحقيقة والحق لا تخلق ديباجتها، ولا تنقض حقائقها، ولكنه كتب منذ خمسة قرون طرأت في أثنائها على المجتمع الإنساني أفكار جديدة، ومبادئ ناقضة لما سبقها ، ونظريات لم تكن معروفة في أيام ابن خلدون ، أو كانت معروفة ولكن عند غير أتباع الأديان الثلاثة : الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية .

وكان لا بد للناشئة الجديدة من الأمة الإسلامية من أن يطالعوا ما جد من هذه

النظريات المحدثه ، ويقارنوها بالنظريات القديمة ، فلم نشأ أن نمر بهذا الموضوع بدون أن نشير - ولو بجملة مختصرة - إلى ما عليه العلماء الأوربيون ، حاشا أتباع الكنيسة من جهة أصل وجود الانسان على وجه الأرض .

وقبل أن نشرع في ذلك نقول : إن الاعتقاد بكون آدم وحواء هما أبوا البشر هو منصوص عليه في الكتاب ، فأما المدة التي ضربها أصحاب التوراة لوجود الانسان فليس في القرآن الكريم شيء يدل عليها ، بل هناك هذه الآية الكريمة (ما أشهدتهم خالق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) .

ثم نقول : إن الذين جزموا بقدوم عهد الانسان بناء على ما كشفوه في باطن الأرض ، وما نقبوا عنه في الكهوف والغيان ، وما عثروا عليه عرضاً واتفاقاً في قيعان البحيرات ؛ لا يزالون يقرون بأن معلوماتهم مفتقرة إلى الاكمال ، وأنه لا يصح الجزم إلا بالنظرية الاجمالية التي معناها كون الانسان وجد ؛ لا من خمسة آلاف سنة ، ولا من سبعة آلاف سنة ؛ بل من أضعاف هذا العدد من السنين . وأنهم استدلوا على ذلك بوجود حجارة مصقولة على شكل الفؤوس كانوا يجهلون في أول الأمر حقيقتها وكانت العامة تعتقد بأنها حجارة تتكون في السحاب !! .

ولما قال بعض علماء القرون الوسطى بأنها من صنع أيدي البشر رفضوا كلامهم ومنذ مائتي سنة تواترت الأدلة بكثرة ما وجد من هذه الحجارة في أعماق متفاوتة تحت التراب ، وتحت المياه ، ومنها ما بسقت من فوقه الأشجار ، ومنها ما تكونت من فوقه المعادن ، فحسب علماء الأزمنة الحديثة ما يستلزم وجود هذه الطبقات المتراكمة فوق تلك الأدوات التي صنعها البشر الأولون من الزمن الطويل والدهور الدهارير ؛ فحكوا بأنه لا بد لذلك من عشرات ألوف من السنين .

وقد قسموا المدة التي قضاها الانسان منذ وجد على سطح الكرة إلى أن صار معروفاً عند أعقابه إلى جملة أدوار ، أقر بها إلى الدور الحالي - بزعمهم - هو الدور المسمى بالرباعي ، ويقال له الجليدي . وهو الذي فيه كان الثلج دائماً في أما كن أصبح الثلج فيها اليوم نادراً . وكانت البلاد السكندنافية وهولاندة وجزر انكلترا وألمانيا والروسية

مغطاة بالثلوج . وكان في أوربة في الاصقاع التي ينحسر عنها الثلج حيوانات لا توجد اليوم عثروا على عظامها ، واستدلوا منها على التفاوت العظيم الذي وقع في درجات البرودة والحرارة ، مما قضى بهلاك قسم من أنواع هذه الحيوانات ، والتجاء القسم الآخر إلى أصقاع أخرى من الكرة الأرضية . ومن أشهر هذه الحيوانات الحيوان الذي يقال له « الماموث Mammouth » و« الكركدن » اللذان بعد أن انحسرت الثلوج الدائمة عن القارة الأوربية رحلا إلى الشمال . وكذلك الحيوان المسمى « بالرنه Renne » الذي لا يزال في القطب الشمالى مع أن له بقايا مستحجرة في أواسط أوربة . وقد علت على هذه البقايا طبقات متكونة بمرور الأيام ، ومعادن لا يمكن أن تتكون إلا بعشرات ألوف من السنين . كما أنهم عثروا على عظام بشرية أيضاً تراكت من فوقها تلك الطبقات ، وبقيت بشريتها ظاهرة .

ولم يقع الاستدلال على وجود الانسان في تلك الأعصر بالرسم البشرية فحسب بل وجدت له آثار أخرى من أدوات وآلات وتصاوير يحكم على وجوده بوجودها والاثـر يدل على المؤثر . فالإنسان وجد في أواسط أوربة - مثلاً - معاصراً للماموث وللرنه . وقد عثر العلماء في القرن الماضى على عدة رسم بشرية ، منها ما وجد في مغاور ووجدت بجانبه عظام حيوانات - كالكركدن مثلاً - مما لم يبق له أثر الآن في هذه المناطق . و بعد بحث وتنقيب واختلاف بين العلماء الجيولوجيين ، اصطاح الأوربيون على قسمة الأدوار التي يعرفونها عن الانسان إلى ثلاثة . وهذه الأدوار الثلاثة هي عبارة عن المدة التي مضت في بداية العصر الجليدى إلى أن أصبحت الحالة الجوية مقاربة لما هي عليه أوربة اليوم . ويقدر هذه المدة بألف قرن - أى مائة ألف سنة - فقد ذكروا الدور الثلاثى الذى سبق الدور الرابعى أو الجليدى . وقالوا : إن حيوانات كثيرة لم تطق التغيرات التي وقعت في أثنائه فانقرضت . وهنا اختلفوا في إمكان ظهور الانسان في الدور الثلاثى وتحمله ما لم تتحمله تلك الحيوانات الكبيرة وفي عدم إمكان ذلك .

فبعضهم ذهب الى أن الانسان وجد في الدور الثلاثي بدليل وجود أدوات حجرية لا يمكن صنعها إلا بيد مخلوق هو على شيء من العقل ، وذهب المنكرون لوجود الانسان في الدور الثلاثي إلى أن الأدوات المذكورة هي أحدث عهداً من ذلك الدور . فالمفروض - مع الترجيح التام - أن الانسان وجد في الدور الرابعي . وأعظم دليل من الآثار الحفرية على ذلك أنه وجد بقرب « هيدلبرغ » في بلاد بادن من المانيا على عمق أربعة وعشرين متراً فك أسفل إنسانى ، ووجد في الحل نفسه بقايا كركدن وفرس من أفراس البحر مما كان يعيش في الدور الثلاثي وهذا الفك وجد ضخماً عظيماً عريضاً جداً قايلاً الارتفاع ، ولم يوجد له ذقن ، ووجد فيه تشابه كثير مع فكوك القردة التي تشبه الانسان من النوع الذى يقال له « انثرو بويد » « Anthropoides » بيد أن الأسنان هي أسنان بشرية بالتام والكمال .

وعثروا في انكلترة بقرب « بيتدون Piltown » على جمجمة بشرية ولكنها منحطة عن الجاهم الحاضرة ، فاما من بقايا العصر الرابعي فقد وجدوا أكثر من رمة واحدة ، ووجدوها كلها متشابهة ، منها واحدة وجدت في جبل طارق ، وأخرى في « سبي (Sper) » من بلجيكا . وأخرى في فرنسا ، ووجدوا من هذا النوع نفسه في إفريقيا الجنوبية في روديزيا . فثبت من تشابه جميع هذه الرمم وجود طبقة بشرية في الدور الرابعي المذكور ، اصطلاح العلماء على تسميتها بطبقة « نياندرتال Neanderthal » وذلك لأن أول مثال منها وجد في واد اسمه وادى « نياندرتال » في المانيا . وقد وجد مع رمم هذا الدور أدوات مصنوعة بالأيدي لا تدع شكاً بأن أصحاب هذه الرمم كانوا بشراً ، ولكن كانت رؤوسهم مشابهة جداً لرؤوس الحيوانات ، وكانت الجمجمة مسطحة ، والجهة ضيقة ، وكان القسم الأدنى من الرأس ضيقاً ، والوجه عريضاً ، والفكان ناتئين إلى الأمام ، والتقاطيع غير منتظمة ، والعيون كبيرة ، والأنف عريضاً مع ضيق في مركزه ، والذقن منقبضاً ، وغير ذلك من الملامح التي تثبت أن طبقة « نياندرتال » هي من الطبقات البشرية ، لكنها أدنى من البشر الموجودين الآن . وهي من جهة الجمجمة والوجه تتشابه مع نوع القردة المسمى « بالانثرو بويد »

أي أقرب القردة للإنسان . وبالاختصار آدميٌ نياندرتال مكانه هو بين القرد والإنسان الأخير . وقد امتاز الآدمي في هذا الدور الذي نحن بصدده بقوة العضلات ووجد العلماء القائلون بهذه النظرية أن السلسلة الفقارية ، وأن عظام الأعضاء والأطراف والجمجمة ؛ فيها تشابه كثير مع ما يقابلها في القردة . وقد رجّحوا بحسب ملاحظاتهم من الهيكل العظمي الذي كان عليه إنسان «نياندرتال» أنه كان يمشي منحنيًا نحو أخاذه ، ولم يكن يتنصّب قائمًا سويًا . ولما وصل علماء النشوء والارتقاء إلى هذه النقطة اختلفوا فيما يعولون عليه من جهة الإنسان الأول ؛ فقالوا : إن إنسان نياندرتال هو على شبه كثير مع القردة المسماة أنتروبوئيد « Anthropoïde » ولكن ثبت أيضًا أن هذا النوع من الإنسان وجد في أواسط الدور الرابعي ، ولهذا لا يمكن أن يقال إنه أقدم نوع في البشر ؛ لأنه قد ثبت وجود آثار الإنسان في أوائل الدور الرابعي . فصار العلماء يتساءلون كيف يمكن التوافق بين هذين الأمرين ؟ فذهب هيكل « Haeckel » الألماني من أقطاب علماء النشوء والارتقاء إلى أن الإنسان لم ينحدر من القرد المعروف بشبهه للإنسان الذي يقال له « أورانيج أوتان » .

وقال أصداد نظرية النشوء والارتقاء إنه لا يزال بين أقدم الطبقات البشرية وأقرب القردة إلى الإنسان مسافة شاسعة ، ولذلك يفترض وجود طبقة متوسطة وسمّوا هذا النوع بيتيكانتروپ « Pithécantrope » فذهب بعض علماء أوربة إلى أنه إن كان قد وجد شبه بين آدمي نياندرتال وبين الآدمي المسمى بيتيكانتروپ وبين هذا وبين القرد المسمى أورانيج أوتان ؛ فليس يستلزم ذلك حتمًا أن يكون الإنسان الحاضر هو من هذه السلائل ، بل إنسان نياندرتال انقرض في أواسط الدور الرابعي ولم يترك بقايا .

وقالوا إن الآثار البشرية التي عثروا عليها لاتصلح حتى الآن مدارًا للحكم وخالفهم الذين قالوا إن بين إنسان نياندرتال والإنسان الحالي وجوه شبه كثيرة وأنه لا يمكن الحكم بانقراض إنسان نياندرتال والتبديل منه إنسانًا من نوع آخر أكمل من الأول وهو الذي سمّوه بالإنسان العاقل ، وبالافرنجية « Home Sapiens »

عن أصل الانسان ، ننقله لقراء هذا الكتاب حتى لا يفوتهم شيء مما يجب معرفته على أهل هذا الزمن ، ومن قبيل العلم بالشيء ولا الجهل به .

ولا يزال في أوربة عدد كبير من العلماء يردون بشدة نظرية داروين ، وليسوا هم فقط من أنصار الأديان ؛ بل يوجد من العلماء الطبيعيين من يقيم الأدلة على فساد هذا المزعم . ومنهم من ذهب مذهباً متوسطاً ، فوافق على بعض قضايا المذهب الدارويني ، وردّ بعضها بحجة فقد الأدلة الكافية . وعندى كتاب عنوانه « المذهب الدارويني وما فيه من صواب وخطأ » وممن اشتهر في الردّ على مذهب داروين الانجليزى ، ولا مارك الافرنسى فى النشوء والارتقاء ؛ الأستاذ « فيالتون Vialleton » المدرس فى جامعة مونبلييه ، والأستاذ موريس توماس البلجيكي ، وغيرهما ممن يقولون إن مذهب لامارك وداروين مناقضان للعلم ، وقال فيالتون : إن داروين قد ذهب فى نظريته مذهباً جاهلاً ماهية القواعد التى تنزل عليها الجزئيات ، وانخدع بعلاقات الأنواع بعضها مع بعض ، كما أن خلفاءه فى المذهب قد نظروا إلى المناسبات الصورية التى بين الأنواع نظراً سطحياً ، وقرروا النشوء والارتقاء بدون تأمل كاف فى كيفية قيام هذه الأنواع بوظائفها .

فلأجل الربط بين الحشرات وذوات الأثداء من الحيوانات اعتمدوا على النطاق الصدرى الذى يعهد فى ذوات الأثداء المتصلة بالطيور ، لكن إذا أنعم الانسان النظر لا يجد هذه الرابطة فى محلها ، لأن هذا النطاق ليس فى الحقيقة جزءاً من هيكل الصدر ؛ بل هو خارج عنه ، وليس له اتصال بالقلب ، ولا بالأعصاب كما هو عند الحشرات . فالمشابهة ليست أكثر من مشابهة سطحية . والحال أن طبيعة الحيوانات ذات الأثداء لا تمتاز فقط بالنطاق الصدرى ؛ ولكن بمميزات أخرى ظاهرة فى جميع تكوينها ، وفى أنسجتها العضوية ، وفى الجلد والشعر والعظام ، وكل ما يعهد فى ذوات الأثداء . والخطأ نفسه وقع فى تقدير خصائص الأعضاء ؛ فداروين يرى أن أى عضو يقدر أن يقوم بأية وظيفة ، وهذا إهمال لحقيقة الوظائف الأساسية . فان الأعضاء تؤلف مع الأنطقة آلات محرّكة لها فى كل نوع وظائف محدودة لا يمكن أن عملها

يتعدى من وظيفة إلى وظيفة ، إذ ليس من وسيط بين الجهازين . ففي طبقة الحيوانات ذوات الأربع إذا وجد نوع طيَّار مثلاً يجب أن السكتف التى كانت فى البطن تحت مركز الثقل تصعد إلى الظهر لأجل أن تحفظ موازنة الحيوان عند ما يطير ، ولولا ذلك لا يتمكن من الطيران . فهذا المركز الذى تأخذه السكتف من جديد لا يمكن أن يحصل بالتدريج ، ولا مناص من أن يكون وضع أنفًا بدون تدرّج . كذلك ذوات الأنداء السابحة التى يسير بها الذنب المتحرك من الأعلى إلى الأسفل ؛ فيجب أن يكون لهذا الذنب قوة وقطر عظيمان ، بحيث أن الشق الأسفل يندفع إلى الأمام فيكون أفضلاً من أن يكون عمودياً كما هو فى سائر ذوات الأنداء .

ويقول فيالتون : إن القول بأن الجراثيم تعيد فى أثناء نموها الصور المتتابعة التى سبقت نوعها هو قول مرسل جزافاً ، وهو أشبه بالحجاز منه بالحقيقة ، فى الجراثيم شيئان ؛ البدايات البسيطة التى هى عامة لجميع النوع ، ثم الأجهزة والصور التى تتلو هذه البدايات . فالبدايات لا يمكن أن يتكون منها نوع خاص ، لأنها حوىصلات بسيطة جداً أشبه ببراعم تختلف كثيراً عما سيأتى منها ، بل هى بدايات ساذجة عامة لا ينتج منها أقسام خاصة إلا بعد النمو . فالحويصلة لا يمكن أن تشبه حيواناً تاماً مهما كان دنىء الطبقة ، ولكن تشبه حوىصاته . والحويصلة البشرية ذات الخلايا لا يمكن أن تشبه سمكة فى جهازها التنفسى ، ولكن قد تشبه حوىصلة السمكة قبل أن يتكامل فيها هذا الجهاز ، وأورد أدلة كثيرة ليس هنا موضعها .

وكان الكيماوى الفرنساوى برتلو - وهو من أشهر علماء الطبيعة - ينعت مذهب داروين بقوله : « قصة داروين الخيالية » و « قصيدة لامارك الفكرية » مع أن برتلو كان يحفل بهذا المذهب . فمن شاء التوسع فى هذا الموضوع فليقرأ كتاب فيالتون المسمى « بأصل الكائنات الحية وخیال النشوء والارتقاء »

«L'origine des Êtres Vivants, l'illusion transformiste par Vialleton»

وقد طرق السيد جمال الدين الحسينى الافغانى هذا الموضوع ، ورد على نظرية داروين ، ونحن واضعون كلامه تحت أنظار القراء .

وقد اعترض بعضهم على خوض السيد جمال الدين في حديث كهذا يلزم له تخصص في العلوم الطبيعية ، وليس هذا الاعتراض بشيء ، لأن التخصص شرط في المباحث التفصيلية ، فأما في المبادئ العامة فالذي يلزم إنما هو الفلسفة ، ومن كان أطول فيها باعاً وأوسع نظراً كان أحق بأن يتكلم بها ؛ فالسيد جمال الدين إذاً يقدر أن يقول هنا ، وهو يقول ما يأتي في رسالته المعروفة « بالرد على الدهريين »

« وذهب فريق إلى أن الاجرام السماوية والكرة الأرضية كانت على هيئتها هذه من أزال الآزال ولا تزال ، ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات . وزعموا أن في كل بذرة نباتاً مندجاً فيها ، وفي كل نبات بذرة كامنة ، ثم في هذه البذرة الكامنة نبات وفيه بذرة إلى غير نهاية . وعلى هذا زعموا أن في كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيواناً تام التركيب ، وفي كل حيوان كامن في الجرثومة جرثومة أخرى ، يذهب كذلك إلى غير نهاية . وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناه وهو من المحالات الأولية .

وزعم فريق ثالث أن سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع ، كما أن الاجرام العلوية وهيئتها قديمة بالشخص ، ولكن لاشيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبذور النباتية بقديم ، وإنما كل جرثومة وبذرة هي بمنزلة قالب يتكون فيها ما يشاكله من جرثومة وبذرة أخرى . وفاتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات الناقصة الحلقة قد يتولد عنها حيوان تام الحلقة ، وكذلك الحيوان التام الحلقة ، قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها .

ومال جماعة منهم إلى الابهام في البيان فقالوا : إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار ، وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور ، حتى وصلت إلى هيئتها وصورها المشهودة . وأول النازعين إلى هذا الرأي « أبيقور » أحد أتباع « ديوجينيس الكابي » ومن مزاعمه أن الانسان في بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ، ثم لم يزل ينتقل من طور إلى طور حتى وصل بالتدريج إلى ما نراه من الصورة الحسنة ، والخلق القويم ، ولم يبق دليلاً

ولم يستند على برهان فيما زعمه من أن مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقى الأنواع . ولما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث . ثم اختلفوا في بحثين ؛ الأول بحث تكون الجراثيم النباتية والحيوانية ، فذهب جماعة إلى أن الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عند ما أخذ التهاب الأرض في التناقص ، ثم انقطع التكون بانقضاء ذلك الطور الأرضي . وذهبت أخرى إلى أن الجراثيم لم تنزل تتكون حتى اليوم خصوصاً في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة .

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم أن الحياة فاعل في بسائط الجراثيم ، موجب لالتئامها ، حافظ لكونها . وأن قوتها الغذائية ، هي التي تجعل غير الحى من الأجزاء حياً بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ، ثم صارت إلى الانحلال . وظن قوم منهم أن تلك الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن كرة الشمس ، وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من أن الأرض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة ، وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تُنمَح صورها في تلك النيران المستعرة ؟ ! . والبحث الثانى من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها إلى ذروة كمالها (نقول : وصل السيد هنا إلى مذهب النشوء والارتقاء) وتحولها من حالة الخداج والنقص ، إلى ما نراه من الصور المتقنة ، والهيآت المحكمة ، والبُنَى الكاملة . فمنهم قائل : إن لكل نوع جرثومة خاصة به ، ولكل جرثومة طبيعة تميل بها إلى حركة تناسبها في الأطوار الحيوية ، وتجذب إليها ما يلائمها من الأجزاء الغير الحية ليصير جزءاً لها بالتغذية ، ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما أثبتته التحليل الكيماوى من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور ونطفة - الحمار مثلاً - وظهور تماثل النطف بالمعاصر البسيطة . فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها ؟ ! ومنهم ذاهب إلى أن جراثيم الأنواع كافة - خصوصاً الحيوانية - متماثلة في الجوهر ، متساوية في الحقيقة ، وليس بين الأنواع تخالف جوهرى ، ولا انفصال

ذاتى . ومن هذا ذهب صاحب هذا القول إلى جواز انتقال الجرثومة . الواحدة من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان ، وحكم الحاجات والضرورات ، وقضاء سلطان القواصر الخارجية .

ورأس القائلين بهذا القول « داروين » وقد ألف كتابا فى بيان أن الانسان كان قردا ، ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة ، وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ « أوران أوتان » ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف « البيم » وسائر الزوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى (قد ثبت أن الداروينيين يستندون فى النشوء والارتقاء على جماجم وجدت فى أوروبة تحت الأرض ، وليست هذه الجماجم وهذه الهياكل أقرب إلى الانسان القوقاسى منها إلى الانسان الزنجى ، ولا هى بالعكس ، بل هى ناقصة عن كل منهما) وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك !! .

(لا مبالغة فى قول السيد جمال الدين هذا عن مذهب داروين ؛ لأن هذا المذهب يجعل البيئة والاحتياج والضرورة والتأثيرات الخارجية هى منشأ التنوع وأن كروور الدهور تحت هذه التأثيرات يؤدى إلى ما يظهر عجيبا وور بما يظهر مستحيلا وليس الأمر كذلك عندهم ، وأن الذى جعل كياويا كبيرا مثل « برتلو » يسمى مذهب داروين قصصا متسع الخيال ، هو حكم داروين باطراد هذا المبدأ فى المخلوقات) فان سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند ، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحددها التاريخ إلا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة ، وفروعها تذهب فى هواء واحد ، وعروقها تسقى بماء واحد ؛ فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيتها ، وأشكال أوراقه ، وطوله ، وقصره ، وضخامته ، ورقته ، وزهره وثمره ، وطعمه ، ورائحته ، وعمره ؟ فأبى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع

وحدة المكان والهواء والماء ؟ ! أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه !! وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور ، والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ، ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق . أو عرضت عليه الحشرات المتباينة فى الحلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة لتخلو إلى تربة جديدة تخالف تربتها ؛ فماذا تكون حجته فى علة اختلافها ؟ كأنها تكون كسفاً لا كشفاً ! .

بل إذا قيل له : أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها ؟ وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ، ووضعها على مقتضى الحكمة وإيداع كل منها قوة على حسبه ، ونوطها بكل قوة فى عضو إزاء وظيفة ، وإيفاء عمل حيوى ، مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه . وكيف صارت الضرورة العمياء معلماً لتلك الجراثيم ، وهادياً خبيراً لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية ؟ لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ ، وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين . (النخ)

قلنا : يجوز أن يكون فى كلام السيد جمال الدين هذا ما يعترض عليه بعض العلماء الطبيعيين من جهة أن السيد فيلسوف إلهى يستند على قواعد من الحكمة والمنطق أصبح كثير من الطبيعيين اليوم يرفضونها ولا يجعلونها معياراً للحكم ؛ ولكن لا يمكن هؤلاء ولا غيرهم . أن يأتوا فى نقض كلام السيد فى هذا الموضوع بما يشفى الغليل ، أو بما يثلج به اليقين . فلا « داروين » ولا « مارك » ولا « بنجر » ولا خصوصهم الكثيرون فى أوربا ، ولا « السيد جمال الدين » يقدر واحد منهم أن يقول قولاً فى معضلة كهذه ويسلم من الاعتراض من جهة من الجهات ، وإنما هى نظريات يترجح بعضها فى نظر بعض العلماء ، ولا يكاد يجزم به حتى يقوم فى وجهه ما يمنعه من الجزم .

وما أحسن قول جمال الدين : لا يزال يرفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين .

ولهذا نجد علم التكوين بنوع خاص بين مد وجزر ، وأخذ ورد ، وعكس وطرده لا ينتهي . وكيف يمكن أن ينتهي والآثار التي بني أصحاب مذهب النشوء والارتقاء عليها آراءهم هي آثار ضئيلة جداً ، نسبتها إلى الموضوع نسبة النقطة إلى الغدير !! وقد اعترفوا هم بأن كل ما عثروا عليه في باطن الأرض إن هو إلا هيكلان أو ثلاثة في القارة الأوروبية ، ولم يعثروا حتى هذه الساعة على شيء في القارات الأخرى التي هي أوسع من أوروبية بكثير ! وما دامت الشواهد ضئيلة إلى هذه الدرجة ومنحصرة في بقعة واحدة ؛ فإنه يستحيل القطع بشيء . هذا ولقد كان أول من كتب عن مذهب داروين باللسان العربي الدكتور شبلي شميل اللبناني ، نشر في ذلك كتاباً في مصر ضمنه مذهب داروين الانجليزي ، وبخبر الألمانى ، وجعل له مقدمة جاهر فيها بالمذهب المادي مجاهرة لم تسبق لأحد غيره في الشرق ، ورد عليه إذ ذاك الأستاذ الشيخ ابراهيم الحوراني من علماء المسيحيين الذين يردّون المذهب المادى . وكذلك رد عليه اليسوعيون في بيروت ، وبعض القسيسين المارونيين واشتدت المناقشات بين الفريقين ، وكنا نطالعها أيام الطلب قبل هذا التاريخ بخمسين سنة . وكان نشر الأستاذ الشيخ محمد عبده رسالة أستاذه جمال الدين التي نقلنا عنها هذه الجمل لذلك العهد أيضاً . فذهب داروين معروف في أوروبية منذ ثمانين سنة ، وفي العالم العربى منذ خمسين سنة .

نوح وولده وقضية الطوفان والسلائل البشرية

تعليق على ماجاء بسطر ٣ صفحة ٦ جزء أول من ابن خلدون

إن ما ذكره ابن خلدون في هذا الموضوع لا يخرج عما اصطلاح عليه المؤرخون القدماء مستنديين فيه على التوراة ، ولكن المؤرخين اليوم قد عدلوا عن هذه الروايات ، وعن القول بأن سام وحام ويافت هم آباء البشر الحقيقيين ، وأن سام أبو العرب ، ويافت أبو الروم ، وحام أبو الزنج ، إلى غير ذلك . وإذا ذكروا هذه الأمور فانما يذكرونها وفقاً للتوراة وللتقاليد القديمة ، ومن باب العلم بالشيء ولكنهم لا يمتقدونها . فأما الطوفان فانهم يعتقدون بوقوع حادث عظيم من هذا القبيل - إن لم يكن عم الأرض كلها فلا شك في أنه غمر جانباً منها - وذلك لأنه وجدت روايات تشابه خبر الطوفان عند الأمم الأخرى .

وقد أجمع المسلمون والنصارى واليهود على وقوع الطوفان لورود ذكره في كتبهم المنزلة وزعم « أوسيلديوس » العالم اللاهوتي الانجليزى من رجال القرن السادس عشر للمسيح أن الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل المسيح ، وتابعه في ذلك المطران الافرنسى « بوسويت » وذهب « كلنتون » الانجليزى إلى أن الطوفان إنما وقع سنة ٢٤٨٢ وهؤلاء ممن يمتقدون أن العالم وجد قبل المسيح باربعة آلاف سنة . ومن المعلوم أن هذه الروايات مردودة اليوم عند جميع علماء أوربة - تقريباً - وهؤلاء يقولون بمئات ألوف من السنين مضت على وجود الانسان ، فضلاً عن وجود المادة الأرضية نفسها وفي القرآن لا يذكر عدد السنين التى مرت على الانسان ، وإنما يقول الله تعالى : (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهو أصح الأقوال . وقد روى يبروز الكلدانى رواية تشابه رواية الطوفان ، وهو أن الملك « كيزوتروس » نجى بسفينة صنعها لنفسه عند ما غرق جميع النوع البشرى . وجاءت رواية عن اليونان بأنه وقع فيها طوفان فى القرن الثامن عشر قبل المسيح ، وكذلك طوفان آخر فى القرن

السادس عشر ، وأما بيروز الكلداني فقد كتب تاريخ بابل في أقدم الأعصر ، وأخذ عنه يوسفوس اليهودي .

فأما تقسيمات البشر الى سلالة حام وسام ويافت ، فقد قام مقامها اليوم تقسيمات أخرى ، فقالوا سلالة العصر الحجري ، وسلالة العصر الحديدي ، وسلالة عصر سكب الرمل . وجعلوا تاريخ ظهور البشر على حسب التغييرات الجوية ، وتقلص الجليد التدريجي فانهم استدلوا بالآثار الباقية في الأرض على مرور الأنسان ببعض البقاع في عصر من الأعصر ، مما يدل على أن تلك البقعة كانت قد أصبحت صالحة للسكنى ، على حين أن غيرها في ذلك الوقت كان لا يزال غير قابل لسكنى الانسان ، فالأرض هي التي يصح أن يقال إنها أم البشر ، وإنها واضعة التقسيم بين السلائل البشرية . وليس ذلك من سام وحام ويافت كما قال الأولون .

وذهبوا إلى أن الانسان قطع من الحيوانية الدنيا إلى أن صار إنسانا - شبيها لما هو اليوم - عشرات ألوف من السنين ، حتى قالوا : إن السلالة المسماة نياندرتال « Nèanderthal » عاشت نحواً من مائتي ألف سنة ، وأنه لما بدأ العصر الجليدي الرابع يضمحل أمام أحوال جوية أميل إلى الاعتدال ظهر نوع جديد يظنون أنه بدأ ظهوره في جنوبي آسية ، أو شمالي أفريقية ، أو في الأماكن التي غمرها البحر المتوسط فيما بعد ، وأنه مضى مئات من القرون حتى تكملت أعضاء هذا النوع الجديد الذي سماه علماء السلالة البشرية بالانسان السابي « Homo - Sapiens » وهذا النوع البشري في جمجمته وأيديه وأسنانه وعنقه يشبه تماماً الانسان الحالي . ويذهبون إلى أنه ربما كان قد وجد سلالات أخرى غير هذين النوعين ، وربما يكون قد وجد أنواع متوسطة بينها وبين النوع الانساني الحاضر . وقد وجدوا في كهوف « كرومانيون Cro-Magnon » هياكل أجسام بشرية ترجع إلى نهاية العصر الحجري ، وهي تامة الحلقة ، فأطلقوا على هذه السلالة اسم سلالة كرومانيون ، ووجدوا آلات من الصوان ومن الصدف مع هذه الأجساد ، كما أنهم وجدوا في مغارة غريمالد بقرب منتون جنوبي فرنسة هياكل أجساد بشرية مشابهة لأجساد الزوج اليوم ، فترجح وجود سلالتين بشريتين

في ذلك العصر الأقدم يختلف إحداهما عن الأخرى . فسلالة كرومانيون ربما كانت متحدرة من سلالة غريمالد ، ويجوز أن يكون في ذلك الوقت قد بقيت بقايا من سلالة نياندرتال .

ويظهر أنه كلما كان الجو يميل إلى الاعتدال ، والجليد يتقلص ؛ كان الانسان يتكامل وتعلو طبقة عقله ، ويزداد التناسب في أعضائه . وبالاختصار لم يكن اختلاف السلائل عند العلماء العصريين ، والتباينات التي أوجدت الشكل القوقاسي ، والشكل المغولي ، والشكل الزنجي ، والشكل الامريكي القديم ؛ إلا نتيجة العوامل الجوية باختلافها وتحولها من طور إلى آخر ، وما يستتبع تحولاتها من تغير النبات والحيوان . فالهواء والغذاء هما اللذان كانا الأصل في هذه التباينات بين البشر حتى تكونت هذه السلائل المختلفة . وهذا قد أجمع عليه علماء الوقت الحاضر ، وإن كانوا لا يزالون غير متفقين في نسبة الشعوب إلى سلالة سلالة ، وذلك لفقد الوثائق التاريخية ، وقلة الآثار التي في الأيدي . فأكثر ما عندهم من التعليقات لإثبات أن هذا هو من هذه السلالة ، وأن ذاك من تلك السلالة ؛ إنما هو افتراض ، وأحياناً تحرخص ، والجزم غير ممكن . وأكثر العلماء يقولون إن تحقيق هذا الباب متعذر ، ولسكن مأمول ازدياد المعلومات بالعثور على الآثار البشرية القديمة ، لاسيما في آسية وأفريقية وأميركا . وقد قيل بناء على الآثار البشرية القديمة التي وجدت في أميركا : بأن الانسان قبل أن يتكامل ويصل إلى درجة الانسانية الحاضرة لم يوجد في القارة الاميركية ، فاقطع الانسان بوغاز بيرين بين آسية وأميركا ، وأخذ ينتجع أميركا حتى وصل إلى القسم الجنوبي منها إلا بعد أن كان قد صار إنساناً كاملاً . فالعالم القديم وحده ، أي أوروبا وآسية وأفريقية ؛ هو العالم الذي وجدت فيه السلائل المتوسطة بين الحيوانية والانسانية ومرجع هذه الفروق والتباينات بين أصناف السلائل هو اختلاف البيئة ، فكل بيئة أثرت في سكانها تأثيراً خاصاً ، وطبعته بطابعها . وقد يقع الاختلاط بين السلائل المختلفة بسهولة ، حيث لا توجد الموانع الطبيعية ، وهذه الموانع هي من قبيل الاوقيانوس الاطلانطيكي ، ومنها في آسية الوسطى جبال عالية منعت اتصال الأمم بعضها ببعض

وقالوا إنهم وجدوا في جزيرة تسمانيا « Tasmanie » بقرب استراليا شعباً صغيراً بقي عائشاً من خمسة عشر إلى خمسة وعشرين ألف سنة في الحالة التي كان فيها في أواخر الدور الحجري. ولما كشف الهولنديون سنة ١٦٤٢ هذه الجزيرة وجدوهم لعدم اختلاطهم بغيرهم على ما كانوا عليه منذ آلاف من السنين ، وقالوا : إن التسماني الأخير مات سنة ١٨٧٧ ، وبه انقرضت هذه السلالة .

وقد لوحظ أن سكان شرق آسية ، وسكان أميركا في القديم ، يغلب عليهم اللون الأصفر ، والشعر الأجد ، كما أن سكان أفريقية جنوبي الصحراء الكبرى يغلب عليهم اللون الأسود ، والأنف المفرطح ، والشعر المغفل ، والشفاه الضخمة . كما أن سكان شمالي أوربا وغربيها شقر الألوان ، زرق العيون ، مع الشعر السبط ، والجلد البَضّ ، وعلى شواطئ البحر المتوسط نجد الشعوب بيض الألوان لكن مع سواد العيون والشعور ، وفي جنوبي الهند نجد الشعوب غالبية عليها سمرة اللون ، وجمودة الشعر . ولكن كلما ذهب الانسان شرقاً مالت الألوان إلى الاصفرار . ولا يجب أن تخلو هذه القواعد من استثناءات ، ففي أفريقية مثلاً أقوام ملاحظهم آسيوية ، وفي بلاد اليابان جنس يقال له الأينوس « Oinos » هم أشبه بالأوربيين منهم باليابانيين وقد وجدوا قومًا أشبه بالزنوج في جزر أندمان « Andamans » في خليج البنغالة من الهند ، كما أنه في بعض أقسام الهند يوجد أناس يغلب عليهم السواد الزنجي وليس من المحقق كون هؤلاء الهنود من أصل واحد مع سودان أفريقية ، فإن تأثير البيئة واستمرار هذا التأثير ألوفاً من السنين هما اللذان أوجدا الفروق التي ميزت السلالة البيضاء عن الصفراء ، وعن الحمراء ، وعن السوداء ، بحيث أنه في أواخر الدور الحجري في أوروبة - أي منذ اثني عشر ألف سنة - كانت السلائل البشرية قد تميزت بعضها عن بعض .

قال الفيلسوف المعاصر ولز الانجليزى « H. G. Wells » إن العلماء كانوا لا يزالون يقسمون البشر إلى ثلاث أو أربع سلائل منفصلة بعضها عن بعض منذ القدم وهي سلالة سام ، وحام ، ويافث اعتماداً على قصة نوح ، الواردة في الكتب المقدسة

ولم يبدأوا باخراج البشرية من هذا التقسيم ، وبالاتماد على نظرية أخرى معناها أن البشرية كلها كتلة واحدة تباين بعضها عن بعض بالتأثيرات الجوية ، والعوامل الارضية والقوى المختلفة ، إلا منذ خمسين أو ستين سنة . ولكن العلماء لا يزالون مختلفين في بعض الشعوب هل هي عائدة إلى هذه السلالة ، أو تلك السلالة ؟ لأن الجزم بذلك غير ممكن . فالسلائل المشهورة هي أربع ، وكل منها مختلط بالآخر ؛ فأوربا وشطوط البحر المتوسط وآسيا الغربية تسكنها منذ آلاف من السنين أمم يقال لها السلالة القوقازية ، وهي ثلاثة أقسام ؛ الجنس الأشقر الشمالى ، وقد زعموا أنه جنس متوسط بين سلالتين ، والجنس الألبى الذى فى وسط أوروبا ؛ والجنس الايبيرى أو الساكن على شواطئ البحر المتوسط . ثم تأتى السلالة الصفراء وهي فى شرق آسية ، وفى أميركا ، ويقال لها السلالة المغولية . وفى أفريقية السلالة السوداء ، ومنها فى استراليا وفى غينيا الجديدة ، ثم إن السلالة الايبيرية المشتقة من السلالة البيضاء كانت فى الماضى تسكن أقطاراً أوسع مما تسكن الآن ، فلذلك لاتعلم فى الحقيقة التعخوم التى تفصلها عن السلالة السوداء ، ولا الفواصل التى تفصلها عن شعوب شرق آسية . وقد ذهب « فيلريد سكاثن » إلى أن « هوكسلى » Huxley — وهو عالم طبيعى انجليزى ممن يقول بالنظرية الداروينية — كان يقول : إنه يوجد بين المصريين وبين الدارفيديين — شعب أورال النائى جاء إلى الهند واستقر فى جنوبها — وحدة فى الأصل ، وأن هناك نطاقاً بشرياً مستطيلاً من ذوى اللون الأسمر كان يمتد فى القدم من الهند إلى أسبانية .

قال واز : ويجوز أن هذا النطاق يكون قد امتد حتى شطوط الاوقيانوس الباسيفيكي . وربما كانت الشعوب الشمالية الشقراء ، والمغولية الصفراء ، فرعين من أصل واحد .

وهذه الشعوب الشمالية انفصل بعضها عن بعض ، فتباعد ما بينهما باختلاف

البيئة ، و يظهر أنه جاء وقت على التاريخ البشرى انتشرت فيه ثقافة أولية حجرية ذات خصائص مميزة لها ، وكان انتشارها على شواطئ البحر المتوسط بين الشعوب المائلة إلى السمرة ، ثم امتدت إلى الهند وإلى شواطئ الصين ، ثم إلى المكسيك والبيرو ، ولذلك تجدها دائماً على الشواطئ البحرية غير متوغلة في الداخل .

وذهب « اليوت سميث » إلى وجود عادات وعقائد عامة لهذه الأقوام الساكنة على هذه الشواطئ لا تجدها عند الأمم الشمالية ، ولا عند الأمم الجنوبية . ومهد هذه الثقافة الحجرية كان قبل المسيح بخمسة عشر ألف سنة على ضفاف البحر المتوسط ، والقسم الشمالى من افريقية . والمدنيات الاولى أى مدينة مصر ، ووادى الفرات ، ودجلة ، قد تولدت من هذه الثقافة الحجرية . وكذلك مدينة العرب الرحل الساميين . اه ملخصاً .



التوراة وهل وقع فيها تبديل أم لا ؟

تعليق على ما جاء بسطر ٣ صفحة ٨ جزء أول من ابن خلدون

هذا مقام جليل دقيق لا بد للباحث فيه من أن يبلغ نهاية التروى حتى لا تدحض قدمه ، ولا يقع فيما يؤاخذ عليه . والذي يظهر من رأى ابن خلدون أنه لا يعتقد بتبديل التوراة أخذاً بقوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) قال : فلو كانوا بدّلوا من التوراة ألفاظها لم يكن عندهم التوراة التي فيها حكم الله . وتقل عن ابن عباس قوله : معاذ الله أن تعتمد أمة من الأمم إلى كتابها المنزل على نبيها فتبدله . أو ما في معناه . ثم قال : إن ما وقع في القرآن الكريم من نسبة التحريف والتبديل في التوراة إلى اليهود فإنما يراد به التأويل فيها . ثم استدرك بقوله : (إلا أن يطرّقها التبديل في الكلمات على طريق الغفلة وعدم الانضبط وتحريف من لا يحسن الكتابة بنسخها ، فذلك يمكن في العادة ، لا سيما وملسهم قد ذهب ، وجماعتهم انتشرت في الآفاق ، واستوى منهم الضابط وغير الضابط) الخ .

قلت : وليس هذا مذهب جميع المسلمين ، فإن قضية التبديل في التوراة معروفة من صدر الاسلام ، ومشار إليها في القرآن نفسه بأن اليهود كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، وأنهم كانوا يتعمدون كتمان بعض ما أنزل عليهم ، وقد ضربوا مثلاً لذلك كون النبي صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عما جاء في التوراة بشأن رجم الزانية فأخفوا عنه آية التوراة المتعلقة بهذا الأمر . ومن المعلوم أن هذا وأمثاله مما شهد به القرآن على اليهود ، وجاء مثله في الحديث ؛ لا يخرج عن كونه تبديلاً ، ولذلك صارت قضية التبديل في التوراة مثلاً مضروباً . كنت أسمع أستاذنا الشيخ محمد عبده رحمه الله يقول : « هذه توراة مبدّلة » ولا أرى في نسبة التبديل إلى التوراة ما يخالف قوله تعالى : (وعندهم التوراة فيها حكم الله) لأن العبرة بالغالب ، أو لأنه

يريد أن يقول : إن التوراة فيها حكم الله إذا كانت على وجهها الصحيح . وبالجملة فالمسلمون منهم من حصر معنى التبديل في تحريف الكلم عن مواضعه ، ومنهم من أنهم اليهود بتبديل التوراة نفسها .

ومقدم هذه الطبقة هو أبو محمد بن حزم . فقد ذكر في كتابه « الملل والنحل » وجود مناقضات ظاهرة ، وأكاذيب واضحة في « الكتاب الذي تسميه اليهود التوراة ، وفي سائر كتبهم ، وفي الأناجيل الأربعة ، يتيقن بذلك تحريفها وتبديلها وأنها غير الذي أنزل الله عز وجل » ثم ذكر ابن حزم المواضع التي حكم فيها بوجود الكذب والتناقض ، وقال : « إنها من الكذب الذي لا يشك كل ذي مسكة تميز في أنه كذب على الله تعالى ، وعلى الملائكة عليهم السلام ، وعلى الأنبياء عليهم السلام » . ثم قال قبل أن شرع في إيراد الأمثلة : « إننا لم نخرج من الكتب المذكورة شيئاً يمكن أن يخرج على وجه ما وإن دق ، و بعد فلا اعتراض بمثل هذا لا معنى له . وكذلك أيضاً لم نخرج منها كلاماً لا يفهم معناه ، وإن كان ذلك موجوداً فيها . لأن للقاتل أن يقول قد أصاب الله به ما أراد ، وإنما أخرجنا ما لا حيلة فيه ، ولا وجه أصلاً إلا الدعاوى الكاذبة التي لا دليل عليها أصلاً لا محتملاً ولا خفيّاً »

وقد جاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية بقلم المستشرق الالماني اليهودى هور ووتز - وكانت لنا معرفة به وهو الذى ترجم لنا شِمرّاً ارتجلناه عند زيارة بيت غوته شاعر الألمان الأكبر ، ونشر ذلك فى الصحف وله ووتز ترجمة شعر الكميت أيضاً - أن ابن حزم أورد ٥٧ موضعاً بَيَّن فيها تناقضات التوراة والمستحيلات التي فيها . قلنا : إن أبا محمد بن حزم ذكر أن بأيدي السامرية توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود ، يزعمون أنها المنزلة ، ويقطعون بأن التي بأيدي اليهود محرفة مبدلة وسائر اليهود يقولون إن التي بأيدي السامرية محرفة مبدلة ؟ قال : ولم يقع إلينا توراة السامرية ، لأنهم لا يستحلون الخروج عن فلسطين والأردن أصلاً ، إلا أننا قد أثبتنا ببرهان ضرورى علي أن التوراة التي بأيدي السامرية محرفة مبدلة عندما

ذكرنا في آخر هذه الفصول أسماء ملوك بني إسرائيل « انتهى . قلنا إن اختلاف توراة اليهود عن توراة السامرية مسموع ، وقد كنا في نابلس منذ ثلاثين سنة ، وكان يتردد علينا اسحق كاهن السامرية ، ودعانا مرة الى الكنيس الذي لهم وهو شىء قديم جدا ، وأطلعنا على توراتهم وقال : إن تاريخ نسخها يرجع إلى ألف سنة . وما أتذكره من كلامه - وكان عالماً بذهبهم - أن بين توراتهم وتوراة اليهود بعض الاختلاف ، وربما يكون ذكرى مواضع الاختلاف أو بعضها ، ولكنه لم يبق في خاطرى ما ذكره لطول العهد به .

ونعود الى كلام ابن حزم ؛ فهو يأخذ مثلاً عبارات من التوراة ويبين ما فيها من الاستحالة مثل « ونهر يخرج من عدن فيسقى الجنان ، ومن ثمّ يفترق فيصير أربعة رؤس ، اسم أحدها النيل وهو محيط بجميع بلاد زويلة الذى به الذهب وذهب ذلك البلد جيد ، وبها اللؤلؤ وحجارة البلّور . واسم الثانى جيحان وهو محيط بجميع بلاد الحبشة ، واسم الثالث الدجلة وهو السائر شرق الموصل ، واسم الرابع الفرات ، فقال : فى هذا الكلام من الكذب وجره فاحشة قاطعة بأنها من توليد كذاب مستهزى . ، أول ذلك إخباره أن هذه الأربعة تفترق من النهر الذى يخرج من جنات عدن . وأفاض ابن حزم فى تكذيب ذلك بما لا حاجة الى نقله هنا . ثم قال : فإن قال قائل : فقد صح عن نبيكم صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النيل والفرات وسيحان وجيحان من أنهار الجنة » قلنا نعم هذا حق لا شك فيه ، ومعناه هو على ظاهره بلا تكلف تأويل أصلا ، وهى أسماء لأنهار الجنة كالكوثر والسلسبيل فإن قيل قد صح عنه عليه السلام أنه قال : « ما بين بيتى ومنبري روضة من رياض الجنة » قلنا هذا حق ، وهو من أعلام نبوته ، لأنه أنذر بمكان قبره فكان كما قال وذلك المكان لفضله وفضل الصلاة فيه يؤدى العمل فيه الى دخول الجنة ، فهى روضة من رياضها ، وباب من أبوابها .

ومعهود اللغة أن كل شىء فاضل طيب فإنه يضاف الى الجنة ، وليس كذلك الذى فى توراة اليهود ، لأن واضعها لم يدعها فى إيس من كذب ، بل بين أنه غنى النيل

المحيط بأرض زويلة بلد الذهب الجيد ، ودجلة التي بشرق الموصل ، وجيحان المحيط ببلد الحبشة ، فلم يدع لطالب تأويل حيلة ولا مخرجاً . ثم قال نقلاً عن التوراة : « وقال الله هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر ، والآن كيلا يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة ويأكل ويحيى إلى الدهر ، فطرده الله من جنات عدن » قال ابن حزم : حكاية عن الله تعالى أنه قال : هذا آدم قد صار كواحد منا مصيبة من مصائب الدهر ، وموجب ضرورة أنهم آلهة أكثر من واحد . وقد أدى هذا القول الحبيث المفتري كثيراً من خواص اليهود إلى الاعتقاد أن الذي خلق آدم لم يكن إلا خلقاً خلقه الله تعالى قبل آدم ، وأكل من الشجرة التي أكل منها آدم فعرف الخير والشر ، ثم أكل من شجرة الحياة فصار إلهاً من جملة الآلهة ، نعوذ بالله من هذا الكفر الأحمق ، ونحمده إذ هدانا للملة الزهراء التي تشهد سلامتها من كل دَخل بأنها من عند الله تعالى .

ثم قال في إحدى الأمثيل التي أوردها من التوراة : فلما ابتدأ الناس يكثرون على ظهر الأرض ، وولد لهم البنات ، فلما رأى أولاد الله بنات آدم أسهن حسان اتخذوا منهن نساء !! وقال بعد ذلك : كان يدخل بنو الله إلى بنات آدم ويولد لهم حراماً ، وهم الجبابرة الذين على الدهر لهم أسماء ، وهذا حق ناهيك به ، وكذب عظيم ، إذ جعل لله أولاداً ينسكحون بنات آدم وهذه مصاهرة تعالى الله عنها . حتى أن بعض أسلافهم قال : إنما عني بذلك الملائكة ، وهذه كذبة إلا أنها دون الكذب في ظاهر اللفظ ، ثم مضى ابن حزم بلمهجته الشديدة المعهودة المشهورة في تكذيب التوراة ، أو بالأحرى ما ينسب إلى التوراة مما ليس بالحقيقة منها ، فأملى نحواً من تسعين صفحة في هذا الموضوع .

ومن جملة ما ذكر قضية لوط ، وأنه أقام في المغارة هو وابنتاه ، فقالت الكبرى للصغرى : أبونا شيخ وليس في الأرض أحد يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا الحجر ونضاجمه ونستبق منه نسلاً ، فسقتا أباهما خيراً في تلك الليلة ، فأتت الكبرى فضاجعت أباهما ولم يعلم بنومهما ولا بقيامهما ، فلما كان من الغد قالت الكبرى

للصغرى : قد ضاغت أبي أمس تعالى نسقيه الخمر هذه الليلة وضاجعه أنت ونستبق من أبينا نسلا ، فسقتاه تلك الليلة خمرآ وأنت الصغرى فضاجمته ولم يعلم بنومها ولا بقيامها . وحملت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت الكبرى ابناً وسمته مواب وهو أبو الموابيين إلى اليوم ، وولدت الصغيرة ابناً سمته ابن عمون وهو أبو العمونيين إلى اليوم » الخ . قال ابن حزم : في هذه الفصول فضائح وسوآت تقشعر من سماعها جلود المؤمنين العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام ، فأولها ما ذكر عن بنتى لوط عليه السلام من قولها ليس أحد في الأرض يأتينا كسبيل النساء ، تعالى نسق أبانا خمرآ ونضاجعه ونستبق منه نسلا ، فهذا كلام أحق في غاية الكذب والبرد !! أترى كان انقطع نسل ولد آدم كله حتى لم يبق في الأرض أحد يضاجعهما ؟ إن هذا لعجب » اه .

وسحب ابن حزم سائر اعتراضاته هذا السحب مما لا حاجة لاعادته ، فمن شاء فليراجعه في كتاب « الملل والنحل » وإنما أوردنا ما أوردناه هنا على سبيل التمثيل ولا شك في أن مثل هذه الأقاويل لا تجوز على كتاب منزل ، وأن نسبتها إلى كتاب منزل مضرة جداً بالدين ، ومفسدة للأخلاق ، وأن المسلمين لا يعتقدون بأن مثل هذا يكون من التوراة الحقيقية .

ومن العجب أن التوراة مع اشتغالها على هذه الفصول المستهجنة ، وهذه العبارات الغريبة المدهشة ، قد صدقها المجمع الكاثوليكي التارنقى الذى قرر أن التوراة الصحيحة في نظر الكنيسة الكاثوليكية هي خمسة أسفار موسى التى يقال لها الناموس وكتاب الأنبياء المشتمل على كتب يشوع ؛ والقضاة ، والملوك ، ونبوات أشعيا وإرميا ، وحزقيال ، ودانيال ، والاثنى عشر نبياً صغيراً ، وكذلك كتب « باراليپونسيس » و « إسدراس » و « نىحميا » و « طوبيا » و « يوديث » و « أستير » و « أيوب » والمزامير ، والأمثال ، والسكهنوت ، ونشيد الانشاد ، والحكمة ، وكتابتى المكابيين . ولم يخرج الكاثوليكيون من التوراة إلا كتاب أنوخ ، وثلاثة أو أربعة كتب من إسدراس ، وثلاثة أو أربعة كتب من المكابيين ، وكتاب منشئ .

أما اليهود والبروتستانت فانهم يخرجون من التوراة كتاب طوبيا ، ويوديث والحكمة ، والكهنوت ، وكتاب باروخ ، وبعض أقسام من كتاب أستير ، وقصة سوسان ، وقصة الشبان العبرانيين الثلاثة ، والكتابين الأولين من المكابيين ، وقصة أوثان بعل ، وداغون . هذا ما كان من العهد القديم ، فأما العهد الجديد فهو الذي يشتمل على الأناجيل الأربعة ؛ متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، وأعمال الرسل ، و١٤ رسالة من بولس ، وسبع رسائل من بطرس ، ويعقوب ، ويهوذا ، ورؤيا ، يوحنا . وقد أخرج الجمع التارنتي من العهد الجديد رسائل برنابا ، ورسائل بولص إلى اللاوديقيين وإلى منيكا وكتاب السيد المسيح إلى أبقار ، وكثيراً من الأناجيل .

وقد جاء في كثير من الكتب - حتى التي ألفها مؤلفون مسيحيون - تخطئة للعهد الجديد أيضاً ، فضلاً عن العهد القديم . وتجد في معجم لاروس تخطئة إنجيل متى في نسب المسيح ، فبعد أن ساق مقاله متى من أنه من سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر بطناً ، قال : إن في هذه النسبة مشكلات لا تقبل الحل ، لأنه لا يوجد من سبي بابل إلى المسيح أربعة عشر ، وإنما هي ثلاثة عشر بحسب كلام متى نفسه . فأما الذين أنعموا على الأناجيل الأربعة بالتخطئة ممن لم يبق عليهم من المسيحية إلا الاسم فانهم كثيرون جداً . وقد ازدادت الكتب المتعلقة بهذا المبحث بعد الحرب العامة كثيراً ، فقد عرضوا الأناجيل على المحك وتحصوها تمحيصاً لا بأس بأن نشير إلى بعضه ، ونورد عليه بعض الأمثلة ، لأن الاستقصاء في هذا الباب يستغرق مجلدات كثيرة ، ونحن إنما نتوخى مجرد الإشارة إلى الموضوع ، حتى إذا كان للقارىء رغبة يمكنه أن يراجع في مظانه ، ولو كانت هذه الحواشي للاستقصاء لم تكن لتنتهى .

جاء في الكتاب المتعلق بالسيد المسيح من تأليف الدكتور « بينيه سانغليه » Binet - Sanglé « أحد أساتيد علم الروح في فرنسا ، وذلك في الجزء الأول من الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور في صفحة ٢٠ إلى صفحة ٧١ ما يأتي ملخصاً » إن أكثر رجال العمل لا يفكرون في الكتابة والتأليف ، وترى المتهوسين من أصحاب الدعاية الدينية لا يهتمون بتقيد أعمالهم وتخليدها إلا بعد أن يدخلوا من العمر في الطور الذي يقتضى الراحة ، فأما تلاميذ المسيح فقد تأخروا عن كتابة تاريخ

معلمهم بهذا السبب ، و بسبب آخر هو اعتقادهم أنه لم يبق وقت للكتابة لأن القيامة قريبة ، فبقيت أعمال المسيح مدة عشرين إلى ثلاثين سنة محفوظة في الصدور لا في السطور .

وقد ذكر « پاپياس Papias » الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني وكان مطراناً على هيرابوليس ، وهى البلدة التى أقام بها فيلبس الرسول أن المكتبة الأولى للإنجيل كانت ذاكرة شمعون الصفا ، ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا بن زبده ولاوى بن الفايس أى متى ، وتوما ، واندرىا ، وارستيون ، ويوحنا ، وفيلبس نفسه . فان هؤلاء الذين كانوا يحفظون تاريخ المسيح ، وكانوا يروون حركاته وسكناته للناس شفهيًا ، إلى أن ألحّت جماعات المؤمنين عليهم بكتابتها في الورق فكانت من أجل ذلك الأناجيل الأولى التى يشهد بوجودها الإنجيلي لوقا ، ويشهد پاپياس نفسه ، فان لوقا يقول ما يأتى : « إن كثيرين أرادوا أن يسطروا روايات الوقائع التى تمت طبقاً لشهادة من شاهدوا عياناً » .

وانظر إلى ما يقول پاپياس في مقدمة كتابه المسمى « شرح أحكام الرب » خطاباً لأحد أصحابه : « لا أتردد من أجلك أن أحرر ما سمعته من الزكينييم - الزكينييم بالعبرية تقوم مقام الشيوخ في العربية . وهى مشتقة من فعل زكن بمعنى علم وفطن وأنت تعلم أن العربية والعبرية من أصل واحد والميم في العبرية كالنون في العربية فقولاك الزكينييم هو كقولك الزكينيين - وما وعته ذاكرتى لأجل إثبات حقيقة الشرح الذى شرحته ، ولم أكن ناقلًا عن الرواة المعروفين بفصاحة اللسان وذلاقة التعبير كما يفعل الكثيرون ؛ بل ناقلًا عن معلمى الحقيقة . فإني لا أحب أن أروى عن يداخلون مبادئ أجنبية في كلامهم ؛ وإنما أحب أن أروى الوصايا التى فرضها الرب - والى هى وليدة الحقيقة . فاذا كنت صادفت بعض من كانوا في عشرة الزكينييم - أو الزكينيين - فكنت أتحرى أن أعلم ما هل أندريا ، أو بطرس ، أو فيلبس ، أو توما ، أو يوحنا ، أو متى ، أو تلميذ آخر من تلاميذ السيد . ولم أكن أعتقد أن ما هو في الكتب أفيد لى من سماع كلمة حية من أفواه هؤلاء ، فركض كان ترجماناً

لبطرس ، وكان يكتب كل ما سمعه من بطرس عن أقوال المسيح وأفعاله ، لأن مرقص لم يسمع المسيح ولم يصحبه ، وكان يتبع بطرس حيث ذهب ، وكان بطرس يعلم بحسب الظرف الذى يوجد فيه ، وبدون أن يهتم بربط الروايات بعضها مع بعض ، فمرقص لم يكتب إلا ما سمع من بطرس ، ولم يكن له هم إلا فى تقييد كل ما سمع بدون زيادة ولا نقصان »

ثم إن باپيلاس يقول عن متى : « إن متى جمع كلمات يسوع بال لغة العبرية وترجمها كل بحسب استطاعته » فالأنجيل الأولية إذن كانت إنجياين ؛ أحدهما إنجيل مرقص الأصلى ، والثانى مجموعة متى . وكان إنجيل مرقص خاليا من الترتيب ، وكان مرقص هذا ويقال له أيضا يوحانان من سلالة اللاويّة ، وكان يحمل لقبا يونانيا بحسب العادة فى ذلك الوقت ، وكانت أمه تدعى مريم وفى بيتها كان يجتمع حوار يّوا المسيح وكان قد قطع إحدى أصابعه حتى لا يعود صالحاً للكهنة اليهودى . فكان « هيبوليتوس » القديس يقول له : « مرقص ذو الاصبع المقطوعة » وقد روى « أوزيبديوس » أنه لما كان بطرس الملقب بالصفاء يعظ فى رومة ؛ كان الناس الذين يتلقون البشارة منه يترجون مرقص أن يقيد ذلك بالورق ويدفعه لمن يريد ، فعرف بطرس بالأمر فأنهاه ولا شجعه فى البداية ، ولكن بعد أن كتب مرقص إنجيله صار يتلى فى الكنائس ، ثم ذهب مرقص إلى إسكندرية وأسس هناك الكنيسة المسيحية - ولا يزال القبط يسمون كنيستهم بالكنيسة المرقسية - وعاش هناك بين سنة ٤٥ و ٤٧ للمسيح .

أما مجموعة متى فقد كتبها هذا بين سنة ٥٠ و ٦٠ وكان متى من الحواريين وكان متصوفا متقشفا لا يأكل اللحم ، ولا يشرب الخمر ، وبقى فى فلسطين اثنتى عشرة سنة بعد المسيح ، ونشر إنجيله بلغة العبريين ، بينما كان بطرس و بولص يؤسسان كنيسة رومة . فهذان الأنجيلان هما أقدم الأنجيل .

وجاءت بعد ذلك الأنجيل الثانوية وكثر عددها ، ولما تغلبت الكنيسة فى الدولة الرومانيّة أحرقت جانبا عظيما من هذه الأنجيل الثانوية ، بحيث لم يبق منها

إلا أسماء فقط . فمنها إنجيل « أندرياس » جاء ذكره في منشور من البابا جيلاسيوس الأول سنة ٤٩٤ . ومنها إنجيل « بارنابي » الذي ذكره « جيلاسيوس » ولم يكن يفترق عن إنجيل متى . ومنها إنجيل « باسيليديس » ذكره « أوريجينيس » وقد كتب سنة ١٢٥ . ومنها إنجيل « قيرنيتوس » وكان يهوديا مال إلى شريعة عيسى وكتبه في نحو سنة ١٨٠ وكان يقول إن عيسى هو ابن يوسف من مريم . وقد ذكر هذا الكتاب القديس « هيبوليتوس » . ومنها إنجيل « هيزيشيوس » الذي ذكره « إرونيموس » (سنة ٣٤٠ إلى سنة ٤٢٠) ومنها إنجيل يعقوب الصغير ذكره « جيلاسيوس » ومنها إنجيل يهوذا ذكره « إيريناوس » (١٧٧ — ٢٠٢) وكان هذا الإنجيل مستعملا عند القايينيين وهي نخلة كانت تتمسك بكل شئ . تحرم الكنيسة وكانت تعظم قايين . ومنها إنجيل « تاداي » ذكره جيلاسيوس . ومنها إنجيل « مقريون » ابن مطران سينوب ألفه سنة ١٣٠ وذكره إيريناوس وهو مأخوذ من إنجيل لوقا ، ولكنه لا يذكر الفصل المتعلق بميلاد يسوع ، ولا قصة الكرمة ولا الابن الشايط . ومنها إنجيل متى الذي ذكره « أوريجينيس » ومنها إنجيل « ساتورينوس » ذكره هيبوليتوس وتاريخه سنة ٢٢٠ . ومنها مجموعة الأناجيل الأربعة بقلم « تاتيانوس » الأشوري تلميذ يوستينوس وكان من النحلة التي تحرم أكل اللحم وشرب الخمر والشهوات البدنية . وقد كتب هذا الكتاب سنة ١٧٢ باللغة الآرامية ولا يوجد في هذا الإنجيل النسبة الداودية .

وفي سنة ٤٥٣ وجد « تيودوريتوس » أسقف سيروس - مدينة بقرب الفرات - مائتي نسخة من هذا الإنجيل بين رعيته فمنعها . وفي سنة ٥٤٥ اطلع فكتور أسقف « كبرى » على ترجمة لاتينية لهذا الكتاب . ثم أناجيل الناسينيين « Naasseniens » والبيراثيين « Perates » والسيتيين « Sethiens » ذكرها كلها هيبوليتوس وفي الإنجيل الأول منها خطب ليعقوب بن يوسف أخى يسوع . ومنها إنجيل السمعانيين « Simonians » جاء ذكره في المقدمة العربية لمجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ . ومنها الإنجيل الأبدى ، جرى تأليفه في القرن الثانى عشر بقلم راهب اسمه « جيوفاشينو »

« Giovacchino » وحرمه الباباوات سينيبالدو الذى عاش من سنة ١٢٤٣ إلى سنة ١٢٥٤ ؛ و بطرس الذى عاش سنة ١٢٧٦ . ثم تاريخ فرار مريم العذراء ويوسف إلى مصر ، وهو منسوب إلى « ثيوفيلوس » الاسكندرى وقد ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية (١٦٨٧ - ١٧٦٨) ومنها أسئلة مريم التى ذكرها « أيفانوس » (٣٢٠ - ٤٠٣) وفيها قضية تطهير الأنفس . ومنها إنجيل الكمال ذكره أيفانوس ومنها الانجيل الحى كان منتشراً بين المانويين .

و يوجد أناجيل أخرى محفوظة منها بعض قطع ، وذلك مثل إنجيل حواء وكان معروفا عند الأوفيتيين « Ophites » الذين كانوا يعبدون الثعبان ، وهو مشابه لإنجيل الكمال . ومنها إنجيل « بارتلماي » الذى حرمه جلاسيوس ، وجد فيه بعض المؤلفين قطعاً مهمة باليونانى والقبطى مترجمة عن العبرى . ومنها إنجيل فيلبس من القرن الثانى وكان هذا يحرم الزواج ، ويذهب إلى أن النسل نتيجة مبدأ غير حسن ، ولم يبق منه إلا قطعة ذكرها أيفانوس .

ومنها إنجيل شمعون الصفا ويذهب يوستينوس إلى صحة ، وليس بينه وبين إنجيل متى إلا فرق قليل وتاريخه من سنة ١٦٠ إلى ١٧٠ وبقى معمولاً به إلى سنة ١٩٠ وفى سنة ١٨٨٧ وجدوا فى أخيم بمصر فى قبر راهب قطعة منه . ومنها إنجيل توما المحرر فى القرن الثانى بقلم بعض مسيحيين من سورية باللغة اليونانية . ومنها إنجيل الحقيقة محرر سنة ١٥٠ ذكر منه هيپوليتوس بعض قطع . ومنها تعاليم الرسل الاثنى عشر ، عثروا عليه بشكل مخطوط يونانى ويقال إنه كان فى القرن الثانى . ومنها إنجيل الاثنى عشر حوارياً وجده ريفيليو « Revillout » باللغة القبطية ، ومنه مخطوط فى مكتبة ستراسبورج وكاتبه يزعم أنه غليليل القديم الذى كان يدافع عن شيعة يسوع أمام مجلس اليهود . وهذا الانجيل تاريخه يرجع إلى القرن الثانى . ومنها ذكريات الرسل أشار إليها يوستينوس سبع عشرة مرة ، وكانوا يقرأونها كل يوم أحد فى النصف الثانى من القرن الأول . ومنها الانجيل بحسب العبرانيين أو الناصريين كتب باللغة الآرامية فى أواخر القرن الأول ، وهو يشبه إنجيل متى . ويذهب

«إيرونيemos» ، و«ريشارد» سيمون إلى أن هذا الانجيل أعلى درجة من إنجيل متى . فالغلطة التي غلطها متى في جعله زكريا ابناً لبريكيا مصححة في إنجيل العبرانيين الذي يجعله ابن يُو وادا . وقد كان هذا الانجيل مستعملاً في فلسطين وسورية وبقى منه اثنتا عشرة قطعة وأشار إليه «إغناطيوس» في رسائله إلى أهل إزمير و « طيطوس » و « فلاقيوس » و « كليمان » و « أوريجينيس » و « أورينيemos » . وليس في هذا الانجيل ذكر لبكارة مريم . ثم إنجيل العبرانيين الإيونييم وهم جماعات في السامرة كانوا يحافظون على بعض عادات اليهود لكنهم كانوا يمتنعون عن أكل اللحم وكانوا يحبون الاغتسال كثيراً ، ويعيشون في الفقر . وإنجيلهم هذا مشتق من إنجيل الحواريين الاثنى عشر ، وليس فيه نسبة يسوع ، ولا حمل مريم له بصورة عجيبة ولا قصة ملوك الجوس ، ولا قصة فرار مريم بيسوع إلى مصر . وهم يقولون : إن يسوع هو ابن يوسف من مريم ، ولم تكن مريم بكرآ ، ولا كان يسوع إلهاً . وقد حفظ أيفانوس قطعة من هذا الانجيل . ثم الانجيل بحسب المصريين كتب باللغة الآرامية سنة ١٥٠ يقرب من إنجيل لوقا ، وإنجيل متى ، وهو ينسب إلى يسوع ألفاظاً غريبة . وقد ذكره تيتوس ، وفلاقيوس ، وكليمان ، وغيرهم . ثم الانجيل المتهود وهو منسوب إلى « فوسطس كليمانس » ولا يوثق به . ووجد « بيكل » « Bickel » في قينا قطعة من إنجيل لم يعرف صاحبه . ويوجد كتاب فيه كلمات منسوبة إلى يسوع لا توجد في الأناجيل واسمه أغرافا « Agrapha » وكشف « ريفايو » قطعاً فيها أخبار عن مريم في صغرها كان يسوع يتحدث بها الرسل ، ونشر ذلك في الجريدة الآسيوية . ووجد طرس في البهنسا من مصر يحتوي واحداً وعشرين سطراً على الوجهين ، يظهر أن تاريخها راجع إلى سنة ٢٠٠ . ووجد خبر موت القديس يوسف الناصري النجار والد السيد المسيح - بحسب زعمهم - عثروا على ثمانى ورقات من هذا الكتاب . ووجد خبر موت العذراء مريم في مخطوط قبلى نشره «ادوار دولورييه Dawrulier» ثم إنه يوجد أناجيل محفوظة بتمامها ووثائق أخرى سامية متعلقة بالسيد المسيح وعائلته منها الكتاب المسمى عقيدة أداى « Addai » وهو مؤلف سريانى من القرن الرابع

كتب تحت إملاء بارسلناك كاتب أبقار « Abgar » الأسود ملك الرها من سنة ١٣ إلى سنة ٥٠ وجد من هذا الكتاب مخطوط تاريخه القرن الخامس عشر عليه « كيرتون Cureton » سنة ١٨٧٦ وقد وجد في هذا الكتاب مكتوب من « أبقار » إلى يسوع يرجوه أن يحضر إليه في الرها حتى يشفيه من مرض هو مصاب به . ومكتوب من يسوع إلى أبقار يذكر له فيه أن كل من يؤمن به ينال الخلاص ، وأنه سيرسل إليه أحد تلاميذه ليشفيه من مرضه . وقد ذكر أوزيبوس (٢٦٥ — ٣٤٠) هذين الكتابين في تاريخ الكنيسة ولم يشك كثير من العلماء في صحتها ، منهم « تيليمونت Tillemont » والسمعانى و « كاف Cave » و « جراب Grabe » و « رنك Rinck » وفيلبس .

ثم إنجيل برنابى وصاحبه يزعم أنه عاش في زمن يسوع ، وكان مخالطاً له ولأمه وهو يذكر أنه لم يكن إلا نبياً من الأنبياء ، وأن الصلب إنما وقع على يهوذا الاسخريوطى لشدة شبهه بعيسى ، وأن عيسى رجع إلى أمه وتلاميذه ولم يصلب وهذا الكتاب هو تأليف أحد المسلمين .

قلنا : إن الحكم بدون دليل لا يصح ، فقول الدكتور بينيه سانغليه إن هذا الكتاب تصنيف أحد المسلمين بدون ذكر المسلم الذى صنّفه بل بمجرد الظن ليس بوارد ، فالظن لا يغنى من الحق شيئاً ، وكان عليه أن يأتى بالأدلة على هذا الزعم فان كان الدليل عنده على هذا هو نفي الصلب ، والقول بأنه وقع على غير عيسى تشبيهاً له به ؛ فليس المسلمون وحدهم قالوا بهذا ، وهذه الرواية موجودة من زمن عيسى نفسه . حتى أن أميل لودفيج اليهودى الألمانى المشهور بتأليف التراجم ذكر في آخر كتابه الذى ألفه لهذا العهد عن المسيح أنه لما سرق النصارى جثة عيسى من المغارة بعد الصلب جاء اليهود وشكوا الى « بيلاطوس النبطى » سرقة جسد عيسى وقالوا له : كيف يمكن بدون التواطؤ مع الحكومة أن يتمكن النصارى من إخراج الجسد من المغارة ! . وشائع اليوم كثيراً أن عيسى لم يصلب ، وأن الصلب إنما وقع على غيره . وقد استوفينا قضية الصلب هذه في حواشينا على « حاضر العالم الإسلامى » فى عرض

الكلام على كتاب « درمنجهم » الذى أراد التوفيق بين الاسلام والنصرانية . فمن شاء فليراجعها هناك . وقد نشر الأستاذ صاحب المنار (رحمه الله) مباحث فى هذا الموضوع ورسالة سديدة لأحد الدكاترة المصريين .

وبديهي أن من الأناجيل المحفوظة بتمامها إنجيل مرقس ، و إنجيل يوحنا و إنجيل متى ، و إنجيل لوقا ، وهى الأربعة التى يعول عليها النصارى .

ثم هناك كتاب يقال له طولدوس يشوع « Toldos Jeschou » وهو مؤلف عبرانى من القرن الثانى عشر وا عليه فى أواخر القرن الثالث عشر ، ونشر سنة ١٦٨١ وفيه أكثر القصص المذكورة فى الأناجيل ، وفيه ذكر موت يعقوب أخى المسيح . ثم تلمود اورشليم وبابل ، وفيه ذكر المسيح . ثم قصة المسيح وهو صغير بقلم توما الفيلسوف الاسرائيلى يذكر معجزات عيسى وهو محفوظ بكل من اللغات السريانية واليونانية ، واللاتينية . ثم مكتوب يسوع النازل من السماء ذكره « ليسنيانوس » أسقف قرطاجنه فى القرن الرابع للمسيح . ثم تاريخ يوسف النجار كتب فى مصر فى القرن الثانى وهو بالقبطية . ثم قصة مولد مريم وهى ثلاثة أقسام ؛ اثنان منها كتب فى القرن الثانى ، والثالث فى القرن السادس . وفى هذا الكتاب مذكور ولادة مريم ومنشؤها فى الهيكل ، وزواجها وحملها بيسوع ، وغضب يوسف النجار عند ما علم أنها حامل . وهذا الكتاب محرر باليونانية . ثم كتاب ولادة مريم وطفولية عيسى لمؤلف مجهول اسمه متى ويظهر أنه من القرن السادس ، وفيه قصص وردت فى كتاب ولادة مريم ، وفى كتاب توما الفيلسوف الاسرائيلى ، مع زيادات ، وهو محرر باللاتينى . ومثله كتاب عن ولادة مريم أيضاً كتب فى القرن الخامس باللغة اللاتينية . ثم مكاتيب السيدة مريم إلى أهالى مسينى ، وفلورانس ، وجواب السيدة مريم إلى أغناطيوس ، وهذه المكاتيب ظهرت سنة ١٤٩٥ فى خاتمة تاريخ توما دوكانتر بورى « Thomas de Cantorbery » ثم كتاب عن مريم أيضاً جاء ذكره فى منشور البابا جيلاسيوس وهو منسوب إلى يوحانان بن زبده . وقد وصل إلى الناس هذا الكتاب بالعربية . وكتاب آخر يتعلق بمريم تأليف « ميلتون »

مطران السارد تاريخه القرن الثانى . ثم رسالة للقديس يوحنا نال اللاهوتى على قيامة مريم من بين الأموات مظنون أنه كتب فى القرن الثانى عشر . ثم الإنجيل المسمى بالإنجيل الحداثة كتبه أحد النساطرة الذين يذكرون وجود المطهر ، ولا يقولون بمزوجة القسيسين ، وقد وصل إلى الناس باللغة العربية ، ولعله مترجم عن السريانى ثم الرسائل المنسوبة إلى يعقوب بن يوسف ، وإلى يهوذا بن يوسف إخوة المسيح . ثم أعمال الرسل تأليف لوقا ، ثم تاريخ الرسل تأليف أوباديا - أو عبّادية - كتب بالعبرانى فى صدر النصرانية . ثم تاريخ الكنيسة لأوزيبديوس (٢٦٠ - ٣٤٠) فجميع هذه الكتب ما عدا الأناجيل الأربعة عدت أحاديث خرافة ، وحرمتها الكنيسة ، واضطر الذين بأيديهم منها شيء أن يخفوه . ورغم هذا فقد كانت من القرن الخامس إلى القرن السادس عشر منتشرة جداً ، وربما كانت هى السبب فى انتشار العقيدة المتعاقبة بمريم حتى انتهى الأمر بأن عبدوها . فأما الأناجيل الأربعة فقد تقرر صحتها فى المجمع اللاوديقى فى أيام البابا سلفستر الأول (٢٧٠ - ٣٣٧) وفى مجمع قرطاجنة المنعقد سنة ٣٩٧ وقد ثبت ذلك البابا جيلاسيسوس الأول سنة ٤٩٤ وأقدم هذه الأناجيل الأربعة إنجيل مرقس ، وهو رأى « قيليكه » « Wilke » و « فايس Weiss » و « أرنست رينان » و « جول سورى » و « ألبير ريفيل » و « إدمون ستايفر » وايس فى هذا الإنجيل صنعة ولا اهتمام بتأييد العقيدة ، بل هو يذكر الحوادث كما هى بدون زيادة ولا نقصان ، وليست فيه النسبة الداودية ولا أعجوبة الحل ، ولا ميلاد المسيح ولا صعوده ، وإنشاؤه ساذج ، ولذلك فقيمه التاريخية عظيمة ، ويأتى بعده إنجيل متى وقد كتب بالعبرية ، وترجم إلى اليونانية ، وكتبه يروى روايات غير مضبوطة ، فيها كثير من التعسف ، ويزيد وينقص ، ويحرف ويبدل ، ويضع فى يوم واحد حوادث وقعت فى يومين مختلفين ولا يتنبه إلى أنه قد روى القصة مرتين ، ويحاول أن يعلل كيف أن يسوع الذى كان أكبر من يوحنا المعمدان جاء يطلب من يوحنا أن يعمده . وفى الحل الذى يذكر مرقس مريضاً واحداً نال الشفاء على يد عيسى يذكر هو مريضين ، وفى الحل

الذى يقول مرقس فيه لفظه « كثير » يقول متى « الجميع » والفتاة النائمة يقول عنها إنها ميتة ، وقد ورد في إنجيل مرقس : « لماذا تدعوننى صالحاً . مامن صالح غير الله » فمتى يبدل ذلك قائلًا عن لسان المسيح « لماذا تسألوننى عما هو صالح لا يوجد إلا صالح واحد » و محل « طوبى للفقراء » يقول « طوبى للفقراء بالعقل » و محل « الجياع » يقول « الجياع إلى العدل » ثم إن متى يحذف الجملة التى وردت في إنجيل مرقس من أن أقارب يسوع ظنوا به جنة ، ومتى يتعب كثيراً في إثبات أن عيسى ولد في بيت لحم وأن جميع النبوات المتعلقة بالمسيح قد تمت به ، وهكذا يؤوّل ما جاء في العهد العتيق متعلقاً بحدوث لا صلة بينها وبين المسيح ، وهو يحذف ما جاء في إنجيل مرقس من زيارة النساء لقبر المسيح وكونهنّ لم يكنّ منتظرات قيامه من بين الأموات . ثم إنه يذكر التوراة إحدى عشرة مرّة ، وفي نقله عنها يخلط خلطاً كبيراً ، إما في النص أو في اسم القائل ، إلى غير ذلك من التحريف والتبديل وفيه كثير من الخرافات . اه فانت ترى أن مؤلف هذا الكتاب الذى لا يوجد أوسع منه في هذا الباب يطرى في الصدق إنجيل مرقس ، ويبالغ في انتقاد إنجيل متى . والحال أنه منذ ثلاث سنوات ظهر كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » تأليف الأستاذ « بروسبير الفاريك Prosperé Alfarié » المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الأستاذ المذكور مذهب من يرى أن أكثر ما ورد في إنجيل مرقس مطابق عمداً على نبوءات سبقت في العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وهذا من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يثبت كل ما هناك من التناقضات تارة ، ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً ، مثل أن الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب ، وأنه انشق حجاب الهيكل ، وغير ذلك من القصص . وكذلك ظهر كتاب جديد اسمه حياة يسوع للمسيو « موريس غوغويل Goguel » من علماء فرنسا توخى فيه الرد على الدكتور « كوشو Couchoud » الفرنسى وغيره من (٥ - تعليقات)

علماء الألمان والانجليز والهولنديين الذين لم يجدوا في الأناجيل حقائق تاريخية تثبت على التمهيص ، بل كل ما وجدوا فيها تقريباً هو من باب الدعاية الدينية المحضة . ومنهم من رجح كون المسيح رمزاً ، وأنه لم يوجد أصلاً . فالمسيو غوغويل يبين ما في هذه الأقاويل من المبالغات ، وهو يقول إن وجود عيسى محقق ، وأن الأخبار الواردة في الأناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها ، وهو يرى أن ادعاء كون المسيح رمزاً فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم أن المسيو موريس غوغويل يعتقد أن كثيراً من روايات الأناجيل غير واقعية ، بل مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً مجرد الدعاية ، أو بحسب الاعتقاد وأن هذا في واد والتاريخ في واد . وكذلك رينان في كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات على النبوات السابقة تعمداً أو تعملاً .

ولنعد إلى بحث الدكتور « بينيه سانغليه » فهو يذكر أن انجيل لوقا كتب سنة ٦٤ وأن لوقا لم يكن من الذين عاصروا المسيح ، ولا كان يهودياً ، ولكن في كلامه كثير من العبري والآرامي فهو بدون شك من أصل سامي . وقد كان لوقا فيما يظهر من المتصوفة وكان مذهبه في التاريخ أن يجمع ويرتب الحوادث بدون اعتناء في أمر صحتها وعدمه . ولكنه لم يكن يسلم من التكرار والتناقض . ويظهر أنه كان طبيباً ، وله عدا الانجيل المذكور كتاب اسمه « أعمال الرسل » . وهذه الأناجيل الثلاثة لم يأت القرن الثاني للمسيح حتى كانت هي المساند المعول عليها عند جميع النصارى . أما إنجيل يوحنا بن زبدى فقد كتب بين سنة ٨٠ و ٩٠ في آسيا الصغرى وهو يأخذ عن الأناجيل السابقة ، وعن وثائق لم يطلع عليها مرقس ومتى . وقد كان يوحنا من هذا يهوديا وكانت كتابته بالعبرانية ، وكان مطلعا على العهد العتيق ، وكان يجتهد في إثبات أن المسيح هو ابن الله ، ويأتي بجمل من العهد العتيق ليستخرج منها إشارات إلى محي الخالص ، ويكثر من الكنايات والاستعارات والتأويلات ، وعند ما يذكر أن المسيح قال : « اهدموا هذا الهيكل وأنا أقيمه بعد ثلاثة أيام » زعم أن مراده بالهيكل إنما هو جسده ! و برغم كل هذا فالذين حكموا بصحة هذا الانجيل عدد لا يحصى من

العلماء ، وذهبوا إلى أنه ناقل أمين ، وأن يوحانان هذا كان أعلم بالأسماء والأعلام من أصحاب الأناجيل الأخرى ، وربما أوضح أموراً من أحوال المسيح وعلاقته مع أحبار اليهود وأعماله في القدس قد فاتت أصحاب الأناجيل الثلاثة الأولى .

وبرغم أن في كلامه عن أيام المسيح في القدس بعض سقطات فهو في هذا الموضوع أعلى درجة من مرقس ومتى ولوقا . وذهب بعضهم إلى أن يسوع في إنجيل يوحانان هو يسوع الحقيقي التاريخي . وقال آخرون : إن أوثق الأناجيل هما إنجيل مرقس ، وإنجيل يوحنا المذكور . وطعن بعضهم في يوحانان المذكور فقالوا : إنه كان جاهلاً متكبراً متعصباً منتقياً ، وكانت فيه ميول شاذة ، وكان تلميذاً ليوحنا المعمدان وأن والده كان صياد سمك قترك والده واتبع المسيح ، وقال عن نفسه : إنه التلميذ الذي كان يسوع يحبه ، وبعد موت المسيح صار من رؤساء الفرقة المسيحية ، فحبس واضطهد ، وكانت وفاته في أفسوس سنة ٩٨ . وقد كان لإنجيله نجاح عظيم ، لأن الناس كانوا يعلمون خلطته بالمسيح من البداية ومن قبل متى . وقد سأل بعض المؤمنين عن رأيه في أصحاب الأناجيل الثلاثة التي سبقتة فقال : إن الذي أهملوه من جهة المعجزات التي يجب أن تروى كان شيئاً قليلاً . فرغب إليه المؤمنون بسدّ النقص الذي وقع في الأناجيل الأخرى ، فكان ذلك هو الحامل له على وضع إنجيله .

وكانت هذه الأناجيل الأربعة مكتوبة على ورق البردى ، وما انتهى القرن الثاني حتى وجد منها ستون ألف نسخة ! ويقال إنه يوجد اليوم ١٠٧٧ مخطوطاً من الأناجيل الأربعة ، وإن أقدمها هو إنجيل تاريخه القرن الرابع عثر عليه «تشندورف» في جبل سيناء في ٤ فبراير ١٨٥٩ . انتهى .

ثم إن الدكتور بينيه سانغليه تكلم عن قيمة الأناجيل التاريخية فنقل أكثر الأقوال المختلفة في هذا الموضوع ، ورجح الرأي القائل بأن أصحابها كانوا قوماً سذجاً رووا الأمور على علاتها ، وأنهم لو كانوا من أهل الصنعة والدهاء لم تقع في أناجيلهم الأغلاط والتناقضات التي وقعت . نعم أن سذاجتهم أوقعتهم في أخطاء كثيرة كما هو الشأن في كل ساذج يريد أن يروي قصة ، لكن مما لا جدال فيه أنهم لم يضعوا

أكاذيب من عندهم ، وغاية ما هناك أن هوسهم كان يحملهم على نقل أشياء غير مطابقة للواقع . اه ملخصاً .

فالقارىء يرى مما لخصناه هنا عن العهدين العتيق والجديد أن الاختلاف واقع فى كل منهما . فالعهد العتيق قد أضاف إليه اليهود ما لا يليق بالكتب المنزلة بوجه من الوجوه كما تقدم الكلام عليه ، فلم يكن التبديل منحصراً فى تحريف السكام ، ولا فى تأويله كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون رحمه الله ، هذا فضلاً عما وقع من الاختلاف فى الأقسام التى يجب أن تعد من التوراة ، والأقسام التى يجب إخراجها منها .

وأما العهد الجديد فان التناقضات واقعة فيه من كل مكان ، فمنه أناجيل رفضتها الكنيسة بالمرّة ، ومنه أناجيل لم ترفضها الكنيسة بالمرّة ولكنها لم تدخلها فى الكتب الكنسية المعول عليها ، ومنه الأناجيل الأربعة التى قررت المجامع العمل بها . وليس رفض الكنيسة لبعض الأناجيل وبعض التواريخ المتعلقة بالعهد الجديد دليلاً كافياً على عدم صحتها ، لأن الكنيسة تنفى كل ما هو خارج عن عقيدتها ، ودليل ذلك أن ما ينفيه الكاثوليك مثلاً قد يثبت البروتستانت ، فالاختلافات بين الأناجيل المردودة والأناجيل المصدقة لا تسكاد تحصى . وأهم من هذا أن الأناجيل المصدقة والمعول عليها هي أيضاً لم تسلم من الاختلافات ولا من الأخطاء كما أجمع على ذلك العلماء الأوربيون الذين محصوها .

وقد يعترف العلماء المسيحيون أيضاً بوقوع الاختلاف فيها ، لكنهم يردونه إلى التأويل ، ويجعلونه من الأعراض التى لا تمس جوهر الحقيقة ، وهذا فيه نظر . وعلى فرض جواز هذا القول فان وجوه الاعتراض الكثير الواقع على الأناجيل من جهة العلماء المدققين غير المؤمنين بالدين المسيحى إنما هي من مخالفة رواياتها للسنن الطبيعية ومن جهة كونها إنشاء جماعة إن لم يحجز وصفهم بالكذب لم يحجز وصفهم بالعلم وهذا كله لا ينفى ما يجب من حرمة التوراة والانجيل وتقديسهما وفقاً لما فى القرآن العظيم الذى يوجب لهما هذه الحرمة من حيث وجودهما الأسمى ، ولكنه لم يضمن صحة نسخ التوراة ونسخ الانجيل التى تعاورتها أيدي الناس بالحذف والتبديل بحسب الأهواء ، والله تعالى من وراء العلم .

تاريخ العرب الأولين

تعليق على ماجاء في السطر ١٨ من الصفحة ٢٣ من الجزء الأول
من ابن خلدون

لايزال المؤرخون عموماً ، والمتخصصون في تاريخ الأمم السامية ، متفقين على كون تاريخ العرب القدماء غامضاً ، وأنه لايزال مفتقراً إلى وثائق كثيرة تجلو حقيقته ولقد عثروا على كتابات غير قليلة كشفت بعض نواح منه ، إلا أن كثيراً من هذه الكتابات لايزال مجهولاً ، وما دام هذا القسم من الكتابات لايزال مغيباً ، فلا يزال تاريخ العرب الأولين ناقصاً . والآن تجد معول المؤرخين في هذا التاريخ على بعض الكتابات التي تمكنوا من حلها في بلاد العرب ، وعلى ماهو وارد في تواريخ الأمم الأخرى من بابليين وأشوريين ومصريين وعبرانيين ويونانيين ورومانيين وكذلك على ماهو وارد عن علماء الاسلام بشأن عرب الجاهلية .

وقد جاء في الكتابات البابلية الخرفية التي عثروا عليها مايدل على وجود ملك اسمه « مانيوم » كان ملكاً على « ماغان » أو بلاد العرب الشرقية . ويظنون أن « ماغان » هذه هي معان ، كما أنه ورد في محل آخر ذكر « ملوخ » الذي يظن أن منه اشتق اسم العماقة . وكان السومريون ذوي علاقات مع هؤلاء . ثبت إذن وجود العماقة في التاريخ منذ ألفين وخمسمائة سنة قبل المسيح . فأما الكتابات التي عثروا عليها في جزيرة العرب فهي ترجع إلى ألف سنة فأكثر قبل المسيح ، وأكثر من خدم العلم في كشف هذه الكتابات المنقوشة على الصخور هو بحسب ماورد بالانسكلوبيديا الاسلامية؛ يوسف هاليقي «Goséphe Halevy» وأدوار غلازر «Edoird Glaser» وهذه الكتابات تنقسم إلى قسمين بحسب اللغة ؛ فالأول هي المعينية ، والثاني هي السبئية نسبة إلى معين وسبأ ، وهما قبيلان يقال إنهما من حضرموت . وفي سنة الخمسمائة قبل المسيح كان ملوك مأرب في اليمن يطلق عليهم لقب ملوك سبأ ، ثم ظهر بعدهم الحيريون وتمكنوا في مأرب أيضاً . وفي نحو السنة الثلاثمائة قبل المسيح كان يقال للواحد من

هؤلاء ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ، ثم أضافوا إلى ذلك اللقب جملة « وعربهم في الجبل وتهامة » وبقى ملك الحمير بين هؤلاء إلى ما بعد استيلاء الأحباش على اليمن أى في القرن الرابع بعد المسيح إلى القرن السادس .

وقد وجد العلماء كتابات منقوشة على الصخور من ذلك العهد . وكان غلازر الآنف الذكر هو الذى كشف الكتابة الطويلة المتعلقة بسيل العرم ، أى انفكاك سد مأرب ، وهو الحادث العظيم الذى وقع فى سنة خمسمائة وثلاث وأربعين بعد المسيح وهذه الكتابة كتبها أبرهة ونصها : (بقوة الرحمان «رحمانان» ولطفه ورحمته وبمسيحه والروح القدس نقشت هذه الكتابة على الحجر بأمر أبرهة الوالى من قبل الملك اليكسومى «رامفيس ذى ييامان» ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات وعربهم فى الوعر والسهل) . ثم يوجد فى هذه الكتابة إشارة إلى رسل ملك الروم وملك فارس والمزدر والحارث بن جبلة ، مما يدل على أن دسائس كل من الدولتين الرومية والفارسية كانت بدأت فى جزيرة العرب منذ ذلك العهد ، ولم يطل الأمر حتى خلع أبرهة عامل الحبشة آخر الملوك الحميريين الملقب بذى نواس ، وأزال مملكة حمير وأبرهة هذا هو الذى زحف إلى مكة ومعه الفيل وإليه أشار صاحب البردة بقوله :

كانهم هرباً أبطال أبرهة أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى

وفى ذلك الوقت تغلب المعجم على اليمن لعهد كسرى الأول ، فاستتاب عنہ رجلا يقال له وهريز . ولما ظهر الاسلام كان فى اليمن عامل لكسرى أبرويز الثانى يقال له « باذان » فأسلم ودخل بعد ذلك اليمن فى الحوزة الحمدية ، ولم يقدر العلماء أن يكشفوا شيئاً عن المملكة السبئية يرجع الى أقدم من سنة سبعمائة قبل المسيح .

فأما المعينيون فالمظنون أن الكتابات المتعلقة بهم ، تملأ تواريخها خمسة قرون ويظهر أن المعينيين كانوا معاصرين للسبئيين ، وغاية ما هناك أنهم رجحوا أن أقدم الكتابات السبئية يرجع تاريخها إلى أحدث الكتابات المعينية ، وقد جاء فى الكتابات المعينية ما يثبت وجود دولة السبئيين فى اليمن . وكان ملوك المعينيين مثل « خالى كاريبا صادوق » و « يحتيل ريام أبو تبع كرب » فى الزمن الذى كان فيه

ملوك سبأ ، والمظنون أن هذا كان بين سبعمائة وستمئة سنة قبل المسيح ، وقد جاء في كتابة معينة ما يفيد أن السبثيين وقبيلة أخرى اسمها «خولان» كانوا يشنون الغارات على الطريق المؤدى من نجران إلى معان في بلاد الشراة جنوبى سورية ، وقد أشار كتاب أيوب من التوراة إلى هذه الغارات .

ووجدت كتابات آشورية سابقة لسنة السبعمائة قبل المسيح فيها إشارة إلى وجود أمير من سبأ اسمه « أيطع آماده » يظن أنه كان في بلاد العرب الوسطى . وفي المظنون أيضاً أن ملكة سبأ كانت مالكة لشمالى بلاد العرب . هذا ولم تنفرد سبأ ومعين بملك اليمن ، بل كانت هناك دولتان قحطان وحضرموت ، فالجملة دول أربع أعظمها سبأ .

وكان للمعنيين مستعمرة في مدين نظراً لتجارتهم بالطيب ، وقد ثبت ذلك من كتابات كشفها العالم (أوتنغ Eutung) في « العلى » شمالى المدينة المنورة . وسقطت دولة المعنيين فى نحو الستمائة والخمسين قبل المسيح ، وقد ورث السبثيون مستعمرتهم فى مدين . وفى ذلك الوقت تقدم نحو بلاد العرب دول أخرى مثل حكومة « نبوكد نصر » ، فقد كشف أوتنغ و « هو بر Huber » فى تيماء كتابات تدل على كون حكم الآراميين البابليين وصل إلى هناك ، وربما كان الملك العربى الذى أشار إليه هيرودوتوس بأنه عاش فى نحو السنة الخمسمائة والعشرين قبل المسيح هو ملك اللحيانيين الذى قال پلينيوس الرومانى المؤرخ « Pline » إن عاصمته كانت هجر . فاللحيانيون هؤلاء يجوز أن يكونوا ورثوا المعنيين والسبثيين ووجدوا قبل النبطيين أى كانت دولتهم بين الخمسمائة والثلاثمائة سنة قبل المسيح . ثم ظهرت آثار النبطيين فى القرن الثانى قبل المسيح ، وبقيت دولة هؤلاء النبطيين إلى سنة مائة وستة قبل المسيح ، إذ تغلب عليهم الرومان . وكانت مدينة النبطيين هى بتراء - أى وادى موسى اليوم - وكان يمتد ملكهم إلى مدين و بلاد بنى سليم الوارد ذكرها فى نشيد الانشاد من التوراة ، وقد عثروا فى وعرة الصفاة من حوران على كتابات مشابهة لحروف الهجاء العربية اليمنية . أما الكتابة النبطية - موصولة الحروف - فهي مشتقة من

الفرع الآرامى من الكتابة الكنعانية ، أو يرجح أنها هى أصل الكتابة العربية التى اصطلمحوا عليها فى القرن الثالث بعد المسيح .

وأقدم كتابة عربية معروفة اليوم هى كتابة « نماره » فى شرقى حوران ، تاريخها سنة ثلاثمائة وثمان وعشرين بعد المسيح ، وهذه الكتابة تتعلق بملك يقال له امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب ، وملك أسد وطى ونزار ، ومن هذه الكتابة يعلم أن ملك امرئ القيس هذا كان يمتد إلى نجران اليمن .

جاء فى الانسكلوبيديا الاسلامية أنه ربما كان امرؤ القيس هو أحد ملوك المناذرة اللخميين . قلنا : هذا محقق إذ جاء فيهم بحسب ما فى تاريخ أبى الفداء ذكر امرؤ القيس ابن عمرو ، ثم عمرو بن امرئ القيس ، ثم امرئ القيس المحرق بن عمرو وهو والد النعمان الأعور ، ثم جاء امرؤ القيس بن النعمان . وقد تابع أبا الفداء فى ذلك جرجى زيدان السورى ، وعلى ظريف الأعظمى العراقى ، وقابلنا بين هذه السلسلة التى ذكرها كل منهما وبين تاريخ صالح بن يحيى التنوخى فوجدنا أن فى سلسلة صالح ابن يحيى ذكر امرئ القيس بن النعمان الأعور بن امرئ القيس المحرق بن عمرو بن امرئ القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى ، وقابلناها مع سجل نسب العائلة الارسلانية اللخمية فوجدنا أن المنذر الذى أمه ماء السماء ، أى المنذر الأول هو ابن امرئ القيس الثالث بن النعمان الثانى بن امرئ القيس الثانى بن النعمان الأول ابن عمرو الثانى بن امرئ القيس الأول بن عمرو بن عدى اللخمى .

فمن هنا يعلم أنه يوجد عدة ملوك من اللخميين باسم امرئ القيس ، ولكن المقصود بالذات هنا هو الملك الذى تولى منهم بين سنة مائتين وخمسين وثلاثمائة وثلاثين بعد المسيح .

فهذا هو امرئ القيس الأول الذى يقال له المحرق ، ويقال له البدء ، فانه ملك بين سنة مائتين وثمان وثمانين ، وثلاثمائة وثمانية وعشرين . وقد كان اللخميون عمالا للأكاسرة كما كان الفسانيون عمالا للقيصرة ، وكان مقصد ملوك الفرس باستعمال ملوك الحيرة أن يكونوا فاصلا بين الفرس والعرب ، ويصدوا غارات القبائل العربية

على العراق . ومثل ذلك كان مقصد ملوك الروم بواسطة الملوك أولاد جفنة الغسانيين ردع العرب عن شن الغارات في جنوبى سورية .

فهذا جل ما يعرف من تاريخ العرب قبل الاسلام ، وكلما توغل هذا التاريخ في القدم يزداد غموضاً كما لا يخفى . غير أن هناك حقيقة اتفق عليها الباحثون من علماء الأفرنجية ، ولا سيما الذين تقبوا عن الكتابات الحجرية المبتوثة في جزيرة العرب . وهذه الحقيقة أنه في نحو الألف سنة قبل المسيح كانت للعرب - لا سيما في اليمن - مدنية في غاية الارتقاء والازدهار . وبعض العلماء يذهب ومنهم صاحبنا الأستاذ المستشرق « موريتز Moritz » الألمانى إلى أن أصل إيجاد الكتابة بالحروف بعد الكتابة الهيروغليفية كان في اليمن ، وهو يعتقد أن اليمنيين هم الذين اخترعوا الكتابة ، وليس الفينيقيون هم الذين اخترعوها كما هو رأى المشهور .

وقد أفضى موريتز إلى بآدلته على هذا الرأى وقال : إن الفينيقيين إنما بنوا كتابتهم على الكتابة العربية الينية ، ثم إن اليونانيين أخذوا الكتابة عن الفينيقيين وعندهم أخذ الرومانيون ، فيكون العرب هم الذين أوجدوا الكتابة في العالم ، وبهذا الاعتبار هم الذين أوجدوا المدنية .

وأما المستشرق « هومل Hommel » ففي الانسكلوبيديا الاسلامية يذكر أخذ اليونان عبادة أبولون وأمه « ليتو - Leto » عن العرب . وقال روبرتسون سميت « Robertson Smith » إن ليتو هذه هى اللات ، وإن اليونان بحسب رأى ريتوريوس أخذوا بعض أحرفهم عن كتابة عرب اليمن ، والبعض الآخر عن كتابة الكنعانيين قال هومل : إن جنوبى بلاد العرب كانت فيه مدنية في أوائل الألف قبل المسيح بالغة الحد الأقصى من الازدهار بما تركته من معابد وحصون ، ومحافد وقصور ، وكتابات . فأما الكتابة الحيرية وهى التى يقال لها الحظ المسند ؛ فقد جاء فى الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » للفيلسوف العربى الحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » تصوير هذه الكتابة كما سيأتى . وقد اشتهر كتاب « الاكليل » كثيراً ، ولكن أكثره مفقود حتى فى بلاد اليمن نفسها ، فقد بحثنا عنه فلم نجد

يذكرون إلا جزئين ، والحال أنه عشرة أجزاء ، الأول مختص بالمبتدأ وأصول الأنساب ، والثاني نسب ولد الهميسع بن حمير ، والثالث في فضائل قحطان ، والرابع في السيرة القديمة إلى عهد تبع أبي كرب ، والخامس في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذى نواس ، والسادس في السيرة الأخيرة إلى الاسلام ، والسابع في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، والثامن في ذكر قصور حمير ومدنها وما حفظ من شعر علقمة والمراثي والمساند ، والتاسع في أمثال حمير وحكمها باللسان الحميري وحروف المسند ، والعاشر في معارف حاشد وبكيل .

وقد اطلعت على الجزئين الثامن والعاشر في المكتبة الملكية في برلين وأخذت صورتها بالفوتوغرافيا ، وعلمت أن أحد هذين الجزئين لا يزال محفوظاً في استانبول كما أنى علمت أن الجزء الثامن الذي يدور على القصور والمحافد والمساند قد طبعه الدكتور مولر وشرحه سنة ١٨٧٩ ، وأما سائر الأجزاء فما علمنا بوجودها .

وإليك الآن ما جاء في الجزء الثامن عن الخط المسند ، قال الهمداني : باب حروف المسند ، وهو كتاب حمير ومثلاته في حروف ا . ب . ت . ث وغيرها . قال الهمداني : أكثر ما يقع بين الناس الخلف فيما تقولوه في لسان حمير من اختلاف صور الحروف ، لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون الذي يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة ، فلما وقع الخلل في هذا الموضع رأينا أن ثبتت تحت كل حرف من حروف ؛ ألف ، باء ، تاء ، ثاء ، صورة جميعها . وإنما كان اختلاف صور الحروف على سبيل اختلاف الكتاب العربي ، وكانوا يطرحون الألف إذا كانت وسطاً مثل ألف همدان ، وألف ريام ، فيكتبون ريم وهمدن ، كذلك تبع كتاب المصاحف الحروف في مثل الرحمن ، وألف إنسان ، ويثبتون ضمة آخر الحرف وواو عليهم .

(إلى أن يقول) : ويقرأون كل سطرين بخط ، ويفصلون بين كل كلمتين في السطر بخط ، ومثال ذلك في أول مسند هذه صورته :

[illegible]

فبعض العلماء ومنهم « نولدكه » المستشرق الألماني المعروف يقول بهذا الرأي

وبعضهم يردّه ، وقد ذهب « هومل Hommel » إلى أن السبثيين كانوا في الجوف في شمالى بلاد العرب (التابعة لابن سعود اليوم) وأنهم تقدموا منها إلى الجنوب . وقد جاء ذكر سبأ في التوراة مراراً ولكن بأقوال يناقض بعضها بعضاً ، وإنما يمكن الاتفاق على أن السبثيين كانوا تجاراً في تلك الأعصر يبيعون عود الطيب في مصر والشام ويتجرون بالحجارة الكريمة . والتوراة تشير إلى ثروة السبثيين ، ويؤيد ذلك مؤرخو اليونان والرومان .

وقد ذكر « سترابون » المؤرخ الجغرافى اليونانى ، أن الرومانيين في زمن أغسطس غزوا سبأ ، وذلك سنة ٢٤ - أملاً بالاستيلاء على أموال هذه الأمة - ففشلت هذه الغزوة الرومانية فشلاً تاماً ، ولكنها عرفت الرومانيين ببلاد العرب . فقد جاء في كتب مؤرخى الرومان واليونان مثل « ديودور » و « هيرودوت » وغيرهما ، كلام كثير عن حضرموت واليمن ، ووجد مطابقاً للكتابات التى عثروا عليها في جنوبى الجزيرة العربية . ومن ذلك كله يظهر أن أهالى اليمن كانوا أشداء في الحروب ، أصحاب إقدام ونشاط في الأعمال ، وكانت لهم زراعة راقية جداً ، وتجارة ممتدة إلى سائر الأقطار وعلاقات اقتصادية مع مصر وفينيقية ، وكان لهم قيام على الملاحة وركوب البحر يعجب به المؤرخون .

وكان السبثيون سباقين في هذه المزايا كلها ، وكانوا أصحاب يسار وترف . ولكن يظهر أنه لما غزا الرومان تلك البلاد بقيادة « جالوس Gallus » كان قد بدأ ظهور دولة الحميريين ، وكان قد تقهقر السبثيون . فalcائد جالوس يذكر أنهم - أى الحميريين - أصحاب الكلمة العليا في اليمن .

وقد كان هذا في القرنين الأول والثانى قبل المسيح . ولكن السبثيين بحسب ما جاء في تاريخ « بلين الرومانى » كانوا لا يزالون ذوى سيادة ومكانة ، وكانت بقيت لهم بعض المدن ، وهذا مؤيد بالكتابات المنقوشة على الصخور ، وبآثار العمران ، من أقنية وسدود وصهاريج ، و بأقوال الهمدانى صاحب كتاب « الإكليل وصفة جزيرة العرب » .

وقد ذكر بلين الرومانى معادن جزيرة العرب ، واستخراج هذه الأمة للذهب الذى زاد في ثروتها ، وسهل طرق مدينتها . وأما محصول الطيب فقد كان خاصاً بالسبثيين والمعينيين .

وفي أوائل القرن الثانى قبل المسيح تقدم الأحباش إلى بلادسبأ ، وصار «أيزاناس» يلقب بملك حمير وسبأ ، ويستدل من الكتابات المنقورة في الصخور أنه من نهاية القرن الثالث إلى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح لم يكن في اليمن ملوك من أهل اليمن أنفسهم ؛ وأن الحكم كان قد صار للحبشة ، ولذلك منذ أواخر القرن الرابع لا تسكاد تجمد ذكراً لسبأ في كتابات اليونان والرومان .

وقد كان «سپرنجر» منذ نصف قرن لا غير يقول : إن مؤرخى اليونان وبلين الرومانى هم الذين نستقى منهم جميع المعلومات عن السبثيين ، وكذلك قبل هذا التاريخ كانت جميع المعلومات التى لدينا عن جنوبى بلاد العرب هى ما جاء في العهد العتيق ، وما يتناقله العرب من القصص التى فيها من التخيل أكثر مما فيها من الحقيقة . فلما عثر المنقبون على ما عثروا عليه من الكتابات هناك انكشف لديهم ما يجدر بأن يسمى تاريخاً ، والفضل أكثره في كشف هذه الكتابات راجع إلى غلازر وقبل غلازر كان «كارستن نيبور Caresten Nie Buhr» ذهب إلى جزيرة العرب في بعثة علمية أنفذتها الحكومة الدانمركية سنة ١٧٦٣ ، وكان فيها «راتكن الألمانية» حدثنى بذلك حفيده الأستاذ راتكن في هامبورغ .

فهذه البعثة التى هى أول بعثة علمية إلى جزيرة العرب تنبّهت لقضية الكتابات المنقوشة على الصخور ، فجابت البلاد من الحية ، إلى مخا ، إلى تعز ، فصنماء ، وكان غرضها معرفة الجغرافية وأحوال السكان ، وأصولهم وأنسابهم ، مع درس طبقات الأرض ونباتاتها ، لكنها علمت بوجود كتابات في ظفار لم تصل هى إليها ، غير أن هولنديا كان قد أرسل إلى هذه البعثة نسخة عن كتابات عثر عليها . وعلى كل حال فأول من نبّه إلى هذه الكتابات ووجوب حلها خدمة للعالم هو «نيبور الدانمركى» ثم تلاه «ستزن Seetzen» من أولدنبورغ فانه نسخ الكتابات المنقوشة على صخور

ظفار وأرسل نسخة عن بعض جل سبئية إلى أوربا وذلك سنة ١٧١١ ، ولم يفهموا ما لها في أول الأمر ، ثم توصلوا إلى حلها فاشتدت رغبتهم في معرفة غيرها .

وفي سنة ١٨٣٤ كشف الانجليزى «ولستيد Wellsted» كتابة في حصن غراب على ساحل حضرموت ، وكتابة في محل يقال له « نقاب الحجر » وفي سنة ١٨٣٦ كشف « كروتندن Cruttenden » خمس قطع سبئية في صنعاء ، ثم نشر الرحالة « فريده Wrede » في سنة ١٨٧٠ كتابات وجدها في حضرموت ، ثم إنه جاء «أرنود Arnand » وهو أول أوربي توصل إلى سد مأرب فنسخ عما وجده في مأرب وفي صنعاء ٥٦ كتابة أكثرها كان جملا قصيرة ، ثم كثر الاطلاع على هذه الكتابات في بلاد اليمن . وكان الفضل في حل هذه الكتابات ومعرفة معانيها إلى « جيسنيوس Gesenius » و«روديجر Rodiger» سنة ١٨٤١ وإلى «أوزياندر Oseander» (سنة ١٨٥٦ - ١٨٦٣) واطلعوا على كتاب ليعقوب بن صافر اليهودي كتبه بالعبري في سنة ١٨٦٦ فانه ذهب من الحديدة إلى عمان على طريق صنعاء ، وجاء في كتابه بمعلومات ذات قيمة ، وبها استدلل « هاليثى Halévy » على الأماكن التي يجب ارتيادها لاجل الاطلاع على الكتابات الحجرية .

ويُظن أن هاليثى كان أول أوربي تمكن من الايفال إلى وادي نجران ، وإلى الجوف اليماني مركز بلاد معين . وبذلك تمكن من الاطلاع على كتابات كثيرة من أقدم عهود البشرية ، ولم يطلع عليها بعده غيره من الأوروبيين . فنسخ هاليثى ٦٨٦ كتابا منها خمسون من الكتابات الطويلة ، ومن هذه الحسين ثلاثون معينة . وقد كان ما اطلع عليه هاليثى هذا هو الأساس الذي اتخذه العلماء للتاريخ العربي المتعلق بجنوبي جزيرة العرب .

ثم ذهب إلى هناك الكاتبين « ميلز Miles » ثم «هينرك مالتسان Heinrich Von Maltzan » الذي ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠ ثم «ميلنجن Millingen» الذي ذهب من الحديدة إلى صنعاء سنة ١٨٧٣ ثم «مانزوني Manzoni» الذي جاب البلاد بين عدن وصنعاء والحديدة سنة ١٨٨٠ ثم «شايرا» الذي جول في تلك البلاد سنة ١٨٧٩

ثم « هاريس Harris » الذى ساح فى اليمن سنة ١٨٩٣ . ولم يأت هذا الأخير بكتابات جديدة ، ولكنه أتى بمعلومات عن تلك البلاد مهمة . ثم جاء « لانجر Langer » النمساوى فتوصل إلى ٢٢ كتابة لم تكن معروفة من قبل ، ومات ضحية بحشه وتنقيبه ، كما مات ستزن من قبله ، وهو بر من بعده . وإن القارىء الذى يهيمه هذا البحث جدير بأن يطالع كتاب « فبر Weber » الذى أسماه « العرب قبل الاسلام » Arabien vor dem Islam » وكتاب هومل المسمى برحلة هلمبرخت .

وأما « غلازر » الألمانى البوهيمى فقد برع على الجميع لأنه تمكن من نقل ألفى كتابة حجرية ، وبدأ سياحته سنة ١٨٨٢ فذهب من الحديدية إلى صنعاء ، وجاب البلاد ثلاث مرات فى الشمال ، والغرب ، والجنوب الشرقى ، والشرق . ثم ذهب إلى بلاد ظفار ، كما أنه ذهب إلى مأرب ونقل أربعائة كتابة منها ، وحقق معلومات جغرافية أطلسية كثيرة ، ووقف على فوائد عظيمة من جهة اللغة ، واقتنى أكثر من ستمائة مخطوط عربى ، فنشرت أكاديمية باريس جانباً من هذه الكتابات . والآن يوجد حجارة عليها كتابات معينة فى لوندرة ، وأخرى فى برلين . فأما المخطوطات فأكثرها فى برلين ، ومنها جانب فى المتحف البريطانى . وأهم هذه الكتابات هى كتابة « حدقان » وكتابة « صرواح » التى منها يؤخذ أهم الوثائق التاريخية على جنوبى بلاد العرب .

ولما سافر غلازر المرة الرابعة إلى اليمن حصل أيضاً على مائة كتابة لم نعرفها من قبل ، وعلى ٢٥١ مخطوطاً عربياً ، وجمع معلومات كثيرة .

وأنه يعود أكثر الفضل فى تفسير الكتابات واستخراج معانيها إلى هاليقى المار ذكره ، وبريتوريوس ، وموردتمان ، ومولر ، وهومل ، وغلازر . ثم قام بعض العلماء بسياحات أخرى فى اليمن منهم « دفلر Defflers » سنة ١٨٨٧ لكن غرض سياحته كان علم النبات ، ثم « هرنش » ساح إلى حضرموت سنة ١٨٩٣ وهو أول أوربى دخل « شبام » ، و« تريم » ولم يكن باحثاً إلا عن الأمور الطبيعية ، ثم فى سنة ١٨٩٣ جاء « بانث Beant » إلى حضرموت فدخل شبام وظفار ، ثم جاء « كارلو لاندبرج Carrlo »

Landberg « في سنة ١٨٩٦ وكتب رحلة مهمة ، ثم أرسلت أكاديمية فيينا سنة ١٨٩٨ بعثة أنفق عليها ملك السويد فلم تفز بكبير طائل ، فتحولت إلى جزيرة سقطرة وقامت هناك بمباحث طبيعية ولغوية . ثم إن « بوري Bury » جاء من قبل هذه البعثة إلى « بيحان وخولان » وصوّر عدة كتابات ، وفي سنة ١٩٠٢ أرسلت أكاديمية فيينا رجلا اسمه « هاين Hein » إلى حضرموت رجع بمعلومات كثيرة لم يكونوا عرفوها . هذا ويقال إن جميع ما اطلع عليه غلازر الذي هو إمام هذا الفن لم ينشر بأجمعه لأنه لم يتسع له الوقت ، ومات قبل أن يتمكن من نشر جميع معلوماته ، وبعد موته نشروا في فيينا جانبا منها لا كلها . وقد ذهب غلازر إلى أن الكتابات المعينية ترجع إلى ما قبل المسيح بألفي سنة ، ولذلك تكون أقدم من الكتابة الفينيقية التي لم تظهر قبل المسيح إلا بألف سنة ، فلذلك اعترض العلماء على غلازر في هذا الزعم بحجة أن الكتابة المعينية مستقيمة وأشكالها هندسية ، ولا يظن أن مثل هذا الشكل يكون متوغلا في القدم إلى تلك الدرجة .

جاء في الأنسيكلوبيديّة الاسلاميّة أنه لم يوجد بين كتاب العرب من جاء بتاريخ حقيقي عن اليمن ، ومعلومات مؤسسة على قواعد متينة مثل الهمداني . فقد كان هذا الرجل يمانياً مولوداً في صنعاء ، فحمله حب وطنه والاعجاب بقومه على تأليف كتاب « الاكليل » الذي ذكر فيه تاريخ اليمن ووصف العاديّات التي هي فيها . والجزء الثامن من الاكليل كان نشره مع ترجمة ألمانية الدكتور «مولر H. Muller» كما تقدم . وقد أخذ من الجزء العاشر معلومات تكمل ماورد في كتاب الهمداني الآخر المسمى « بصفة جزيرة العرب » وقد كان في كتاب الهمداني قصص أشبه بالأساطير نقلها الهمداني على علاقتها ، إلا أنه برغم ذلك هو الكتاب العربيّ الوحيد الذي يفهم منه القارىء ما اليمن ، ومن أهل اليمن ؟ وفيه تفاصيل عن أنساب اليمن ، وطبائع أهلها ، وعن مواقع مدنها ، وعن قصورها وحصونها لا توجد في كتب الافرنج برغم جميع تدقيقاتهم .

وكذلك في أكليل الهمداني عن سبأ وعن سبل العرم ما لا يتم تاريخ اليمن إلا به

وقد ذهب مولر إلى أن الكتابات الحجرية لا تكفى لجلاء تاريخ سبأ ومعين وبلاد اليمن . فأما قول الهمداني إن باني سد مأرب هو لقمان بن عاد فهو قول تابع فيه العوام والحقيقة التي ظهرت من الكتابات أن باني السد هو إئيعمر ، فأما وصف آثار السد بعد خرابه فإن أرنود وهاليثي لم يصفيا تلك الآثار بغير ماصورها به الهمداني .

وقد قسم مؤرخو العرب أدوار اليمن قبل الاسلام إلى ثلاثة ؛ الأول من البدء إلى عهد تبع أبي كرب ، والثاني من عهد أبي كرب إلى ذى نواس ، والثالث من عهد ذى نواس إلى الاسلام . ولكن علماء الأفرنج قسموا هذه الأدوار إلى ثلاثة بشكل آخر . فقالوا : الدور الأول هو السبئي المعيني . والدور الثاني هو الحميري ، والدور الثالث هو الحبشي فالفارسي . ولعل الوقت يأتي بمعلومات أوضح مما تيسر حتى الآن فإن تاريخ العصر الغابرة كان ظلمات بعضها فوق بعض ، فأنكشف جزء منها بالحفر والتنقيب وحل الكتابات القديمة ، ولا يزال تحت التراب — وربما فوق التراب — كتابات كثيرة لم يصل المنقبون إليها .

ولما كنت في الحجاز منذ ست سنوات ، وصعدت إلى جبال الطائف ، وجدت كتابات كثيرة على الصخور ، وقيل لي إنها مستفيضة في كل مكان تقريباً من جزيرة العرب ، وقيل لي أيضاً إن بين المدينة ونجد كتابات لا تحصى . وكيف ضرب الانسان في أرض جزيرة العرب يجد كتابات على الصخور ، فإن من عادتهم أن ينقشوا أخبار الحوادث التي تقع عندهم على الجنادل ، وقد شاهدنا من هذه الأخبار المحفورة على الصخر بالخط الكوفي شيئاً كثيراً ، وأوردت أمثلة عليه في رحلتي الحجازية .

ومرة قرأت في طريق وادي ليّة على صخر خبر قحط أصاب الناس وأجدبوا ثم بعث الله الغيث وسقوا . على أن مؤرخي الأفرنج يعترفون بأن في كتب مؤرخي الاسلام روايات عن مدينة سبأ القديمة والأدوار التي تلتها تنطبق أشد الانطباق على الكتابات المنقوشة في الحجر ، وعلى المنابع اليونانية والرومانية ، وكلها تفيد أن مدينة

سبأ كانت راقية جداً ، وأرقى من المدنات العربية الأخرى ، فاللباني القديمة الدائرة من آثار سبأ ، والنقوش والتماثيل ، وبقايا الأعمدة والهياكل ، والقصور والأسوار والابراج ، وسدود المياه ، مما شاهده سياح الأفرنج بأعينهم يطابق أشد المطابقة الأوصاف التي وصف بها اليونان والرومان تلك الآثار المدهشة ، ولا يجدون فيها مبالغة ، كما أنه عند ما ينظر السائح إلى تلك الآثار الباهرة لا يعود متعجباً مما جاء عنها في كتب الاسلام مما كان يظنه من أساطير الأولين . وحسبك بما ذكره الهمداني من قصر غمدان وغيره من قصور سبأ مثل قصر ساحلين ، وبنون ، وما ذكره عن عظمة سد مأرب ، وما كتبه مؤرخو اليونان والرومان عن فخامة تلك القصور ، وهاتيك الأسداد والقلاع ، فهو مطابق للمحسوس المشهود بالعيان .

فقد كان العرب في جنوب الجزيرة في حاجة إلى خزن مياه الأمطار لأجل زراعتهم ، فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياض أقصى درجة يتصورها العقل وترقت الزراعة في اليمن لذلك العهد القديم إلى حد لا يخطر ببال أحد .

وروى الهمداني أنه كان يقال لليمن : اليمن الخضراء . لكثرة أشجارها ووفواكهما ومحصولاتها ، ولم تكن الزراعة وحدها هي التي بلغت الأمد الأقصى من الرقي ؛ بل ضارعتها التجارة من جهة ، والصناعة من جهة أخرى . فأما خصب أراضي اليمن الذي روى عنه هذه الروايات مؤرخو اليونان والرومان متفقين في ذلك مع مؤرخي العرب ؛ فقد اعترف به سياح الأفرنج الذين جؤلوا في بلاد اليمن ، إلا أن هؤلاء أشاروا إلى تناقص الأشجار والغابات بالقياس إلى الماضي .

وقد ذكر الهمداني اعتدال الاقليم في جهات صنعاء بخاصة ، وهذا يطابق ما قاله غلازر وغيره من السياح الأوروبيين ، وهو أن أعلى اليمن معتدلة الهواء ، وأن هذا الاعتدال هو السبب في كثرة محصولاتها .

ولقد شاهدت بنفسى في سياحتى إلى اليمن السنة الماضية اعتدال بقعة صنعاء منذ صعدنا « عقبة آنس » حتى انتهينا إلى قرية يقال لها « القبة » ثم إلى قرية أخرى يقال لها « المعبر » ومن هناك سرنا عدة ساعات بالسيارة الكهربائية في بسيط من

الأرض يعلو ألفين إلى ألفين وخمسمائة متر عن سطح البحر ، إلى أن بلغنا صنعاء
فررنا ببقعة من أحسن بقاع الأرض ، وأكثرها قابلية زراعية ، وأجودها هواء وماء
ولما وصلنا إلى صنعاء سألنا هل يوجد كثير من نمط هذه البقعة في اليمن ؟ فأجابونا
بأننا لم نشاهد إلا جزءاً يسيراً من البسائط المريمة المحيطة بصنعاء من الجهات الأربع .
وقد كشفت بما في نفسى من هذا الأمر الأمير الخطير السيد عبد الله بن الوزير أمير
الحديدة - وهو من العقل والفضل بالمقام الذى يندر مثله - فقال لى : إن اليمن فى الحقيقة
هى عبارة عن جبالها .

ولم تكن الزراعة وحدها سبب ثروة اليمن المدهشة فى ذلك العصر كما تقدم
الكلام عليه ؛ فقد أفاض المؤرخون الأولون من اليونان والرومان مثل ديودور
واسترابون ، وأغاترشيد ، فى ذكر تجارة سبأ ، واستخراجها للذهب والحجارة الكريمة
التي كانت تبيعها من البطالسة بمصر ، وإلى الفينيقيين بالشام ، هذا مع تجارة العنبر
وعود الطيب ، وأيدت التوراة هذه الروايات كلها .

جاء فى الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه لامبالغة فيما نقلوه من أن أبواب منازل سبأ
وجدرانها وسقوفها وأعمدتها كان منها الكثير مموها بالذهب والفضة ، مرصعاً بالحجارة
الكريمة ، وأن آنياتهم كانت مصنوعة من أنفاس المعادن . وهذا ما ذكره الهمداني
والمسعودي وغيرهما من مؤرخي العرب ، وما أيدته الكتابات الصخرية نفسها فيما
ترويه عن التقادم العظيمة من الذهب والفضة ونفائس الأحجار . وقد وجد كثير
من المسكوكات السبئية ومن الحلى تؤيد أيضاً روايات الرواة من كل قبيل .

وقد عنى بعض علماء الافرنج بالتنقيب عن هذه الحياة الاقتصادية التي كانت
فى اليمن السعيدة من جميع نواحيها ، وكان السابق فى هذه الحلة « رودو كَنَّا كِيس
Rhodocanakis » الذي ألف كتاباً استخراج فيه من الكتابات الحجرية مما
أمكنه أن يستخرجه من المسائل الاقتصادية التي كان يعول عليها أهل اليمن ، والمسائل
الحقوقية المتعلقة بها .

وثبت من هذه التدقيقات أنه كان يوجد عند العرب الأولين قانون صارم يقتضى استثمار الأرض بدون إهمال شىء منها ، وأنه كان يوجد إدارة خاصة لأجل تقسيم المياه وتوزيع الأعمال الزراعية . وهذه القوانين المتعلقة باستثمار الأرضين واستيفاء أسباب القيام عليها ؛ كانت متشابهة فى جميع بلاد العرب الجنوبية . وهذا البحث قد حمل « جرومان Grohmann » على تأليف كتاب خاص بهذا الموضوع وصف فيه طبقات الأرض والمناخ ، وكيفية توزيع المياه ، واستخراج المعادن ، وتربية المواشى والصيد وغير ذلك مما اعتمد فيه على الكتابات الحجرية من جهة ، وعلى شهادات المؤرخين والسياح من جهة أخرى . وقد استقى فى هذا التأليف من بعض منابع مجهولة حتى الآن نظير الآثار التى جمعها غلازر ولم يتيسر له نشرها كلها . وبالجملة فرأى محققى الافرنج عن بلاد العرب يتلخص فيما يلى :

الأول : أن المدنية العربية - لا سيما فى جنوبى جزيرة العرب - هى من أقدم مدنيات العالم وأرقاها ، وهم على خلاف فيما إذا كان الساميون هم الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى بلاد بابل ؛ أو كانوا نزحوا من بابل إلى الجزيرة ، وكل فئة من المؤرخين تفترض اقتراضات لا يمكن معها الجزم بشىء .

الثانى : أن أهم أمة فى الجزيرة العربية فى الثروة والعظمة والآثار فى الأرض كانت أمة سبأ ، وكان يعاصرها ويضارعها الماعينيون وقحطان وحضرموت ، وأن هاتين الأمتين « سبأ ومعين » بقيتا سائدتين إلى الزمن الذى ظهرت فيه الدولة الحيرية وأن هذه الدولة تغلبت على اليمن وبقيت فيه إلى أن جاء الأحباش فاستولى على اليمن وأزال ملك الحيريين ، وبقيت اليمن خاضعة للحبشة حتى جاء الفرس فأزالوهم عنها وبقيت اليمن تابعة للأبكاسرة حتى ظهر الاسلام .

الثالث : أن تاريخ اليمن وبلاد العرب أجمع لم يكن له منابع سوى العهد القديم وكتابات هيروdotus ، واسترابون ، وديودور ، وأختريد . وغيرهم من يونانيين ورومانيين ، مع بعض تواريخ للعرب أنفسهم بعد الاسلام مما اختلط فيه التاريخ

بالخرافة . فيجب على الناظر في التواريخ العربية أن يجرد الأفاصيص من الأخبار التاريخية ، وأن أحسن ما كتب عن جزيرة العرب بأقلام العرب هو كتب الهمداني أي « الأكليل وصفة جزيرة العرب » .

الرابع : أن تاريخ العرب الأولين لم يبدأ في الحقيقة إلا منذ بدأسياح الأوربيين بالاطلاع على الكتابات المنقوشة على الأحجار ، وأخذوا ينظرون فيها إلى أن تمكنوا من حلها وفهم معانيها ، فمنها ما وافق كتابات المؤرخين ، ومنها ما اختلف عنها ، إلا أن الكتابات قد جاءت بالجملة مؤيدة للتاريخ ، ولم يبق شك في صحة المجموع ، وإن يكن وقع اختلاف في التفاصيل . والقضية الأصلية وهي ارتقاء مدنية العرب إلى تلك الدرجة العليا في تلك الأعصر المتوغللة في القدم ؛ قد ثبتت بالكتابات الحجرية التي أيدت أقوال المؤرخين كما أن أقوال المؤرخين قد أيدتها .

وهذه مسألة يجب أن تكون عبرة ودرساً للذين يحملون جميع ما يتناقله الناس من الأخبار القديمة محل الأساطير والأفاصيص الوهمية ، وهو ظن باطل ، ورأى فائل . فانه مهما كان التواتر قد تداخله أقوال عامية ، وآراء ساذجة ؛ فانه يرجع إلى نصاب صدق في الأصل لا شبهة فيه في مجموعه ، وهذه قضية تاريخ جزيرة العرب شاهدة على ذلك ، بعد أن جاءت فيها المكتوبات الحجرية معززة للقراطيس والأوراق الخلفة عن اليونان والرومان والعرب ، تعزيزاً لم يكن لينتظره أحد .

الخامس : أنه وجد أقوام دخلت إلى جزيرة العرب ، كما وجد أقوام خرجت منها . وأنه بسبب استيلاء الحبشة على اليمن ، ثم استيلاء الفرس ، قد حصل اختلاط في الدماء في جنوبي الجزيرة ، كما حصل اختلاط في شمالها بسبب تقدم الآراميين إلى مدائن صالح وتيماء ، وأن النبطيين كانوا أيضاً تقدموا من بلاد الشراة إلى شمالي الحجاز .

السادس : أنه يوجد عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة كما جاء في تواريخ الاسلام . وأن من العرب البائدة عادا ، وثمود ، وطسما ، وجديس ، وكلهم

نزحوا من الين إلى الشمال . و بعضهم يذكر منهم العمالة ، وقد ورد ذكرهم في التوراة وقد وجدت كتابات آرامية في شمالي الحجاز كمداثن صالح منتشرة على الصخور ويذهب بعضهم إلى أن هذه الكتابات من بقايا النبط الذين اختلطوا بالعرب ولذلك يجد فيها الانسان ألفاظا عربية مع الألفاظ النبطية .

وقد روى «هوارت Huart» في « تاريخ العرب » أن الكتابات التي وجدت في تيماء هي أقدم جدا من الكتابات التي وجدت في مدائن صالح ، والمظنون أنها ترجع إلى ستمائة سنة قبل المسيح ، وهي خطوط بارزة كما هي خطوط العرب المحدثين بعكس سائر الخطوط السامية التي حروفها مجوفة .

السابع : على ظن محققى الافرنج أن الكنعانيين في الأمم السامية نزحوا من الجنوب وأوطنوا فلسطين ، وأن الفينيقيين جاءوا من شواطئ خليج فارس الغربية وأقاموا على شواطئ الشام ، واستدلوا على أن أصل الفينيقيين هو من شواطئ خليج فارس بوجود النواويس - أى القبور المنحوتة في الصخور - في وطن الفينيقيين الأصلي كما في سواحل سورية ، وكذلك الرعاة في مصر كانوا عربا فتحوا قسما من وادي النيل وخرجت منهم ملوك . وقد ثبت أن الآشوريين في حروبهم مع المصريين قد تكلموا عن العرب ، ووجدت لذلك آثار في كتاباتهم الخرفية .

وقد جاء في هذه الآثار وجود دولتين في شمالي جزيرة العرب يقال لإحدهما «موسرى Mousri» وللأخرى «ملوحة Melouha» ولم يعلم شيء عن ملوحي هذه ولاكن ظهر أن دولة موسرى هي المستعمرة المعينية التي كانت في شمالي الحجاز فان تغلاط بيلسّر الثالث ملك الآشوريين الذى عاش بين سنة ٧٤٥ و ٧٢٧ قبل المسيح كان قد غزا العرب في شمالي الحجاز .

فهذه لمحة دالة مما يتعلق بالعرب وتاريخهم القديم ؛ يقدر أن ينشد منها القارىء مظان البحث .

ولكن الذى لم أجده حتى الآن في كتب الافرنج هو أصل اشتقاق لفظة «عرب»

ومن أين جاءت ؟ فعلماء العرب قالوا : إن هذه اللفظة جاءت من قولهم أعرب عن الشيء أى أبان عنه ، سمى العرب بذلك لفصاحتهم وحسن إعرابهم عن مقاصدهم . وقيل : إنهم انتسبوا الى ناحية بقرب المدينة المنورة اسمها عربية ، وذلك أن أولاد اسماعيل نشأوا بهذه الناحية فسموا عربا ، ثم غلب الاسم على الجميع . وردَّ على هذا القول بأن الغالب هو ان أسماء الأرضين والبلاد تنقل من أسماء ساكنيها ، أو من صفة ثابتة لها ، ولم يعمد أن الناس أخذت أسماءها من الأرض التي نزلت فيها إلا على وجه النسبة . والأكثر أن اشتقاق لغة « العرب » هو من مادة الاعراب أى الإبانة عن الضمير ، وذلك لما اتصفت به هذه الأمة من حسن البيان ، وبلاغة التعبير ، ومن كون لغتهم هي أشرف اللغات ، والله أعلم .



الترك

تعليق على ماجاء في السطر ٢ من الصفحة ٢٧ من الجزء الأول
من ابن خلدون

هذه الأمة هي بدون شك من أشهر أمم الكرة الأرضية ، وأكثرها عددا
وأشدّها شكيمة ، وأوسعها فتوحات ، وأجدها تاريخاً . وقد حررت خلاصة تاريخها في
حواشي « حاضر العالم الاسلامي » بما أرى مناسباً لإعادته هنا مع زيادة تفصيل .

قلت هناك : إن الترك هم من أكبر وأشهر الأمم الآسيوية ، وإنهم معدودون
من الشعوب الطورانية ، وهم متشابهون في الخلقة مع الصين والتبت واليابان . ولا
عبرة بما تجده من سحناء أترك الأستانة والاناضول ؛ فإن هؤلاء قد تولدوا وتناسلوا
في غربي آسية من قرون متطاولة ، واختلطوا بالأمم الأخرى كالفوقازيين ، والمكدونيين
والأرناؤوط ، والروم ، والبلغار ، والأكراد ، والصرب ، وبقايا أهالي الاناضول القدماء
وتولدت منهم أمة لا تشبه المغول ، ولا الصين ، ولكن الترك الاناضوليين الذين لم
يختلطوا بهذه الأمم الغربية يشبهون كثيراً أترك بخارى ، وخيوه ، وكاشغر ، وهم
ذوو ملامح ظاهرة الشبه مع أهل الصين ، والتبت ، والمغول .

كان الترك من على عنق الدهر في جبل الذهب بين سيبيريا والصين ، ثم أخذوا
ينتشرون في الاقطار ، فهاجروا الى شمالي سيعحون وجيعحون ، والى الشرق الشمالى
من بحر خوارزم ، والى الشمال الغربى من الصين والخطا . فكان منهم قسم فى الغرب
وهم « المجار والفنلانديون » - أهل فنلاندا على البلطيك - والبلغار وهؤلاء هم الذين
يقال لهم « الأوراليون » . وكان منهم قسم فى الشرق وهم الذين يقال لهم « المانشو
والتونغوز » . وقسم فى الجنوب الشرقى وهم « المغول » .

وكان لهم مناسبات ومحاربات مع الأمة الفارسية ، وقيل إن هيرودتس أبا
المؤرخين أشار إليهم تحت اسم تاركيتاوس .

وباني أول دولة منهم أوغوز خان بن قره خان ، وكان له ستة أولاد ؛ وهم كون خان ، وآى خان ، ويلدیز خان ، وكول خان ، وطاغ خان ، ودكز خان . فمن هؤلاء ثلاثة سكنوا الشرق ، وثلاثة سكنوا الغرب . وكان لكل منهم أربعة أولاد ، فصار لأوغوز خان ٣٤ حفيداً هم رؤساء القبائل التركية ، هكذا قال نسابوهم . ومن البداية انقسم الترك إلى قسمين ؛ الساكنين في شرق تركستان ، وهم « الاويغور » والساكنين في الغرب منها وهم « الترك أو التركمان » وكان « الاويغور » بادیء ذی بدء أرقى وأرق وأكثر مدنية ، وكان لسانهم لسان الترك الأدبي ، وكان لهم خط ومؤلفات . ثم جاء رهبان من النساطرة ونصروا بعضهم وعلوهم خطأ مأخوذاً من السريانية ، وموجود بهذا الخط كتب تركية إلى اليوم .

وفي سنة ٨٥ للهجرة غزا « قتيبة الباهلي » بالمسلمين العرب بلاد الترك ، وافتتح بخارى ، ومرو ، وخوارزم ، وسمرقند ، وغيرها . واجتمع عليه ملك السغد ، وملك الشاش ، وغيرها . فهزمهم وأتحن في الترك فصالحوه على أموال يؤدونها إليه ، وكان في صلحة بيوت الأصنام والنيران فأخرجت الأصنام فسلبت حلقتها . وكانوا يقولون إن هناك أصناماً من استخف بها هلك ، فلما حرقها قتيبة بيده أسلم من الترك خلق وهذا أول إسلامهم .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك تولى خالد بن عبد الله القسرى العراق ، وأخوه أسد بن عبد الله خراسان ، وغزا أسد بلاد الترك ومنها « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم . ثم استعمل هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمي ، فدعا أهل ما وراء النهر إلى الاسلام ، وطرح الجزية عن الذين أسلموا ، فسارعوا إلى الاسلام ثم لما صارت الخلافة إلى بنى العباس وتولى المأمون خراسان - وذلك قبل خلافته - أخذ يغزو السغد ، وأشروسنة ، وفرغانة ، ويقول البلاذري في « فتوح البلدان » إنه كان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما .

نعم ! ولما تولى المأمون الخلافة سنة ١٩٨ دخل في الاسلام كاوس ملك أشروسنة

بعد حروب ومقاتلات تغلب فيها العرب على أهالي تلك البلدان ، وكان المأمون رحمه الله بينما هو يغزو الترك من جهة يدعوهم إلى الاسلام من جهة أخرى . قال البلاذري : « وكان يوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك ، حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد ، والفراغنة ، والاشروسنة ، وأهل الشاش وغيرهم . وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك » اهـ

ولا يخفى أن البلاذري كان قريب العهد من هذه الحوادث ، لأن الخليفة المعتصم مات سنة ٢٢٧ والمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري مات سنة ٢٧٩ .

وسنة ٣٥٠ أسلم سالورخان سلطان التركان سلالة طاغ خان وتسمى قره خان وأسلم معه قومه ، وجاء ابنه فبني جوامع ، وفتح عمه بغراخان كاشغر ، وأخذ بخاري من السامانية . وجاء بعده أحمد خان بن أبي نصر فأكمل إسلام من لم يهتد من الأتراك ، وازداد تردد الترك إلى بغداد ، وامتلاّت منهم العراق وارضروم واذربيجان ووصلوا إلى الشام وصار منهم أمراء جيش الخلافة ، واستبدوا بأمورها وصاروا يكتبون بالعربي ، و بعضهم اتخذ اللسان الفارسي ، ولم يهتم أحد منهم بلسان « الاويغور التركي القديم » ولم يجعلوا التركي لساناً رسمياً إلا في زمان بني سلجوق في الأناضول . ثم ترقى هذا اللسان في زمان الأتراك آل عثمان الذين خلفوا آل سلجوق ، لا سيما في أيام محمد الفاتح ، وسليم وسليمان . وفكر سليم في جعل العربي لسان الدولة الرسمي فلم يطيعوه ، لكنه بقي لسان الدين والعلم . وأما لسان الاويغور فقد كان في زمن جنكيزخان ترقى كثيراً ، لكنه عراه بعد ذلك التوقف ، وهو الذي يعرف « بجغتاي » ثم بتوالي الزمن تباعد « التركي الغربي العثماني » عن « التركي الجغتائي » كثيراً . ثم هناك « تركي تتر القريم » وهو متوسط بين الفريقين .

وعلماء الألسن يجعلون التركي خمسة أقسام ؛ الأول الاويغوري أو الجغتائي الثاني التتاري ، والثالث القيرقيز ، الرابع الياقوتي ، الخامس العثماني ، وليس للقيرقيز

والياقوت أدبيات في ألسنتهم . والقرقيز مسلمون لكن الياقوت لا يزالون وثنيين .
وقيل إن الياقوتى هو أصل التركي ، والباقي فروع عنه . ويقول المدققون : إن التركي
يشبه في الدرجة الأولى لسان التونغوز والمانشو من الألسنة الطورانية ، وفي الدرجة
الثانية لسان المغول ، وفي الدرجة الثالثة لسان الحجار والفنلانديين .

هذا والفرقة الأنقرية من الأتراك المستبدة بأمر تركيا اليوم تعلم في مكاتب
تركيا مذهبا جديداً في التاريخ ، وهو أن أصل الترك الذين في الأناضول وغربي
آسية هم من الحثيين ؟ وأن هذه البلدان هي لهم من أربعة آلاف سنة ، وهم في
هذا الكشف التاريخي الجديد يستندون الى تخمينات بعض مؤرخين محدثين من
أصحاب النظريات الجديدة في أوروبة ، ولكن شيئا من هذا لم يثبت .

وأكثر مؤرخي الأوروپيين يقولون إن أصل الحثيين من جهة الدم لم يتحقق
بعد وغاية ما تقرر - تاريخاً - أنهم أخذوا مدنياتهم عن السومريين والأكاديين أهل
بابل ، وقلدوهم في الكتابة والديانة والشعائر الدينية ، ومزجوها كلها بمدنياتهم وديانهم
وتقرر أيضاً عند بعض المؤرخين أن الحثيين هم كانوا الواسطة بين المدنية السامية
والمدنية الاغريقية . ولا يزال تاريخ الحثيين في أول عهده ، ولا تزال العلماء لم تحل
الكتابات الباقية عنهم ، ولا يعلمون هل لغة الحثيين هي هندية أوروبية ، أم قوقاسية ؟
وغاية ما لحظوا أن فيها دخيلاً من لغات أخرى .

أما الأكاديون من أهل بابل فانهم ساميون بلا نزاع ، ولغتهم سامية ، والأرجح
أنهم جاءوا من جزيرة العرب مهد الساميين .

وأما السومريون فلا يعرف أصلهم ، وقصارى ما نرجح من أمرهم أنهم غير
ساميين ، وأنه وجدت مدنية معاصرة لمدينتهم في جهات بحر الخزر .

ولا يعلم أحد ما فائدة أترك أنقرة من تعليم آراء تاريخية جديدة واهية لاتستند
على قواعد متينة ؟ ! وهل إذا كان ترك الأناضول آتين من فرغانة وسمرقند وكاشغر
من ألف سنة فقط يسقط حقهم بالأناضول ؟ ! ولا بد من أن يثبتوا أن هذه البلاد
بلادهم منذ آلاف من السنين حتى يستحقوها ؟ ! كل هذا من جملة الفرائب التي ولدت

مع الانقلاب الأنقري . انتهى ما كتبت في « حاضر العالم الاسلامي » .
 وجاء في الانسيكلو بيرية الاسلامية أن لفظة « ترك » هي محرفة عن لفظة « توكو »
 عند الصينيين ، وهو شعب ظهر في القرن السادس بعد المسيح وأسس ملكا طويلا عريضا
 امتد من بلاد المغول وشمال الصين إلى البحر الأسود ، وكان أصحاب هذا الملك من
 القبائل الرحالة ، وكان مؤسس هذا الملك الكبير رجلا يقال له « تومان » عند الصينيين ،
 و « ترك بومين » عند الأتراك ، وقد مات سنة ٥٥٢ للمسيح . وكانت أكثر الفتوحات
 على يد خاقان الذي مات سنة ٥٧٦ والصينيون يقولون لهؤلاء : ترك الشمال والغرب
 وكانوا قد انفصلوا عن ترك الشرق . وفي القرن السابع للمسيح خضع الترك جميعا
 الشرقيون والغربيون لسلالة « تانغ » الصينية ، ولكن ترك الشمال عادوا فاستقلوا في
 سنة ٦٨٢ للمسيح ، وفي مدة هذه الدولة التركية الغربية وجدت الكتابة المسماة بكتابة
 « أورخون » نسبة إلى نهر في بلاد المغول يقال له « أورخون » وهي أقدم كتابة تركية .
 واشتهر في قبائل الترك الغربية قبيلة « ترغش » وحاز أمراؤها لقب « خان » في
 أواخر القرن السابع للمسيح . وفي ذلك الوقت جاء العرب ففقدوا على ملك الترغش
 هؤلاء . في زمان نصر بن سيار سنة ١٢١ للهجرة . اه كلام الانسيكلو بيرية .

قلت : في زمان هشام بن عبد الملك تولى نصر بن سيار بلاد طخارستان ، فغزا
 « أشروسنة » وذلك في أيام الخليفة مروان بن محمد الأموي . وقد كان مضاء العرب
 في فتح خراسان وما وراء النهر من أبداع ما جاء في التواريخ ، ومما يدل على أن العرب
 إذا استقام أمرهم لم يقف في وجههم قبيل . فان الترك الذين تغلب العرب عليهم مشهورون
 بشدة البأس وقوة المراس ، وقد حشدوا للعرب من كل حذب فما نالوا منهم نيلا
 وتغلب العرب عليهم في أوساط بلادهم ، وأثخنوا فيهم ، ولم يكفوا عنهم حتى دخلوا
 في الإسلام . فكان الإسلام هو الذي أنجى في الدنيا فضلا عن الآخرة .

وفي زمن معاوية استولى العرب على خراسان ، وكان الوالي عبيد الله بن زياد
 وهو لايزال ابن خمس وعشرين سنة ، فقطع النهر في ٢٤٠٠٠ مقاتل فأتى « بيكند »
 وقصد إلى بخارى ، فأرسلت « خاتون » ملكة بخارى إلى الترك تستنجدهم ، فزحفوا

إلى العرب فهزمهم العرب واستولوا على « بخارى ، ورامدين ، وبيكند » . ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر بجنده ، وكان معه رجل يقال له رفيع أبو العالية الرياحي ، فتفاهل بهذا الاسم خيراً وقال : رفيع أبو العالية رفعة وعلو . وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر فحملت إليه الصلح ، وأدت الاتاة ، وبيناهي داخلية في الطاعة أقبل الترك من « السغد وكش ونسف » في مائة وعشرين ألف مقاتل والتقوا ببخارى ، وندمت خاتون على طاعتها للعرب ، ونكثت العهد ، إلا أن العرب هزموا الترك فرجعت خاتون إلى الصلح . ودخل سعيد بن عثمان بن عفان مدينة بخارى ، ثم زحف إلى سمرقند ، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها ، وما زال يضيق عليها الحصار حتى صالحوه وأعطوه رهائن من أبناء ملوكهم . ثم أقام على الترمذ وما زال يضيق عليها حتى فتحها ، ثم انتقض أهل الترمذ ففتحها قتيبة بن مسلم الباهلي وفي فتح بلاد الترك استشهد قثم بن العباس بن عبد المطلب ، كان مع سعيد بن عثمان فلما بلغ خبر شهادته أخاه عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : شتان ما بين مولده ومقبره !! ولم يوجد أناس تباينت قبورهم مثل أولاد العباس بن عبد المطلب فقد توفي عبد الله بن عباس بالطائف ، وتوفي الفضل بن عباس شهيدا بوقعة أجنادين بفلسطين ، وقيل بطاعون عمواس ، واستشهد معبد وعبد الرحمن ابنا عباس بافريقية وقيل إن معبدا مات شهيدا بافريقية ، وعبد الرحمن مات بالشام . واستشهد قثم بن العباس بسمرقند ، ومات عبيد الله بن العباس بالمدينة ، وقيل باليمن . ثم إنه بعد موت معاوية ولى ابنه يزيد بن معاوية سلم بن زياد ماوراء النهر ، فصالحه أهل خازم على أربع مائة ألف وحملوها إليه ، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي ، وكانت أول عربية عبرت النهر . وأقام سلم بن زياد بالسغد ، وسرح جيشا إلى « خنجدة » وفيهم أعشى همدان الشاعر ، فانهزم هذا الجيش فقال الأعشى :

ليت خيلي يوم الخجندة لم تهزم وغودرت في المكر سلبيا
تحضر الطير مصرعى وتروّحت إلى الله في الدماء خضيبا

ثم رجع سلم بن زياد إلى مرو وحشد هناك جيشا وغزا بلاد الترك ، فجمع له أهل السغد فقاتلهم ودوخواهم . ثم إن سلم بن زياد انصرف عما وراء النهر وتولاها عبد الله ابن خازم السلمي بمهد من سلم بن زياد ، فعصاه سليمان بن مرثد من بني سعد بن مالك من المرائد بن ربيعة واقتتلا ، وكان ذلك في أثناء فتنة ابن الزبير مع بني أمية . وطال القتال بين العرب فانتهز الترك الفرصة وشنوا الغارات حتى بلغوا قرب نيسابور ولكن انتهت هذه الفتنة بين العرب بالطائفة لابن خازم . وكانت العصبية العربية بين القبائل هي العامل في تلك الفتن ، كما كانت في الأندلس وفي بلاد الافرنجة . وكان عبد الله بن خازم لا يتولى غير عبد الله بن الزبير ، ولا يطيع عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح يوليه خراسان ، فقاتل ابن خازم وتغلب عليه وقتله ، وأرسلوا برأسه إلى عبد الملك بن مروان فنصبه بدمشق ، واشتدت الفتنة بين العرب في خراسان إلى أن كتب وجوه العرب إلى عبد الملك بن مروان أنه لا تصلح خراسان بعد هذه الفتنة إلا برجل من قريش ، فولّى عبد الملك على خراسان أمية ابن عبد الله بن خالد ، وغزا أمية بلاد الختل فافتتحها . ثم جاءت أيام الحجاج بن يوسف وكانت خراسان من جملة ولايته ، فولاه المهبلي بن أبي صفرة من الأزد وذلك سنة ٩٩ فغزا مغازي كثيرة ، وانتقضت الختل في أيامه فدوخوا وفتح « خجندة » وأطاعت له « السغد » و « كُش » و « نَسَف » ومات المهبلي فقام بعده ابنه يزيد ابن المهبلي ، فغزا مغازي كثيرة في بلاد الترك ، وفتح « البتم » ثم غزا يزيد « خازم » . ثم ولي الحجاج بن يوسف المفضل بن المهبلي بن أبي صفرة ففتح المفضل بلدانا منها « بادغيس وشومان » . وكان موسى بن عبد الله بن خازم السلمي بعد قتل أبيه قد امتنع بالترمذ ، فاستنجد أهل الترمذ الترك على موسى فهزمهم موسى ، وحدث مع موسى هذا وقائع كثيرة وحروب ذات بال تغلب فيها كلها .

وكان أهل خراسان يقولون عن موسى بن عبد الله بن خازم السلمي هذا : مارأينا مثل موسى ! ! قاتل مع أبيه سنتين لم يُفَلَّ ، ثم أتى الترمذ فغلب عليها وهو في عدة يسيرة وأخرج ملكها عنها ، ثم قاتل الترك والعجم فأوقع بهم ، إلا أنه لما تولى

المفضل بن المهلب خراسان أرسل جيشاً يقاتل موسى على الترمذ ، فانهزم موسى وقتل وتولى الترمذ مدرك بن المهلب ، وكان قتل موسى في آخر سنة ٨٥ ، وقيل إن رجلاً ضرب ساق موسى وهو قتيل ، فلما تولى قتيبة الباهلي وعلم به قتله . ثم ولي الحجاج ابن يوسف قتيبة ، وهو أشهر فاتح عربي لبلاد الترك ، خرج يريد بلاد « آخرون » فلما كان ببلاد الطالقان تلقاه دهاقين بلخ ، فعبروا معه النهر ، وقدم عليه ملك الصغانيان بهدايا وأعطاه الطاعة ، واستعان به على ملك « آخرون » و « شومان » الذي كان عدواً لملك الصغانيان ، ثم أقبل على قتيبة ملك « كفيان » وقدم له الطاعة فانصرف قتيبة إلى مرو ، وخلف أخاه صالحاً على ما وراء النهر ، ففتح صالح « كاسان » و « أورشت » من بلاد فرغانة و « بيغنخر » و « خشكت » وكان في جيش صالح هذا نصر بن سيار المشهور . وأطاع ملك « الجورجان » وقدم على قتيبة ، ثم غزا قتيبة « بيكند » سنة ٨٧ فاستصرخ أهالي « بيكند » أتراك السغد ، فهزمهم قتيبة وفتح « بيكند » ثم فتح « تومشكت » و « كرمينيه » سنة ٨٨ ، ثم استخلف على « مرو » أخاه بشاراً ، وغزا « بخارى » ودخاها صلحاً ، ثم أوقع بالسغد وافتتح « كش » و « نسف » وكان ملك خازم قد عصاه أخوه خرزاد فالتجأ الملك إلى قتيبة ، فوجه قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بجيش فقاتل خرزاد فقتله وأوقع بجماعته ، وأعاد الملك إلى أخيه ، ثم وثب الأهالي بالملك فقتلوه ، فولى قتيبة أخاه عبيد الله بن مسلم على خازم ثم غزا قتيبة « سمرقند » فاجتمعوا لقتاله ، وكتب ملك السغد إلى ملك الشاش (الشاش ما يقال له اليوم طاشقند) فهدوا إليه في خلق كثير فقاتلهم المسلمون وهزمهم وصالحهم أهل سمرقند على ألف ومائتي ألف درهم في كل عام ، وعلى أن يصلى قتيبة في المدينة ، فدخل قتيبة سمرقند وصلى واتخذ مسجداً ، وخلف بها جماعة من المسلمين فيهم الضحاك بن مزاحم « صاحب التفسير » وكان في صلح قتيبة بيوت الأصنام والنيران ، فأخرج قتيبة الأصنام وسلب حليتها وأحرقها ، وكانوا يعتقدون بها فلما رأوا قتيبة قد أحرقها بيده ولم يحصل له سوء أسلم منهم خلق .

وفي زمن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وفد قوم من أهل سمرقند فرفعوا

اليه أن قتيبة دخل مدينتهم غدراً وأسكنها المسلمين ، فكتب عمر يأمر بنصب قاض للنظر فيما ذكروا ، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل سمرقند الحرب وبقى المسلمون فيها . ثم فتح قتيبة عامة بلاد الشاش وبلغ « اسبيجاب » وقالوا « إن قتيبة فتح خاززم وسمرقند عنوة . وقد كان سعيد بن عثمان بن عفان قد تغلب على سمرقند وخاززم صلحا ، ولكن قتيبة استقل هذا الصلح وأبى إلا فتحها بالقوة ، ثم فتح « بيكند ، وكش ، ونسف » وقيل والشاش وبعض فرغانة ، وغزا « أشروسنة » . ولما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك كان قتيبة بن مسلم الباهلي مستوحشا منه ، كارها لخلافته ، فكتب سليمان إلى قتيبة يأمره باطلاق كل من في حبسه ، وأن يعطى الناس أعطياتهم ، ويأذن لمن أراد القفول في القفول ، وكانوا متطلعين إلى ذلك . وكان من مقابلة أهل البصرة أربعمائة ألفاً ، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف ، ومن الموالي سبعة آلاف . فلم يأذن قتيبة في القفول ، فثاروا به فانتصر له العجم على العرب ، وكانت حرب بين الفريقين فظفر العرب بقتيبة وقتلوه ، وهو الذي مهد لهم بلاد خراسان وما وراء النهر ، وقتل معه جماعة من إخوته ، وقتلت زوجته ، ونجا أخوه ضرار بواسطة بني تميم ، وأخذت الأزد رأس قتيبة وخأتمه وبعثوا به إلى الخليفة مع سليط بن عطية الحنفى ، وكان قتيبة يوم قتل ابن ٥٥ سنة . وبعد أن قتل قتيبة رحمه الله تولى خراسان وكيع بن حسان ابن قيس التميمي ، وأراد سليمان بن عبد الملك أن يثبتته في الولاية فقليل له : إن وكيعا ترفعه الفتنة ، وتضعه الجماعة ، وفيه جفاء وأعرابية ، وكان وكيع يدعو بطست فيبول والناس ينظرون إليه ، فلم يكن يصلح للولاية . فقدم عليه يزيد بن المهلب والياً فقدم يزيد ابنه مخلداً فعزا مخلد « البتم » ففتحها ، ثم نقض أهلها العهد فكر عليهم وفتحها ثانية ، وأصاب بها مالا وأصناماً .

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام ، فإن هم كانوا نشر الاسلام قبل كل شيء ، فأسلم بعضهم . وكان عامل عمر على خراسان الجراح بن عبد الله الحسكى ، فوجه الجراح أحد قواده

عبد الله بن معمر اليشكري إلى ماوراء النهر ، فأوغل في بلاد العدو وهم بدخول الصين فلما تكاثر عليه الترك رجع إلى الوراق وامتنع ببلد الشاش ، ورفع الخليفة رضى الله عنه الجراح عن أسلم بخراسان ، وفرض العطاء للمسلمين منهم ، وبنى الخانات . وكان الجراح بن عبد الله الحكى قد كتب للخليفة أنه لا يصلح خراسان إلا السيف فاغتاز عمر من كلامه هذا وعلم أنه وال يستخف بالدماء فعزله ، ولكن قضى الدين الذى عليه . ثم ولى عبد الرحمن بن نعيم الغامدى حرب خراسان ، وعبد الرحمن بن عبد الله القشيري خراجها . وفى خلافة يزيد بن عبد الملك تولى خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاصى بن أمية ، فنزل خراسان وبعث ابنه إلى ماوراء النهر فنزل « اشتيخن » فزحف إليه الترك فقاتلهم وهزمهم . ثم لقي الترك مرة ثانية فانهزم أصحاب سعيد ، فولى سعيد نصر بن سيار على الجيش . وشخص قوم من وجوه خراسان إلى مسلمة بن عبد الملك وإلى العراق وشكوا سعيداً ، فعزله مسلمة ، وولى سعيد بن عمر الجرشى على خراسان ، فافتتح الجرشى عامة حصون السغد . وقال البلاذرى : إنه نال من العدو نيلاً شافياً . وفى خلافة هشام بن عبد الملك تولى العراق عمر بن هبيرة الفزارى ، فعزل الجرشى واستعمل على خراسان مسلم بن سعيد ، فغزا « الأفشين » فصالحه على ستة آلاف رأس ، ودفع إليه قلعة . وتولى طخارستان نصر بن سيار كما تقدم الكلام عليه ، فخالفه خاق من العرب فأوقع بهم ثم سمرت بينهم السفراء فاصطلحوا .

ثم تولى العراق خالد بن عبد الله القسرى من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك فولى خالد أخاه عبد الله بلاد خراسان ، وبلغ ذلك مسلم بن سعيد فسار إلى فرغانة وأناخ على مدينتها وعاث فيها ، فاجتمع عليه الترك وعليهم خاقانهم ، فارتحل عن فرغانة وغزا أسد بن عبد الله القسرى « جبال نمرود » فصالحه نمرود وأسلم ، وغزا « الختل » فلم يقدر عليها .

ثم استعمل الخليفة هشام أشرس بن عبد الله السلمى فدعا أهل ماوراء النهر إلى

الاسلام وأمر بطرح الجزية عن أسلم ، فسارعوا إلى الاسلام وانكسر الخراج . ثم استعمل الخليفة هشام سنة ١١٢ الجنيد بن عبد الرحمن المرمي على خراسان ، فحارب الترك وهزمهم وظفر بابن خاقان فبعث به إلى الخليفة هشام ، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوحهم ، وأمدّه الخليفة بعمرو بن مسلم في عشرة آلاف رجل من أهل البصرة وبعيد الرحمن بن نعيم في عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وحمل إليه ثلاثين ألف قناة ، وثلاثين ألف ترس ، وأطلق يده في الفريضة ، ففرض خمسة عشر ألف رجل وكانت للجنيد مغاز كثيرة . وفي زمانه عصت نواح من طخارستان ففتحها ، وكانت وفاته بمر . فولى الخليفة هشام عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي .

وكان نصر بن سيار غزا « أشروسنة » أيام الخليفة مروان بن محمد فلم يقدر عليها وكان من بعده من الخلفاء يؤتون عمالهم فينتقصون حدود أرض العدو ، ويحاربون من نقض العهد . وبقى الأمر كذلك إلى أيام المأمون يوم مقامه بخراسان ، فكان يغزو بلاد الترك من « السغد » و « أشروسنة » و « فرغانة » ويوالى عليهم الغارات ولكنه من جهة ثانية يدعوهم إلى الاسلام . وكتب إليه « كاوس » ملك « أشروسنة » يسأله الصلح على مال يؤديه على شرط أن لا يغزى المسلمين بلده ، فأجيب إلى ذلك فلما تولى المأمون الخلافة امتنع كاوس من الوفاء بالصلح . فأرسل المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب لغزو « أشروسنة » في جيش عظيم ، فاستصرخ كاوس الترك فزحفوا لنجدته ، ولكن أحمد بن أبي خالد أناخ على « أشروسنة » قبل وصول الأتراك فاستسلم كاوس له ، وورد كاوس مدينة السلام وأظهر الاسلام ، وملكه المأمون على بلاده . ثم ملك ابنه « خيزر بن كاوس » الملقب بالأفشين بعده (واسمه بالخاء المعجمة كما رأيت في تاريخ أبي الفداء) وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عماله في خراسان بغزو من لم يسلم من الترك ، ويُسني العطاء لمن أسلم . وإذا ورد ملوك الترك بابه بالغ في تشریفهم وإكرامهم وأدرّ عليهم الأرزاق . ثم جاءت خلافة المعتصم فكانت رغبته في الترك أكثر من كل الخلفاء ، وصار أكثر جيشه من أهل السغد ، وفرغانة ، والأشروسنة ، والشاش ، وغلب الاسلام على تلك البلاد ، وصار

أهلها يغزون من وراءهم من الترك . وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد « الغوزية » ففتح مواضع لم يصل إليها أحد قبله . وكان قتيبة الباهلي أسكن العرب في أرض « فرغانة والشاش » .

والأفشين هذا هو الذي بعد أن أسبغ عليه الخلفاء النعم الجسام ، عاد فظهر أنه لم يكن إسلامه إلا خداعاً ، وأنه لم يكن طهر قلبه من عبادة أصنام ، فأنتهى الأمر بأن المعتصم قاتله وأخذه ، وبعد وقوعه باليد أحرقه . وفي ذلك يقول أبو تمام الطائي شاعر الحضرة :

يارُب فتنة أمة قد بزها	جبارها في طاعة الجبار
جالت « بخيدر » جولة المقدار	فأحله الطفيان دار بوار
كم نعمة لله كانت عنده	فكأنها في غربة وإسار
كسيت سبائب لومه فتضاءلت	كتضاؤل الحسناء في الأطمار
صاды أمير المؤمنين بزبرج	في طيه حمة الشجاع الضاري
حتى إذا ما الله شق غباره	عن مستكن الكفر والإصرار
ونما لهذا الدين شفرته انثنى	والحق منه قاني الأظفار
هذا النبي وكانت صفوة ربه	من بين بار في الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابة	وهو أشد أذى من الكفار
واختار من سعد لعين بني أبي	سرح لوحى الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة النور التي	رفعت له سجفًا عن الأسرار
ومنها :	

ما كان لولا فحش غدرة « خيدر »	ليكون في الاسلام عام فجار
ما زال سر الكفر بين ضلوعه	حتى اصطلى سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها	لهب كما عصفت شق إزار
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك	ما كان يرفع ضوءها للشارى
صلى لها حياً وكان وقودها	ميتاً ويدخلها مع الفجار

قد كان بواه الخليفة جانباً من قلبه حرماً على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرّد وأنامه في الأمن غير غرار
فاذا ابن كافرة يسر بكفره وجدا كوجد فرزدق بنوار
وإذا تذكره بكاه كما بكى كعب زمان رثى أبا المغوار
دلت زخارفه الخليفة أنه ما كل عود ناضر بنضار
يا قابضا يد آل كاوس عادلاً أتبع يميناً منهم يدسار
واعلم بأنك إنما تلقيهم في بعض ما حفروا من الآبار

وذلك أن « الأفشين خيزر بن كاوس » كان مقرباً عند المعتصم ، ولخيزر جهاد عظيم في حروب الروم ولا سيما في فتح عمورية ، وهو الذي هزم « بابك الخرمي » الذي خرج على الخلافة في « جبال طبرستان » واشتد أمره ، وهزم عساكر المعتصم مرارا ، فرماه المعتصم بالأفشين ، فما زال يقاتله حتى أخذه . ولكن في سنة ست وعشرين ومائتين غضب المعتصم على الأفشين خيزر بن كاوس وحبسه إلى مات في حبسه وأخرج فصلب إلى جانب بابك كما هو مبسوط في التواريخ .

وجاء في الانسكلوبيديّة الاسلاميّة أن الخليفة هشام بن عبد الملك كان قد دعا ملك الترك إلى الاسلام ، وأن مؤلفي العرب لم يبدأوا بالكتابة عن الترك إلا في القرن الثالث للهجرة . فذكروا من أصنافهم « الطوغوزغوز » و « الغزغز » و « الكيمك » و « الغز » أو « الاوغز » و « القارلق » وكان الغزغز أبعدهم مكاناً عن العرب وكان الاوغز والقارلق هم الساكنين على حدود المملكة العربية مثل جرجان ، وفاراب وأرييجاب . وكان الطريق من المملكة العربية إلى الصين ماراً ببلاد القارلق ، فكان المسافر يمشي ثلاثين يوماً من حدود فرغانة الشرقية في بلاد القارلق إلى أن يصل إلى البحر المحيط .

وذكر ابن خرداذبه قبلا من الترك كان يسكن بقرب مشاتي القارلق وهم « الخالاج » . وذكروا أن مدينة « خاقان ترغش » كانت بقرب « نهر كو » وكان الترغش ينقسمون إلى « تخشي » وإلى « آز » وكان التخشي يسكنون على ضفاف

«كو» ولهم مدينة اسمها «صوياب». وكان الى الشرق منهم قبيل يقال له «الصيغل» وكان الى الجنوب من نهر «مارين» قبيل يقال له «يغمة» من الطوغوزغوز وفي بلادهم كانت مدينة «كاشغر». وقال محمود الكشغري: إن اليغمة والتخشي كانوا يسكنون على ضفاف نهر «اللي» وكان بالقرب منهم قسم من «الصيغل» وكان هؤلاء الصيغل ثلاثة أقسام «صيغل اللي» و«صيغل كاشغر» والصيغل الذين يقرب «تاراز». وكان الأوغز يسمون جميع الترك من سيحون الى الصين «صيغل» ويقول محمود الكشغري: إن الاوغز والقارلق كان يقال لهم «التركان».

وذهب بعضهم الى أنه قد يكون التركان من سلائل الايرانيين الرحالة، وقد استتركوا بمرور الأيام، لان سحتهم تختلف عن سحنة سائر الترك. ويظنون أن «التاتار» هم من قبائل «الكيماك» السبع، وأصلهم من الطوغوزغوز. وقسم بعضهم الترك الى قسمين: الشمالى، والجنوبى، وقالوا إن كلا منهما عشرة شعوب فالشماليون هم: البجناك، والقبجاق، والاوغز، والييك، والباشكرد، والباسمىل والقاي، والياباكو، والتتر، والغرغز. وإن الجنوبى هم: الجيكيلى، والتخشي واليغمة، والاغراق، والجاروق، والجومول، والاوليفور، والتنكوت، والحيطاي والتفناق. وقد يقع اختلاف فى هذا التقسيم، لأن شعوباً منسوبة الى الشمال قد ثبت أنها سكنت فى الجنوب.

ومن شعوب القسم الشمالى من كانت لهم لغات مخصوصة بهم مثل القاي والياباكو، والتتر، والباسمىل، ولكنهم كانوا يعرفون اللسان التركى العام. وكان الياپاكو يسكنون على ضفاف النهر الكبير «يامار» الذى يظن أنه النهر الذى يقال له اليوم «أومور» وقد روى بعض المؤرخين أن جيشاً إسلامياً عبر هذا النهر فى القرن الحادى عشر للمسيح تحت قيادة أرسلان تكين، الذى ذهب يغزو الياپاكو والباسمىل وأما الشعوب الجنوبية من الترك. فكان منهم شعب «الجومول» يتكلم بلغة غيه التركى، واسكنه يعرف التركى. وقيل مثل هذا عن «الاوليفور» فقد كانت له عدا التركى لغة خاصة. وأما «التنكوت» فكانوا قبيلة غريباً فى الحقيقة، سكن

في وسط الترك . وكذلك أهل « خوطان » و « التبت » فقد كانت لهم لغات خاصة بهم . وفي بلاد الصين وماسين كان للالهالي لغة غير التركي ، وإنما كانوا يعرفون التركي وفي أصناف الترك « الجاروق » وكانوا يسكنون في مدينة برقوق التي هي اليوم « مارالباشي » وكان في بلاد الأويغور خمس مدن ؛ منها « بشبالق » و « قوقو » و « قره خوجه » وكان الأويغور بوذيين يعبدون الأصنام . وقد ذكر محمود الكشغري قبائل تركية أخرى ليست داخلية ضمن الشعوب العشرين التي ذكرناها ، من جلتها « الأدغيش » و « الكوجات » الذين كانوا في خوارزم . وقد ذكروا من جملة من هم من أصل تركي « البلغار » و « الصوغار » وذهب الكشغري إلى أن لغة البلغار والصوغار ، والبجنتك ، كلهما لغة واحدة . ولكن الاصططخري يقول : إن لغة البلغار والخزر ، تفرق عن لغة الترك . وكانت لهجات القرغز ، والقبيجاق ، والأوغز ، والتخشي واليغمة ، والصيغل ، والاغراق ، والكاروق ؛ تركية محضة ، ويقرب منها لغات اليكة ، والباشكير . وبالأجمال فالترك الرحالة الساكنين بين « الايتل » و « اليامار » كانوا يتكلمون بلغة أنقى من لغات أهل المدن ، وقد كانت اللغة الصغدية مستعملة إلى جانب التركي في المدن ، وكان يقلب على لغة الأوغز - أو التركمان - لهجة الشعوب التركية الجنوبية . ثم جاء في الانسكلوبيديّة الاسلاميّة ؛ أن ظهور العرب على الترك في أول الدولة العربية لم يؤثر في قضية اتخاذ الترك الاسلام ديناً ، وكانوا يروون الحديث النبوي : « إتركوا الترك ما تركوكم » . وما أسلم الترك إلا اختياراً في القرن الرابع للهجرة (وقد ظهر لك مما تقدم أن الاسلام بدأ في الترك من أيام بني أمية ، ثم فشا فيهم لعهد المأمون والمعتصم) .

وأنه في سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة ، كان زحف الترك الوثنيين على المملكة السامانية ، فدحرهم المسلمون ، وفي سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة للهجرة ، دخل الترك المسلمون بخارى واستولوا عليها . وفي القرن الخامس للهجرة فتح الترك المسلمون تحت راية بني سلجوق بلاد الاناضول . وقد رويت أحاديث عن الرسول عليه السلام بخلاف الحديث السابق ، أي أنه كان يحرض على تعلم لسان الترك لأنه سيكون لهم

ملك طويل العهد - وأظنه من الأحاديث الموضوعة - ولم يعلم شيء عن تاريخ الحادث الذي قيل فيه إن شعباً تركياً يبلغ مائتي ألف خيمة قد أسلم في يوم واحد . (قلت ورد هذا في صبح الأعشى) والمظنون أن لهذا الحادث علاقة بدولة « ألك خان » من قبيلة « أفراسياب » وكان أمراء كاشغر المسلمون استولوا على بلاد « خوطان » ولم تعلم تفاصيل هذا الاستيلاء . وكانت بلدة « كوزن » وقلمة « بوغور » وغيرها معدودة ثغور الاسلام في بلاد التركستان الصينية . وكان دخول الأتراك الذين في الغرب متأخراً عن دخول الذين كانوا في الشرق في الاسلام .

وقد روى ابن الأثير أن شعباً تركياً كان يشتو في بلاد « بالازاغون » ويصيف في بلاد « بلغار » بقرب « الاورال » قد أسلم في شهر صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وروى أنهم كانوا عشرة آلاف خيمة . وكان « القبجاق » في أواسط القرن السادس للهجرة لما يدخلوا في الاسلام ، وذلك يستفاد من كتاب قيل فيه عن وصول أمير القبجاق إلى « جند » ثم يقول صاحب الرواية عنه : رزقه الله الاسلام . وكان الروس منذ أواسط القرن الثاني عشر للمسيح يسمون جميع أصناف الترك ما عدا القبجاق « سرنيكلو بوكي » أي الطرايش السود . ومن هؤلاء قبيلة « البكنج » يظن أن أصلها ليست من الترك بل أمة غربية ، وهم يخالفون الأتراك الطارئين من أواسط آسية بكونهم يربون البقر ، وقد أسلموا كسائر من أسلم من الترك . ولما تأسست سلطنة « قره خيطاي » التركية بعد سنة ثلاثين ومائة وألف مسيحية ، كان الاسلام قد فشا في الترك ، ولكن هذه السلطنة كانت وثنية فأخذت تضطهد الاسلام ولكنها لم تقدر عليه ، وكانت إمارة « بالازاغون » الواقعة في الشمال إمارة إسلامية وعند انحلال سلطنة قره خيطاي كانت توجد إمارات إسلامية في شمالي « اللي » مثل إمارة « قارلق » وإمارة أخرى في بلاد « قلعجه » وكانت بلاد « ماناس » هي الحد الفاصل بين الترك الإسلامية وغير الإسلامية .

أما دخول الأتراك في الأناضول وقبل ذلك في أذربيجان فما بدأ إلا في زمن السلاجقة ، وقد تم ترليك تلك البلاد فيما بعد .

وفي زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يوجد أتراك في مصر ومنها دخلوا إلى أفريقية ، وبعد ذلك إلى الأندلس كما ذكر عبد الواحد المراكشي . ولكن لم يكن أثر يذكر للترك في الأندلس . انتهى كلام الانسكلوبيديّة الاسلاميّة ملخصا . وفيه بعض خطأ ، وهو في ظنه أن الترك لم يعرفوا مصر إلا في زمن صلاح الدين بل عرفوا مصر قبل صلاح الدين بكثير ، وقبل الفاطميين .

وآل طولون هم من الترك وقيل : إنه كان في مجلس الخلفاء الفاطميين أناس من الترك ، فبعد انصرفهم سئل عنهم فقال : هؤلاء الذين سيكونوا أمراؤنا في الغد . قلنا : إنه في القرن الحادي عشر للمسيح كانت جميع بلاد الأناضول التي يقال لها « آسيا الصغرى » مع بلاد « قيلقية » أي « ولاية أطنة » الحاضرة ، ومع شمالي سورية كانطاكية ، واللاذقية ، ومع أرمينية كلها داخلة في ملك القسطنطينية . وكان الاسلام يومئذ منقسما إلى دولتين ؛ الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر . وكانت فارس الغربية تخص بنى بويه الذين استأثروا بالأمر في بغداد وحجروا على الخلفاء العباسيين ، وأما في شرقي إيران فكانت الدولة السامانية تارة في بخارى ، وتارة في سمرقند . وبقيت مستتبة إلى زمان محمود الغزنوي التركي الذي استولى على خراسان وعلى قسم من بلاد العجم ، ولو لم يشغل بفتوحات الهند لربما كان تقدم إلى بغداد فشغلت الهند الدولة الغزنوية ، وبذلك اتسع المجال لدولة أخرى تركية من الغوز يقال لها « الدولة السلجوقية » . وكان آل سلجوق أتباعا للغزنويين في بادئ الأمر ، فظهر منهم رجل يقال له طغرل بك ، واستولى على نيسابور قاعدة خراسان ، فأرادا الغزنويون أن يقضوا عليهم ولكن جاءوا متأخرين بما شغلهم من فتوحات الهند . وظهر طغرل بك على الغزنوية ، فتمكن طغرل بك من خراسان وانتشر أبناء عمه في البلاد الغربية مثل إيران ، وكرجستان ، وأرمينية .

وكان طغرل بك أحسن السلاجقة سياسة ، وأوفرهم عقلا ، فاتخذ لنفسه خطة معينة ، وصار يفتح بلداً بلداً حتى وصل إلى بغداد . وكان بنو بويه غلبوا على بغداد وحجروا على الخلفاء ، وكانوا شيعة متعصبين . فجاء طغرل بك إلى بغداد ورفع منار

السنة ، وأيد الخلافة العباسية ، وقلده الخليفة السلطنة ، وسماه بملك الشرق والغرب . وكان في ذلك الوقت أرسلان البساسيري قد دعا للخليفة الفاطمي في وسط بغداد وانهزم القائم العباسي من وجهه ، فجاء طغرل بك وهزم البساسيري وقتله ، وأعاد الخليفة الى مكانه . ثم تزوج طغرل بك بابنة الخليفة ، وعاد أمر الخلافة العباسية كما بدأ من القوة ، وانتصرت السنة أيضاً على يد طغرل بك السلجوقي . ومنذ أن تمكن طغرل بك من بغداد نشر غاراته هو وأبناء عمه في بلاد الأناضول ، وأخذ ينتقص أطرافها ، فبدأ السلاجقة بأرمينية وقارس ، وأغار عليها طغرل بك بذاته سنة ١٠٥٤ مسيحية . وكان امبراطور بيزنطية في ذلك الوقت قسطنطين التاسع المسمى «مونوماك» فمجز عن دفعهم ، وجاء بعده قسطنطين العاشر الملقب «دوكاس» فوصل الترك في زمانه إلى «سيواس» في قلب الأناضول . ثم توفي طغرل بك وخلفه ألب أرسلان ابن أخيه ، فزحف صوب مملكة الروم واستولى على «أرمينية» وهزم ملوك الأرمن وهكذا انفتحت أمامه مسالك الأناضول ، فبث فيها الغارات من كل جانب ، ووصل الى قيصرية . وتولى الأمر في القسطنطينية قيصر شديد الشكيمة اسمه «رومان ديوجينوس» فجهز الجيوش وزحف الى الأتراك ، وكانت الحرب بين الفريقين سجالاً . وكان ألب أرسلان قد كرّر راجعاً الى إيران بسبب عصيان أولاد عمه عليه ، فلما فرغ من قتالهم عاد الى الأناضول فهدى اليه «رومان ديوجينوس» بمائة ألف مقاتل وذلك سنة ١٠٧١ مسيحية فتلاقى الجمعان في ١٩ اغسطس سنة ١٠٧١ عند بلدة «مالازگرد» بقرب «خلاط» فدارت الدائرة على الروم ، وجرح «رومان ديوجينوس» ووقع في الأسر ، وكان ذلك أعظم خطب حلّ بالنصرانية في الشرق ، وانقسم بمعركة «مالازگرد» ظهر السلطنة الرومانية البيزنطية .

ووصلت الأخبار الى الغرب فهاج هائج جميع العالم المسيحي ورأوا أن المملكة البيزنطية أصبحت لا تصلح خصماً للإسلام ، ولا حاجزاً دون تقدمه صوب أوروبا . ومن ذلك اليوم تولدت فكرة الحرب الصليبية ، ومعناها أن المسيحيين الشرقيين لا يقدرّون أن يقفوا في وجه الاسلام ، فيجب على المسيحيين الغربيين أن ينهضوا

ويزحفوا إلى الاسلام في عقر داره . و برغم الحروب الصليبية لم يزل الترك يتقدمون في آسيا الصغرى حتى بلغوا بحر مرمرة ، وذلك في زمان ملك شاه بن ألب أرسلان وبمعاونة ابن عمهم « سليمان بن قطولش » ووصل الأتراك إلى أزمير في سنة ١٠٨١ وأخذ ظل الروم يتقلص عن تلك البلاد الواسعة . نعم أن الصليبيين أخروا تتريك الأناضول مدة من الزمن ، ولكن عاد الأتراك فأتوا فتح هذه البلاد ، ووجدت دوله ثانية تركية غير السلاجقة وهى الدولة « الدانشمندية » التى تأسست في « كبادوكية » وكانت لها قيصرية ، وسيواس ، وأماسيه ، وأخيراً جاء بنو عثمان وخلفوا السلاجقة والدانشمندية ، وفتحوا بورسة وجعلوها دار مملكتهم ، ثم أجازوا إلى الروملى ونقلوا دار ملكهم إلى أدرنة قبل أن فتحوا القسطنطينية .

ثم وفق الله محمداً الثانى الملقب بالفاتح فاستولى على عاصمة النصرانية في الشرق واستصفى بلاد الأناضول كلها ، وعاد فأكمل فتح الروملى واستولى على جميع مالحقات الملك القسطنطينى ، وأوغل في بلاد البلقان حتى استولى على بلاد الصرب وبوسنة ، وأكمل خلفاؤه عمله فاستولوا على جميع الممالك التى في شبه جزيرة البلقان وأدخلوها في الحكم العثمانى ، واستلحقوا مملكة المجار ، ووصلوا إلى بولونية ، وحاصروا فينا ، ولولا قليل لكنت سقطت في أيديهم . ولم يبدأ تقلص الأتراك عن شبه جزيرة البلقان إلا عند ظهور الروسية ، فأصبح الترك بازاء عدوين كبيرين معاً ؛ السلطنة الألمانية ، والسلطنة الروسية . فمضى بعد ذلك أربعة قرون حتى عاد الأتراك فخرجوا من جميع تلك الممالك التى كانوا افتتحوها في البلاد البلقانية ، ولم يبق لهم إلا القسطنطينية وربضها الذى ينتهى عند أدرنة . وسنذكر شيئاً عن تنمة تاريخ الأتراك العثمانيين بعد الانتهاء من مبحث الترك الأصلى .

ونعود إلى تاريخ الترك في أيام زحف المغول من الشرق إلى الغرب فنقول : إن المغول شعب آخر غير الترك ولكنهم من أصل واحد ، وقد دخل من المغول كثير في الترك فصاروا منهم ، ولما زحف جنكيز خان وأعقابها كان يقال لهم « المغول » ويقال لهم أيضاً « التتار » ولكن بعد أن أسلمت الدولة المغولية في القرن الرابع عشر

للمسيح غلب على المغول اسم التتار . فتأسست سلطنة في « قازان » وسلطنة أخرى في « استراخان » وسلطنة أخرى في « القريم » وكلها كانت دولا تترية إسلامية . ثم تأسست دولة تترية إسلامية في « سيبيريا » بقرب « طوبولسك » الحاضرة وغلب اسم التتار على جميع الأتراك غير العثمانيين . وهذا هو اصطلاح الروس واصطلاح كثير من الأوربيين . وذلك بأن يسموا بالترك أترك السلطنة العثمانية وبالتر الأتراك الذين في الروسية الحاضرة . ومن هؤلاء شعب يقال لهم « الأوزبك » تغلبوا في القرن السادس عشر المسيحي على « بخارى » و « خيوة » وأزالوا مملكة « الجفطاي » ثم أسسوا دولة « خانات خوقند » . وجاء شعب آخر اسمه « النوغاي » من الترك فكانت لهم دولة في بلاد « القولغا » . ثم غلب عليهم شعب تركي آخر اسمه « الكلموك » . ومن الشعوب التركية المعروفة شعب يقال له « القزق » كانوا مستقلين ، وإن كانوا جيراناً للأوزبك .

وقد كانت تأسست في « كاشغر » من التركستان الصيني دولة تركية على أثر سقوط دولة الجفطاي ، واتخذت الاسلام ديناً في أواسط القرن الرابع عشر ، أي مذنحو أربعائة وخمسين سنة . واشتهر منها أمير يقال له « محمود خان » اعتنى جدا بنشر الاسلام . وكان المغولي أو التركي الذي لا يلبس عمامة يدق له مسمار في رأسه !! وأخذت الديانة البوذية تتفقر من تلك الديار ، وكان « الأويغور » من أشهر شعوب الترك لا يزالون بوذيين ، فانتشر الاسلام فيهم أيضا . ولم يبق على البوذية إلى يومنا هذا إلا قسم منهم يقال لهم « الأويغور الصفر » .

ومما يجب أن يعرف أن الأتراك العثمانيين هم من جنس الترك الذي يقال له « التركان » . وهؤلاء التركان منهم قسم يقال له « الخروف الأسود » وقسم آخر يقال له « الخروف الأبيض » . وقد انتشروا في غربى آسية ، ودخلت منهم أقوام في البلاد العربية . وفي القرن الثامن عشر والتاسع عشر للمسيح تغلب « الكلموك » على هؤلاء التركان كما تغلب الكلموك على « الفرغز » و « القزق » ثم سقطت دولة « الكلموك » . ومن الفرغز فرقة تسكن في بلاد « بنى زامى » ويقال لها اليوم

« خاكس » ليسوا كسائر أصناف الترك تابعين للمدينة الإسلامية ، كما أنه يوجد في « جبال الألباي » ترك غير مسلمين ، والروس يقولون لهم « كَلْموك الجبال » وليس هؤلاء مسلمين . وكذلك الأمة المسماة « بالياقوت » هم أتراك غير مسلمين ، ولغتهم لغة تركية قديمة . وقد كانت جميع البلاد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر للمسيح من شبه جزيرة البلقان ، وشطوط البحر الأسود إلى الصين بممالك إسلامية متصلة كما ورد في الانسيكلوبيديا الإسلامية ، ولكن كان قد بدأ دخول هذه الممالك في دور الانحطاط ، فتقلص ظل المدينة وعادت البداوة القديمة . وكان قد بدأ الروس من ذلك العهد يتغلبون على من جاورهم من الترك ، فاستولوا على مملكة « قازان » سنة ١٥٥٢ م على مملكة « استراخان » سنة ١٥٥٤ فقطعوا ما بين الترك المشاركة والترك المغاربة في العثمانيين .

ومنذ ذلك الوقت أخذ الروس يزحفون صوب الشرق فيستولون على مملكة تملكة من هذه الممالك التركية الإسلامية ، واتفقوا مع الصين على أنه لا يجوز أن يبقى للإسلام ملك من بحر الخزر إلى حدود الصين . فالذي لم يدخل تحت حكم الروسية يجب أن يدخل تحت حكم الصين ، وقد انعقد هذا الاتفاق بين الروسية والصين بمعاهدة تاريخها (٢٤ فبراير ١٨٨١) و برغم هذا فيقول « بارتولد » محرر هذا الفصل من الأنسيكلوبيديا الإسلامية : إن الإسلام والتركية لم يرجعا إلى الوراء في الروسية وأنه بعد الانقلاب الروسي والحكومة البلشفية تأسست للأتراك في الروسية جمهوريات تابعة لموسكو مثل جمهوريتي « الأوزبك » و « التركمان » وجمهورية « أذربيجان » في القوقاز . وبالأجمال فللأتراك تحت حكومة السوفييت الحاضرة سبع جمهوريات لها شبه استقلال ؟ وهي جمهورية القريم ، وجمهورية قوقاس ، وجمهورية الباشكير وجمهورية التتار ، وجمهورية القزق ، وجمهورية الفرغز ، وجمهورية ياقوت . ويوجد أربع نواح لها أيضا إدارة مستقلة ، وأكثر أهلها من الترك وهي : بلاد قره كاي وبالكار ، وقره كالبكيك ، وأويرات . ويقول إن هذا الدور قد أحيى أسماء القبائل التركية القديمة . ويذكر أن أكثر هؤلاء الأتراك قد عولوا في الكتابة على الحروف

اللاتينية . أما « الكوفاش » و « الكاكاس » و « الاويرات » فقد بقوا متمسكين بأحرف الهجاء الروسية . اهـ

قلنا : إن السبب في هذا هو الدعاية الأنقرية والدعاية البلشفية نفسها ، فان كلا من موسكو وأنقرة أخذتا بالحروف اللاتينية ، فالأتراك المسلمون في الروسية قلدوا في ذلك أنقرة ، وأما الأتراك غير المسلمين مثل « الكاكاس » ، والاورات » فبقوا متمسكين بالحروف الروسية ، وذلك لأنه لا يجمعهم بأنقرة جامعة اسلامية حتي يقلدوها ، وقد بلغ من انقلاب الأوضاع أن صارت الحروف اللاتينية هي موضوع دعاية الأتراك المسلمين !! و يقلد بعضهم بعضاً فيها ، وأن الأتراك غير المسلمين لا يعرفونها . وجاء في الانسيكلو بيديا أنه في إحصاء سنة ١٨٨٥ كان عدد الترك في الروسية ٢٦ مليوناً وقيل إن هذا العدد مبالغ فيه ، وأن أترك الروسية ليسوا غير ١٦ مليوناً ، وأن جميع الأمة التركية في العالم ثلاثون مليوناً . ولكن كتاب الأتراك ومؤلفيهم يحملون للترك أكثر من هذا العدد بكثير . فأحمد أغايف يقول : إنهم من سبعين إلى ثمانين مليوناً ، ومصطفى كمال باشا يقول : مائة مليون ! انتهى ما في الانسيكلو بيديا الاسلامية .

والحقيقة أن الذين قالوا إن الترك بأجمعهم ثلاثون مليوناً قد نقصوا عددهم كثيراً كما أن كتاب الترك قد يكونون زادوا العدد على ما هو في الحقيقة ، ولا شك أن الترك الذين في الروسية لا يقلون عن ثلاثين مليوناً ، كما أن الترك الذين في التركستان الصينى يبالغون عشرة ملايين ، فيبقى ترك الأناضول ومن يليهم من الترك الذين في تراقية ، وبلاد الباغار ، ورومانيا ، فهؤلاء كلهم لا يقلون عن خمسة عشر مليوناً . ويجب أن نضيف إلى هذا العدد أترك إيران وهم أربعة إلى خمسة ملايين ، فالجميع ستون مليوناً ، وهذا أقرب تعديل .

وقد جاء في «صبح الأعشى» في الجزء الخامس خبر كيفية استيلاء الترك على بلاد الاناضول بعد أن كانت كلها للروم قال : إن ثغور المسلمين كانت من جهة الشام « ملطية » ومن جهة أذربيجان « أرمينية » إلى أن دخل بعض قرابة « طغرل بك »

أحد ملوك السلجوقية في عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء ، ثم دخلها بعد ذلك « ممانى » أحد أمراءهم بعد الثلاثين وأربعمائة ففتح وغنم ، وانتهى في بلادهم حتى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة . ثم فتح « قطلمش » ابن اسراييل بن سلجوق « قونية » و « أقصرا » وأعمالها . ثم وقعت الفتنة بين قطلمش وبين ألب أرسلان السلجوقى وقتل قطلمش في حربه سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وملك البلاد من بعده ابنه سليمان ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وملك بعده « قلعج أرسلان » ثم خلفه بقونية وأقصرا ابنه مسعود . ثم توفي مسعود سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وملك بعده ابنه قلعج أرسلان . وهذا قسم المملكة بين أولاده ؛ فأعطى قونية وأعمالها ابنه غياث الدين كيخسرو ، وأعطى أقصرا والسيواس ابنه قطب الدين ، وأعطى « دوقا » ابنه ركن الدين ، وأعطى انقره ابنه محيى الدين وأعطى ملطية ابنه عز الدين قيصر ، وتخلّى إلى ابنه غياث الدين عن الأبلستين ؛ ولابنه نور الدين محمود عن قيسارية ، وأعطى أماسية لابن أخيه . ثم ندم على هذه القسمة وأراد انتزاع هذه الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته ، إلا ابنه غياث الدين فإنه بقي معه . وحاصر قلعج أرسلان ابنه محموداً في قيسارية فتوفي وهو محاصر لها سنة ٥٨٨ . ووقعت الحروب بين الإخوة ، وتغلب عليهم أخيراً ركن الدين صاحب « دوقا » وخلفه ابنه قلعج أرسلان ، ثم قبض عليه أهل قونية وملكوا عمه غياث الدين كيخسرو ، وبقي حتى قتل في حرب مع صاحب القسطنطينية ، وملك بعده ابنه كيكائوس الغالب بالله ، وبقي حتى مات سنة ٦١٦ . وخلفه أخوه علاء الدين فتوفي سنة ٦٣٤ . وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو وتوفي سنة ٦٥٤ . وملك بعده ابنه علاء الدين .

ولما جاء المغول واستولوا على بغداد كان الملك اعز الدين كيكائوس ، وركن الدين قلعج أرسلان ، فحضرهما لهولاكو سلطان المغول . وبعد هلاك هولاكو غلب ركن الدين على جميع ملك الترك في الأناضول ، وكان هولاكو أقام رجلاً اسمه « ألبرواناه » وكيلا من قبله في بلاد الأناضول ، فغلب على ركن الدين قلعج أرسلان ثم قتله ، وحجّر على

ابنه غياث الدين كيخسرو . وفي تلك الأيام دخل الملك الظاهر بيبرس صاحب الديار المصرية إلى بلاد الروم سنة ٦٧٥ ولقبه « صمغان بن بيدو » الشحنة من « جهة التتار » فهزمهم ، وثار بيبرس إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل سلجوق بها ، ثم رجع إلى مصر . وبلغ ذلك « أبغا » بن هولاءكو صاحب ايران ، فسار في جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشق عليه ، واتهم « البرواناه » بمالأة الظاهر بيبرس فقبض عليه وقتله ، واستقل بالملك غياث الملك بن ركن الدين قلعج أرسلان ، وبقى في الملك حتى قتله أرغون بن أبغا صاحب ايران سنة ٦٨١ وجعل مكانه مسعود ابن عمه كيكائوس وجعل شحنة في الأناضول رجلا اسمه « هولاءكو » وليس لمسعود بن كيخسرو من الملك إلا الاسم . وبعد ذلك استقل الشحنة بالملككة ، وصار ملوك التتر يرسلون إلى الأناضول شحنة بعد شحنة - أصل معنى الشحنة حامية البلد من قبل السلطان - وربما عصى عليهم بعض هؤلاء فلجأوا إلى صاحب مصر ، وكثيرا ماتوا بالامارة بعده من صاحب الديار المصرية مثل « الناصر محمد بن قلاوون » وصارت الأناضول من مضافات الديار المصرية ، وكان في بلاد الأناضول - وصبح الأعشى يقول بلاد الروم - : طوائف كثيرة من التركان كان « السلاجقة » يستعينون بهم في الحروب ، فظهر منهم أمراء وأسسوا ممالك مثل « أولاد قرمان » أصحاب « أرمنك » و « قسطنونية » و « بنو الحميد » أصحاب « أنطالية » . و « بنو آيدين » أصحاب البلاد التي يقال لها « أزميز » اليوم . و « بنو منتشة » و بلادهم إلى الجنوب من أزميز . و « بنو أورخان بن عثمان جق » وهو صاحب « بورسة » . وكان قد اتخذ بورسة دارا لملكه ، لكنه لم يفارق الخيام إلى القصور . وكان ينزل بخيامه في ضواحي بورسة ولم يزل على ذلك إلى أن مات . قال القلقشندي في صبح الأعشى : وملك بعده ابنه « مراد بك » وتوغل في بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القسطنطيني في الجانب الغربي ، وفتح بلادهم إلى أن قرب من خليج البنادقة ، وصير أكثرهم أمراء ورعاياه ، وأحاط بالقسطنطينية من كل جانب حتى أعطاه صاحبها الجزية . ولم يزال حتى قُتل في حرب الصعالية سنة ٧٩١ وملك بعده ابنه أبو يزيد فجرى على سنن أبيه ، وغلب على البلاد فيما بين سيواس

وانطالية والعلايا ، ودخل بنو قرمان وسائر التركان في طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا « سيواس » التي كانت بيد قاضيه ابراهيم المتغلب عليها ، و « ملطية » الداخلة في مملكة الديار المصرية ، ولم يزل أبو يزيد حتى قصده « تملنك » بعد تخريب الشام في سنة ثلاث وثمانمائة ، وقبض عليه فبقى في يده حتى مات . ومملك بعده ابنه « سليمان شلبي » وبقى حتى مات . ومملك بعده أخوه « محمد بن أبي يزيد ابن مراد بن عثمان جق » وهو القائم بمملكتهما إلى الآن . انتهى بتصرف .

قلنا : أيام زحف جنكيزخان على بلاد خوارزم جاء رجل يقال له « سليمان شاه ابن كيئالب » من بعض قبائل « الأوغوز » ومعه خمسين ألفاً من قبيلته ونزل على شواطئ الفرات بين أرزنجان وخراسان ، وذلك في سنة ١٢٢٤ مسيحية ، وتوفي سليمان شاه هذا غريقاً في الفرات ، وبعد وفاته رجع أكثر قومه إلى خراسان وبقى منهم أربعمائة عائلة مع ولديه « دندار » و « أرطغرل » . وتقدم أرطغرل إلى الغرب وكانت حصلت في ذلك الوقت حرب مع « علاء الدين السلجوقي » فخدمه أرطغرل ونصره ، فأقطعه السلجوقي إقطاعات معلومة مكافأة له ، ثم تقدم عنده فأقطعه بلاداً على مقربة من « يني شهر » . وولد لأرطغرل ولد سماه عثمان ، وكان عثمان يخطب ابنة شيخ من الأولياء اسمه (آده بالي) ووالدها يأبى أن يزوجه بها ، فرأى يوماً فيما يرى النائم أنه تزوج بملاك خاتون ابنة الآده بالي وخرج من حجرها هلال وصعد إلى صدرها ، ثم ظهرت من جوانبها شجرة عمت البر والبحر ، إلى آخر ما تحدثوا عن هذا الحلم ، فلما أصبح الصباح قص رؤياه على الشيخ الآده بالي فأزوجه ابنته ، وولدت له ابنة أورخان . وكان عثمان كبير أولاد أرطغرل ، وكان المقدم عند سلطان قونية فحسده الأمراء على حظوته عند السلطان ، ثم ملك عثمان بلدة « قره حصار » وزاد السلطان في إقطاعه ومنحه حق ضرب السكة ، وصار اسمه يقرن باسم السلطان في صلاة الجمعة ، وكان (المغول) قد غزا بلاد الاناضول سنة ١٣٠٠ للمسيح ، فانهزم علاء الدين الثالث الذي كان يقال له سلطان الروم ، والتجأ إلى « ميشيل باليوغ » ملك القسطنطينية ، فمات في حبسه . وصار كرسى ملك الإسلام في الروم فارغاً .

فتولى عدة أمراء منهم « بنو قرمان » ومنهم « بنو قره سى » ومنهم « بنو صاروخان » ومنهم « بنو آيدين » ومنهم « بنو حميد » ومنهم « بنو منتشه » ومنهم « بنو عثمان » الذين كان بيدهم بنى شهر وما والاها .

وكان عثمان شديد البأس صارماً ، وكان لا يزال للقسطنطينية قلاع و بلاد فى الأناضول ، فأرسل عثمان الى قواد هذه القلاع يخيرهم بين الاسلام أو الخضوع له وكان له صاحب من الروم اسمه « ميشيل كيوز » فأسلم ، وأقطعه عثمان بلاداً ، وهذا هو جد عائلة « ميكال أوغلو » التى لها ذكر شهير فى الدولة العثمانية . وخضع له بعض أمراء الروم وأدوا الجزية ، ثم استولى ابنه أورخان على بورسة أخذها من أيدي الروم وكانت أحصن بلدة فى آسية الصغرى ، وذلك الفتح كان سنة ١٣٢٦ مسيحية . ومات عثمان وحزن عليه قومه لأنه كان بطلاً مغواراً ، وهو الذى أسس هذا الملك فقيل الدولة العثمانية من ذلك الوقت ، وكان زاهداً يقتدى بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يدخر مالا بل يوزع كل ما يدخل فى يده على أصحابه وكان يعيش فى بيته من قطيع غنم لا يزال من ذريته حتى اليوم فى نواحي بورسة .

بويى لاسطان عثمان مؤسس السلطنة العثمانية فى سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة . وقد كان الادبالى الذى تزوج السلطان عثمان ابنته من علماء القرامان ، وتفقه فى البلاد الشامية ، وكان عاملاً عالماً عابداً زاهداً ، وكانوا يرجعون اليه بالمسائل الشرعية ومن العلماء المعروفين فى أيام عثمان ؛ المولى طوسون ختن الأدبالى ، وقد قرأ عليه وقام مقامه فى أمر الفتوى . ومنهم المولى خطاب بن أبى القاسم القره حصارى ، قرأ أيضاً فى البلاد الشامية ، وله شرح نافع على منظومة الشيخ عمر النسفى فى الخلافات . ومنهم مخلص بابا من بلاد قرامان ، وكان يرافق السلطان عثمان فى فتوحاته . ومنهم ابنه عاشق باشا ، وكان عابداً زاهداً متصوفاً . ومنهم ابن عاشق باشا المذكور ، وكان أيضاً على قدم الصلاح نظير آباءه . ومنهم العارف بالله الشيخ حسن ، وكانت له زاوية ببلدة بروسه .

وكان أكبر أولاد عثمان علاء الدين ، إلا أنه كان مشغوقاً بالعلم ، محباً للعزلة
 فعهد عثمان بالملك لولده أورخان ، فعرض أورخان على أخيه الأكبر قسمة الملك فأبى
 علاء الدين ، وأراد الاعتزال جانباً واختار أن يقيم على ضفة نهر « نيلوفر » الجارى
 فى مرج بورسة ، فعرض عليه أورخان نصف قطمان الغنم التى خلفها لهم أبوهم
 فرفض أيضا ، فقال له أورخان : من حيث أنك رفضت أن تأخذ حصتك من الغنم
 والبقر والخليل ؛ فانى أعرض عليك أن ترعى رعيتى وتكون وزيراً لى ، فلم يسمعه إلا
 القبول وصار وزيراً لأخيه ، وأحسن الادارة . وكان عثمان لم يضرب السكة باسمه
 فالذى ضربها هو ولده علاء الدين فى أيام أخيه أورخان ، ثم جعل علاء الدين
 المملكة جيشاً دائماً . ولكن هذا الجيش لم يطل أمره ، فاتفق أورخان وأخوه
 علاء الدين على حله ، واعتمدا على طريقة أخرى أشار بها خليل جندرى ، وهى
 تأسيس وجاق الانكشارية ، وكانوا يأتون بأحداث من أبناء النصارى وغيرهم فيربونهم
 فى الاسلام ، فأكثر الانكشارية هم من هؤلاء . ولما أسسوا هذا الجيش باركه
 « الحاج بكتاش » وهو الذى أعطاه اسم « بنى شارى » وفى البداية لم يكن هذا
 الوجاق أكثر من ألف جندى ، ولكنه صار يزداد سنة فسنة . وقضية أخذ أولاد
 النصارى وتربيتهم فى الاسلام وجعلهم جنودا كان العثمانيون قد أخذوها عن الروم
 أصحاب القسطنطينية الذين كانوا إذا غزوا بلاد الاسلام سبوا كثيرا من الأولاد
 وربوهم فى النصرانية ، وجعلوهم جندا يقاتلون به المسلمين . ولما استولى « نيقوفور فوقاس »
 على حلب سبى عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم فى دار ماسكه وعمدهم وصيرهم
 من أعز جنوده . وكذلك عندما استولى « البطريق ميشيل بورتسنريس » على
 انطاكية سنة ٩٦٩ سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف أيضا وربوهم فى القسطنطينية
 فخرجوا نصارى وصاروا جندا . فالعثمانيون لم يعملوا إلى ما عمله البيزنطيون من قبل
 ورتب أورخان وأخوه عدة أصناف من الجيوش ؛ منهم الجيش الذى يقال له « العزب »
 ومنهم الخيالة وهم أنواع « السباهية » و « السلحدارية » و « العلوفه جية »
 و « الغرباء » و « المسلمان » و « الايكنجى » و بقيت قيادة الايكنجى - وهم

الكشافة - في ذرية عائلة ميكال أوغلي مدة أعصر .

وجمل أورخان وأخوه مدينة بورسة قاعدة المملكة ، وأخذا يفتتحان كل يوم بلداً جديداً وحاصرا « نيقية » التي كانت العاصمة الثانية لمملكة الروم ، وبعد حصار سنتين أخذها عنوة وهي البلدة التي انعقد فيها المجمع النيقى الذي به تقرر العقيدة الكاثوليكية ، فحوّل الأتراك كنيسة المجمع المقدس جامعاً . وأسس أورخان وأخوه في نيقية مدرسة عالية وملاجئ للفقراء ، وشيّد فيها عمارات كثيرة ، وعهدا بقيادة موقع نيقية إلى « سليمان باشا » كبير أولاد أورخان الذي صار فيما بعد خلفاً لعمه علاء الدين في الوزارة .

ثم مضى العثمانيون في فتوحاتهم فاتسمت المملكة . وكان أولاد أمير « قرسى » قد اختلفوا بعد موت والدهم ، فوضع أورخان يده على هذه الامارة . وعمرت بورسة في ذلك الوقت واجتمع فيها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، وصارت عاصمة حقيقية ، ولا تزال عماراتها ومآثرها إلى اليوم تدهش الأبصار . وفيها مدافن ستة من السلاطين آل عثمان . وكان « دوشان » ملك الصرب جمع الصقالبة وافتتح بلاد البلغار وأراد أن يزحف على القسطنطينية فأرسل ملك القسطنطينية « يوحنا باليولوغ » وعرض على أورخان أن يزوجه ابنته حتى يستعين به على قتال الصقالبة . ولكن دوشان مات قبل أن يتمكن من الزحف على بيزنطية ، وفي سنة ١٣٥٧ أجاز سليمان باشا ابن السلطان إلى البر الأوربي بستين مقاتلاً فقط ، ثم أجاز بعده ثلاثة آلاف مقاتل واستولوا على « مدينة غاليبولى » على الدردنيل ، ثم على « كونور » و « بولاير » و « مالاجره » و « ابساله » و « رودستو » وبينما سليمان باشا يتقدم في الفتوحات تردّى به جواده فمات ، ولم يلبث أبوه إلى أن لحق به .

بويع للسلطان أورخان بالسلطنة في سنة ست وعشرين وسبعمائة ، وقد نبغ في زمانه المولى داود القيصرى القرامانى ، قرأ في مصر ، وكان له قدم راسخة في التصوف ، وشرح فصوص ابن العربي . ولما بنى السلطان أورخان مدرسته في بلدة ازنيق انتدبه للتدريس بها . ومنهم المولى تاج الدين الكردرى ، وكان فقيهاً علامة ، ولما مات داود القيصرى

جعله السلطان أورخان مكانه في التدريس . ومنهم المولى علاء الدين الأسود ، وقرأ في بلاد المعجم وله مؤلفات ، ودرس في مدرسة ازنيق . ومنهم المولى خليل الجندري وهو أول قاض من قضاة العساكر ، وصار فيما بعد وزيراً ، وكان من أقارب الشيخ أدبالي . ومنهم المولى محسن الفيضري ، وقرأ في البلاد الشامية ، وله نظم في علم الفرائض وشرح عليه . ومنهم الشيخ الفزال ومولده ببلدة (خوى) من بلاد المعجم ، وكان يركب الفزال ، وحضر فتح بروسه مع السلطان أورخان وكان متجرداً عن العلائق الدنيوية ، وكان السلطان أورخان يحبه حباً جماً ؛ فأفطعه موضعاً قريباً من مقامه مع ماحوله من القرى فلم يتقبل ذلك الشيخ وقال : الملك والمال هما مما يلزم الملوك والأمراء ومما لا يحتاج اليه الفقراء . ومنهم الشيخ العالم بالله قره جه احمد ، وأصله من بلاد المعجم سلك مسلك الزهد . ومنهم الشيخ العارف بالله أخو أوران . ومنهم الشيخ المجذوب موسى ابدال ، حضر مع السلطان أورخان فتح بروسه . ومنهم ابدال مراد وهو أيضاً حضر فتح بروسه مع السلطان . ومنهم بداوغلوبا وهو أيضاً من المجاهدين الذين حضروا ذلك الفتح .

ثم جلس على كرسي السلطنة مراد بن أورخان أخو سليمان باشا ، وكان سلطاناً عظيماً في حب الفتوحات ، وحسن التدبير ، وهو الذي استولى على « أدرنة » في البر الأوربي ونقل اليها كرسي ملكه ، وهي من أهم المدن واقعة في ملتقى ثلاثة أنهار ومن أدرنه زحفت جيوشه فاستولت على « كملجنه » في « تراقية » وعلى « قاردار » و « فيليبولى » وبني مراد جامعاً كبيراً في « أدرنة » .

ولما رأى أهالى بلاد البلقان تقدم العثمانيين وتوالى فتوحهم ؛ هالهم الأمر وعمدوا إلى مصادمتهم ، وكان الباشا « أوربانوس الخامس » نادى بالحرب الصليبية فزحف « أوروشق الخامس » ملك الصرب ومعه أمراء بوسنة ، والفلاخ ، والمجر قاصدين الأتراك في أدرنه . وكان السلطان مراد يحاصر بلدة « بيغا » في الاناضول فالتقام الحاج « إلبكى » من قواد مراد وهزمهم هزيمة شنيعة سنة ١٣٦٣ ، واستولى الترك على أثر هذه الوقعة على « قيزل أغاج » و « يانبؤل » و « إسميتان »

و « سَمَّا كُوف » . ثم رجع مراد فاستولى على « قِرَاقِ كَلِيدَسَه » و « آيدوس » و مُدُنْ أخرى . وفي تلك المدة أَزْوَجَ مراد ابنه بايزيد المسمى « يِلْدِرِم » الذي تقدم أن تيمورلنك أخذه أسيراً ، وذلك من ابنة أمير « كوتاهية » واستولى عليها . وأجبر أمير حميد في الأناضول أن يبيعه إمارته ، و سَرَّحَ « تيمور طاش » أحد قواده فافتتح « مناستير » و « بيراييه » و « إشتيب » في بلاد الصرب ، وافتتح أيضاً « صوفيا » من بلاد البانار . ثم سَرَّحَ جيشاً آخر بقيادة الصدر الأعظم « خير الدين » فافتتح « سلانيك » . وكان خير الدين هذا من أحسن الوزراء تدبيراً ، فلما مات طمع أعداء العثمانيين ، وزحف البلغار من جهة أوروبا ، وأمراء قرامان في الأناضول في وقت واحد ؛ فأسرع مراد إلى صدِّ أمير قرامان وهزمه وأسرّه ، وعاد إلى البلقان لقتال الصرب والبلغار ، وزحف الوزير « على باشا » فاستولى على بلاد البلغار ، وأسر « سيسمان » ملك بلغاريا ولم يقتله ، وعيّن له مرتباً يعيش به . وصار ابن ملك البلغار من أتباع السلطان . وأما ملك الصرب « أليعازر » فكان قد جمع جموعه وزحف بالصرب والارناؤوط ، فالتقى الجمعان في صحراء « قوصوّه » فكانت معركة من أشد ما عرف التاريخ ، وانهزم الصرب وأحلافهم ، وبينما السلطان مراد يسير على أشلاء قتلى الصرب نهض أحد الجرحى فأغمد فيه خنجره ، فجرح السلطان جرحاً بليغاً مات به ، ولكن بعد أن أُمات أليعازر ملك الصرب .

وكان لقبه عند الناس « غازي خداوندكار » بويغ له سنة إحدى وستين وسبعمائة ونبغ في زمانه المولى محمود قاضي بروسه ، وكان قاضياً بالعدل تقيّاً متورعاً ، وكان له ولد اسمه محمد فبرع في العلوم إلا أنه مات شاباً . وكان له ولد آخر اسمه موسى باشا ارتحل إلى بلاد المعجم وقرأ على علماء خراسان وما وراء النهر ، وبلغ شهرة عظيمة واتصل بخدمة ملك سمرقند « أولغ بك » ، وكان هذا الملك محباً للعلوم الرياضية ، فقرأها عليه لأنه كان من علماء هذه العلوم ، ومن المؤلفين فيها ، وشرح أشكال التأسيس في الهندسة . وله كتاب في علم الهيئة ، وقرأ على السيد الشريف ولكن لم تحصل الملامة بينهما فتركه ، وقال السيد الشريف في حقه : غلبت عليه الرياضيات . ومنهم

الشيخ جمال الدين محمد بن محمد الاقصراني ، كان علامة في العلوم العقلية والنقلية ، وله كتب منها كتاب في الطب ، ويقال إنه من نسل الفخر الرازي . ومنهم المولى برهان الدين أحمد قاضي أرزنجان ، وكان عالما فاضلا ورعا وصار أميرا على أرزنجان وقتل في أواخر سنة ثمانمائة في إحدى الوقائع . ومنهم الحاج بكتاش ، وكان من الأولياء وجاء في « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » أنه انتسب إليه فيما بعد بعض الملاحدة نسبة كاذبة وهو برى . منهم . ومنهم الشيخ محمد الكشتری ، أصله من المعجم توطن بروسه . ومنهم بيوستين بوش ، أصله من المعجم بنى له السلطان مراد زاوية في قصبة بنى شهر .

ثم تولى السلطنة بعد مراد ابنه « بايزيد يلدرم » أي الصاعقة . وفي أيام بايزيد صارت مملكة الصرب تابعة للملكة العثمانية ، ولكن بقي « إتيان بن أليمازر » أميرا عليها يؤدي الجزية لبازيد . وكانت بقيت لمملكة القسطنطينية في الأناضول بلدة فيلادلفيا والأترار يقولون لها « آلاشهر » فأراد السلطان بايزيد أن يلحقها بمملكته وحاصرها ، فأرسل السلطان إلى ملك القسطنطينية باليولوج بأن يأمر القائد بتخليتها للبلدة فزحف باليولوج إلى البلدة وأجبر أهلها على تسليمها للسلطان . وفي ذلك الوقت استولى السلطان على إمارة « آيدين » وعلى قسم من إمارة « قرمان » ثم حاصر بايزيد القسطنطينية وزحف صوب بلاد « الفلاخ » من رومانيا الحاضرة ودونها حتى ارتضى أهلها بدفع الجزية . ثم استولى بايزيد على مملكة « قرمان » كلها وعلى « طوقات » و « سيواس » فلم يبق في آسية الصغرى مملكة تركية مستقلة إلا إمارة « قسطنطين » والتجأ إليها الأمراء الذين كان بايزيد أخذ بلادهم ، فطلب بايزيد من أمير قسطنطين تسليم أولاد أمراء « منتشة » و « آيدين » فرفض طلبه ، فزحف إليه واستولى على « صمصون » و « عثمان جيک » وغيرهما ، وفر أمير قسطنطين لاحقا بتمرلنك . وفي أيام بايزيد استلحقت السلطنة العثمانية مملكة البلغار تماما ، وأسلم ابن الملك « سيسمان » فاعترض « سيجسموند » ملك المجر على استلحاق بايزيد لبلاد البلغار كلها ، وتأهب للحرب وأرسل يستصرخ الفرنسيين والبابا ، فأعلن البابا الحرب الصليبية على العثمانيين

وأرسل « دوق برغونية » ستة آلاف مقاتل لمعاونة المجر ، وانضم إلى ذلك الجيش أكابر أمراء فرنسة مثل « الدوق دوبربون » و « الدوق دويار » أولاد عم ملك فرنسة ، والماريشال « بوسيكو » وانضم إليهم كثير من الألمان من « بافاريا » و « استيريا » ولما تلاقى هذا الجيش مع المجر وزحفوا لقتال الأتراك كان عدد هذا الجيش الصليبي ستين ألفاً . ولكن جيش آل عثمان كان مائتي ألف ؛ فعندما التقى الجمعان هجم الفرنسيين على مقدمة العثمانيين فأحاط هؤلاء بهم فانهزموا ، فلما رأى الهزيمة جيش الميمنة من الصليبيين تحت قيادة « لازكوفيتش » أمير ترانسلفانيا تقهقر إلى الوراى وكذلك تقهقر « مانيس » قائد الميسرة المؤلفة من الفلاحيين ، وثبت القلب وكان فيه المجر والألمان ، واشتد القتال وكادت تترازل أقدام العثمانيين ، إلا أنهم تغلبوا فى الآخر على أعدائهم بعد معركة تشيب لها الأطفالال هي من أشهر معارك التاريخ .

ويقال إن العثمانيين لم يقهروا الجيش الصليبي ذلك اليوم الا بعد خسائر تفوق التصور ، حتى أن بعض مؤرخى الافرنج ذكروا أن المسلمين خسروا فى تلك المعركة ستين ألف قتيل مما هاج غضب السلطان حتى أمر بقتل عشرة آلاف أسير من الافرنج واستحيى السلطان منهم « الكونت دى نيڤير Nevers » الذى يقال له « جان بلاخوف » وأربعة وعشرين أميراً من أعظم نبلاء فرنسة ، فهؤلاء لم يقتلهم السلطان بل اكتفى بأخذ الفدية منهم ، ولما سرح الكونت « دى نيڤير De Nevers » قال له : « أنت فى حل من العهد الذى تعهدت به أن لا تقاتل عساكرى ، وذلك أنك لو أتيتنى بكل جيوش النصرانية لما كان ذلك إلا سبباً فى انتصارى عليهم » وأدى « باليولج » ملك القسطنطينية الجزية السنوية لبازيد ، وبني جامعاً ومحكمة فى القسطنطينية ، وكان للمسلمين فيها قاض شرعى قبل أن فتحوها !!

وقال بايزيد : إنه لا بد أن يطعم حصانه الشعير فى رومة ، وصارت ايطالية كلها ترتجف منه ، وبينما بايزيد فى أوج عظمتة إذ التجأ اليه « احمد جلاير » أمير بغداد الذى كان تمرلنك تغلب على بلاده ، فبعث تمرلنك الى بايزيد يطلب تسليم أحمد جلاير ، فقابل بايزيد تلك الرسالة بالازدراء ، فزحف تمرلنك الى الاناضول

واستولى على سيواس ، وقتل ارطغرل بن بايزيد في المصاف ، فسار بايزيد الى قتال تمرلنك بجيوشه ، وتلاقى الجمعان في سهل أنقرة فكان بايزيد في ذلك اليوم صاعقة كما هو اسمه ، ولكن طالع الحرب لم يكن معه فانهزم وتردّى به جواده فوق أسيراً في ٢٠ يوليو سنة ١٤٠٢ وأسر معه ابنه موسى ، ونجا أولاده الثلاثة سليمان ، ومحمد وعيسى ، واختفى ابنه مصطفى ولم يطل أسر بايزيد إذ مات غمّاً في السنة التالية . فأخذ الأمير موسى جثة والده بإذن تمرلنك ودفنها في بروسة . ويقال إنه في زمن بايزيد ابتدأ فساد الاخلاق في الدولة ، وانتشرت الرشوة ، الى أن السلطان أمر في يوم واحد بقتل ثمانين قاضياً .

بويح لبايزيد في رابع رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعائة . ومن علماء زمانه شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى ، قال ابن حجر : كان الفنارى عارفاً بالعلوم العربية ، وعلمى المعانى والبيان ، وعلم القراءات ، كثير المشاركة في الفنون ، أخذ عن علماء بلاده ثم ارتحل إلى مصر ، ثم رجع إلى الروم وتولى قضاء بروسة ، وكان مقدماً عند السلطان ، ويقال إنه أثرى إلى الغاية ، حتى كان عنده من النقد خاصة مائة وخمسون ألف دينار ، وحجج مرتين ، وزار القدس ، ثم أصابه رمد أشرف به على العمى ، ثم رد الله إليه بصره فحج بعد ذلك الحجة الأخيرة ، وله كتاب يسمى « فصول البدائع في أصول الشرائع » . وشرح « الرسالة الأثيرية في الميزان » شرحاً لطيفاً ، وشرح « الفوائد السراجية » وعلق على « شرح المواقف للسيد الشريف » تعليقات تتضمن مؤاخذات لطيفة على السيد ، وبلغ من الجاه والثروة الدرجة القصوى وتزاحم الناس على بابه ، وخلف عشرة آلاف من الكتب . وقيل إنه شهد السلطان أمامه شهادة في قضية فرد شهادته ، فسأله عن السبب في ردها فقال له : إنك تارك للجماعة ، فلم يترك السلطان الجماعة بعد ذلك . ثم اختلف المولى الفنارى مع السلطان والتحق بصاحب قرامان ، ولكن السلطان ابن عثمان عاد فاسترضاه ورجع إلى بروسة ومنهم المولى حافظ الدين بن محمد الكردرى المشهور « بابن البزازی » وله « الفتاوى البزازية » وكتاب في مناقب الامام الأعظم أبي حنيفة رضى الله عنه ، وقيل إنه

تباحث مع المولى الفنارى فغلب عليه في الفروع ، وغلب الفنارى في الأصول وسائر العلوم . ومنهم مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروز آبادى صاحب القاموس ، وكان ينتسب إلى الشيخ أبى اسحق الشيرازى . قال صاحب « الشقائق النعمانية » . وربما يرفع نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . دخل بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان بايزيد يلدرم ، وأنعم عليه ، وحظى عند السلطان وجوّل في البلدان ، وبرع في العلوم كلها لاسيما الحديث والتفسير واللغة ، وله تصانيف كثيرة تنيف على الأربعين ، وأجل مصنفاته « اللامع المعلم المعجّاب ، الجامع بين المحكم والعباب » . وكان تمامه في ستين مجلدا ، ثم لخصه في مجلدين وسماه « بالقاموس المحيط ، والقابوس الوسيط ، فيما تفرق من كلام العرب شماطيّط » . وكان آية في الحفظ والاطلاع . ولد سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وتوفى باليمن قاضياً بزيد ليلة العشرين من شوال سنة ست أو سبع عشرة وثمانمائة ، وهو ممتع بحواسه ، ودفن بتربة الشيخ اسماعيل الجبّرتى ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : وهو آخر من مات من الرؤساء الذين انفرد كل منهم بفن فاق فيه أقرانه على رأس القرن الثامن ، وهم : الشيخ سراج الدين البلقينى فى الفقه الشافعى ، والشيخ زين الدين العراقى فى الحديث ، والشيخ سراج الدين بن الملقن فى كثرة التصانيف فى الفقه والحديث ، والشيخ شمس الدين الفنارى فى سعة الاطلاع على العلوم العقلية والنقلية ، والشيخ أبو عبد الله بن عرفة فى فقه المالكية ، والشيخ مجد الدين الشيرازى فى اللغة .

ومن نبغ فى زمان السلطان بايزيد يلدرم الشيخ شهاب الدين السيواسى ، وأصله عبد لبعض أهالى سيواس ، تعلم فى صغره ونبغ ومال إلى التصوف وتوطن فى بلاد آدين وأكرمه أميرها ، وله تفسير للقرآن العظيم ، وله رسالة فى التصوف سماها « رسالة النجاة فى شرف الصفات » . ومنهم المولى حسن باشا بن المولى علاء الدين الأسود وله شرح « المراح فى الصرف » وشرح « المصباح فى النحو » . ومنهم المولى صفر شاه وكان من علماء ذلك العصر . ومنهم محمد شاه بن المولى شمس الدين الفنارى ، وكان مطلاً على ما اطلع عليه والده من العلوم ، وفوض إليه فى حياة أبيه تدريس المدرسة

الساطانية في بروسة وهو في سن الثمانية عشرة ، وكانت وفاته سنة ٨٣٩ . وكان له أخ هو المولى يوسف بن المولى الفنارى ، وتولى التدريس بمدرسة بروسة واستقضى فيها . ومنهم الشيخ قطب الدين الازنيقي ، وكان زاهدا متورعا متصوفا ، علامة في العلوم الشرعية ، قيل إنه لما اجتاز تمرلنك بالبلاد الرومية اجتمع مع هذا الشيخ فقال له : عليك أن تترك صنيعك هذا من قتل عباد الله وسفك الدماء المحرمة ، فقال له تمرلنك : يا شيخ إنى أنزل في منزل وباب خيمتى إلى الشرق فأجد بابها في الغد إلى الغرب ، وإذا ركبت يركب أمامى خمسون رجلا لا يراهم غيرى فاقفوا أثرهم . فقال له الشيخ : كنت سمعت أنك رجل عاقل ، فالآن علمت أنك جاهل . فقال : من أين علمت هذا ؟ قال : لأنك تفتخر بوصف الشيطان ، وهو كونه مظهراً لقهر الله سبحانه وتعالى . ومات هذا الشيخ سنة ٨٢١ . ومنهم المولى بهاء الدين عمر بن قطب الدين الحنفى كان من الفقهاء أرباب الفتوى ، ومثله المولى ابراهيم بن محمد الحنفى ومثله أيضا نجم الدين الحنفى . ومنهم الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن على الجزرى المكنى بأبى الخير ، ولد بدمشق ، ورحل إلى الديار المصرية وقرأ بها وجلس للاقراء وولى قضاء الشام سنة ٧٩٣ وجاء إلى بروسة في زمان السلطان بايزيد بن عثمان . ولما تغلب تمرلنك على السلطان المذكور أخذ تمرلنك هذا الشيخ معه إلى بلاد تركستان وقرأ عليه الناس في سمرقند . ثم بعد وفاة تمرلنك خرج من تلك البلاد إلى خراسان ودخل هراة ، ثم جاء إلى أصفهان ، ثم إلى شيراز . وكان الناس يقرأون عليه في كل محل ، ثم جاء إلى البصرة ، ثم جاور بمكة والمدينة ، وكان متخصصا في علم القراءات ، وله التصانيف فيه ، وتوفى سنة ٨٣٣ في شيراز ، وله ولدان فاضلان أكبرهما محمد أبو الفتح ، وكان من العلماء الكبار ذوى التأليف . والثانى محمد أبو الخير وكان أيضا من العلماء ، وولد ثالث اسمه أحمد وكان أيضا كأكخويه . ولما وقعت الفتنة التيمورية أرسله تمرلنك رسولا إلى الناصر فرج بن برقوق صاحب الديار المصرية ، واقترب عن والده نحواً من عشرين سنة ثم اجتمعوا بمصر . وأدرك أبو الخير ابن الشيخ الجزرى زمان السلطان محمد بن مراد ، ونصبه السلطان

موقعاً بالديوان العالى ، وأكرمه الى الغاية . ومنهم المولى عبد الواحد بن محمد بن محمد كان بارعاً فى العلوم العقلية والنقلية ، وله كتاب فى الاسطرلاب ، ودرس فى مدرسة كوتاهية ، وأصله من بلاد المعجم . ومنهم المولى عز الدين عبد اللطيف بن الملك وكان عند الامير محمد بن آيدى . شرح « مشارق الانوار » للامام الصاغانى ، وله تصانيف أخرى . ومنهم أخوه محمد بن عبد اللطيف بن الملك . ومنهم الشيخ العارف بالله عبدالرحمن بن على بن أحمد البسطامى من أهل انطاكية ، وكان متخصصاً بعلم الحروف والأوقاف والجفر ، وله معرفة بالتاريخ ، وسكن فى بروسه . ومنهم المولى علاء الدين الرومى ، أخذ عن العلامة التفتازانى ، والسيد الجرجاني ، وحضر مباحثتهما وحفظ منهما أسئلة كثيرة مع أجوبتها . ومنهم الشيخ العارف بالله فخر الدين الرومى وكان من العلماء الزهاد . ومنهم الشيخ رمضان ، اتخذه السلطان بايزيد شيخاً لنفسه ثم جملة قاضياً للعسكر . ومنهم المولى احمدى ، أصله من كرمان ، وصار المولى احمدى معلماً للامير ابن كرمان . وكان المولى احمدى شاعراً ، وابن كرمان كان محباً للشعر ثم صحب الأمير سليمان بن السلطان بايزيد ، ولأجله نظم المولى احمدى الديوان المسمى « اسكندر نامه » . ومنهم الشيخ بدر الدين محمد بن اسراييل المعروف بابن قاضى سماوة . وكان قد تعلم فى الديار المصرية ، وقرأ مع السيد الجرجاني على مبارك شاه المنطقى المدرس بالقاهرة ، وعلى الشيخ أكمل الدين ، وقرأ عليه السلطان فرج بن برقوق ملك مصر ، ثم التحق ببلاد الروم . ولما تسلطن الأمير موسى الملقب بشلبى من أولاد عثمان وهو أخو السلطان محمد الأول ؛ نصب الشيخ بدر الدين قاضياً للعسكر . ثم وشوا به الى السلطان فأمر بقتله بافتاء مولانا حيدر المعجمى ، وله تصانيف كثيرة . ومنهم المولى الحاج باشا ، وكان من رفاق الشيخ بدر الدين عند ما كان يقرأ بالقاهرة وتخصص بالطب ، وقوض اليه بيمارستان مصر فدبره أحسن التدبير ، وصنف كتاب « الشفاء » باسم الأمير محمد بن آيدى . ومنهم الشيخ العارف بالله حامد بن موسى القيصرى وكان يبيع الخبز والناس يشترون منه تبركاً به ، ولما بنى السلطان بايزيد الجامع الكبير بمدينة بروسه رغب اليه أن يكون واعظاً فيه ، ومات بمدينة آقسراى . ومنهم شمس الدين

محمد بن على الحسينى البخارى ، ولد فى بخارى وكان له قدم راسخة فى التصوف وجاء الى بروسه وأحبه أهلها واشتهر عندهم باسم أمير سلطان ، وأحبته بنت السلطان بايزيد فتزوج بها . وكان آل عثمان يتبركون به ، ومات فى بروسه . ومنهم العارف بالله الحاج بيرم الأنقروى ، واد بقرية قريبة من أنقره ، ونبغ فى العلوم ، وصار مدرسا فى أنقره ، ومات بها . ومنهم الشيخ عبد الرحمن الأرنؤبانى ، كان ساكنا فى الجبال بقرب أماسيه . ومنهم العارف بالله (طابدى امره) كان من الزهاد النساك يسكن بقرب نهر سقارية .

ولما أسر بايزيد ثارت الممالك البلقانية التى كان السلطان العثمانى قد أخضعها مثل بلغاريا ، والصرب ، ورومانيا . وكذلك ثار أمراء الأناضول من الأتراك مثل أمراء قرمان ، ومنتشه ، وآيدىن ، وصاروخان ، واسترجعوا استقلالهم . ووقع الشقاق بين أولاد بايزيد فصاروا يفتتلون ويستأثر كل واحد منهم بشطر من المملكة ؛ ولكن تدرلنك انكفأ عن آسيا الصغرى قاصداً الصين ، وبقى القتال بين أولاد بايزيد بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين أمراء الأناضول الذين استرجعوا استقلالهم ، وذلك مدة عشر سنوات والأمور فوضى إلى أن تغلب محمد على الجميع . وكان ملك القسطنطينية « باليولوج » حليفاً لمحمد ، فلذلك عند ما صفا الوقت له لم يحاول أن يستولى على بلدته بل ردّ له بعض المدن التى كانت من قبل تابعة للقسطنطينية ، وكان السلطان محمد هذا وهو محمد الأول عظيم الأمانة ، محباً للعفو ، وقد أجمع المؤرخون على وصفه معالى أخلاقه ، وهو الذى مهد المملكة تمهيداً جديداً ، ورتق جميع فتوقها بعد أن مزقتها الفتن تمزيقاً ، وكان محباً للعلم والعلماء ، متمسكاً بالدين الاسلامى ، منفذا لأحكامه . وهو أول سلطان عثمانى أرسل صرّة الى أمير مكة ، وفرّق الصدقات فى الحجاز وفى زمانه نبغ كثير من الشعراء والأدباء والمؤلفين ، ومن جملتهم ابن عرب شاه صاحب تاريخ تيمور المسمى « بعجائب المقدور » وكان معلماً لأولاد السلطان محمد ، ومات السلطان محمد سنة ١٤٢١ مسيحية .

بويغ له بالسلطنة سنة ست عشرة وثمانمائة ، ومن نبغ فى ذلك الزمان الشيخ

المسمى بأمير سلطان ونبغ في زمانه برهان الدين حيدر بن محمود الحوافي الهروي من تلاميذ السعد التفتازاني ، له حواش على « شرح الكشف للسعد » أورد فيها أجوبة على اعتراضات السيد الجرجاني ، وكان تقياً ورعاً . ومنهم المولى فخر الدين المعجمي قرأ على السيد الجرجاني ، ثم أتى الى بلاد الروم وصار مفتياً في زمن السلطان مراد وتعين له ثلاثون درهما كل يوم ، فأراد السلطان أن يزيد عليها فلم يقبل وقال : حتى في بيت المال ما يقوم بكفاتي ولا يحل الزيادة عليه . وكان شديد الوطأة على أتباع فضل الله التبريزي رئيس الطائفة الحروفية الضالعة ومات في أورفه ، ولما مرض مرض الموت عاده المولى على الطوسي واستوصاه ، فأوصى بان لا يخلى ظهر العوام من عصا الشريعة . ومنهم المولى يعقوب الأصغر القراماني ، وكان عالماً مدققاً ، وجاء الى بروسه وله رسالة في دفع المارض بين الآيتين ؛ قوله تعالى (إنا ننصر رسلاً) وقوله تعالى (ويقتلون النبيين بغير حق) . ومنهم المولى المعروف بقره يعقوب من بلاد قرامان ومنهم المولى بايزيد الصوفي ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه محمد . ومنهم العلامة محي الدين الكافيه جي ، سمي بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية في النحو . قال السيوطي : شيخنا العلامة أستاذ الأستاذين محي الدين ابو عبد الله الكافيه جي ، ولد سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . واشتغل بالعلم أول ما بلغ ، ورحل إلى بلاد المعجم وتبريز ولقي العلماء الأجلاء فأخذ العلوم عن شمس الدين الفناري ، والبرهان حيدرة ، والشيخ واجد ، وابن فرشته شارح الجمع ، وحافظ الدين البزازي ، وغيرهم . ودخل القاهرة وأخذ عنه الفضلاء والأعيان ، وولى مشيخة الشيخونية لما رغب عنها ابن الهمام . وكان إماماً كبيراً في المعقولات كلها ؛ الكلام ، وأصول الفقه ، والنحو ، والتصريف ، والاعراب ، والمعاني ، والبيان ، والجدل ، والمنطق ، والفلسفة ، والهيئة ، بحيث لا يشق أحد غباره بشيء من هذه العلوم . وله اليد الحسنه في الفقه ، والتفسير ، والنظر في علوم الحديث ، وألف فيه وأما تصانيفه في العلوم العقلية فلا تحصى بحيث أني سألته أن يسمي لي جميعها لا كتبها في ترجمته فقال لا أقدر على ذلك .

قال السيوطي : وكان صحيح العقيدة ، حسن الاعتقاد في الصوفية ، محباً لأهل الحديث ، كارهاً لأهل البدع ، كثير التعمد على كبر سنه ، كثير الصدقة والبذل لا يبقى على شيء ، سليم الفطرة ، صافي القلب ، كثير الاحتمال لأعدائه ، صبوراً على الأذى ، واسع العلم جداً ، لازمته أربع عشرة سنة فما جثته من مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والمعائب ما لم أسمعه قبل ذلك . قال لي يوماً : ما إعراب يزيد قائم ؟ فقلت : قد صرنا في مقام الصغار نسأل عن ذلك !! . فقال : لي فيها مائة وثلاثة عشر بحثاً ؛ فقلت : لا أقوم من هذا المجلس حتى أستفيدها ، فأخرج لي تذكرتها فكتبتها منه . انتهى .

قلت : وما سبقنا الأوربيون في المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحد الذي يخرج عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوقوا وتغلبوا علينا .

ومن نبغ في زمان السلطان محمد الأول العثماني ؛ الشيخ عبد اللطيف المقدسي وكان عالماً ثم مال إلى التصوف ، وسكن بروسه ومات فيها . ومنهم العارف بالله عبد الرحيم بن الأمير عزيز المرزيفوني ، وكان متصوفاً أيضاً . ومنهم العارف بالله بير الياس الأماسي ، وكان من الزهاد الأتقياء ، وله مريدون . ومنهم عبد الرحمن شلبي ابن بنت بير الياس . ومنهم شجاع الدين القراماني . ومنهم بدر الدين الدقيق . ومنهم العارف مظفر الدين الأرندوي . ومنهم بدر الدين الأحمر . ومنهم بابا نخايش الأتقروي . ومنهم صلاح الدين البولوي . ومنهم مصلح الدين خليفة . ومنهم عمردده البروساوي . ومنهم الشيخ لطف الله . وكل هؤلاء من مشاهير الاتقياء رحمهم الله .

وخلفه ابنه مراد وكان عمر مراد عند ما تولى السلطنة ثمانى عشرة سنة ، وبدأ عمله بمهادنة أمير القرامان ، وملك الحجر . وثار على مراد عمه مصطفى ، وعضده ملك القسطنطينية ، فتغلب مراد على عمه وأخذه أسيراً وشنقه ، وزحف على القسطنطينية وجرت معركة شديدة إلا أن الأتراك لم يقدرُوا ذاك اليوم على فتح البلدة ، أما في الأناضول فاستولى مراد على أمانة « آيدين » بعد أن كان امرأؤها استقلوا في أثناء

الفتنة التي وقعت بين أولاد السلطان بايزيد ، وكذلك استولى على « صاروخان » وعلى « منتشة » وعلى « بلاد القرامان » وعلى نصف امارة « قسطموني » فاسترجع مراد جميع ما كانت معركة أنقرة المشؤومة مع تمرلنك أخسرتة إياه من البلدان .

ولما استراح فكر مراد من جهة آسية ؛ وجه همته نحو أوربة ، وكان « جورج برانكوويتش » ملكا على الصرب ، و « سيجيسموند » ملكا على المجر ، فظفر العثمانيون بالمجر ظفراً عظيماً ، فاضطر « برانكوويتش » خوفاً على ملكه أن يخضع ويؤدي سنوياً خمسين ألف دوكة للسلطان مراد ، ويقطع كل علاقة مع المجر .

واحتل العثمانيون « كروش واتس » في قلب بلاد الصرب ؛ ثم وجه السلطان قوته صوب بلاد « الارناؤوط » وكان الجنوبي منها يليه « بنو توكشي » والقسم الشمالي يليه « جان كستريوت » فاستولى السلطان على القسمين ، ثم زحف نحو بلاد الفلاخ أي رومانية فخضع أميرها « فلاد دارا كول » للسلطان ، ولكن « سيجيسموند » ملك المجر ثار ، ومالاه ملك الصرب وأمير الفلاخ من جهة أوربة ، وأمير القرامان من جهة آسية ، فقهرهم السلطان جميعاً ، واستسلم أمير الفلاخ للسلطان ، وطلب ملك الصرب العفو وأزوج السلطان ابنته . فبقى ملك المجر وحده برأسه ، فعاث الأتراك في بلاده ورجعوا بسبعين ألف أسير . ثم استأنف « برانكوويتش » ملك الصرب ثورته ، فزحف السلطان إلى بلاد الصرب ، وفر برانكوويتش إلى المجر ، واستولى السلطان على أكثر بلاد الصرب ، إلا أنه لم يقدر على باغراد فرجع عنها بعد حصار ستة أشهر . وأما المجر فكان ظهر فيهم بطل اسمه « جان هونياد » فهزم العثمانيين وقتل منهم عشرين ألفاً مع قائدهم مزيد بك . فأرسل السلطان « شهاب الدين باشا » ومعه ثمانون ألف مقاتل للأخذ بالثار فكسروهم « هونياد » بفئة قليلة ، وأخذ أكبر قوادهم أسرى ، ووالى الهزائم على العثمانيين ، ثم زحف السلطان بنفسه فانهزم هو أيضاً في واقعة « نيشل » وخسر ألفي قتيل ، وأربعة آلاف أسير ، وتقهر إلى الوراء . ثم تقدم هونياد إلى الامام ، واستولى على مدن كثيرة للعثمانيين ، فاضطر السلطان مراد للصالح وأعاد امارة الفلاخ إلى أميرها « دراكول » .

وعقد هدنة مع المجر الى عشر سنوات ، وصارت بلاد الصرب وبلاد الفلاخ تابعة لمملكة المجر . فحزن السلطان من هذه الحوادث ، وعقب ذلك أن ولده « علاء الدين » توفي فجمع السلطان نفسه وذهب معتزلاً الملك وأقام « بمغنيسيا » وتولى مكانه ابنه محمد الثاني وهو في الرابعة عشرة من العمر ، ولم يصل السلطان إلى مغنيسيا حتى نقض المجر عهدهم بتحريض البابا الذي أرسل إليهم أن العهد ليس مسئولاً إذا كان مع المسلمين فزحف « هونياد » واستولى على بلاد البلغار ، وحاصر « وارنه » فرجع السلطان إلى أوربة وزحف « هونياد » وهزمه ؛ وكان معه « الكردينال سيزاريني » رسول البابا ، فقتل الكردينال في المعركة . وبعده هذه الطائفة على المجر رجع السلطان إلى عزلته وأراد أن يستريح . وإذا بالانكشارية قد قاموا بشورة في أدرة فجاء السلطان بنفسه فأطاعوا . ثم زحف بستين ألف مقاتل على بلاد اليونان فدوخها ، وانعطف نحو بلاد الأرناؤوط وكان أمير هذه البلاد المسمى أمير المردريت جعل أولاده الأربعة رهائن عند السلطان ، ومنهم « جورج » الذي تربى في الاسلام ، وكان السلطان يحبه جداً لشجاعته وهو الذي أطلق عليه اسم « اسكندر بك » إلا أن اسكندر بك هذا لم ينس وطنه ، فانسل خفية وأثار الأرناؤوط على العثمانيين وهزم القائد « على باشا » واستقل بالبلاد . فصرح السلطان إليه « فيروز باشا » و « مصطفى باشا » بمعاكر وافرة ، فتغلب اسكندر بك عليهما وأخذ مصطفى باشا أسيراً فاضطر السلطان مراد أن يخرج من عزلته مرة ثالثة وزحف بمائة ألف مقاتل وهزم الأرناؤوط واستولى على « دبرة » بعد معارك شديدة .

وانتهز هذه الفرصة « جان هونياد » المجرى وشن الغارة على العثمانيين بجيش عدده أربعة وعشرون ألفاً ، منهم عشرة آلاف من الفلاخين ، ولم ينضم إليه ملك الصرب خوفاً من السلطان ، فتلاقى هونياد وجيشه في صحراء قوصوه مع السلطان مراد وجيشه فبقى القتال ثلاثة أيام ؛ ولكن انتهت الواقعة بانكسار المجر وتفرغ السلطان لمحاربة اسكندر بك فلم يقدر عليه ، وبقى يناوشه القتال معتصماً بالجبال

ومات السلطان مراد في فبراير سنة ١٤٥١ .

بويغ له بالسلطنة سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، ومن علماء عصره ؛ المولى محمد ابن أرمغان ، انتهت إليه رئاسة الفتوى في بروسة بعد المولى شمس الدين الفنارى . ومنهم ابنه محمد شاه استقضى بروسة . ومنهم ابنه يوسف وكان مدرساً . ومنهم المولى محمد بن بشير ، وكان من مدرسى بروسة . ومنهم المولى شرف الدين بن كمال القرى ومنهم المولى سيد احمد بن عبد الله القرى ، ومات بالقسطنطينية بعد فتح السلطان محمد الثانى لها . ومنهم السيد علاء الدين السمرقندى ، وكان عالماً ثم مال إلى التصوف ومنهم احمد بن اسماعيل الكورانى ، كان فقيهاً أصولياً ، ارتحل إلى القاهرة وأجازه ابن حجر في الحديث . وجاء الكورانى إلى بلاد الروم فأجله السلطان مراد الثانى وأعطاه مدرسة جده مراد الأول في بروسة ثم مدرسة جده بايزيد يلدرم في بروسة أيضاً . روى صاحب «الشقائق النعمانية» أن الأمير محمد بن السلطان مراد - وهو الذى صار فيما بعد السلطان محمد الفاتح - كان أرسل إليه والده عدة من المعلمين ليعلموه ، فلم يمتثل أمرهم ولم يقرأ شيئاً ، حتى أنه لم يختم القرآن . فطلب السلطان مراد رجلاً ذا مهابة وحدة ليتمكن من تعليم ابنه فذكر والده المولى الكورانى فجعله معلماً لولده ، وأعطاه بيده قضيباً يضربه إذا خالف أمره ، فذهب إليه والقضيب بيده . فقال له : أرسلنى والدك للتعليم وللضرب إذا خالفت أمرى ، فضحك السلطان محمد من هذا الكلام ، فضربه المولى الكورانى في ذلك المجلس ضرباً شديداً حتى خاف منه السلطان محمد وختم القرآن في مدة يسيرة ففرح بذلك السلطان مراد وأرسل إلى المولى الكورانى أموالاً عظيمة ، ثم إن السلطان محمد خان لما جلس على سرير السلطنة بعد وفاة أبيه عرض على الكورانى الوزارة فلم يقبل وقال له : إن من فى بابك من الخدام والعبيد إنما يخدمونك لأن ينالوا وزارة آخر الأمر ، وإذا كان الوزير من غيرهم تنحرف قلوبهم عنك فيختل أمر سلطنتك ، فاستحسنه السلطان محمد وعرض عليه قضاء العسكر قبله . ولما باشر أمر القضاء أعطى التدريس والقضاء لأهلها من غير عرض على السلطان ، فأنكره (٩ - تعليقات)

السلطان ولكن استحي من أن يظهره له ، فشاور الوزراء فأشاروا على السلطان بأن يقول له : سمعت أن أوقاف جدى فى بروسة قد اختلت فلا بد من أن تداركها . فلما قال له السلطان هذا الكلام قال الكورانى : إن أمرتنى بذلك أصلحها ، فقال السلطان : هذا يقتضى زمانا مديدا . فقلده قضاء بروسة مع تولية الأوقاف . فقبل الكورانى وذهب إلى بروسة ، وبعد مدة أرسل السلطان إليه واحدا من خدامه بيده مرسوم السلطان وضمنه أمرأ يخالف الشرع ، فزق الكتاب وضرب الخادم فاشمأز السلطان لذلك فعزله ووقع بينهما نفور ، فارتحل المولى الكورانى إلى مصر وسلطانها يومئذ قايتباى ، فأكرمه غاية الأكرام ، ثم إن السلطان محمداً الفاتح ندم على ما فعله ، فأرسل إلى السلطان قايتباى يلتمس منه أن يرسل المولى الكورانى إليه فحكى السلطان قايتباى ذلك للكورانى وقال له : لا تذهب إليه فانى أكرمك فوق ما يكرمك هو . قال الكورانى : نعم هو كذلك ، إلا أن بينى وبينه محبة عظيمة كما بين الوالد والولد ، وهذا الذى جرى بيننا شىء آخر ، وهو يعرف أنى أميل إليه بالطبع ، فان لم أذهب إليه يفهم أن المنع من جانبك فيقع بينكما خلاف . فاستحسن السلطان قايتباى هذا الكلام وأعطاه مالا جزيلا ، وهيا له أسباب السفر ، وأرسل معه هدايا إلى السلطان محمد ، فلما جاء إلى القسطنطينية ولأه السلطان قضاء بروسة ثانية سنة ٨٦٣ ، ثم قلده منصب الفتوى ، وعاش فى كنف حمايته عيشا رغدا وصنف تفسيراً للقرآن العظيم سماه « غاية الأمانى فى تفسير السبع المثانى » عقب فيه عل العلامتين الزمخشري والبيضاوى ، وشرح البخارى وسماه « بالكواثر الجارى على رياض البخارى » وله تصانيف أخرى ، وكان قوالا بالحق ، وكان يخاطب الوزير والسلطان باسمه ، وكان إذا لقي السلطان يسلم عليه ولا ينحنى له ، ويصافحه ولا يقبل يده ، ولا يذهب إليه يوم عيد إلا إذا دعاه ؛ وكان رحمه الله ينصح للسلطان محمد الفاتح فيقول له : إن مطعمك حرام ، وملبسك حرام ، فعليك بالاحتياط . فاتفق فى بعض الأيام أنه أكل مع السلطان ، فقال له السلطان : أيها المولى أنت أكلت أيضا من الحرام ؟ ! فقال : ما يليك من الطعام حرام ، وما يلينى منه حلال

فحول السلطان الطعام ، فأكل المولى فقال السلطان : أكلت من جانب الحرام ؟ ! فقال المولى : نفذ ما عندك من الحرام ، وما عندي من الحلال ، فلهذا حولت انطعام . وتوفي السكوراني سنة ٨٩٣ في القسطنطينية . ومنهم المولى مجد الدين ، صار قاضي عسكر في زمان الفاتح . ومنهم المولى خضر بك بن جلال الدين ، أعطاه السلطان محمد مدرسة جده في بروسة ، وكان علامة يلقب بجرباب العلم .

ولما فتح محمد الفاتح القسطنطينية جعله قاضياً فيها ، وهو أول قاض بتلك العاصمة وتوفي فيها ودفن في جوار أبي أيوب الأنصاري عليه رحمة الله . ومنهم المولى إبراهيم ابن الخطيب . ومنهم المولى خضر شاه من منتشة ، قرأ في بلاده ثم ارتحل في طلب العلم إلى مصر ، وعاد إلى الروم ، وكان زاهداً وتوفي قاضياً . ومنهم المولى محمد بن قاضي أياجلوغ وكان عالماً زاهداً . ومنهم المولى علاء الدين على الطوسي ، وأصله من العجم وجاء إلى بلاد الروم ، ولما فتح السلطان محمد الثاني قسطنطينية جعل ثمانيا من كنائسها مدارس وأعطى واحدة للطوسي وهي مدرسة جامع زيرك . وجاءه السلطان محمد الفاتح مرة وأمر بأن الطوسي يدرس كالعادة ، وجلس على يمينه وجلس محمود باشا الوزير على يساره وصار الطوسي يقرأ في شرح العضد للسيد الجرجاني ، وحل كثيراً من الدقائق فطرب السلطان ويقال إنه قام وقعد من شدة طربه ، وخلع عليه بعد الدرس وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وأحسن إلى جميع الطلبة . ثم أعطاه السلطان مدرسة والدة السلطان مراد في أدرنة ، وعين له كل يوم مائة درهم : ثم أمر السلطان محمد المولى الطوسي والمولى خوجه زاده أن يصنف كل منهما كتاباً للمحاكمة بين تهافت الامام الغزالي والحكام . فكتب المولى خوجه زاده كتابه في أربعة أشهر ، وكتب المولى الطوسي كتابه في ستة أشهر ، ففضل الناس كتاب خوجه زاده ، وأعطى السلطان محمد كلا منهما عشرة آلاف درهم ، وزاد خوجه زاده خلعة نفيسة ، فكان ذلك سبباً في ذهاب المولى الطوسي إلى بلاد العجم . ومنهم المولى حمزة القراماني . والمولى ابن التمجيد ، وكان معلماً للسلطان محمد . ومنهم المولى علي العجمي ، حصل العلوم في بلاده ، وقيل قرأ على السيد الجرجاني . ثم أتى بلاد الروم ونزل بقسطنطيني فأكرمه

أميرها اسماعيل بك غاية الاكرام . ثم أتى إلى أدرنة فأعطاه السلطان مراد الثاني مدرسة جده السلطان بايزيد يلدرم في بروسه ، وعاش إلى زمان السلطان الفاتح . ومنهم المولى على القومنانى وبلده قريبة من مدينة طوقات . ومنهم المولى حسام الدين الطوقانى . ومنهم المولى الياس بن ابراهيم السينابى . ومنهم المولى الياس بن يحيى بن حمزة . ومنهم المولى محمد بن مينا س . ومنهم المولى علاء الدين القوجه حصارى ارتحل إلى بلاد المعجم ، وقرأ على التفتازانى . والسيد الجرجانى . ومنهم المولى قاضى بلاط . ومنهم المولى بخشايش صنف رسائل للسلطان مراد . ومنهم المولى محمد بن قطب الدين الأزنيقى ، ومنهم المولى فتح الله الشيروانى قرأ على السيد الشريف الجرجانى ، وقرأ العلوم الرياضية على قاضى زاده الرومى بسمرقند ، ثم أتى بلاد الروم وتوطن قسطنطيني ومنهم المولى شجاع الدين الياس ويلقب بشيخ اسكوب ، درس فيها مدة أربعين سنة ومنهم المولى الياس الحنفى ، ومنهم المولى سليمان شلبى ابن الوزير خليل باشا ، وكان خليل باشا وزيرا للسلطان مراد خان . وتولى هو القضاء بالعسكر المنصور فى زمن والده . ومنهم المولى آقبيق ، وهو من العارفين . ومنهم الشيخ محمد بن الكاتب توطن غاليبولى منقطما عن الخلق . ومنهم الشيخ احمد بن الكاتب أخوه ، وسكن غاليبولى أيضا ، ومنهم المولى شيعى من بلاد كرميان ، ومنهم مصلح الدين المعروف بامام الدباغين بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحميدى ، ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن بخشى فقيه . ومنهم الشيخ العارف حسن خوجه من بلاد قرسى ، ومنهم شمس الدين من خلفاء حسن خوجه .

وخلفه ابنه محمد الثانى الفاتح بويع له فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة للهجرة ، وكانت آسية الصغرى - أى الأناضول - كلها فى يده ، ماعدا إمارة القرامان وولاية طرابزون التى كانت تابعة لقسطنطينية ، أما فى أوربة فلم يكن للروم غير القسطنطينية وضواحيها وأما بلاد اليونان فكانت مقسمة بين البنادقة ، وبين بعض أمراء من الأهالى ، وأما الأرناؤوط فكانت تحت حكم اسكندر بك ، وأما بوسنه فكانت لها إمارة مستقلة وأما الصرب فكانت تؤدى الجزية للسلطنة العثمانية ، وكان باقى ما بقى تابعا للسلطنة

رأساً ، فلما تولى محمد الثاني فكر في فتح القسطنطينية حتى يجمع شمل المسلمين ، وكان « بايزيد يلدرم » بنى من قبل بازاء القسطنطينية حصناً من جهة آسية ، فجاء محمد الثاني فبنى حصناً يقابله من جهة أوربة ، فلما رأى الأمبراطور قسطنطين مباشرة السلطان محمد هذه البناية أرسل يستعطفه ، وعرض عليه دفع اتاوة سنوية ، فاستنكف السلطان عن قبول أى شىء ، وبدأت الحرب ؛ فاستأصل السلطان الروم الذين فى ضواحي القسطنطينية ، وأجمع كل من الفريقين على القتال ، وصنع رجل مجرى للسلطان مدفعاً كبيراً يرسل قذائفه إلى مسافة ميل ، كان موكلًا به سبعمائة رجل ، فكان تأثير هذا المدفع عظيماً بضخامته وبعده مرماء .

وكان السلطان محمد يقدر أن يحشد مئآت ألوف من المقاتلة ، أما الامبراطور قسطنطين فلم يقدر أن يحشد إلا أربعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وستين مقاتلاً ، فهذا العدد كان يقابل مائتين وخمسين ألف جندى عثمانى ، معها أربع عشرة بطارية من المدافع ، يعاونها من البحر مائة وثمانون سفينة حربية !! ، فاستصرخ « قسطنطين باليولوغ » عمالك النصرانية فحذلته ، وكل ما أنجدته به هو أن البابا وعد باعلان حرب صليبية اذا كانت الكنيستان الشرقية والغربية تتحدان ، وأرسلت جنوة أسطولا صغيراً خمس سفائن ، وتمكن خمسة آلاف مقاتل من الغرباء من الوصول إلى المدينة ، فنقل السلطان مراكبه البحرية إلى البر ، وأزلقها على الشحم ، وأنزلها في خليج « قاسم باشا » فى ليلة واحدة ، ولما أصبح الصباح كان سبعون سفينة حربية فى وسط الخليج ، وبقى الحصار خمسين يوماً فهدمت الأبراج ، فأرسل السلطان إلى قسطنطين يعرض عليه الاستسلام فامتنع ، فعرض عليه السلطان أن يوليه بلاد المورة بدلا من فروق فاستنكف أيضاً ، وفى ٢٩ مايو من تلك السنة قام العثمانيون بهجوم عام ، وكان المهاجمون مائة وخمسين ألفاً ، فدافع الروم فى ذلك اليوم دفاعاً شديداً ولكن المسلمين دخلوا من الأسوار ، فلجأ الروم إلى كنيسة آيا صوفيا يرجون المعجزة التى تنقذهم ، فدخل عليهم العثمانيون من كل جهة ، وأخذوا البلدة عنوة ، وقتل الامبراطور قسطنطين وهو يقاتل بنفسه . وكان للاستيلاء على القسطنطينية دوى

لايوصف ، ووصلت الأخبار إلى المورة فحل من الرعب في قلوب اليونانيين ما لا يحيط به تعريف ، وأخذوا يجلون عن بلادهم إلى حيث لا يعلمون ، وامتلاً البحر بالسفن التي تشحن الأثقال ، وتحمل الأثام ، ولجأ كثيرون من الأروام إلى الجزر الخاصة بالبنادقة ، والجنوية . فصدر أمر السلطان بتأمين الناس ، ونادي المنادي في كل مكان بأن كل رومي يريد الرجوع إلى وطنه فهو آمن على حياته ودينه وماله !! وترك السلطان للأروام عدداً كبيراً من الكنائس ، وكان البطريرك قد قتل في المعركة فعين السلطان بطريركاً جديداً اسمه « جناديوس » وسلمه العصا وقال له : إني أعطيك الامتيازات التي كان يتمتع بها أسلافك . وصار البطريرك منذ ذلك اليوم رئيساً للأمة الرومية ، وكان له في الدولة العثمانية « رتبة وزير » وكانت عنده محكمة ، ومجالس روحاني ، فكان يحكم بين الأروام في جميع القضايا ، وكان المجلس الروحاني أشبه بمحكمة استئناف ، وكان أعضاؤه ذوي امتيازات أيضاً فلا يدفعون شيئاً من الخراج وبالاختصار لم يتعرض الاتراك إلى الأروام في دينهم ، ولا في أملاكهم إلا كنيسة « آياصوفيا » فقد جعلها السلطان جامعاً .

وبعد أن انتهى السلطان من فتح « العاصمة الرومانية » أخضع بلاد اليونان باجمعها ، ودخلت جيوشه بلاد الصرب ، وسبت خمسين ألف نسمة من رجال ونساء فارسل « جان هويناد » بطل المجر إلى « برانكو ويتش » ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين ، فبعث برانكو ويتش إلى هويناد يقول له : ماذا تصنع فيما إذا تغلبت أنت من جهة الكنيسة ؟ فأجابه هويناد : إنني أقرر العقيدة الكاثوليكية ، وكان سفراء برانكو ويتش سألوا السؤال نفسه السلطان محمد الفاتح فأجابهم : بجانب كل جامع أبني كنيسة ، وكل من الفريقين يعبد ربه كما يشاء . فسار السلطان بمائة وخمسين ألف مقاتل ، وثلاثمائة مدفع ، وحاصر بلغراد لكنه لم يقدر عليها ، ولحقت به خسائر كثيرة في الحصار . وكان « هويناد » قد جرح في المعركة ومات ، فضعفت المقاومة ولم تمض سنتان حتى دوخ العثمانيون جميع بلاد الصرب . وبعد ان انتهوا من الصرب زحفوا إلى « بوسنه » وأخذ محمود باشا قائد

الأتراك أمير «البوشناق» أسيراً، ولكنه وعده بالامان على حياته ، ثم إن السلطان محمداً أخذ فتوى من شيخ الاسلام بجواز قتله. وأما الأهالي فمنهم من هاجر ، ومنهم من أسلم . وأكثر من أسلم كانوا من طائفة يقال لها «البوغوميل» وكانت مسيحية لكنهم لم تكن تعتقد بالوهمية عيسى كما يعتقد جمهور النصارى ، وكانت لها آداب خاصة بها ، وعقائد بعيدة عن العقيدة المسيحية ، وكان من هذه النحلة اقوام في بلاد البلقان . ونظراً لتعصب المجر للكنيسة الكاثوليكية طالما اضطهدوا هؤلاء البوغوميل وأرادوا اكراههم على قبول الكاثوليكية ، وكانت الباباوات لا تزال تلح على ملوك المجر باستئصال هذه الطائفة فكان هؤلاء يعانون الوان العذاب ، فلما دخل الأتراك الى بلاد البلقان التي يقولون لها « الروملى » بدأ هؤلاء البوغوميل يدخلون في الاسلام ، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمد الفاتح مملكة بوسنة . ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاء أنفسهم . ففؤرخو الافرنج يزعمون أنه لما دخل السلطان الى بوسنة خير الناس بين الاسلام والنصرانية ، وأن النبي أسلم بقيت له أملاكه ومن لم يقبل الاسلام جرده الأتراك من ثروته ، وكل هذا من أكاذيب المؤرخين الأوروبيين !! والحقيقة هي ما ذكرناه . ولو كان السلطان محمد الفاتح عامل البوشناق هذه المعاملة لكان أولى به أن يعامل النصارى بهافي سائر البلاد ، والحال كما هو معلوم ومشهور أن السلاطين العثمانيين لم يتعرضوا لأحد في دينه . « فالبوشناق » المسلمون لم يكن أصلهم نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا من هذه الطائفة التي وصفنا شيئاً من عقيدتها ، والتي كانت أرقى من جميع سكان تلك البلاد .

ولنا رحلة الى بلاد « بوسنه وهرسك » جمعنا فيها كل المعلومات اللازمة عن أصل « البوشناق » وعن أصل « البوغوميل » ومرادنا نشرها في أول فرصة . وقد رأينا باعيننا قبور « البوغوميل » القديمة واپس عليها شيء من الصليبان ، ولا من علامات النصرانية . وبديهي أنه لما كان البوغوميل هم في الأصل ذوى الوجهة في بلاد بوسنه وهرسك ، صاروا هم ذوى الوجهة في الاسلام أيضا . وكان استيلاء الأتراك على بوسنه سنة ١٤٦٣ . وفي تلك المدة استولى السلطان محمد على بلاد « طرابزون »

التي كان يليها ملوك من الاروام من عائلة « كومين » . ثم زحف السلطان لفتح بلاد الفلاخ فقاومه أميرها « فلاد » مدة من الزمن ، لكنه انهزم والتجأ الى بلاد المجر . فجعل السلطان أخاه « رادول » أميراً على الفلاخ ، فاما الارناؤوط فكانوا لا يزالون عصاة ، وكان اسكندر بك لا يزال مظفراً في حروبه مع الاتراك ، فزحف السلطان بنفسه الى بلاد الارناؤوط واستولى على بعض المدن مثل « برات » وغيرها ثم رجع وترك القيادة « لبليان باشا » فلم يوفق ، وبقيت ألبانيا متمردة الى أن مات اسكندر بك .

واشتعلت الحرب بين السلطان وبين جمهورية البندقية . فأرسل السلطان أسطولاً مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة حربية ، عليها سبعون ألف مقاتل تحت قيادة « محمود باشا » فاستولى هذا الأسطول على جزيرة « نيفروبون » وأخذها عنوة واستأصل حاميتها فتحالف البنادقة ، ومملكة نابولي ، والبابا ، مع لوزون حسن من أمراء التركمان في شرق الأناضول ، وذلك لمحاربة السلطان ، فزحف السلطان لصد لوزون حسن بمائة ألف مقاتل ، وقهره في واقعة « أوقلق بيلى » وفي ذلك الوقت استولى على برالقرايمان في جنوبي الأناضول بعد مقاتلات شديدة ، وكان السلطان اعترم فتح بلاد البغدان « من رومانية الحاضرة » فساق مائة ألف مقاتل لفتحها ، وكان أميرها « إيتيان الرابع » صلباً شديداً مقاوم أشد مقاومة ، وأوقع بالأسرى . فحنق السلطان وزحف من جهة الجنوب ، وأوعز الى تتر القرم بالزحف من الشرق ، وكان في القرم عائلة مالكة من التتر تنتسب إلى « جنكيزخان » . وكانت هذه المملكة تشمل على شبه جزيرة القرم وبلاد قوبان ، وبلاد الشركى ، ولها جانب من بلاد البغدان ، وبسرايا . وكان فيها عدة إمارات تخضع « للخان الكبير » مثل آل « شيرين » و « آل منصور » و « آل سجد » و « آل إرغين » و « آل بارون » . وكل هذه العائلات كانت من سلاسل أعوان « جنكيزخان » . وكان الجنوبيون قد استولوا على جانب من القرم وأوقعوا الشقاق بين أمراء التتر ، فجاء السلطان محمد الفاتح وطرد الجنوبية من هناك بأسطول مؤلف من ثلاثمائة شراع ، واستولى هو على بلاد القرم ، ووضع على كرسي تلك

المملكة « منغلي غرانى » وصار من الملوك التابعين للسلطنة العثمانية . واستولى الاسطول العثمانى على مصاب نهر الطونة ، وزحف بمائة ألف مقاتل لقتال « إيتيان الرابع » فكانت الحرب سجالا . وكانت أساطيل البندقية تحتاج سواحل الأناضول ، واشتعلت الحرب بين البنادقة والسلطان فى البانيا ، وبعد حصار شديد استولى السلطان على « اشقودره » سنة ١٤٧٩ ثم تصالحت جمهورية البندقية مع السلطان فتفرغ لقتال الجرج ، وزحف أربعون ألف مقاتل من الأتراك إلى « ترانسيلفانيا » ثم إن الخلف وقع بين القواد فظفر بهم « إيتيان باتورى » أمير ترانسيلفانيا ، والجنرال « مايتاس كورفين » وهزموا الجيش الاسلامى ، وارتكبوا من فظائع التعذيب للأسرى ما روته التواريخ . ولكن السلطان لم يتوقف فى فتوحاته بل صمم على فتح « إيطالية » أيضاً وأرسل أسطولا ففتح عنوة مدينة « أوترانت » فى ١٤ اغسطس ١٤٨٠ فوقع الرعب فى جميع إيطالية وكان مسيح باشا يغزو « رودس » لطرده فرسان مار يوحنا أورشليم ، وهم الذين كان يسميهم العرب بالاسبطارية ، ولهم ذكر شهير فى الحروب الصليبية ، ولما طردهم المسلمون من فلسطين جعلوا رودس مركزاً لهم ، وكانت قاعدة سياستهم محاربة المسلمين ، فجاء مسيح باشا بمائة وستين شراعا وحصر رودس ، وأنزل العساكر إلى البر ، وبقى الحصار مدة شهرين ، فدافع الاسبطارية دفاعاً شديداً ، واضطروا مسيح باشا إلى رفع الحصار . وبعد ذلك بقليل مات السلطان الفاتح فى ٢ مايو ١٤٨١ . وخلاصة أعمال السلطان محمد الفاتح هو أنه فتح القسطنطينية ، وكان ذلك فتحاً مبيناً انتهت به القرون الوسطى فصيرها عاصمة للإسلام ، وفتح أيضاً ملحقاتها ، وفتح مملكتى الصرب وبوسنة ، وبلاد الأرناؤوط ، وجمع جميع آسية الصغرى فى ملكه .

ولم يكن السلطان الفاتح من أعظم الفاتحين فى الحروب فقط ؛ بل امتاز بحسن الإدارة ، وتنظيم الملك ، وهو الذى حرر النظام المسمى « بقانون نامه » وفيه جميع أنظمة السلطنة من علمية ، وإدارية ، وسياسية ، وعسكرية ، وسارت الدولة العثمانية بموجب هذه الأنظمة مدة طويلة ، ولا سيما الترابيب المتعلقة للقضاة والعلماء والمدرسين فانه اعتنى بها الفاتح أشد الاعتناء ، وكان الفاتح نفسه على جانب عظيم من العلم

وحسن الثقافة ، يتكلم بلغات متعددة وكان بدون شك من أعظم رجال الدهر ومن حسنات الاسلام الكبرى ، وجميع هؤلاء السلاطين من عثمان إلى الفاتح لم يوجد منهم إلا بطل مجاهد وساطان عظيم الشأن ، ولما تصادف ذلك في دولة أخرى بهذا النسق خلفا عن سلف

وفي زمان الساطان محمد الفاتح نبغ من العلماء المولى خسرو قاضى العسكر المنصور أخذ العلم عن المولى حيدر الهروى ، وصار مدرسا بمدينة أدرنة ، ولما فتح السلطان القسطنطينية جعله قاضيا فيها مع التدريس في آياصوفيا ، وكان إذا دخل جامع آياصوفيا يقوم له من في الجامع كلهم ، ويصلى عند المحراب ، وكان السلطان ينظر إليه من مكانه ويقول لوزرائه : أنظروا هذا أبو حنيفة رفاقه ، وكان كثير الاشتغال بالمطالعة ، وله تأليف متعددة ، ومساجد متعددة بناها في القسطنطينية ، ومات فيها ونقل جثمانه إلى بروسة . ومنهم خير الدين خليل بن القاسم بن الحاج صفا . ومنهم المولى محمد الشهير بزيرك ، وكان مدرسا بمدرسة السلطان مراد في بروسة ، ووقعت له مناظرة مع خواجه زاده أمام السلطان محمد الفاتح ، وكان السلطان مدققا متبحرا يحب مناظرات العلماء بعضهم لبعض ، ويميز بينها تمييزاً مدهشاً ، ففي ذلك اليوم استحسن السلطان قول خواجه زاده فوقع في نفس المولى زيرك شيء ، فترك القسطنطينية وذهب إلى بروسة فعاد السلطان يحاول تطيب خاطره وعرض عليه مناصب عالية فرفضها . ومنهم مصالح الدين مصطفى بن يوسف بن صالح البروسوى المشتهر بين الناس بخواجه زاده والمذكور كان أبوه من التجار فمال إلى تحصيل العلم برغم إرادة أبيه ، ولم يكن أبوه مع ثروته يعطيه شيئا ، فعاش معيشة الفقراء ، وتولى القضاء في زمان السلطان مراد ولما انتهت السلطنة إلى الفاتح - وكان محبا للعلم والعلماء - صار هؤلاء يشدون الرحال إليه ، وكان خواجه زاده ممن قصد السلطان فلقبه وهو ذاهب من القسطنطينية إلى أدرنة ، فلما رآه محمود باشا الوزير الأكبر قال له : أصبت في مجيئك لأنى ذكرتك عند السلطان فذهب إليه وعنده البحث ، فذهب إلى السلطان فسأل عنه فقال محمود باشا للسلطان : هو خواجه زاده ، فكان في جانب السلطان المولى زيرك ، وفي الجانب

الآخر المولى سيدى على ، فجلس خواجه زاده إلى جانب سيدى على واعترض على المولى زيرك وأخذه ، حتى قال له السلطان : كلامك ليس بشيء ! ثم ذهب المولى زيرك وبقى خواجه زاده عند السلطان ، ثم جعله السلطان معلماً لنفسه وقرأ عليه السلطان متن عز الدين الزنجاني في التصريف ، وصار مقرباً عند السلطان إلى النهاية حتى حسده محمود باشا الوزير وقال للسلطان : إن خواجه زاده يريد منصب قضاء العسكر . فقال السلطان : لأي شيء يريد أن يترك صحبتي ؟ فقال الوزير : هكذا يريد . ثم قال الوزير لخواجه زاده : أمرك السلطان أن تصير قاضى العسكر . فقال : أنا لا أريد ذلك قال الوزير : هكذا جرى الأمر . فامتثل خواجه زاده أمر الوزير وصار قاضياً للعسكر وكان والد خواجه زاده لا يزال في الحياة ، وكذلك إخوته . فجاءوا يزورونه وهو في منصبه العالى ، ورأوا ذلك الاقبال العظيم ، فقال خواجه زاده لوالده : لو كنت أعطيتنى مالا لما صرت إلى هذا الجاه الذى تراه الآن . يشير بذلك إلى أنه فى صغره لما عول خواجه زاده على طلب العلم وخالف مسلك أبيه فى التجارة أمسك أبوه عن الانفاق عليه ، فصار يكسب ويجتهد حتى بلغ تلك الدرجة العالية ، وكان الشيخ ولى شمس الدين البخارى رأى خواجه زاده وهو يطلب العلم فى صباه وثيابه رثة ورأى إخوته متجملين بالثياب النفيسة ، فسأل أباهم ؟ لماذا أولادك هؤلاء كلهم عليهم علامات اليسار وولدك هذا وحده بحالة الفقر ؟ فقال له : هذا لأنى أسقطته من نظرى حين ترك طريقى . فقال الولى شمس الدين : إن هذا الولد سيكون له شأن عظيم و يقوم إخوته أمامه بمقام الخدم ، وقد تحقق كلام الولى هذا ، لأن خواجه زاده عند ما صار قاضى العسكر صنع ضيافة عظيمة لأبيه ، وحشد إليها الأكابر والأعيان والعلماء ، فجلسوا على مراتبهم ، ونظراً للازدحام لم يوجد مكان فى السفرة لاخته خواجه زاده فلبثوا واقفين كالخدم ، وتذكر خواجه زاده قول الولى شمس الدين .

وصنف خواجه زاده كتاب « التهافت » بأمر السلطان ، وقال المولى الفناى : المصيبة كل المصيبة أن الخواجه زاده قَبِلَ القضاء إذ لو داوم على الاشتغال بالتأليف لظهرت له آثار تتحير فيها الألباب .

ثم إن السلطان جمل محمد باشا القرمانى وزيراً ، وكان متمصباً على المولى خواجه زاده لميل الوزير إلى المولى على الطوسى ، فقال للسلطان الفاتح . إن خواجه زاده يشكو هواء القسطنطينية و يمدح هواء إزنيق . فقال السلطان : أعطيته قضاء إزنيق مع المدرسة التى فيها ، فمضى خواجه زاده إلى إزنيق ، ثم ترك القضاء واشتغل بالتدريس فقط ، ثم رجع إلى القسطنطينية بعد وفاة الفاتح . ولما جلس السلطان بايزيد بن السلطان الفاتح على سرير السلطنة أعطاه المدرسة السلطانية فى بروسة ، مع منصب الفتوى فيها . وكان لا يكتب الفتوى إلا بعد النظر فى الفتاوى ، وإذا تكررت عليه مسألة واحدة لا يهمل أن يعيد النظر فى الفتاوى قائلاً : لو ساحت نفسى فى هذه لربما تساحت فى غيرها . وكان إذا لم يجد المسألة فى الفتاوى سلك مسلك الرأى ، وكان يقول إني قد أرجح وجهها من الوجوه ثم إذا طالمت فى الكتب وجدت هذا الوجه قد ذهب إليه بعض الأئمة قبلى . وكان يقول : ما نظرت فى كتاب أحد بعد تصانيف السيد الشريف بنية الاستفادة . وكان خواجه زاده يقول : إني صاحب إقدام وإحجام . فقل له : ما تريد بذلك ؟ فقال : إذا كملت مطالعتى لا أخاف أحداً كائناً من كان وإذا لم تكمل أخاف كل أحد . ونقل عنه أنه قال : إن العلوم على ثلاثة أقسام : قسم منها ما يمكن تقريره وتحريره وهو المكتوب فى المصنفات . ومنها ما يمكن تقريره ولا يجوز تقريره وهو الجارى فى المباحثات . ومنها ما لا يمكن تقريره ولا تحريريه وهو ما لا يمكن التعبير عنه لدقته إلا إذا حصل لأحد تلك الحالة الذوقية فيتكلم بالائتماء والإشارة . وأمر السلطان بايزيد خواجه زاده أن يكتب حاشية على شرح المواقف فامثل أمره . وكان قد وقع شلل فى يده اليمنى فكان يكتب الحاشية باليد اليسرى وتوفى خواجه زاده سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، وكان له ولد اسمه الشيخ محمد من العلماء الكبار مال فى آخر الأمر إلى التصوف .

ومن علماء عصر الفاتح المولى شمس الدين احمد بن موسى الشير بالخيالى ، وكان عالماً عاملاً ورعاً ، ولما توفى تاج الدين الخطيب مدرّس أزينق طلب السلطان محمد الفاتح مدرّساً مكانه ، فعرض الوزير محمود باشا اسم الخيالى فقال له السلطان : أليس

هو الذى كتب الحواشى على شرح العقائد وذكر فيها اسمك ؟ قال الوزير : نعم هو ذلك . قال السلطان : إنه مستحق لهذا المنصب . وأعطاه المدرسة المذكورة وعين له كل يوم مائة وثلاثين درهما ، ومات وهو مدرس فيها وعمره ثلاث وثلاثون سنة وكان كثير العبادة . حكى من لازمه أنه لم يره فرح ولا ضحك . وكان دائم الصمت لا يتكلم إلا عند مباحث العلوم .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى القسطلاني ، كان مدرسا في مدرسة «ديموطقة» في الروملى ثم لما بنى الفاتح المدارس في القسطنطينية أعطاه واحدة منها وصار قاضيا بالمسكر المنصور فخافة محمد باشا القراماني لأن القسطلاني كان قويا لا يدارى أحدا ، فقال الوزير للسلطان : الأولى أن يكون للمسكر قاضيان ؛ أحدهما القسطلاني يكون قاضيا للمسكر الروملي ، والآخر يكون قاضيا للمسكر الأناضول . وفي تلك المدة مات السلطان الفاتح وجلس السلطان بايزيد ، فعزل القسطلاني عن قضاء المسكر . وكانت له تصانيف عالية الدرجة ، ولم يتفرغ لأكثر منها لكثرة اشتغاله بالدرس والقضاء ، وتوفي سنة إحدى وتسعمائة ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري .

ومنهم المولى محيي الدين محمد بن الخطيب كان مدرسا باحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وادعى مرة أنه يقدر على مباحثة خواجه زاده ، فقال له السلطان الفاتح : أنت تقدر على البحث معه ؟ قال : نعم لاسيما أن لي مرتبة عند السلطان . فعزله السلطان محمد لهذا الكلام . وكان طليق اللسان ، جرى الجنان ، وقهر كثيرا من علماء زمانه . ويروى عنه أنه ذهب ومعه جماعة من العلماء الى السلطان بايزيد فقبل العلماء يد السلطان ، وأما ابن الخطيب فلم يقبل يده ولا انحنى له ، فلما خرجوا من حضرة السلطان قالوا له : كان الأليق أن تنحنى له وتقبل يده !! قال : أنتم لا تعرفون ، يكفيه فخرا أن يذهب اليه عالم مثل ابن الخطيب وهو راض بهذا القدر . ثم إن السلطان بايزيد جمعه مع المولى علاء الدين العربى وغيره من العلماء وانتهى البحث الى كلام غضب منه السلطان ، فصنف ابن الخطيب رسالة وذكر السلطان بايزيد خان في خطبتها وأرسلها الى السلطان بيد الوزير إبراهيم باشا ، فازداد السلطان غضبا وقال للوزير

ما اكتفى بذلك الكلام الباطل باللسان حتى كتبه في الورق ! اضرب برسالته وجهه وقل له يخرج من مملكتي . فالوزير كتم ذلك عن ابن الخطيب ولم يشأ كسر خاطره ، وأرسل إليه عشرة آلاف درهم باسم السلطان والسلطان لا يعلم ذلك . وله مؤلفات كثيرة .

ومنهم المولى علاء الدين على العربي ، أصله من نواحي حلب ، قرأ أولاً في حلب ثم قدم الى بلاد الروم فقرأ على المولى الكوراني ، وقال المولى الكوراني له : أنت عندي بمنزلة السيد الشريف عند مبارك شاه المنطقي . وتحرير الخبر أن السيد الشريف كان قرأ شرح المطالع ست عشرة مرة ، ثم قال في نفسه : أريد أن أقرأ هذا الكتاب على مصنفه . فذهب إليه وهو بهراة واتمس منه أن يقرأ عليه شرح المطالع ، وكان الشيخ قد بلغ من الكبر عتياً ، فنظر الى السيد الشريف فقال له : أنت شاب وأنا شيخ كبير لا أقدر على التدريس ، فذهب الى مبارك شاه فهو يقرئك كما سمع مني وكان مبارك شاه وقتئذ يدرس بمصر ، فذهب السيد الشريف من هراة إلى مصر ومعه الكتاب ، فقال له مبارك شاه : نعم إلا أنه ليس لك درس مستقل ، ولا آذن لك بالتكلم بل تقنع بمجرد السماع . فرضى السيد الشروط كلها وحضر الدرس . وكان بيت مبارك شاه متصلاً بالمدرسة وله باب إليها ، فخرج ليلة إلى صحن المدرسة وبينما كان يدور فيها سمع السيد الشريف يقول : قال الشارح كذا ، وقال الأستاذ كذا ، وأنا أقول كذا ، وكرر كلمات لطيفة أعجبت مبارك شاه حتى رقص من شدة طربه ، فأذن للسيد الشريف أن يقرأ ويتكلم ، وسود الشريف حاشية شرح المطالع هناك ، فالمولى الكوراني قص على المولى العربي هذه القصة وقال له : إني أفتخر بك افتخار مبارك شاه بالسيد الشريف ودرس المولى العربي باحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم صار مفتياً فيها . وكان رجلاً قوى المزاج إلى الغاية يجلس عند الدرس مكشوف الرأس في أيام الشتاء ويقال إنه كان يأتي النساء كل ليلة ، وكان يغتسل في بيته مهما اشتد البرد ، ثم يصلي مائة ركعة ، ثم ينام ، ثم يقوم للتهجد ، ثم يطالع إلى الصبح وقد ولد من صلبه سبع وستون نفساً ، ولما مرض مرض الموت

عاده الوزراء ومعههم طبيب ، فأشار عليه الطبيب بالاستحمام فلم يرض ، فحمله الوزراء جبراً على سرير قبض كل واحد طرفاً منه وذهبوا به إلى الحمام .

ومنهم المولى عبد الكريم كان هو والوزير محمود باشا والمولى إياس عبيداً لمحمد أغا من أمراء السلطان مراد ، وقد جرى بهم من بلادهم وهم صفار ، فمحمود باشا صار فيما بعد وزيراً للسلطان الفاتح ، والمولى عبد الكريم قرأ العلوم بأسرها ، واشتهر بالفضل وأخذ عن المولى علي الطوسي ، والمولى سنان المعجمي ، ثم صار مدرساً بإحدى المدارس الثمان التي أحدثها الفاتح بعد فتحه القسطنطينية ، وصار قاضياً للعسكر ، ومات في أيام السلطان بايزيد خان

ومنهم المولى حسن بن عبد الصمد الصمصوني ، كان عالماً فاضلاً محباً للفقراء أخذ عن المولى خسرو ، ودرس في إحدى المدارس الثمان ، ثم معلماً للسلطان محمد الفاتح ثم قاضياً للعسكر المنصور ، ثم قاضياً لمدينة القسطنطينية ، وكان محمود الطريقة في قضائه ، وكان له خط حسن ، كتب للسلطان الفاتح صحاح الجوهري بخطه . ومنهم المولى محمد بن مصطفى بن الحاج حسن . قرأ على علماء عصره ، وصار قاضياً بمدينة « غاليبولي » ثم أعطاه السلطان محمد مدرسة والده بمدينة بروسه ، ثم استقضى فيها ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم صار قاضياً للعسكر ومات في سنة إحدى عشرة وتسعمائة في زمان السلطان بايزيد خان . وله تأليف منها حاشيته على تفسير سورة الأنعام للبيضاوي ، وحاشيته في المحاكاة بين الدواني ومير صدر الدين ، وكتاب في الصرف اسمه ميزان التصريف .

ومنهم علاء الدين علي بن محمد القوشجي كان أبوه من خدام أولغ بك ملك ماوراء النهر ، وكان حافظ البازي « وهو معنى القوشجي بالتركية » قرأ على علماء سمرقند ، وقرأ على قاضي زاده الرومي العلوم الرياضية ، وكان الأمير أولغ بك أيضاً عالماً بهذه العلوم فأخذها عنه ، وبنى الأمير أولغ بك مرصداً في سمرقند عظيماً وتمين له المولى القوشجي هذا ، وله زيج شهير . وبعد وفاة أولغ بك لم يعرف أولاده قدر القوشجي فرحل إلى تبريز وكان أميرها السلطان حسن الطويل فأكرمه كثيراً ، وأرسله في رسالة إلى

السلطان محمد العثماني ، فلما جاء إلى الفاتح بالرسالة أكرمه فوق ما أكرمه السلطان حسن ورغب إليه أن يسكن في ظل حمايته ، فوعده بالجنى . بعد إتمام الرسالة ، وعاد إلى السلطان حسن وأدى الجواب ، ثم أرسل الفاتح من جاء به إلى القسطنطينية بالحشمة الوافرة ، وقدم للسلطان رسالة في علم الحساب وسماها المحمدية ، ولا يوجد أنفع منها في هذا العلم . ثم حصلت حرب بين الفاتح والسلطان حسن الطويل فاستصحب السلطان المولى القوشجي وهو ذاهب إلى الحرب ، فصنف له في أثناء السفر رسالة في علم الهيئة سماها «الفتحية» ولما رجع السلطان من فتح المعجم أعطى القوشجي مدرسة أيا صوفيا وأكرم أولاده وأتباعه وكان معه مثلنا نفس من الأتباع . ورووا أن المولى القوشجي ذكر مباحثة السيد الشريف مع العلامة التفتازاني ورجح جانب التفتازاني وكان المولى خواجه زاده يقول : كنت أظن الأمر كذلك إلا أنني حققت البحث المذكور فظهر لي أن الحق في جانب السيد الشريف فكتبت ذلك في حاشية كتابي وطالعها القوشجي فاستحسن ما كتبت . ولما لقي القوشجي السلطان محمد الفاتح قال له السلطان : كيف شاهدت خواجه زاده . قال : لانظير له في المعجم والروم . قال السلطان : ولا نظير له في العرب أيضا . وللقوشجي حاشية على أوائل شرح الكشاف للتفتازاني توفي في القسطنطينية ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري .

ومنهم المولى علي بن محمد الدين محمد بن مسعود بن محمود بن محمد بن عمر الشاهروري البسطامي المروى الرازي العمري البكري الشهير بالمولى « مصنفك » والكاف علامة التصغير عند المعجم ، ولقب بذلك لاشتغاله بالتصنيف منذ حداثة سنه ، وهو من ذرية فخر الدين الرازي ، ويقال إن الفخر الرازي صرح في بعض مصنفاته بأنه من ذرية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وقيل بل هو من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ولد المولى « مصنفك » سنة ثلاث وثمانمائة ، وسافر إلى هراة لتحصيل العلم سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ، وصنف شرح الارشاد سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة - أي وهو ابن عشرين سنة - وشرح المصباح في النحو سنة خمس وعشرين ، وشرح آداب البحث سنة ست وعشرين ، وشرح اللباب سنة ثمان وعشرين ، وشرح المطول سنة اثنتين

وثلاثين ، وشرح شرح المفتاح للتفتازانى سنة أربع وثلاثين ، وصنف حاشية التلويح سنة خمس وثلاثين ، وشرح البردة والقصيدة الروحية لابن سينا فى تلك السنة ، ثم ارتحل إلى هراة وشرح « الوقاية » ثم شرح « الهداية » سنة تسع وثلاثين . ثم صنف حدائق الايمان لأهل العرفان ، ثم ارتحل إلى بلاد الروم سنة ثمان وأربعين وشرح المصاييح للبغوى ، وشرح شرح المفتاح للسيد الشريف ، وصنف شرح الكشف للزنجشى . وله عدة تأليف بالفارسية ، وقرأ العلوم الأدبية على المولى جلال الدين يوسف الأبهسى من تلاميذ التفتازانى ، وقرأ فقه الشافعى على الامام عبد العزيز بن الابهري ، وقرأ الفقه الحنفى على الامام نصيح الدين محمد بن محمد علاء الدين .

وكان سريع الكتابة يكتب كل يوم كراسا ، وكان يدرس الطلبة بالكتابة يكتبون اليه مواضع الاشكال فيجيب كلاً فى ورقة ويدفعها إلى الطالب ، مات بالقسطنطينية سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، ودفن عند أبى أيوب الأنصارى وأصيب بالصمم فى آخر حياته .

ومنهم المولى سراج الدين محمد بن عمر الحلبي ، لما أغار تمولك على البلاد الحلبية أخذه معه إلى ما وراء النهر فقرأ هناك ، ثم قدم إلى بلاد الروم فى زمن السلطان مراد خان ونصبه معلماً لابنه السلطان محمد الذى فتح استانبول ثم أعطاه مدرسة بأدرنة وبقى يدرس ويصنف حتى مات فيها .

ومنهم المولى محيى الدين دويش محمد بن خضرشاه ، كان مدرساً بسلطانية بروسة وكان فى غاية الورع والناس تتبرك به . ومنهم المولى إياس ، وكان متصوفاً انقطع للعبادة والمطالعة ، وكان له غرام بتصحيح الكتب وكتابة الفوائد فى حواشيها ، وكان للناس فيه اعتقاد عظيم . ومنهم المولى خير الدين معلم السلطان محمد الفاتح ، وكان له جامع ومدرسة فى القسطنطينية . وكان عالماً فاضلاً متفناً لذيد الصحة حسن النادرة . ومنهم المولى حميد الدين بن أفضل الدين الحسينى ، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى ، صبوراً على الشدائد ، تولى التدريس بمدرسة السلطان مراد فى بورسة

ثم عزل عنها في أوائل سلطنة الفاتح ، وأتى إلى القسطنطينية . وكان الفاتح أحياناً يخرج ماشياً في عدة من أعوانه فصادفه الشيخ حميد الدين فنزل عن فرسه ووقف فقال له السلطان : أنت ابن أفضل الدين ؟ قال : نعم . قال : احضر إلى الديوان غداً . فلما حضر أعطاه مدرسة السلطان مراد في بورسة ، وأجرى عليه أرزاقاً تكفيه وأوصاه بالاشتغال بالعلم وقال له : أنا لا أغفل عنك . ثم أعطاه السلطان إحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم استقضاه ، وبعد وفاة الفاتح صار مفتياً في زمان ولده السلطان بايزيد . وكان شديد الحفظ قلماً توجد مسألة شرعية أو عقلية إلا وهو يحفظها ، ولم يكن يعرف الغضب . ومنهم المولى سنان الدين يوسف بن المولى خضر بك ابن جلال الدين ، كان عالماً فاضلاً واسع الاطلاع حادّ الذهن ، ولشدة ذكائه غلب عليه الشك فصار يشتبه في أكثر الأشياء ، وكان والده يلومه على ذلك ، وكاناً يأكلان مرة معاً فقال له والده : بلغ بك الشك إلى مرتبة أنك قد تشك في أن هذا الظرف من نحاس ؟! فقال له : نعم يمكن ذلك لأن للحواس أغاليط . فغضب والده عليه وضربه بالطبق على رأسه . ولما مات والده كان في العشرين من سنه . فأعطاه السلطان الفاتح مدرسة بأدرنة ، ثم أعطاه دار الحديث ، ثم جعله من خواصه ، وتعلم سنان الدين العلوم الرياضية على المولى على القوشجي الذي تقدّم ذكره ، ثم سفر الجوينيه وبين السلطان فعمله وحبسه . فلما عرف العلماء اجتمعوا في الديوان العالي وقالوا : لا بد من إطلاق سبيله وإلا نحرق كتبنا ونخرج من المملكة ، فأمر السلطان بتخليه سبيله ولكنه أخرجه من القسطنطينية إلى سفر حصار ، وبقي غضبان عليه . إلا أن السلطان بايزيد عاد فاستدعاه إلى أدرنة ، وجعله في دار الحديث فيها ، وأنعم عليه وكتب هناك حواشي على مباحث الجواهر من شرح المواقف ، وأورد أسئلة كثيرة على السيد الشريف ، فنصح به بعض أصحابه قائلاً له : لا بد من انتخاب تلك الأسئلة لأن السيد رفيع الشأن ، فأوعز للطلبة بأن يطالعوا تلك الأسئلة ، فأسقط منها ما أجابوا عنه ، ثم ترك المناصب ومات بقسطنطينية ، ودفن بجوار أبي أيوب الانصاري سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . وكان ينفق كل ما في يده ، ولما مات لم يوجد في بيته حطب يسخن

به الماء . ومنهم المولى يعقوب باشا بن المولى خضر بك بن جلال الدين ، وكان عالماً محققاً صالحاً ، استقضى في مدينة بورسة ومات وهو قاض بها سنة إحدى وتسعين وثمانمائة . ومنهم احمد باشا بن خضر بك بن جلال الدين كان أيضاً عالماً فاضلاً متواضعاً محباً للفقراء ، أعطاه السلطان محمد إحدى المدارس الثمان وهو دون العشرين ثم صار مفتياً بمدينة بروسة في زمان السلطان بايزيد ، ومات سنة سبع وعشرين وتسعمائة وقد ذرف على التسمين . ومنهم المولى صلاح الدين ، كان عالماً عابداً جعله الفاتح معلماً لابنه بايزيد ، وتوفي في بورسة .

ومنهم المولى عبد القادر أصله من « اسبارتة » من ولاية حميد ، قرأ على المولى على الطوسي وترقى في المناصب حتى صار من خواص السلطان الفاتح ، فنقل الوزير محمود باشا عنه إلى السلطان ما غيّر خاطره عليه ، فذهب إلى وطنه ومات مكسور الخاطر . ومن نكاته أنه كان مع السلطان في قونية ، فخرج العلماء لاستقبال السلطان مشاة ، وكان المولى عبد القادر راكباً ، فقال له السلطان : قد أضناك السفر فانظر إلى هؤلاء العلماء وقوة مزاجهم ، فأنشده بيتاً بالفارسية معناه : إن الفرس العربي وإن كان نحيقاً فهو أجود من جماعة الحمُر ، فضحك السلطان واستحسن جوابه . ولكنه لم يستحسن منه قوله مرة : إنه لو كان العلامة التفتازاني والسيد الجرجاني في عصره لحملا قدّامه غاشية سرجه ، فان السلطان اشماز من كلامه ، وأمره بالمباحثة مع خواجه زاده فألحظه خواجه زاده ، كأن السلطان جعل ذلك عقاباً له . ومنهم المولى علاء الدين علي بن يوسف بالي بن المولى شمس الدين الفناري ، كان من العلماء المحققين ارتحل إلى بلاد المعجم وأخذ عن علماء هراة ، ثم عن علماء سمرقند ، وبخارى ، ثم عاد إلى بلاده . وكان المولى الكوراني يقول للسلطان الفاتح : يجب أن يكون عندك أحد أبناء المولى الفناري ، فلما بلغه وجود المولى علاء الدين من ذرية الفناري استقضاه بمدينة بورسة ثم جعله قاضياً للعسكر المنصور ، وفي زمانه ارتقى شرف العلم وكانت للعلماء سيادة تامّة . ثم عزل ، ثم أعاده السلطان بايزيد لقضاء العسكر ، ثم عزل وأقام على جبل فوق مدينة بورسة يشتغل بالعلم ، وكان يقضى في ذلك الجبل الفصول الثلاثة

وينزل إلى بورسة في الفصل الرابع . وكان لا ينام على فراش ، فاذا غلب عليه النوم استند على الجدار والكتب بين يديه . وكان ماهرا في العلوم الرياضية ، وفي علم الكلام ، وعلم الأصول ، وفي الفقه والبلاغة ، وسلك أيضاً طريق التصوف ودخل في خدمة العارف بالله حاجي خليفة ، ومع سعة علمه لم يرغب في التأليف ، وليس له إلا شرح الكافية في النحو . وكان ينفق كل ما بيده ولم يدخر من رواتبه الكثيرة التي جرت عليه وهو قاض للمساكر أقل شيء ، فقليل له في ذلك ؟ فقال : كنت رجلاً سكران ولم يوجد عندي من يحفظ المال . يريد أنه كان سكراناً بخمرة الجاه . فقال له بعض الحاضرين : إذا رجعت إلى المنصب فيلزم أن تحفظ المال ، فقال : لا يفيد فانه إذا عاد المنصب يعود معه السكر . توفي سنة ثلاث وتسعمائة ، وقيل إحدى وتسعمائة . ومنهم المولى حسن شلبي بن محمد شاه الفناري ، كان عالماً عابداً محباً للفقراء وكان مدرسا بالمدرسة الحلبية في أدرنة ، وكان ابن عمه المولى علي الفناري قاضياً بالعسكر في أيام الفاتح ، فدخل عليه وقال : استأذن لي من السلطان لأني أريد أن أذهب إلى مصر لقراءة كتاب «مغنى اللبيب» في النحو على رجل مغربي سمعته بمصر يعرف ذلك الكتاب غاية المعرفة ، فأذن له السلطان وقال قد اختل دماغه . وكان السلطان لا يحببه لأنه صنف حواشيه على كتاب التلويح باسم السلطان بايزيد في حياة والده ، ثم ذهب إلى مصر وقرأ مغنى اللبيب على العالم المغربي قراءة تحقيق وتدقيق وكتب الكتاب بخطه وكتب له المغربي إجازة على ظهر الكتاب ، وقرأ البخاري على بعض تلاميذ ابن حجر وأخذ إجازة في الحديث ، ثم حج ورجع إلى بلاد الروم فأرسل كتاب مغنى اللبيب إلى السلطان فلما نظر فيه رضى عنه وأعطاه مدرسة إزنيق ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان . وفي زمان السلطان بايزيد سكن بورسة وعين له السلطان رزقا كافيا ، ومات ببورسة . وله حواشي على الشرح المطول للتلخيص وحواشي على شرح المواقف للسيد الشريف ، وحواشي على التلويح للتفتازاني .

ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن المولى حسام ، وكان عالماً في العلوم الشرعية والعلوم الأدبية ، ومتصوفاً أيضاً ، وكانت له اليد الطولى في الانشاء ، وصار مفتياً في

بورسة ، ومات بها . ومنهم محي الدين محمد الشهير « بأخوين » قرأ على علماء الروم ودرّس في إحدى المدارس الثمان في قسطنطينية . ومنهم المولى قاسم المشهور « بقاضى زاده » كان أبوه قاضيا في مدينة قسطنطينية ، وكان عالما عابدا ، وكانت له معرفة بالعلوم الرياضية ، وتولى القضاء في بورسة ، وكان محمود الطريقة ، ومات وهو قاض في بورسة ومنهم المولى محي الدين الشهير « بابن مغنيسا » اتصل بخدمة المولى خسرو وهو مدرس بمدرسة آيا صوفيا ، وكان يسكن في الطبقة العليا من المدرسة ، ويشعل سراجة طول الليل ويرى ذلك السلطان محمد من دار السعادة ، فسأل السلطان يوما المولى خسرو : من أفضل تلاميذك؟ فقال له : ابن مغنيسا . قال : ثم من؟ قال : ابن مغنيسا . قال السلطان : أهو رجلان؟ قال : لا ولكنه واحد كألف ، فقال له السلطان : إنه ساكن في الحجرة الفلانية ، وذلك لأن السلطان كان يرى سراجة موقداً طول الليل . ولما بنى الوزير محمود باشا مدرسته بالقسطنطينية أعطاها السلطان لابن مغنيسا ، ففي أول درس ألقاه قال أستاذه المولى خسرو بحضور جمّ من العلماء : حضرت درسين ؛ أحدهما للمحمد شاه الفنارى ، والآخر هذا الدرس . قال ذلك لشدة إعجابه بتلميذه . ثم صار قاضيا بالقسطنطينية ، ثم قاضيا بالعسكر المنصور . واتفق أن سافر السلطان الفاتح إلى الحرب في الروملى فسأل ابن مغنيسا عن بيت من الشعر العربى فقال له : أتفكر فيه بالمنزل ثم أجيب . فقال له السلطان محمد : أيتحتاج بيت واحد من الشعر إلى كل هذا وأمر بحضور المولى سراج الدين - وكان موقعا في الديوان العالى - فسأله عن ذلك البيت ففي الحال أجابه قائلا : هو للشاعر الفلاني من القصيدة الفلانية من البحر الفلاني . ثم قرأ السباق والسياق ، وحقق معنى البيت . فقال السلطان لابن مغنيسا : ينبغي أن يكون العالم هكذا في العلم ، ثم عزله عن قضاء العسكر وأعطاه إحدى المدارس الثمان وقال هو محتاج بعد إلى التدريس . ثم بعد ذلك استوزره ثم عزله عن الوزارة . وفي زمان السلطان بايزيد رجع قاضيا للعسكر وتوفى وهو قاض .

ومنهم المولى حسام الدين حسين بن حسن بن حامد التبريزي المشهور « بأم ولد » لقّب بذلك لأنه تزوج أم ولد المولى فخر الدين المعجمي ، كان عالما عابداً منقطعا عن

الخلاق ، عاكفاً على الدرس والعبادة ، أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان وكان يحبه لصلاحه ويحسن إليه . ومنهم ابن المعرف كان من ولاية بالي كسرى وكان معلماً للسلطان بايزيد ، وكان السلطان يقول : لولا صحبتي معه ماصححت عقيدتي ومنهم المولى بهاء الدين بن الشيخ الحاجي بيرم ، كان عالماً فاضلاً عابداً ، صار مدرسا بمدرسة السلطان بايزيد بن مراد في بورسة ، وأخذ عن الخواجه زاده ودرّس في إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان بايزيد بن محمد مدرسته بأدرنة أعطاها إلى المولى بهاء الدين المذكور . ومنهم المولى سراج الدين كان معيدا للدرس خواجه زاده ، ثم أعطاه السلطان الفاتح إحدى المدارس الثمان بقسطنطينية ، وكان يحفظ جيدا قصائد العرب ، وينظم الشعر العربي ، وقد تقدم كونه تغلب على ابن مغنيسا في معرفة الشعر العربي ، ومات في عنفوان شبابه ، وحزن عليه الناس . ومنهم المولى محيي الدين محمد ابن كوبلو ، جعله الفاتح قاضياً بالمسكر المنصور ، وتزوج بأخته سليمان شلبي بن كمال باشا فولد له منها ولد اسمه أحمد شاه ، وهو المولى العالم الفاضل المعروف « بابن كمال باشا » ومنهم المولى محيي الدين محمد المعروف بمولانا « ولدان » وكان قاضياً بمدينة غاليبولي ثم جعله السلطان مدرسا في بورسة ، ثم قاضيا بها ، ثم جعله قاضي المسكر ، ثم عزله وبقى إلى زمان ولده بايزيد خان فأعاده إلى قضاء المسكر وحصل في زمانه أن أحد خدام السلطان في أدرنة ظهر منه فساد ، فأرسل نائب المحكمة أناسا من قبله لمنعه فلم يمتنع ، فغضب النائب وركب إليه بنفسه وقصد منعه فضرب هو النائب ضربا شديداً ، وبلغ الخبر السلطان فأمر بقتله لتحقيره نائب الشرع ، فشفع له الوزراء فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من مولانا ولدان أن يتوسط في الأمر فقال للسلطان : إن النائب مخطئ ، في قيامه من مجلس القضاء بسبب الغضب . فلما ذهب فضربه ذلك الغلام لم يكن عند الضرب قاضيا بل كان قد أسقط نفسه ، فلذلك لا يقال إنه حصل تحقير للشرع يستحق فاعله القتل . فسكن السلطان الفاتح ، ثم جىء بالغلام بين يدي السلطان فضربه ضربا شديدا مرض من بعده أربعة أشهر ثم برى . بعد ذلك وترقى وصار وزيرا للسلطان بايزيد ، وكان يترحم على الفاتح ويقول : ما حصل لي

هذا الرشد إلا من ضربه . ومنهم أحمد باشا بن المولى ولى الدين الحسينى ، كان مدرسا بمدرسة السلطان مراد فى بورسة ، ثم صار قاضيا بأدرنة ، ثم جعله السلطان محمد الفاتح قاضيا بالمسكر ، ثم جعله معلما لنفسه ، وكان حلو الفكاهة يقرض الشعر بالتركية ، واستوزره السلطان ثم عزله ، وجعله أميرا على بورسة ومات بها . ومنهم المولى تاج الدين ابراهيم باشا بن خليل بن إبراهيم بن خليل باشا ، جدّه الأعلى خليل باشا أول قاض بالمسكر المنصور فى الدولة العثمانية ، وأما والده خليل باشا فكان وزيرا للسلطان مراد والد الفاتح ، فلما تولى الفاتح عزل خليل باشا ونكبه ومات محبوسا ، وكان ولده تاج الدين ابراهيم باشا قاضيا بأدرنة ، فعزله أيضا وتحولت به الأحوال وصار إلى فقر شديد ، ثم ولّاه السلطان قضاء أماسيه ، ولما مات وتولى ابنه بايزيد استدعاه إلى القسطنطينية وجعله قاضيا للمسكر ، ثم جعله رئيسا للوزراء وكانت سيرته فى القضاء والوزارة محدودة ، وكان يأكل من مطبخه كل يوم مائة نفس من الفقراء ، وعند وفاته لم يوجد فى خزانته إلا ثمانية آلاف درهم !! وله جامع ومدرسة فى القسطنطينية . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن أوحى الدين البارحصارى ، كان عالما فاضلا على الهمة ، عظيم الحرمة ، أخذ عن خواجه زاده ودرس فى أدرنة وفى القسطنطينية ، واستقضى فيها أيام دولة السلطان بايزيد ، ومات وهو قاض ، ولم يصنف كتباً إلا رسالة فى تجويز الفرار من الوباء . ومنهم المولى يوسف بن حسين الكرماسنى قرأ على خواجه زاده ، ودرس فى القسطنطينية ثم استقضى فيها ، وكان سيفاً من سيوف الحق لا يخاف فى الله لومة لائم ، خرج مرة إلى المسجد بعمامة صغيرة ، فطلبه الوزير ابراهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره فى الحال فلم يبدل عمامته الصغيرة ، فسأله الوزير عن ذلك فأجابته : حضرت خدمة الخالق بهذه الهيئة ، ثم لما استدعيتنى لم أجد فى نفسى رخصة فى تغيير الهيئة لأجل الوزير فوق هذا الكلام عند الوزير موقع القبول ، ورواه للسلطان بايزيد فسرّ السلطان بذلك وأنعم عليه .

ومنهم المولى ابن الأشرف ، قرأ على خواجه زاده ، ثم على المولى على الطوسى

ونبغ نبوغاً عجبياً ، ولكنه التحق أخيراً بزمرة الصوفية ورغب في السياحة إلى أن مات . ومنهم المولى عبدالله الأمامى ، كان مدرسا عظيم الشأن فى أماسية ، زاهداً فى الدنيا ومنهم المولى حاجى بابا الطوسى ، اشتغل بالتدريس وأخذ عنه الكثيرون ، وله تصانيف كثيرة فى النحو . ومنهم المولى ولى الدين القرامانى والد الشاعر المشهور « بنظامى » توفى ولده نظامى فى حياته . ومنهم المولى علاء الدين على الفنارى ، وليس من أولاد المولى الفنارى تولى القضاء فى بورسة ، ثم صار قاضى عسكر الأناضول ، ومات فى أيام السلطان بايزيد ، وكان له ملكة فى الانشاء بالعربية . ومنهم سنان الدين يوسف المشهور « بقره سنان » كان ماهراً فى العلوم العربية والأدب شرح مراح الأرواح فى الصرف ، وشرح الشافية فى الصرف أيضاً . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن زكريا القرامانى ، قرأ فى القاهرة ، ثم عاد إلى بلاد الروم ، وله التصانيف . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى أخو زوجة المولى عبد الكريم ، كان مدرساً بمرادية بورسة . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير بقراجه أحمد ، كان مدرساً بمرادية بورسة ، وله تصانيف . ومنهم المولى شمس الدين أحمد الشهير « بدقوس » كان مدرسا فى بورسة وصنف شرح المراح فى الصرف ، وله شرح على كتاب المقصود فى الصرف .

ومنهم المولى طشفون خليفة ، وكان متصوفاً توفى فى زمان السلطان بايزيد ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى الشهير « بالبغل الأحمر » وكان عالماً حافظاً لجميع المسائل درّس مدة فى بورسة ، ثم فى أدرنة ، وكان بعظيم الجثة جداً لا يحمله إلا فرس قوى . ومنهم المولى شمس الدين أصله من ولاية « آيدىن » ارتحل إلى بلاد المعجم ، وقرأ على علمائها . ثم إلى بلاد العرب وقرأ أيضاً على علمائها ، وبرع فى علم النغمات ، واتصل بالفانح ثم غضب عليه فذهب إلى بورسة ، واختل عقله فى آخر عمره من حزنه لأجل مفارقتة لسلطان . وكان ينظم القصائد العربية ، والفارسية والتركية ، وكل قصيدة إذا صُحِّت من أولها إلى آخرها يحصل منها هجو كما جاء فى « الشقائق النعمانية » .

ومنهم المولى المليحي ، مهر في العلوم وذهب إلى بلاد المعجم فأخذ عن علمائها وكان يحفظ صحاح الجوهري كله ، ولكنه ابتلى في آخر الأمر بالخر وسقطت منزلته ونقل إلى السلطان الفاتح أن المليحي شرب الخمر في سوق البزازين ، وصب الخمر على الناس ، فأرسل فأتوا به فسأله لماذا شربت الخمر وصبته على الناس ؟ فكان المليحي يقول : عجباً للسلطان كيف صدق قولهم أن المليحي صب الخمر على الناس مع أن المليحي إذا وجد الخمر لا يضيع منها قطرة !! وقد تاب المليحي عن الخمر في زمان السلطان محمد ، فلما توفي رجع إلى شأنه عفا الله عنه والله يعفو عن كثير . ومنهم المولى سراج الخطيب ، وكان من بلاد المعجم جاء إلى بورصة ثم إلى استانبول فجعله السلطان الفاتح خطيباً في الجامع الذي بناه المعروف بالفاتح ، وكان له في رعاية النفقات شيء عظيم لم يلحقه به أحد بعده .

ومنهم قطب الدين المعجمي ، كان وزيراً لبعض ملوك المعجم ثم جاء إلى بلاد الروم وخدم السلطان الفاتح فأكرمه جداً ، وكان يعرف علم الطب غاية المعرفة . ومنهم الحكيم شكر الله الشيروانى ، وكان طبيباً ماهراً وعالماً بالعلوم العربية . ولما حج أقام بمصر وقرأ على علمائها كالشيخ السخاوى ، وغيره . وأجازه بالروم المولى السكورانى واتصل بخدمة السلطان محمد ومات في أيامه . ومنهم خواجه عطا الله المعجمي ، جاء من بلاد المعجم إلى بلاد الروم في أيام الفاتح ، ومات في أوائل سلطنة بايزيد وكان ماهراً في الفلك والرياضيات ، ومعرفة الأزياج واستخراج التقاويم ، قال صاحب « الشقائق النعمانية » : رأيت له رسالة كبيرة في العلوم الرياضية لحل الأسطرلاب والربع المجيب ، والمقنطرات ، ورسالة لطيفة في معرفة الأوزان . ومنهم يعقوب الحكيم كان يهودياً وكان من أمهر الأطباء فحظى عند السلطان محمد لأجل طبه ، ثم أسلم فاستوزره السلطان ، ولما مرض السلطان الفاتح رحمه الله عالجه يعقوب الحكيم هذا فلم ينجع علاجه ، فأشار الوزير محمد باشا باستدعاء الحكيم اللارى فعالج السلطان بخلاف معالجات يعقوب فازداد ضعف السلطان ، فاستدعى يعقوب مرة ثانية ، فلما عاينه عرف أن مرضه غير قابل للشفاء ، فصوب رأى الحكيم اللارى ولم يلبث السلطان

إلا قليلا حتى مات روح الله روحه ، وجزاه عن الاسلام خيراً . ومنهم الحكيم اللارى المعجمى ، اتصل بخدمة الفاتح . ومنهم الحكيم « عرب » حصل الطب في بلاد العرب ثم جاء إلى بلاد الروم واتصل بخدمة عيسى بك بن اسحق بك أمير أسكوب ، ثم اتصل بخدمة السلطان محمد . ومنهم ابن الذهبى ، كان عالماً عابداً زاهداً ورعاً ، وكان ماهراً في معرفة الأعشاب ، وكان لا يؤتى إليه بشىء منها إلا عرفه باسمه ورسمه ومنافعه ! وكان طبيباً حاذقاً . ومنهم محمد بن حمزة الشهير « باقى شمس الدين » نجل العارف بالله شهاب الدين السهروردى ، ولد بدمشق الشام ، ثم أتى مع والده إلى بلاد الروم ، وكان مائلاً إلى التصوف واتصل بخدمة الشيخ بيرم ، وكان طبيباً للأبدان كما هو طبيب للأرواح . ولما عزم السلطان محمد على فتح القسطنطينية دعا هذا الشيخ للجهاد فقال الشيخ آق شمس الدين : سيدخل المسلمون القلعة من الموضع الفلانى في اليوم الفلانى ، وقت الضحوة الكبرى ، وكان الأمر كما قال . فاعتقد فيه السلطان محمد مزيد الاعتقاد ، وقال : ما فرحت بهذا الفتح كفرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمانى . ثم جاءه السلطان يوماً من الأيام وهو مضطجع فى خيمته فلم يقم للسلطان فقبل السلطان يده وقال له : جئت لك لحاجة ! قال : ماهى ؟ قال : أريد أن أدخل الخلوة عندك أياماً . فقال الشيخ : لا . فألح السلطان مراراً والشيخ يقول لا . فقال له السلطان وهو غضبان : إن واحداً من الاتراك يحبىء إليك وتدخله الخلوة بكلمة واحدة فداذا تمنى أنا وحدى ؟ فأجابه الشيخ آق شمس الدين : إذا دخلت الخلوة تجد فيها لذة تسقط السلطنة من عينك ، وتختل أمورها ، فيمقتنا الله ، والغرض من الخلوة إنما هو تحصيل العدالة ، فأنت عليك أن تفعل كذا وكذا ، وذكر ما بدا له من النصائح ثم قام السلطان من عنده والشيخ مضطجع لا يقوم له ، فقال السلطان لابن ولى الدين ما قام الشيخ لى ؟ ! - وكان مستاء من ذلك - فقال له ابن ولى الدين : إن الشيخ خاف عليك الغرور لهذا الفتح الذى لم يتيسر لغيرك من السلاطين العظام ، والشيخ كما لا يخفى هو مرشد . ثم دعا السلطان الشيخ فى الثالث الأخير من الليل وجاء والليل مظلم فما رآه بالبصر ولكن عرفه بالروح ، فعانقه وضمه وجلس إليه حتى طلع الفجر ، فصلى

السلطان خلفه ، و بعد الصلاة قرأ الشيخ الأوراد والسلطان جالس أمامه على ركبتيه فلما أتمها التمس السلطان من الشيخ أن يعين له موضع قبر أبي أيوب الانصارى وكان يروي في التواريخ أن قبره بموضع قريب من سور القسطنطينية ، فقال آق شمس الدين : إني أشاهد في هذا الموضع نوراً ، فلعل قبر أبي أيوب هو هنا . قال له السلطان إني أصدقك ، ولكن أريد علامة يطمئن بها قلبي ، فتوجه الشيخ ساعة ثم قال : احفروا هذا الموضع من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر رخام عليه خط عبراني تفسيره كذا ، فحفروا مقدار ذراعين فظهر الرخام الذي قال عنه وعليه الخط ففسروه فإذا هو كما قال . فاندعش السلطان وغلب عليه الحال حتى كاد يسقط وأمر ببناء القبة على ذلك الموضع ، و ببناء جامع ، والتمس من الشيخ أن يجلس هناك مع مرديه ، فأبى الشيخ واستأذن أن يرجع إلى وطنه . فلم يشأ السلطان أن يخالفه فلما عبر البحر قال لولده : لما جاوزت البحر امتلأ قلبي نوراً ، وقد فسدت إلهاماتي في قسطنطينية من ظلمة الكفر فيها . وعاد إلى وطنه « قصبة قومناك » وبقى فيها حتى مات . وله رسالة في التصوف اسمها « رسالة النور » وكان ماهراً في علم الطب ، وله رسالة فيه .

حاصر العرب القسطنطينية من سنة ٤٨ إلى سنة ٥٢ للهجرة ، ومنهم من يمدّ ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون : إن أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه وهو خالد بن زيد ابن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عوف من بلحارث بن الخزرج الذي شهد « بدر » « وأُحُدًا » « والخندق » والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج غازيا في زمان معاوية ومرض في غزو القسطنطينية ، فلما ثقل قال لأصحابه : إن أنا مت فاحملوني فإذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » . قال ابن سعد في الطبقات الكبرى : ولما مرض أثناء يزيد بن معاوية يعوده فقال حاجتك ؟ قال : حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ثم سُدَّ بي في أرض العدو ما وجدت مساعا ، فإذا لم تعجد مساعا فادفني ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار في أرض

العدو ما وجد مساعاً ، ثم دفنه ثم رجع . قال محمد بن عمر : توفي أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية وقبره بأصل حصن القسطنطينية ، ولقد بلغني أن الروم يتمهدون قبره ويرمونه ويستسقون به إذ قحطوا ، انتهى ماجاء في الطبقات . وقد نقلته الى حواشي « حاضر العالم الاسلامي » ثم قلت : إن الاتراك عند ما فتحو القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصارى وبنوا عليه قبة ، وجعلوا عنده جامعاً . وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية : أن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب . قلت : كانت وفاة ابن قتيبة في ذى القعدة سنة سبعين ومائتين ، وقيل ست وسبعين ومائتين على ما في وفيات الأعيان ، والحال أن وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كان يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين ، أى قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيات الأعيان أيضاً . فيكون جزم اصحاب الانسيكلوبيديا الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الأنصارى هو بغير محله وذلك لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة ، وأنت ترى أنه قد ذكره . وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في القحط فقد جاء في الانسيكلوبيديا المذكورة نقلها عن الطبري ، وابن الأثير ، وابن الجوزي ، والقزويني ، والحال أنها مذكورة في طبقات ابن سعد الذي تقدم في الزمن هؤلاء جميعاً ، وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركي للمعاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية في المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧ . ثم ذكرت في حواشي « حاضر العالم الاسلامي » رواية كون المولى آق شمس الدين كشف ضريح أبي أيوب ، وأن السلطان الفاتح بنى سنة ٨٦٣ جامعاً عند الضريح المذكور . وبعد طبع « حاضر العالم الاسلامي » اطلعت على روايات لا أتذكر الآن مظنتها بالتحقيق تدل على أن قبر أبي أيوب كان معروفاً الى القرن السادس للهجرة . وقد حدث أحد التجار المسلمين بأنه رأى بنية بيضاء في ذلك الموضع ، فسأل عنها فقالوا له : هذا قبر أبي أيوب الأنصارى . فان كان طمس القبر بعد ذلك حتى اختفى أثره وانكشف للمولى آق شمس الدين فهذا لا يتعارض مع هذا .

ومنهم الشيخ عبد الرحيم المعروف بابن المصري ، اتصل بخدمة العارف بالله آق شمس الدين ، وله كتاب اسمه «وحدة نامة» . وهو من بلدة «قره حصار» ومات فيها . ومنهم الشيخ ابراهيم بن حسين السيواسي ، قرأ العلوم على المولى يعقوب بقونية ثم تولى التدريس بمدرسة خوند خاتون بمدينة قيصريّة ، فلما اطلع على أن المدرسة للحنفية تركها لأنه كان شافعي المذهب ، وكان متصوفا وتوفى بقيصريّة . ومنهم الشيخ حمزة المعروف بالشامي . ومنهم الشيخ مصلح الدين بن العطار وكلاهما من جماعة آق شمس الدين . ومنهم العارف بالله أسعد الدين بن الشيخ آق شمس الدين وكان على قدم أبيه في الصلاح والانقطاع عن الدنيا ، وكان من علماء عصره . وكذلك أخوه فضل الله ، كان من العلماء والأتقياء . ومنهم أخوه أمر الله . ومنهم أخوه حمد الله المشهور «بحمدي شلبي» وكلهم كانوا على قدم والدهم رحمه الله . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير «بابن الوفاء» وكان جامعاً بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة وكان يعرف الموسيقى معرفة تامة ، وكان يختار الخلوة على الصحبة . وقصد السلطان الفاتح أن يشاهده فلم يقبل أن يجتمع معه ، وكذلك قصد ولده السلطان بايزيد فلم يرض هو أن يرى السلطان . وكان حنفي المذهب ، إلا إنه كان يجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية ، فأنكر عليه علماء الحنفية ذلك فأجاب عنه المولى سنان باشا قائلاً : له اجتهد فيحق له ذلك ، فقالوا هل يمكنه الاجتهاد ؟ قال نعم شرائط الاجتهاد موجودة فيه ، فسكتوا . ومنهم العارف بالله عبد الله حاجي خليفة ، أصله من قسطنطيني وكان من العارفين ، وله مناقب كثيرة ، ومثله الشيخ سناد الدين الفروي ، ومثله الشيخ مصلح الدين القوجوي ، وهو من العارفين أيضاً . ومثله الشيخ مصلح الدين الأبصلاوي وكان أيضاً عارفاً منقطعاً عن الناس . ومنهم الشيخ محيي الدين القوجوي وكان جامعاً بين الظاهر والباطن ، معرضاً عن أبناء الزمان مشغولاً بتهديب العقراء . ومنهم العارف بالله سليمان خليفة ، وكان من المنقطعين إلى الله ، توطن بالقسطنطينية قريباً من جامع زيرك .

ومنهم الشيخ عبد الله الالهى من أهل الأناضول ، وذهب إلى ما وراء النهر

واتصل بخدمة عبيد الله السمرقندى وغيره ، ثم رجع إلى القسطنطينية وسكن في جامع زيرك ، واجتمع عليه الأكابر والأعيان فقرّ منهم إلى بلاد الروملى ، فأقام عند الأمير أحمد بك الاورنوسى وأقبل عليه الطلبة ومات هناك . ومنهم العارف بالله عبيد الله السمرقندى ، ولد في طاشقند من تركستان ، ويقول بعضهم إن نسبه ينتهى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يقول : الوحدة خلاص القلب عن العلم بوجود ما سوى الله ، ويقول : الاتحاد الاستغراق في وجود الحق سبحانه وتعالى . ويقول : السعادة خلاص السالك عن نفسه في مشاهدة الله تعالى . ويقول الوصل نسيان العبد نفسه في شهود نور الحق ، والفصل قطع السر عما سوى الله تعالى توفي سنة خمس وتسعين وثمانائة وقبره بسمرقند ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الرحمن ابن أحمد الجامى . وله تأليف كثيرة بالعربية ، والفارسية . ومنهم العارف بالله علاء الدين الخلوئى جاء إلى القسطنطينية فحاف منه السلطان الفاتح لكثرة إقبال الناس عليه فأمره بالذهاب إلى بلاد أخرى فتوفي في بلاد القرامان . ومنهم العارف بالله دّده عمر الآيدىنى ، وأقام في تبريز عند الأمير حسن الطويل . ومنهم الشيخ حبيب الممرى القرامانى ، كان عمر يا من جهة الأب ، وبكريا من جهة الأم ، وكان من بلاد القرامان ، وكان من كبار المتصوفة . ومنهم المولى مسعود وتوطن بمدينة أدرنة واشتغل بتربية المريدين . ومنهم محمد الجمالى الشهير « بشاي خليفة » وكان أيضا من المتصوفة ومنهم الشيخ سنان الدين ، وكان من العارفين المنقطعين عن الناس ، يسكن بالقرب من القسطنطينية . ومنهم السيد يحيى بن بهاء الدين الشروانى . وكان يقول : يجوز إكثار الخلفاء بتعليم الآداب للناس ، وأما المرشد الذى يقوم بمقام الارشاد بعد شيخه فلا يكون إلا واحداً .

هذا ، وبعد وفاة الفاتح رحمه الله بويى بالسلطنة لولده السلطان بايزيد سنة ست وثمانين وثمانائة . وكان محمد باشا القرماني يميل إلى أخيه جمّ معجبا بمزاياه العالية فأرسل الى جمّ يعجل عليه بالحضور ، فعلم الانكشارية بذلك فثاروا بالوزير فقتلوه وكان بايزيد في أماسية ، فجاء ومعه جيش فاقتتل الاخوان بايزيد وجمّ في صحراء

بنى شهر ، فتغلب بايزيد على جمّ وفتر هذا الى مصر . ثم إن أنصار جمّ مثل قاسم بك ومحمود صنجق بك الأنقرى دعوا جمّ ثانية الى القتال ، فجمع جموعه وتلاقى مع عساكر أخيه فانهزم هذه المرة أيضا ، واضطر أن يلتجئ إلى فرسان مار يوحنا في رودس فاستقبلوه برا وترحيبا ، فأرسل بايزيد اليهم يمرض عليهم خمسة وأربعين ألف دوكا في السنة بشرط أن لا يدعوا جمّ يفرّ من عندهم ، فاتفقوا مع بايزيد على ذلك وأرسلوا جمّ الى فرنسة واعتقلوه في برج « بورغانوف Bourganouf » ثم نقلوه الى رومة في زمن البابا « اينوشنسيوس » الثامن ، ولما ارتقى اسكندر بورجيا إلى كرسى البابوية بعث الى السلطان بايزيد يعرض عليه هذه المساومة ؛ وهو أنه إن أراد أن يقتل له أخاه فهو يتقاضى على ذلك ثلاثمائة ألف دوكا ، وإن كان يكتفى بحبسه فهو يطلب على ذلك أربعين ألف دوكا في السنة . وفي أثناء ذلك زحف كارلوس الثامن ملك فرنسة على ايطالية . فتخلص جمّ من البابا مدة قصيرة إلا أن ملوك النصرانية حاولوا أن يستعملوه لاثارة الفتنة في المملكة العثمانية ، فاتفق فرسان رودس مع ملوك « إيكوسية » و « المجر » و « بولونيا » و « فرنسة » و « المرديت » من الأرناؤوط وغيرهم على أن يزحفوا بحجم ويقاتلوا السلطان بايزيد فبلغ ذلك السلطان فأرسل الى البابا المبلغ الذى اقترحه من المال لأجل قتل جمّ فسموه في نابولى في ٢٤ فبراير ١٤٩٥ ومات مسموما ، وتخلص بايزيد من أخيه . وبعد موت أخيه حاول بايزيد أن يشنّ الغارة على ايطالية إلا أن الأحوال لم تساعد إذ كانت الحرب قد اشتعلت بينه وبين الدولة المصرية ، فان المصريين كانوا قد احتلوا بعض القلاع بقرب طرسوس وأطنه فأمر السلطان بايزيد قره جوز باشا والى القرامان بأن يطردهم من هناك ، ولكن المصريين تغلبوا على جيش بايزيد واشتدت الحرب بين الفريقين ، وبينما الحرب قائمة بين السلطان بايزيد وسلطان مصر مات ملك المجر « ماتياس كورفين » فاهتبل بايزيد هذه الغرة وأغار على المجر من جهة ، وحاصر بلغراد من جهة أخرى . وكان قائد عسكره في المجر سليمان باشا فهزمه المجر ورجع أدراجه ، ورفع الترك الحصار عن بلغراد إلا أن السلطان

دخل في بلاد الألمان مثل «كارنتيا» و «استيريا» وعاث وغم وسبى ، وكان معه من المسيحيين خمسة عشر ألف أسير يجرتهم الجيش العثماني من ورائه ، فزحف الألمان بقيادة الكونت «كينتز» والتقى الجمعان في كارنتيا ، فأفلت الأسرى المسيحيون من الوراء ، ووقع العثمانيون في الوسط ، فانكسروا . وفعل فيهم المسيحيون الأفاعيل وعذبوا الأسرى بألوان العذاب ، ولكن الأتراك في السنة التالية بقيادة يعقوب باشا عادوا فشنوا الغارة على «استيريا» وهزموا الألمان .

وسنة ١٤٩٥ عقد الأتراك هدنة مع المجر ووجهوا قوتهم لقتال البندقية ، وقهر الأسطول العثماني أسطول البندقية ، واستولى على «ليپانت» وغزا اسكندر باشا والى بوسنة بلاد «طارنت» وخربها تخريباً تاماً ، وكان أمير البحر داود باشا استولى على «مورون» و «ناقارين» و «كورون» فوجدت البندقية نفسها عاجزة وحدها عن مقاومة العثمانيين ، فاتفقت مع دول النصرانية فرانسة واسبانية والمجر والبابا على مقاتلة السلطان بايزيد ، وبتوا أساطيلهم من كل جهة . وفي أثناء ذلك ثارت قبائل القرامان على السلطان فألجأته الضرورة الى عقد الصلح .

وفي ذلك العهد ظهر اسم «الروس» وكانوا من قبل تحت حكم المغول - أي التتر - ولبثوا تحت حكمهم الى سنة ١٤٨١ حينما ظهر منهم «الفراندوق ايثن الثالث» فهزم التتر ووحد كلمة الروس . وفي سنة ١٤٩٢ طالب إيثن الثالث محالفة السلطان بايزيد ، وجاء سفراؤه بعد ذلك الى استانبول ، وانعقد الاتفاق بين بايزيد وإيثن واضطر السلطان إلى السلم لأنه كان حصل زلزال خارق للعادة أنهدم فيه سبعون ألف بيت ، ومائة وتسعة جوامع في القسطنطينية ، وخربت مدُن كثيرة مثل أدرنه وغالبولي ، وديموطيقه ، وشورلو .

وكان بايزيد قد قسم ولايات السلطنة بين أولاده ، فأعطى كلا منهم ولاية وأخطأ في هذا التدبير لأنهم بدأوا يقتتلون بعضهم مع بعض في حياة أبيهم . بل ثار به ابنه سليم واستولى على بعض المدن ، فقام أخوه «قورقود» واستولى على مدن أخرى وكان الانكشارية يميلون الى سليم ، فطلبوا من السلطان أن يمتزل الملك وأن يولى

السلطان سليماً فلم يجد بُدّاً من إجابتهم ، ومات بعد ذلك بقليل . ويقال إنه كان حليماً محباً للعلم والعلماء ، وللشعر والأدب ، وإنه لم يكن يحب الحرب بفطرته ، وإنما كان يساق إليها بالضرورة . وقام باصلاحات كثيرة ، وفي زمانه وجدت العلاقات الرسمية بين الدولة العثمانية والدول المسيحية ، وفي زمانه نبغ من العلماء المولى محيى الدين محمد ابن ابراهيم البلكسارى ، وكان مدرساً في قسطنطيني ، ثم جاء الى القسطنطينية ، وكان السلطان يحضر درسه في جامع آيا صوفيا ، وكان بارعاً في علم التفسير وصنف تفسيراً لسورة الدخان وأهداه للسلطان بايزيد . ومنهم يوسف بن جنيد الطوقاتي ، أخذ عن المولى خسرو ، وتولى التدريس في بورسة ثم في القسطنطينية .

ومنهم المولى قاسم بن يعقوب الأماصي المشهور « بالخطيب » كان مدرساً ببلدة أماسية واتصل بالسلطان بايزيد يوم كان أميراً على تلك البلدة ، فلما تولى السلطنة جعله معلماً لابنه الأمير أحمد . ومنهم سنان الدين يوسف ، اتصل بخدمة المولى على القوشجي وقضى حياته في التدريس والافادة . ومنهم سنان الشاعر ، أخذ العلم عن المولى خسرو ومنهم المولى شجاع الدين إلياس . وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم شجاع الدين إلياس الشهير « بأوصلو شجاع » ومنهم المولى علاء الدين اليكاني ، وكان مفتياً بمدينة بورسة . ومنهم لطف الله الطوقاتي ، أخذ عن المولى على القوشجي ، وكان بارعاً في العلوم الرياضية ، وصار أميناً على خزانة الكتب عند السلطان الفاتح ، وكان عالماً علامة ، إلا أنه كان يطيل لسانه على أقرانه ، وأحياناً يطمئن على السلف فأبغضه العلماء ونسبوه إلى الزندقة ، وحكم المولى خطيب زاده بإباحة دمه فقتل !! وجاء في تاريخه (ولقد مت شهيداً) وقيل إنه لما قتل خرجت روحه وهو يكرر كلمتي الشهادة ، وجاء في « الشقائق النعمانية » : أنه كان يُقرئ صحیح البخاری فتَنزل دموعه على الكتّاب . وحكى يوماً وهو يبكي أن علياً بن أبي طالب رضى الله عنه شرب في بعض الغزوات بسهم فثبت نصل السهم في بدنه فلم يقدرُوا على إخراجهِ ، فلما قام للصلاة أخرجوه من بدنه ولم يحس بذلك . قال المولى لطفی : هذه حقيقة الصلاة ، وأما صلاتنا نحن (١١ — تعليقات)

فهى قيام وانحناء لا فائدة فيها ، فجاء الوشاة ونقلوا عنه أنه قال : الصلاة قيام وانحناء لا عبرة بها ، وشهدوا عليه بذلك . وأما المولى أفضل الدين فتوقف عن إباحة دمه وكذلك المولى محيى الدين القوجوى قال : أشهد بأن المولى لطفى برىء من الالحاد والزندقة .

ومنه المولى قاسم الكرمياني ، وكان علامة فى عصره وكثر عنده الطلبة ، وكان مجلسه كثير الفوائد . ومنهم المولى قوام الدين قاسم بن أحمد الجالى ، تولى قضاء القسطنطينية ، وكان عالماً كثير الحفظ إلا إنه لم يصنف شيئاً . ومنهم المولى علاء الدين على بن أحمد الجالى وقضى حياته مدرساً ينتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ثم صار مفتياً فى العاصمة ، وكان متواضعا خاشعاً طاهر اللسان لا يذكر أحداً بسوء ، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه ، وكان يقعد فى أعلى داره وله زنبيل معلق فىلقى المستفتى ورقته فى الزنبيل ويحركه فيجذبه المولى علاء الدين ويأخذ الورقة ويكتب جوابها ، وذلك حتى لا ينتظر الناس لأجل الفتوى . وكان السلطان سليم ابن بايزيد قد تولى السلطنة ، وكان سفاكاً للدماء فأمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزان ، فجاء المولى علاء الدين إلى الديوان العالى وقال للوزراء : أريد أن أقابل السلطان ، فعرضوا الأمر للسلطان ، فدخل عليه وقال له : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخره السلطان ، وقد بلغنى أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً لا يجوز قتلهم شرعاً فيجب أن تعفو عنهم . فغضب السلطان سليم وقال له : إنك تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فأجابه المفتى : بل أتعرض لأمر آخرتك وإنه من وظيفتى ، فان عفوت فلك النجاة ، وإلا فعليك عقاب عظيم . فانكسرت عند هذا القول حدة السلطان وعفا عنهم ، وتحدث مع المفتى ساعة ولما أراد المفتى أن ينصرف قال للسلطان : تكلمت معك فى أمر آخرتك ، وبقي لى كلام متعلق بالمرءة قال السلطان : ما هو ؟ قال المفتى : إن هؤلاء من عبيد السلطان ، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكففوا الناس ؟ قال السلطان لا . قال فقرّروا فى مناصبهم ، فقال له السلطان نعم إلا أنى أعزّهم فى تقصيرهم فى خدمتهم ، فقال المفتى : هذا جائز لأن

التعزير مفوض إلى رأى السلطان . ومرة أخرى أمر السلطان بقتل أربعائة رجل كانوا قد اشتروا الحرير خلافاً لأمر السلطان ، فعارضه المفتى فى ذلك . فغضب السلطان أيضاً وقال له : أيها المولى أما يحل قتل ثلثى العالم لنظام الباقى ؟ فقال : نعم لكن إذا كان هناك خلل عظيم . فقال السلطان : ليست هذه من وظيفتك . فقال له بلى هى من وظيفتى لأنها متعلقة بالآخرة . وانصرف المفتى ولم يسلم على السلطان فبقى السلطان واجماً مدة طويلة ، ولكنه عاد فعفا إجابة لطلب المفتى . ثم فكر فى استقامة هذا المفتى وولاه قضاء العسكر وقال له : إنى تحققت أنك تتكلم بالحق ، وتوفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ومهم المولى عبد الرحمن بن على بن المؤيد الأماسى . كان متبحراً إلى الغاية فى العلوم العقلية والنقلية ، شيخاً فى العلوم العربية ، ناظماً بالتركية والعربية والفارسية . وقرأ فى حلب كتاب «المفصل فى النحو للزمخشري» وقرأ على المولى جلال الدين الدوانى فى بلاد المعجم ، وجاء إلى استانبول فى أيام بايزيد خان ودرس فى إحدى المدارس الثمان ثم استقضاه السلطان بالعسكر المنصور . ولما تولى السلطنة السلطان سليم بن بايزيد وسار إلى حرب الشاه اسماعيل كان المولى المذكور معه ، وفى أثناء الطريق اختل عقله فجاءوا به إلى استانبول حيث مات ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى . ومنهم المولى مصلح الدين مصطفى بن البركى زاده ، نصبه السلطان بايزيد معلماً لابنه احمد فى أماسية ثم استقضاه فى أدرنة ، ومات فى القسطنطينية . ومنهم المولى محيى الدين محمد الصامصونى ، قضى حياته مدرساً واستقضاه السلطان سليم فى أدرنة . ومنهم المولى سيدى الحميدى قضى حياته مدرساً بين بورسة ، وإزنيق ، والقسطنطينية ، ثم صار قاضياً فى العاصمة . ومنهم المولى سيدى القرامانى ، وكان مدرساً ثم صار قاضياً بالعسكر المنصور . ومنهم المولى نور الدين القراصوى كان مدرساً فى بورسة ، ثم صار مدرساً فى أسكوب ، ثم صار مدرساً فى إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية ، وصار قاضياً بالعسكر المنصور ، وكان قوَّالاً بالحق ، محافظاً على الشريعة ، ورعاً متعبداً . ومنهم المولى محيى الدين محمد القوجوى ، وقضى حياته مدرساً إلى أن استقضاه السلطان سليم

في القسطنطينية ، ثم استقضاه بالمسكر المنصور ، ثم استعفى ثم جعلوه قاضيا بمصر وذهب من هناك إلى الحج ومات سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . ومنهم المولى بالي الأيدني وكان من كبار المدرسين . ومنهم المولى عبد الرحيم بن علاء الدين العربي وكان من عظام المدرسين أيضا . ومنهم المولى موسى بن حميد الدين بن أفضل الدين الحسيني ، وكان عالماً عابداً . ومنهم المولى محيي الدين العجمي وكان قاضيا بأدرنة متصلاً في الحق . ومنهم المولى سنان الدين يوسف العجمي وكان من كبار المدرسين ، ومن الصلحاء ، ومن المؤلفين وله حواش على شرح المواقف للسيد الشريف - وقلما يوجد عالم كبير من علماء الترك ليس له حواش على كتب السيد الشريف الجرجاني ، أو على كتب التفتازاني - ومنهم المولى السيد إبراهيم من سادات العجم ، جاء إلى بلاد الروم وكان معدوداً من أولياء الله ، وكانت تروى عنه الكرامات ، وتوفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة في القسطنطينية . ومنهم المولى علاء الدين علي الأماصي وكان مدرسا أرسله السلطان بايزيد إلى قايتباي سلطان مصر فأصلح بينهما ، ومنهم المولى بدر الدين محمود بن الشيخ محمد ، كان إماما للسلطان بايزيد . ومنهم المولى الخليلي كان مدرسا ثم استقضى بالمسكر المنصور . ومنهم پير محمد الجمالي كان قاضيا في صوفية بلاد الباغار ، ثم صار حافظا للدفتري بالديوان العالي ، ثم استوزره السلطان سليم خان ولقبه پير باشا ، ثم عزل عن الوزارة وكان محمود السيرة ، كثير المبرات ، توفي في حدود الاربعين وتسعمائة . وكان السلطان سليم يقول : إن كان اسكندر يفتخر بوزيره ارسطو فأنا أفتخر بوزيري پير باشا في عقله ورأيه .

ومنهم المولى محمد المشهور « بابن زيرك » بعد أن قضى مدة من عمره مدرسا بين بورسة ، وإزنيق ، وكوتاهية ؛ تولى القضاء في أدرنة ، ثم بالقسطنطينية ، ثم بالمسكر المنصور وأرسله السلطان سليم إلى السلطان الغوري صاحب مصر ، ومات سنة تسع وثلاثين وتسعمائة . ومنهم قوام الدين يوسف المعروف « بقاضي بغداد » كان قاضيا في بغداد فلما حدث فتنة ابن أردبيل ارتحل إلى ماردين ، ثم جاء إلى القسطنطينية ، وكان عالما علامة له شرح على « نهج البلاغة » للامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ومنهم المولى ادريس بن حسام الدين البدليسى كان من بلاد المعجم ارتحل إلى بلاد الروم وأكرمه السلطان بايزيد غاية الاكرام ، وأنشأ تاريخ آل عثمان بالفارسية ويقال إنه تاريخ منقطع النظير . انتقل إلى رحمة ربه في زمان السلطان سليمان القانونى . ومنهم المولى يعقوب بن سيدى على كان من كبار المدرسين ، له شرح على كتاب « شرعة الاسلام » وكان السلطان بايزيد يلقبه بشارح الشرعة لميله إلى الشرح المذكور . ومنهم المولى نور الدين حمزة كان حافظا لدفتر بيت المال بالديوان العالى في زمان السلطان بايزيد .

ومنهم شجاع الدين إلياس الرومى كان من قصبة ديموطقه في الروملى ، وكان من كبار المدرسين معروفا بالعلم والصلاح والزهد ، وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الجرجاني ، وحواشى على حاشية المطالب للسيد أيضا ، وحواش على حاشية شرح الشمسية للسيد أيضا ، وحواش على حاشية شرح العضد كذلك للسيد ، وكان أكثر اشتغاله بالعلوم العقلية . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير « بابن الاستاذ » وكان من المدرسين في زمان السلطان بايزيد . ومنهم ابن المعيد كان مدرسا في اسكوب ومات فيها . ومنهم ابن العبرى وكان من المدرسين . ومنهم شمس الدين أحمد اليكافى وكان من المدرسين أيضا . ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي كان من أصحاب السلطان محمد الفاتح ، ونال عنده القبول التام ، ثم صدر منه ما غاظ السلطان فأبعده عن جنابه وقل : لولا أنه ابن أستاذي لدمرته . ومات قاضيا في كوتاهية . ومنهم المولى عبد الوهاب بن عبد الكريم كان حافظا لدفتر الديوان في أيام سليم خان ، وتوفى في زمان السلطان سليمان . ومنهم المولى يوسف الحميدى المشهور « بشيخ سنان » كان من العلماء المدرسين ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم المولى جعفر بن التاجى وكان من أصحاب السلطان بايزيد وبلغ عنده حظوة تامة ، ثم غضب عليه وبقي الى زمان السلطان سليم فجعله قاضيا للعسكر ، ثم نكبه وقتله .

ومنهم المولى سعدى بن ناجي ودرس مدة طويلة ، وكان متقنا للعربية يقرض

الشعر كأنه من فصحاء العرب ، وله حواش على شرح المفتاح للسيد الشريف ، وقد نظم العقائد النسفية بالعربية نظماً بليغاً .

ومنهم المولى محمود بن محمد بن قاضي زاده الرومى ، درس فى غاليبولى ، وفى أدرنة ثم جملة السلطان بايزيد من أصحابه ، وقرأ عليه العلوم الرياضية إذ كان لا يدانيه فيها أحد ، وفى زمان السلطان سليم بن بايزيد تولى قضاء عسكر الأناضول .

ومنهم المولى غياث الدين بن أخى العارف بالله آق شمس الدين ، قرأ على الخيالى وعلى خواجه زاده ، ودرس بالمدرسة السيفية فى أنقرة ، ثم بالمدرسة الحسينية فى أماسيه ، ثم بالمدرسة الحلبية بأدرنة ، ثم بسلطانية بورسه ، ثم باحدى المدارس الثمان فى قسطنطينية ، ثم فى مدرسة ابى أيوب الأنصارى ، ومات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة .

ومنهم الشيخ مظفر الدين على الشيرازى ، قرأ فى بلاد المعجم على صدر الدين الشيرازى ، والجلال الدوانى ، وارتحل الى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ثم أعطاه إحدى المدارس الثمان ، ثم كُفَّ بصره فتوطن مدينة بورسه . وكان شافى المذهب ، وكانت له اليد الطولى فى العلوم العقلية والمنطق وعلم الكلام ، وكذلك فى الحساب والهيئة والهندسة ، وكان مع هذا صالحاً مؤثراً فقراً ، باذلاً ماله للفقراء .

ومنهم الحكيم شاه محمد القزوينى كان من تلاميذ الجلال الدوانى ومهر فى علم الطب ، وجاور مدة فى مكة المكرمة ، واستدعاه السلطان بايزيد الى استانبول ونال حظوة تامة عند ولده السلطان سليم ، ومات فى أيام السلطان سليمان القانونى لأن صاحب « الشقائق النعمانية » يقول : « ومات فى أيام سلطاننا الأعظم سلمه الله تعالى وأبقاه » يريد به السلطان سليمان . وله حواش على شرح العقائد المضدية للدوانى ، وترجمة حياة الحيوان الى الفارسية ، وغير ذلك من التواليف

ومنهم المولى السيد محمود ، كان تقيماً للإشراف فى زمان السلطان بايزيد ، وكان كريم الأخلاق ، طارحاً للتكلف ، مشغلاً بنفسه ، جواداً بماله . ومنهم المولى محيى الدين المشتهر « بطبل البازى » وكان مدرساً مشهوراً . ومنهم المولى ابراهيم المشهور « بابن الخطيب » مات وهو مدرس فى بورسه . ومنهم المولى يحيى بن بنخشى ، كان عالماً

واعظاً ، وكان يُقرئ الطلبة تفسير القاضى البيضاوى بلا مطالعة ، وله حواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة . ومنهم كمال الدين اسماعيل القرامانى ، وكان من المدرسين الكبار ، وله تصانيف منها حواش على السكشاف ، وحواش على تفسير البيضاوى وحواش على شرح الوقاية لصدر الشريعة ، وحواش على شرح المواقف للسيد الجرجانى ومنهم المولى عبد الأول بن حسين الشهير « بابن أم الولد » قرأ على المولى خسرو الشهير ، وتزوج بابنته ، وكان قاضياً فى البلدان الكبيرة ، ثم اعتقل لسانه فلزم بيته فى القسطنطينية ، ومات عن مائة سنة . ومنهم المولى شمس الدين احمد الأماسى كان مدرسا وتوفى فى أوائل سلطنة سليم خان . ومنهم علاء الدين على الأيدى الملقب « باليتيم » وكان مدرسا زاهدا ، أرادوه على القضاء فلم يرض ، وكان يقرأ عشرين درسا فى اليوم ولا يأخذ أجره من أحد ، وربما قبل الهدية ، وكان راضياً من العيش بالقليل ، ومات عن تسعين سنة .

ومنهم المولى الشيخى ، كان مدرسا بمدرسة أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه وأخذ عنه كثيرون . ومنهم المولى المعروف « بضميرى » أعطاه السلطان بايزيد إحدى المدارس الثمان ، فقال له المولى ابن المؤيد : إنه غير قادر على التدريس فيها ، فقال السلطان بايزيد : فليدرّس الشرح المتوسط للكافية لعله يقدر على ذلك . ومنهم عمر القسطنونى كان علامة بالقراآت . ومنهم علاء الدين على القسطنونى أخذ عن المولى عمر القراآت ، وأقرأها الطلاب ، ومنهم ابن عمرزاده وكان أيضاً يعرف القراآت السبع وأقرأها للناس . ومنهم حسام المشهور « بابن الدلاك » كان خطيباً بجامع الفاتح فى القسطنطينية ، وكان عالماً صالحاً . ومنهم محيى الدين الطيب جعله السلطان رئيساً للأطباء وأكرمه غاية الاكرام ، وكان عالماً عابداً يحب المساكين ، وبعد موته جعل السلطان بايزيد مكانه الحكيم حاجى ، وكان السلطان يحب علاج الحكيم المذكور . ومنهم محيى الدين محمد الأسكلبى ، وكان من رجال التصوف . وكان السلطان بايزيد أميراً على أماسية ، فذهب هذا الشيخ إلى الحج ولما ودع السلطان بايزيد قال له : سأراك بعد إيابى من الحجاز جالسا على سرير السلطنة ، فلما رجع من الحج كان

الأمر كما قال . فأحبه السلطان حباً جماً وبنى له زاوية في القسطنطينية ، وكانت تزدهم في بابہ الوزراء وقضاة العساكر ، وكان يدعوہ السلطان إلى مصاحبته فحصل له جاه عظيم ، لكنه لم يتغير طوره ، وبقى ملازماً الزهد والتقوى . ومنهم الشيخ مصطفى اليروزي ، كان من خلفاء الشيخ الأسكاليبي ، وكان عالماً عابداً . ومنهم العارف بالله السيد « ولاية » من قصبة كرمستى في الأناضول وكان شريفاً صحيح النسب ، حج ثلاث مرات وكان في غاية الورع . ويقال إن السلطان سليم عند ما طلب السلطنة في أيام والده بايزيد وسلمه والده السلطنة ، التجأ إلى المشايخ الصوفية ، ومنهم السيد ولاية المذكور . فقال له السيد : ستصير سلطاناً ولكن ليس في عمرك امتداد . وهكذا كان لأن السلطان سليم لم يبق في السلطنة أكثر من ثمانى سنوات . ومنهم الشيخ محيى الدين محمد الشهير « بيولولى شلبي » كان مدرسا ، ثم تصوف وصار مرشداً ومنهم شعجاع الدين الشهير « بنيازى » وهو أيضاً كان قاضياً ثم تصوف وترك الدنيا . ومنهم صفي الدين مصطفى ، وكان من الزهاد المرشدين . ومنهم الشيخ رستم خليفة البروسى كان ينتسب إلى الشيخ حاجى خليفة ، وكان عابداً متوكلاً . ومنهم العارف بالله ابن على ددہ خليفة العارف بالله ابن الوفاء ، وكان شيخاً عابداً زاهداً . ومنهم علاء الدين الأسود ، أخذ عن حاجى خليفة ، وكان متوجهاً إلى الله بكليته . ومنهم السيد على بن ميمون المغربي الاندلسى ، جاء في « الشقائق النعمانية » أنه أخذ عن ابن عرفة وعن الشيخ الدباسبى ، وجاء إلى الشرق لأجل الحج ، ودخل مصر ثم الشام ، ثم جاء إلى بورسة ، ثم رجع إلى البلاد الشامية وتوفى بها سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان على جانب عظيم من التقوى ، قوَّالاً بالحق ، وكان لا يخالف السنة . فلا يقوم للزائرين ، وكان يقول : لو أنانى بايزيد بن عثمان لا أعامله إلا بالسنة . وكان لا يقبل الوظائف ولا هدايا الملوك . وجاء في « شذرات الذهب » لعبد الحى ابن العماد الحنبلى ترجمة العارف بالله سيدى على بن ميمون فقال : إنه ابن ميمون بن أبى بكر بن على بن ميمون بن أبى بكر بن يوسف بن اسماعيل بن أبى بكر بن عطاء الله ابن حسون بن سليمان بن يحيى بن نصر الهاشمى القرشى المغربى الفخارى أصله من

« جبل غمارة » وسكن مدينة فاس ، واشتغل بالعلم ثم درّس ثم وُلّي القضاء . ثم ترك ذلك ولازم الغزو على السواحل ، وكان رأس المسكر ، ثم ترك ذلك أيضا وصحب مشايخ الصوفية . منهم الشيخ عرفة القيرواني فأرسله الى أبي العباس احمد التوزي الدباسي ومن عنده توجه الى المشرق . قال الشيخ موسى السكناوي : فدخل بيروت في أول القرن العاشر ، وكان اجتماع سيدي محمد بن عراق به أولا هناك .

ولما دخل بيروت استمر ثلاثة أيام لم يأكل شيئا ، فاتفق أن ابن عراق قال لجماعته وقد أتوا بالطعام : ادعوا ذلك الفقير ، فقام السيد على وأكل ثم قال ابن عراق قوموا بنا نزور الامام الأوزاعي ، فصحبهم ابن ميمون ففى أثناء الطريق لعب ابن عراق على جواده كعادة الفرسان ، فعاب عليه ابن ميمون . فقال له ابن عراق : أنحسن اللعب على الخيل أكثر منى ؟ قال : نعم فنزل ابن عراق عن فرسه فخلّ ابن ميمون الحزام وشكّهُ كما يعرف ، وركب ولعب على الجواد فمر فوامقداره فى ذلك ، ثم انفتح الأمر بينهما إلى أن شهر الله تعالى سيدي على بن ميمون . وقال فى « الشقائق » : إنه دخل القاهرة وحج منها ، ثم دخل البلاد الشامية ورئى كثيرا من الناس ، إلى آخر ما نقل عن صاحب الشقائق . وقال ابن العماد الحنبلى : إنه كان من طريقته ما حكاه محمد بن عراق فى كتابه « السفينة » وهو أنه لا يرى لبس الحرقة ولا إلباسها وذكر الشيخ علوان أنه كان لا يرى الخلوة ولا يقول بها . ومن وصاياه اجمل تسعة أعشارك صمتا ، وعُشرك كلاما . وكان يقول : الشيطان له وحى وفيض ، فلا تغترّوا بما يجرى فى نفوسكم وعلى ألسنتكم من الكلام فى التوحيد والحقائق حتى تشهدوه من قلوبكم . وكان ينهى أصحابه عن الدخول بين العوام والحكام . ويقول : مارأيت لهم مثلا إلا الفار والحيات ، فان كلاً منهما مفسد فى الأرض ، وكان شديد الانكار على علماء عصره ، ومن كلامه : لا ينفع الدار إلا ما فيها . ومنه : لا تشتغل بأن تعد أموال التجار وأنت مفلس . ومنه : أسلك ماسلكوا تدرك ما أدركوا . ومنه : خبت لمن وقع عليه نظر المفلح كيف لا يفلح . ومنه : كنزك تحت جدارك ، وأنت تطلبه من عند جارك . وله من المؤلفات شرح الجرومية على طريقة الصوفية ، وكتاب غربة

الإسلام في مصر والشام وما والاها من بلاد الروم والأعجام ، ورسالة لطيفة سماها «تنزيه الصديق عن وصف الزنديق» ترجم فيها الشيخ محي الدين بن العربي ترجمة في غاية الحسن والتعظيم .

وذكر ابن طولون أنه دخل دمشق في أواخر سنة اثنى عشرة وتسعمائة ، ونزل بحارة السكة بالصالحية ، وهرع الناس إليه للتبرك به . وقال محمد بن عراق في «سفينته» إنه لم يشتهر في بلاد العرب بالعلم والشيخة والارشاد إلا بعد رجوعه من الروم إلى حماة سنة إحدى عشرة ، ثم قدم إلى دمشق سنة ثلاث عشرة وتسعمائة ، وأقام في قدمته هذه ثلاث سنوات وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما يربى ويرشد ، ويدعو إلى الله على بصيرة ، واجتمع عليه الجَمُّ الغفير ، ثم دخل عليه قبض وهو بصالحية دمشق واستمر ملازما له حتى ترك مجلس التأديب ، وأخذ يستفسر عن الأماكن التي في بطون الأودية ورؤوس الجبال ، فذكر له محمد بن عراق «مجدل معوش» فهاجر إليها في ثاني عشر محرم هذه السنة . قال سيدى محمد بن عراق : ولم يصحب غيرى والولد على - وكان سنه عشر سنين - وشخصا آخر عملاً بالسنة . وأقيمت معه خمسة أشهر وتسعة عشر يوما ، وتوفي ليلة الاثنين حادى عشر جمادى الآخرة ودفن بها في أرض موات بشاهق جبل حسبما أوصى به قال : ودفن خارج حضرته المشرفة لرجلان وصبيان ، وامرأتان ، وأيضا امرأتان وبنتان ، الرجلان محمد المكناسى ، وعمر الأندلسى ، والصبيان ولدى عبد الله - وكان عمره ثلاث سنين - وموسى بن عبد الله التركمانى . والمرأتان أم ابراهيم وبناتها عائشة زوجة الذعرى ، والأخريتان ؛ مريم القدسية ، وفاطمة الحموية . وسأله عند وفاته أين أجعل دار هجرتى ؟ فقال : مكان يسلم فيه دينك ودنياك ثم تلا قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) الآية . قلت : قرية «مجدل معوش» هي في قضاء الشوف من بلادنا في جبل لبنان وكان أهلها مسلمين من أهل السنة ، ووقعت بينهم عداوة شديدة فخرجوا منها واشتراها النصراني وذلك منذ مائتى سنة . ولما دخلها السيد على بن ميمون المغربي كانت لاتزال قرية إسلامية ، وبقي قبر السيد من ذلك الوقت معروفا لا يجهله أهل القرية

وجاءنا مرة الخبر بأن بعض النصاي أرادوا استعمال ذلك القبر للدفن وكان في ذلك الوقت عمنا الأمير مصطفى أرسلان قائمقام قضاء الشوف فأخبرته بالخبر فأمر مدير ناحية العرقوب الشمالى التى منه تلك القرية بأن يتحقق هذا الامر ويمنع تعرض أحد للقبر ، ثم جمعنا إعانة مالية وأدى كل منا ما قدر عليه ، فبلغ المجموع مائة جنيه ذهب وجددنا القبر المذكور لأنه كان قد خرب تقريباً ، فحشينا بسبب خرابه أن يستعمله النصارى لدفن موتاهم .

و بلغ المرحوم الأمير على بن الأمير عبد القادر الجزائرى شروعنا ببناء هذا القبر فأراد أن يكون له حصة فى المثوبة ، فأرسل أيضاً شيئاً من المال وهكذا جددنا قبر الولي المشار إليه قدس الله سره بعد نحو من أربعين سنة من وفاته وكان هذا العاجز السبب فى ذلك وأختم أن هذه القضية مضى عليها سبع وثلاثون سنة ، وقد أطلت فى ترجمة السيد على بن ميمون لكونه من أقارب أهل المغرب التى طلعت على المشرق ولكونى قمت له بخدمة قبره بعد دفنه بأربعة قرون ، والله على ذلك شهيد .

ثم نعود إلى ذكر العلماء الذين اشتهروا فى زمان السلطان بايزيد ، فمنهم العارف بالله الشيخ علوان الحميدى ، اتصل بخدمة السيد على بن ميمون وكان بحراً من بحار الحقيقة ، وكان شافعى المذهب ، توفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم الشيخ محمد الشهير « بابن عراق » كان من أولاد الأمراء الشراكسة ، وكان من طائفة الجند ، وكان صاحب ثروة وحشمة وافرة ، فترك كل هذا واتصل بخدمة السيد على بن ميمون ، واشتغل عنده بالرياضة ، وكان عالماً زاهداً . وجاور مدة بعد وفاة ابن ميمون بالمدينة المنورة ، ومات ودفن فيها . وأتذكر أنه يوجد فى بيروت زاوية منسوبة إلى ابن عراق . ومنهم « ابن صوفى » واسمه عبد الرحمن كان عالماً مدرساً ثم اتصل بالسيد على بن ميمون وصار من تلاميذه ، ولما ذهب السيد إلى الشام بعد أن سكن مدة فى بورسة نصبه خليفة له فى بلاد الروم . ومنهم المولى اسماعيل الشروانى قرأ على جلال الدين الدوانى ، وخدم العلم طول حياته ، وتوطن أخيراً فى مكة المكرمة ومات فيها . ومنهم الشيخ بابا نعمة الله ، وكان من السادة الصوفية ، سكن بقصبة

آق شهر وتوفي بها . ومنهم الشيخ محمد البدخشي كان زاهداً متجرداً من علائق الدنيا ، ثم ذهب إلى دمشق وسكن بها ، ولما دخل السلطان سليم دمشق زار هذا الشيخ مرتين : ففي المرة الأولى جالسا صامتين ، وسئل السلطان سليم عن ذلك فقال : فتح الكلام ينبغي أن يكون من العالي ، ولا علوً لى عليه وقد تأدب الشيخ هو أيضاً واختار الصمت تنزلاً منه . وأما في الزيارة الثانية فقال الشيخ البدخشي للسلطان : كلانا عبداً لله تعالى ، وإنما الفرق هو أن ظهرك ثقیل من أعباء الناس ، وظهري أنا خفيف ، فاجتهد أن لاتضيع أمتعتهم . ومات البدخشي بدمشق سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة . ومنهم السيد احمد البخاري الحسني ، جاء من بخاري إلى بلاد الروم ، وصحب الشيخ الالهى ، وكان من أشد الناس ورعاً ، وتعلق به الناس كثيراً وتركوا المناصب ، واختاروا خدمته ، فبنى مسجداً وحجرات حوله للطالبيين وذلك في القسطنطينية ، وكان مجلسه في غاية الوقار ، تجلس فيه الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ولا تجرى في مجلسه كلمات دنيوية أصلاً ، وكانت طريقته العمل بالعزيمة وترك البدعة ، واتباع السنة ، وإقامة الصلاة ، والالتقاط عن الناس ، والمداومة على الذكر الخفى ، والعزلة عن الأنام ، وقلة الكلام والطعام ، وإحياء الليالى وصوم الأيام . مات سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .

ومنهم الشيخ مصلح الدين الطويل ، أصله من كرة النحاس من ولاية قسطنطينية كان من المشتغين بالعلم ، ثم التحق بالشيخ الالهى واشتغل بالتصوف . ومنهم عابد شلبي من ذرية مولانا جلال الدين الرومى ، كان قاضياً ثم ترك القضاء واتصل بالشيخ الالهى وبنى مسجداً في القسطنطينية ، وحوله حجرات للفقراء . ومنهم الشيخ لطف الله الأسكوي . وهو ممن اتصل أيضاً بالشيخ الالهى ، وكان في الآخر زاهداً ناسكاً ساكناً على جبل من جبال أسكوب ، منقطعاً عن الدنيا . ومنهم بدر الدين بابا وكان أيضاً من جماعة الشيخ الالهى ، ثم منهم علاء الدين خليفة ، وكان أولاً من طائفة الجند ثم اقتدى بالشيخ علاء الدين أبدال ورووا عنه الكرامات وبنى زاوية بالقسطنطينية ومن هذا النمط الشيخ سليمان خليفة وبنى زاوية أيضاً . ومنهم الشيخ

سونديك الشهير « بقورجي دده » ومنهم العارف بالله ابن الامام من السادة الصوفية من أهل آيدين . ومنهم الشيخ صلاح الدين الازنيقي كان من مريدي شيخ خليفة ومنهم الشيخ بايزيد خليفة ، وكان عالماً متصوفاً سكن بمدينة أدرنة . ومنهم الشيخ سنان الدين يوسف المعروف « بسنبل سنان » وكان مرشداً مريباً ، وعلى جانب من العلم . ومنهم الشيخ جمال الدين القراماني المعروف « بجمال خليفة » جاء من بلاد قرامان إلى القسطنطينية وكان مريباً مرشداً ، وتاب على يده كثيرون .

وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه عاده في مرض موته وطلب منه الوصية فقال له : لا تسلك مسالك الصوفية ، إذ لم يبق لها اليوم أهل . وقال : التوحيد والاحاد يصعب التمييز بينهما ، فالوقوف على طريقك أسلم . ثم قال له : فان غلب عليك خاطرك بالميل إلى التصوف فاختر من المشايخ من كان ثابت القدم في الشريعة وإن رأيت فيه شيئاً يخالف الشرع ولو قليلاً فاحترز منه ، فان منى الطريقة رعاية الأحكام الشرعية . ومنهم الشيخ داود من قصبة مدرني ، وكانت تروى عنه الكرامات . ومنهم الشيخ قاسم شلبي ، وكان متصوفاً جلس في زاوية الوزير على باشا في القسطنطينية ومنهم الشيخ رمضان كان من أتباع طريقة الحاج بيرم ، وكان مرشداً كبيراً . ومنهم الشيخ بابا يوسف السفر حصاري ، وكان منتسباً إلى هذه الطريقة ولما بنى السلطان بايزيد جامعاً بالقسطنطينية حضر للصلاة في أول جمعة بعد بنائه ، وصعد الشيخ بابا يوسف المنبر ووعظ الناس فحصل لكلامه تأثير عظيم في السامعين ، وكان بعض النصاري يستمعون من خارج الجامع فأسلم منهم ثلاثة ففرح السلطان بايزيد بذلك وأنعم عليهم وصار السلطان يحب هذا الشيخ كثيراً وعند ما ذهب الشيخ للحج أعطاه السلطان مقداراً من الذهب وقال له : هذا المال حصل لي من كسب يدي ، وأوصاه أن يجعله في قنديل الصدقات في التربة المطهرة بالمدينة وأن يقول عند التربة المطهرة : يا رسول الله إن راعي أمتك العبد المذنب بايزيد يقرئك السلام ، وأرسل هذا الذهب الحاصل من طريق الحلال ليصرف إلى زيت قنديل تربتك ، وتضرع إليك أن تقبل صدقته . ففعل الشيخ ما أمره به السلطان ، وكانت وفاة هذا الشيخ في أوائل

سلطنة سليم خان ، ودفن في جوار أبي أيوب الأنصاري عليه رحمة الباري .
ولما جلس السلطان سليم بن بايزيد على كرسى السلطنة ، وذلك في الثاني عشر من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، طلب الانكشارية زيادة رواتبهم ، فاضطر أن يرضيهم لأنهم كانوا السبب في سلطنته ، وزاد الرسوم المضروبة على البضائع الواردة إلى بلاده ، رفعها من ثلاثة في المائة إلى خمسة . وكان الأمير احمد أمير أماسيه استقل واستولى على بورسة ، واتفق مع مصطفى بك والى أنقره . فرأى السلطان سليم أن لا بد من قتل إخوته ، ولما وقع أخوه « قورقوت » في يده قتله . وكذلك زحف إلى قتال أخيه احمد ، فتلاقيا في صحراء نينى شهر فكانت الطائفة للسلطان سليم ووقع احمد في يد أخيه فقتله أيضاً فاتسق له الأمر ، وأرسلت الدول المجاورة تهنيئه ما عدا الشاه اسماعيل سلطان المعجم ، فكان هواه مع الأمير أحمد . وقد بلغ الشاه اسماعيل في زمانه أقصى درجات القوة ، وكان في يده جميع فارس ، وخراسان ، والعراق العربي ، وكردستان ، وديار بكر - أى من الفرات إلى سيعون وجيعون - فكانت الدولة الصفوية في أوج مجدها . وكانت دولة شيعية خالصة ، وقد أخذت تبث التشيع في البلاد العثمانية . فثار غضب السلطان سليم وزحف بمائة وثمانين ألف مقاتل ، فصار جيش شاه اسماعيل ينكص إلى الورا ولا يقاتل ، فوصل العثمانيون إلى تبريز فاعتصم الإيرانيون بأعلى الجبال المشرفة على صحراء « تشالديران » فقبل أن أصلاهم السلطان سليم نار الحرب عقد مجلساً حربياً ، فأشار الوزراء بإراحة العسكر أربعة وعشرين ساعة بالأقل ، وخالفهم في ذلك يرى باشا قائلاً : يجب المناجزة في الحال . فأعجب رأيه السلطان سليم وهجم على الإيرانيين وتغلب عليهم بواسطة مدافعه ، ووقع في يد السلطان أنقال الشاه اسماعيل وأمواله مع حرمه ، وعدد كبير من الأسرى فأمر بقتل الجميع ما عدا النساء والأولاد .

وأراد السلطان سليم أن يشتو تلك السنة في تبريز ، وأن يزحف في أول الربيع إلى فارس ، ولكن الانكشارية كانوا قد ملوا القتال والسفر ، وأصبحوا يريدون الرجوع . فماد بهم إلى أماسيه ، وقيل إنه رجع لفقد القوات والعلوفة في بلاد المعجم

لأن الشاه اسماعيل كان قد خرب البلاد . ثم أرسل الشاه اسماعيل يطلب من السلطان سليم زوجته التي وقعت في الأسر في معركة « تشالديران » فرفض السلطان تسليمها إليه ، وأزوجها من وزيره جعفر شلبي . ثم ان الانكشارية ثاروا مرة ثانية في أماسية وأجبروا السلطان على الرجوع إلى القسطنطينية ، فأراد السلطان الانتقام من رؤسائهم ، وقتل اسكندر باشا ، وسقبان باشي عثمان ، وقاضي العسكر جعفر شلبي . ثم إن بلاد كردستان كانت بعد واقعة « تشالديران » دخلت في حوزة السلطان وجاء جيش من قبل الشاه اسماعيل يسترجع ديار بكر ، فهزمهم العثمانيون واستولوا على « حصن كيفا » و « سنجار » و « بيرجك » و « الموصل » . ثم فكر السلطان سليم في فتح بلاد العرب ، فزحف إلى « حلب » وجاء من مصر السلطان قانصوه الغوري وكان شيخاً كبيراً بلغ سن الثمانين ، إلا أنه كان على الهمة ، فتلاقى مع السلطان سليم في مرج دابق عند حلب ، وكانت مدافع العثمانيين جعلت الرجحان في جانبهم وأنحاز جانب من جماعة قانصوه الغوري إلى السلطان سليم ، ومن هؤلاء « جان بردي » الغزالي و « خير بك » الجركسيان ، وكان معهما أمراء لبنان .

وكان الملك الأشرف قانصوه الغوري أمر الغزالي وخير بك أن يتقدما أمام الجيش أملاً بأن يقتلا لوحشة كانت بينه وبينهما ، فراسلا السلطان سليماً واتفقا معا وأنحازا إلى جيشه ومعهما جمٌّ من رجال الجيش المصري ومعهما أمراء لبنان منهم الأمير « فخر الدين المعني » والأمير « جمال الدين الأرسلاني » وهو جدنا على عمود النسب والأمير « عساف التركماني » ولما دارت المعركة كان النصر للسلطان سليم وقتل الغوري في المعركة . وكانت هذه الواقعة سنة ١٥١٦ وقيل ١٥١٥ وهو الأصح . فدخل بعده السلطان سليم حلب . ثم دمشق بدون قتال . وقيل إن السلطان سليم صلى الجمعة في جامع سيدنا زكريا في حلب فخطب الخطيب ودعا له بالنصر ولقبه « سلطان البربر والبحرين . وصاحب الحرمين الشريفين » فأمر السلطان بأن يقال « خادم الحرمين الشريفين » وسجد شكراً لله .

ولما مر بحماة نزل في دار آل الكيلاني السادة المشهورين من ذرية السيد

عبد القادر الكيلاني ، ورأيت بعيني الغرفة التي بات فيها وهي مطلة على نهر العاصي وأنعم السلطان على آل الكيلاني وأكرمهم . وكان شاعراً أديباً . فأطرب به مركز حماه وأعجبه ماغم عليه السادة الكيلانية من الوجاهة والكرم فنطق لسانه بهذين البيتين :

بنى كيلان هُنَّاتٍم بعيش أرى من دونه السبع الطباقا
أطاع لديكموا العاصي ولما تشرف بالجوار حلا وراقا

رواهمالي السيد عبد القادر حسنى الكيلاني كبير هذه الأسرة الشريفة اليوم . وجلس على كرسي مصر بعد قتل الغورى « طومان بك » واستعد للقتال فزحف السلطان سليم إلى مصر واشتبكت معركة من أشد المعارك المعروفة في التاريخ ولكن الأتراك بسبب مدافعهم تغلبوا على المماليك ودخل السلطان سليم إلى القاهرة وانهزم طومان بك بعد أن ألحق بالعثمانيين خسائر عظيمة ، ولم يقع طومان بك في المعركة أسيراً ، بل انحاز بمن بقي معه إلى الريف ، وشرع يهاجم العثمانيين . فأرسل السلطان يعرض عليه الصلح فأبى المماليك الصلح ، فزحف السلطان إليهم . وفي هذه الواقعة أخذ طومان بك أسيراً ، وشنقه السلطان وعاقه على باب القاهرة وذلك سنة ١٥١٧ في ١٣ أبريل وبعد ذلك دخل الحجاز تحت حماية الدولة العثمانية . ويقال إن السلطان سليم كتب بيده على عمود المقياس الذي على شاطئ النيل هذين البيتين :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده حقاً ويضمن بعده الدركا

لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركاً

وقد ظن بعض المؤرخين أن هذين البيتين هما من نظمه لأنه كان شاعراً بليفاً بالعربية والتركية والفارسية ، ولسكننا وجدنا هذين البيتين في لزوميات المعري ، فيكون السلطان قد استشهد بهما .

ثم إنه بعد أن استودع إدارة مصر خير بك ، رجع إلى سورية وأخذ بتنظيم إدارتها ، وكان نشاط هذا السلطان غير معهود المثال ، وتوقد ذهنه فوق الخيال .

وكان محباً للعلماء والأدباء ، مغرمًا بالعلم والعرفان . وكانت همته أعلى ما عهد في همم الرجال ، وكان يتنكر ويخرج متنكرًا فيختلط بالشعب ليطلع على حقائق الاحوال ويعرف ممن تشكو الرعايا فيقتص من العمال الذين يتحقق خروجهم عن جادة العدل ولم يكن فيه عيب يذكر سوى شدة ميله إلى سفك الدماء ، وكم قتل من إخوته ووزرائه وعماله ، ولم يكن يجرؤ عليه إلا المفتي الجالى ، الذى يلقبه الأتراك « بزنبيللى على افندى » لأنه كما تقدم الكلام كان عنده زنبيل معلق يضع فيه السائل سؤاله ويحركه فيجذبه الشيخ ويخرج منه السؤال ويجيب عليه ويعيده بالزنبيل الذى يسقط إلى أسفل فيؤخذ الجواب منه .

ويقال إن السلطان سليم أراد حمل النصارى الذين فى المملكة على الاسلام جميعاً ، أو يخرجوا من البلاد ، فعارضه زنبيللى على افندى - أى المفتي الجالى - وقال له : لا يحل لك ذلك ، وليس لنا إلا أن نأخذ منهم الجزية والطاعة . ويرى الناس بالتواتر شيئاً آخر ، وهو أن السلطان سليم أراد أن يجعل العربية لساناً رسمياً للدولة فعارضه الأتراك فى ذلك ، ولم أطلع على هذه الرواية فى الكتب ولكن الناس يتناقلونها كثيراً والله أعلم .

فأما قضية حمل النصارى الذين فى المملكة على قبول الاسلام أو الرحيل منها فهو مروي بالتواتر ، وفى الكتب أيضاً فيكون قد ثبت أن الشريعة الاسلامية بعداتها وأمانتها هى التى حفظت المسيحيين فى السلطنة العثمانية أيام كان السلطان يقدر أن ينفذ جميع ما يريده بهم ، ولذلك نجد ملاحدة الترك ينتقدون دائماً العمل بالشرع الاسلامى بحجة كونه السبب فى بقاء النصارى فى السلطنة العثمانية ، وأن بقاءهم كان السبب فى ضعف تركية ، فملاحدة الترك يجعلون الشرع الاسلامى مذنباً فى تهيشة الخطر السياسى الذى أصاب تركية ، ولذلك لما استولوا على الحكم بعد الحرب العامة أخرجوا جميع النصارى من تركية ، ولم يبق إلا النصارى الذين فى القسطنطينية فقط لأن الدول فى مؤتمر لوزان لم توافق على إخلاء القسطنطينية من النصارى تماماً ، وتقرر بمقابلتهم إبقاء مسلمى تراقية الغربية فى بلاد اليونان .

ومن العجب أننا نرى الأوروبيين يعملون بكل قوتهم لمحو الشريعة الاسلامية التي في ظلها - وبسببها لاغير - بقى النصارى في جميع الممالك الاسلامية ، وفي السلطنة العثمانية ، متمتعين بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون منذ ظهور الاسلام إلى يوم الناس ، هذا وكان نصارى البلاد العثمانية بضعة عشر مليون نسمة ، ومن العجب أننا نراهم مع ذلك يفضلون أن تكون الحكومات الاسلامية ملحدة ، ولو كانت تخرج جميع النصارى من بلادها ، وهذا أقصى ما يتصوره العقل من التحامل والتعصب على الاسلام !! يكرهونه ولو حفظهم ، ويحبون زواله ولو كان في ذلك زوالهم ! .

هذا ومات السلطان سليم في ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٢٠ فلم يبق في السلطنة أكثر من ثماني سنوات ، ولو طال مدة هذا الرجل العظيم على كرسى هذه السلطنة العظمى لما عرف أحد إلى أية درجة من الشوكة والبسطة كانت تنتهي السلطنة العثمانية ؟ ! وجاء في « شذرات الذهب » عن السلطان سليم ما يأتي :

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة توفي السلطان سليم بن أبي يزيد بن محمد السلطان المفخم ، والحقان المعظم ، سليم خان بن عثمان تاسع ملوك بني عثمان . هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الاسلامية ، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الايمانية ، رفعوا عماد الاسلام ، وأعلوا مناره وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع الشريف مقداره ، وصاحب الترجمة منهم هو الذي ملك بلاد العرب ، واستخلصها من أيدي الشراكسة بعدما شتت جمعهم فانفلوا عن ملكهم ، وجدوا في الحرب . ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه عن السلطنة وسلمها إليه ، وكان السلطان سليم ماسكاً قهاراً ، وسلطاناً جباراً ، قوى البطش ، كثير السفك ، شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن أخبار الناس ، وربما غير لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً ، وكان شديد اليقظة والتحفظ يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية والعربية ، منه ما ذكره

القطب الهندي المكي أنه رآه بخطه في الكشك الذي بنى له بروضه المقياس بمصر ونصه
الملك لله من يظفر بنيل غنى يردده قسراً ويضمن عنده الدركا
لو كان لي أو لغيري قيد أنملة فوق التراب لكان الأمر مُشْتَرَكاً

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه « نزهة الناظرين » : وفي أيامه تزايد ظهور
شأن اسماعيل شاه ، واستولى على سائر ملوك المعجم ، وملك خراسان ، وأذربيجان
وتبريز ، وبغداد ، وعراق المعجم ، وقهر ملوكهم ، وقتل عساكرهم ، بحيث قُتِلَ
ما يزيد على ألف ألف ! وكان عسكره يسجدون له ، ويأتمرون بأمره ، وكان يدعى
الربوبية . وقتل العلماء ، وأحرق كتبهم ، ونبش قبور المشايخ من أهل السنة
وأخرج عظامهم وأحرقها ، وكان إذا قتل أميراً أباح زوجته وأمواله لشخص آخر
فلما بلغ السلطان سليم ذلك تحركت همته لقتاله ، وعد ذلك من أفضل الجهاد ؛ فالتقى
معه بقرب تبريز بعسكر جرّار ، وكانت وقعة عظيمة ، فانهزم جيش اسماعيل شاه
واستولى سليم على خيامه ، وأعطى الرعية الأمان ، ثم أراد الإقامة بالمعجم للتمكن من
الاستيلاء عليها فما أمكنه ذلك لشدة القحط ، بحيث بيعت العليقة بمائة درهم ، والرغيف
بمائة درهم ، وسببه تخلف قوافل الميرة التي كان أعدّها السلطان سليم ، وما وجد في
تبريز شيئاً . لأن اسماعيل شاه عند انهزامه أمر بإحراق أجران الحب فاضطر سليم
للعود إلى بلاد الروم .

وفي أيامه كانت وقعة الغوري ، وذلك أن سليم لما رجع من غزو اسماعيل شاه
تفحص عن سبب انقطاع قوافل الميرة عنه ، فأخبر أن سببه سلطان مصر قانصوه
الغوري ، فانه كان بينه وبين اسماعيل شاه محبة ، ومراسلات وهدايا ، فلما تحقق سليم
ذلك صمم على قتال الغوري أولاً ، ثم بعده يتوجه لقتال اسماعيل شاه ثانياً ، فتوجه
بعسكره إلى جهة حلب سنة اثنتين وعشرين كما تقدم ، فخرج الغوري بعساكر عظيمة
لقتاله ، ووقع المصاف بمرج دابق شمالي حلب ، ورمى عسكر سليم عسكر الغوري
بالبنادق ، ولم يكن في عسكر الغوري شيء منه ، ف وقعت الهزيمة على عسكر الغوري
بعد أن كانت النصر له أولاً ، ثم فقد تحت سنابك الخيل ، وكان ذلك بِمُخَازَمة

خير بك والغزالي ، بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام .
ثم بعد الواقعة أخليا له حلب لأنهما معه في الباطن ، فأقبل سليم إلى حلب فخرجوا
للقائه يطلبون الأمان وممهم المصاحف يتلون جهاراً (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَسَكِنَّ
اللَّهُ رَاحِمٌ) فقابلهم بالاجلال والاكرام . ثم حضرت صلاة الجمعة فلما سمع الخطيب
خطب باسمه وقال : « خادم الحرمين الشريفين » سجد لله شكراً على أن أهله لذلك
ثم ارتحل للشام بعد أن أخلاها له خير بك والغزالي ، فخرجوا للقائه ودعوا له فأكرمهم
وأقام بها تمهيداً أمر المملكة . وأمر بعمارة قبة على الشيخ محي الدين بن عربي بصالحية
دمشق ، ورتب عليها أوقافاً كثيرة ، ثم توجه إلى مصر فلما وصل إلى خان يونس
بقرب غزة قُتل فيه وزيره حسام باشا .

ثم لما دخل مصر وقع بينه وبين « طومان باي » سلطان الجراكسة حروب
يطول ذكرها ، وقتل بها وزير سليم يوسف سنان باشا ، وكان مقداما ذا رأي وتدير
فأسف سليم عليه بحيث قال : أي فائدة في مصر بلا يوسف ؟ ! وقاتل طومان باي
ومن معه من الأمراء قتالاً شديداً ، وظهر لطومان باي شجاعة قوية عُرِفَ بها
وشهد له بها الفريقان ، وأوقع الفتك بعسكر السلطان سليم ، ولولا شدة عضده بخير
بك والغزالي ومكيدتهما ما ظفر بطومان باي . ثم لما ظفر به أراد أن يكرمه ويجعله
نائباً عنه بمصر ؛ فعارضه خير بك وخاف عاقبة فعله ، وقال لسليم : إنك إن فعلت
ذلك استولى على السلطنة ثانياً ، وحسن له قتله فقتله وصلبه بباب زويلة ، ودفنه
كما أسلفنا .

ونزل السلطان سليم بالمقياس مدة إقامته بمصر بعيداً عن روائح القتلى ، وحذراً
من المكيدة إلى أن مهداها ، ثم ولى خير بك أمير الأمراء على مصر ، وولى الغزالي
على الشام ، وولّى بمصر القضاة الأربعة وهم ؛ قاضي القضاة كمال الدين الشافعي
وقاضي القضاة نور الدين على بن يس الطرابلسي الحنفي ، وقاضي القضاة الدميري
المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن النجار الحنبلي ، واستولى على الأرض
الحجازية وغيرها ، ورتب الرواتب ، وأبقى الأوقاف على حالها ، ورتب لأهل

الحرمين في كل سنة سبعة آلاف إردب حبّ . ثم عاد إلى القسطنطينية وقد صرف غالب خزائنه ، فأخّرَ السفر إلى بلاد المعجم ليجمع ما يستعين به على القتال ، فظهر له في ظهره حجرة منعتة الراحة ، وعجزت في علاجها حذاق الأطباء ، ولا زالت به حتى حالت بينه وبين الأمنية فتوفي رحمه الله في رمضان - أو شوال - بعد علة نحو أربعين يوماً . وذكر العلائي في تاريخه «أنه خرج من القسطنطينية إلى جهة أدرنه وقد خرجت له تلك الحجرة تحت إبطه وأضلّاعه ، فلم يفتن بها حتى وصل إلى المكان الذي بارز فيه أباه أبا يزيد حين نازعه في السلطنة ، فطلب له الأطباء فلم يدركوه إلا وقد تأكلت ووصلت إلى الأمعاء ، فلم يستطيعوا لها دفعا ولا نفعا ، ومات بها ودفن بأدرنة عند قبر أبيه » . انتهى ملخصاً .

قلت : ونبغ من العلماء في عصر السلطان سليم المولى شمس الدين أحمد بن سليمان ابن كمال باشا ، وكان جدّه من أمراء الدولة العثمانية ، ونشأ في حجر العزّ والدلال ثم غلب عليه حب العلم والكمال فاشتغل بتحصيل العلم ليلاً ونهاراً ، وبعد أن مهر في العلوم تولى التدريس ، وانتقل من مدرسة إلى مدرسة ، ثم تولى قضاء العسكر ، ثم تولى الإفتاء في القسطنطينية بعد وفاة زنبيللى على أفندى ، ومات وهو في الإفتاء سنة أربعين وتسعمائة . وله تصانيف كثيرة منها حواشى على الكشاف ، وله كتاب في الفقه متن وشرح سماه «الإصلاح والإيضاح» ، وله كتاب في الأصول متن وشرح وله كتاب في علم الكلام متن وشرح ، وله كتاب في الفرائض متن وشرح ، وله حواشى على شرح المفتاح للسيد الشريف - ومن من فحول علماء الأتراك لم يكتب حواشى على كتب السيد الشريف - وله تأليف في التركية والفارسية ، ومن جملة كتبه التركية تاريخ لآل عثمان . ومنهم المولى عبد الحميد بن على ، وقرأ في بلاد العرب ثم في بلاد المعجم ، ثم جاء إلى بلاد الروم وسكن بلدة قسطنونى . ولما جلس السلطان سليم على سرير السلطنة اتخذه إماماً لنفسه ، ومات بصحبة السلطان بمدينة دمشق بعد قفول السلطان من مصر . ومنهم المولى محيى الدين محمد شاه بن على بن يوسف بالى بن شمس الدين الفنارى ، وهم بيت علم كابر عن كابر ، وتولى التدريس مدة

طويلة ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، ثم تولى قضاء العساكر . ومنهم المولى محيي الدين محمد بن علي بن يوسف بن شمس الدين الفناري ، ودرس مدة طويلة ، واستقضى بالسكر المنصور ، وكان عالماً ورعاً ، مدققاً محتاطاً في معاملاته مع الناس ، محباً للفقراء والصلحاء ، قال صاحب « الشقائق » : كان رحمه الله علامة في الفتوى ، وآية كبرى في التقوى .

ومنهم محيي الدين محمد بن علاء الدين علي الجمالي المتقدم الذكر ، وهم بيت علم وفضل ، تولى التدريس ثم القضاء ، وكان من ذوى الطريقة الحسنة . ومنهم محمد شاه بن محمد بن الحاج حسن ، وتولى التدريس مدة طويلة ، وله تواليف منها شرح على مختصر القدوري . ومنهم المولى حسام الدين حسين بن عبد الرحمن ودرس في أكثر المدارس المشهورة ، ثم تولى القضاء . ومنهم مصلح الدين مصطفى بن خليل والد « صاحب الشقائق » ولد سنة فتح القسطنطينية - أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت ولادته ببلدة « طاش كوبرى » . وأخذ عن علماء كثيرين ، وأشهرهم خواجه زاده ، وتولى التدريس تارة في أنقرة ، وتارة في بورسة ، وطورا في أسكوب وطورا في أدرنه ، ثم جعله السلطان بايزيد معلماً لابنه السلطان سليم ، ثم استقضى السلطان سليم بمدينة حلب ، ثم استعفى من القضاء ورجع الى التدريس ، وكان زاهداً عابداً صاحب أدب ووقار فيما يروى عنه ولده ، وقال : إنه لم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب ، ولا كلمة فيها فحش ، وكان طاهر الظاهر والباطن ، وكانت أكثر براعته في الحديث ، والتفسير ، وأصول الفقه ، والعلوم الأدبية . ولم يتبحر في المعقول . وله عدة تصانيف . ومنهم قوام الدين قاسم بن خليل ، وهو أخو المترجم السابق ، وكان مدرسا كبيرا ، وكانت أكثر مهارته في العلوم الأدبية ، والعقلية . ومنهم عبد الواسع بن خضر من أولاد الامراء أصله من بلدة « ديموطقة » في الروملى وارتحل إلى بلاد المعجم وخراسان ، وقرأ على شيخ الاسلام حافد العلامة التفتازانى حواشى شرح المطالع ، وحواشى شرح العضد للسيد الشريف ، ثم رجع إلى بلاد الروم في أواخر سلطنة بايزيد ، وفي زمان السلطان سليم تولى التدريس ، وفي زمان

السلطان سليمان القانوني تولى قضاء العساكر ، وبعد أن بقي مدة في القضاء وبنى مدارس ومكاتب ؛ ارتحل إلى مكة المكرمة واعتزل الناس ، وعكف على العبادة إلى أن مات سنة خمس وأربعين وتسعمائة .

ومنهم عبد العزيز بن يوسف بن حسين الحسيني الشهير « بعابد شلبي » وكان مدرساً ثم تولى القضاء . ومنهم عبد الرحمن بن يوسف بن حسين الحسيني ، وكان أيضاً مدرساً ثم انقطع عن الخلق لأجل العبادة . ومنهم پير احمد شلبي الأيديني وكان من المدرسين الكبار . ومنهم محيي الدين محمد بن الخطيب قاسم ، وكان مدرساً وتولى تعليم الأمير احمد بن السلطان بايزيد ، وكان عالماً أديباً عابداً ورعاً ، وكان ينظم الشعر العربي والتركي ، ويحفظ المحاضرات والتواريخ . ومنهم زين الدين محمد بن محمد شاه الفناري ، وكان عالماً فاضلاً خدم العلم الشريف مدة طويلة مع التقوى والورع ومنهم المولى داود بن كمال القوجوي ، وكان مدرساً كبيراً ، وله اليد الطولى في العلوم العقلية . ومنهم بدر الدين محمود الشهير « ببدر الدين الأصغر » وكان أيضاً من المشتغلين بالعلوم العقلية ، وبعلم الحديث أيضاً . ومنهم المولى نور الدين حمزة ، وكان من الفقهاء ولكنه كان حريصاً على جمع المال ، وبنى بماله مسجداً بالقسطنطينية وحجرات لسكنى العلماء . قال له الوزير ابراهيم باشا : إنك تحب المال فكيف صرفت هذه الأموال في الأوقاف ؟ قال : هذا من غاية محبتي للمال ؛ حيث لا أرضى أن أخلفه في الدنيا ، وأريد أن يذهب معي إلى الآخرة . ومنهم المولى محيي الدين محمد البردعي وكان بارعاً في العلوم العربية ، وصاحب أخلاق ، وله تصانيف . ومنهم محمود الشهير « بابن المجلد » وكان عالماً زاهداً ، وتوفي في أوائل سلطنة سليمان القانوني . ومنهم محيي الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الملقب « باجه زاده » وكان من المدرسين ، ثم صار من القضاة في زمان السلطان سليم . ومنهم محيي الدين محمد المشهور « بشيخ شاذلو » وكان من العلماء العابدين . ومنهم سنان الدين يوسف بن علاء الدين اليكاف كان مدرسا ثم صار قاضيا ، وفي زمان السلطان سليم تولى قضاء دمشق وله حواشي على شرح المواقف للسيد الجرجاني . ومنهم پير احمد بن نور الدين حمزة ، درّس في أشهر

المدارس ثم تولى القضاء وصار قاضيا بمصر مرتين . ومنهم المولى باشا شاي اليكافى بقى مدة فى التدريس ، وله حاشية على شرح المفتاح للسيد الشريف . ومنهم باشا شاي بن زيرك ، وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم محي الدين بن زيرك استقضى فى عدة من البلدان . ومنهم عبد العزيز حفيد المولى المشهور « بابن أم الولد » وكان من العلماء الأدياء . ومنهم محي الدين محمد بن مصلح الدين القوجي ، وكان عالما زاهدا ، وانتفع به خلق كثير ، وله عدة تصانيف .

ومنهم الشريف عبد الرحمن العباسي ، ولد بمصر ومهر فى العلوم الأدبية ، وجاء إلى القسطنطينية فى زمن بايزيد خان ورجع إلى مصر ، ثم لما انقرضت دولة السلطان الغورى عاد إلى القسطنطينية . وتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة ، وقد عاش نحواً من مائة سنة ، وله كتاب « معاهد التنصيص فى شرح شواهد التلخيص » وهو شهير . وقرأته أول مرة فى استانبول منذ ٤٥ سنة أعارنيه قبل أن اقتنيته الشريف عبد الله باشا أمير مكة سابقاً رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميذ الشنقيطي المعروف بالشنقيطي الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيبات له على المؤلف من جملتها أنه ذكر أحمد بن خلف ، وذكر أنه قُتل ، فقال الشنقيطي فى الهامش : « هو خلف بن أحمد ، والمعروف أنه مات حتف أنفه » .

ومنهم المولى بخشى خليفة الأمامي ، ولد بأماسية وقرأ على علماء عصره ، ثم ارتحل إلى بلاد العرب وقرأ على علمائها أيضاً ، ثم اختار طريق التصوف وجلس للوعظ والتذكير ، وانتفع به خلق كثير ، وتوفى فى جوار الثلاثين وتسعمائة . ومنهم محي الدين محمد بن عمر بن حمزة ، كان جده من بلاد ما وراء النهر من تلاميذ السعد التفتازاني ، وضرب فى الأرض فوصل إلى انطاكية . وبها ولد محمد هذا ، وتفقه فى انطاكية ، ثم سار إلى « حصن كيفا » و « آمد » ثم إلى « تبريز » وأخذ عن علماء تلك البلاد ، ثم رجع إلى انطاكية ، وحلب ، ثم ذهب إلى القدس وجاور هناك وحج البيت الحرام . ثم ذهب إلى مصر وأخذ عن السيوطي ، ولقى قبولاً عظيماً عند السلطان « قايتباي » وبقي عنده إلى أن توفى . فسافر إلى الروم من طريق البحر

وأول بلدة أقبل عليها « بروسة » فحصل له فيها إقبال عظيم ، ثم ذهب الى القسطنطينية فأحبه أهلها ، وسمع السلطان بايزيد وعظه فقال اليه كل الميل ، وألف له كتاباً اسمه « تهذيب الشماثل » في السيرة النبوية . ولما خرج السلطان الى الغزو كان هذا الشيخ محمد بن عمر معه ، فلما فتح « قلعة مشون » كان هو ثاني الداخلين إليها أو ثالثهم ثم ذهب إلى حلب ورجع الى الروم في زمن السلطان سليم ، وحرصه على الجهاد في طائفة « قزلباش » - هي طائفة تؤله علياً - وكان يعظ الجنود وعظاً مؤثراً ، ويذكر لهم ثواب الجهاد . ثم ذهب الى « الروملى » وأخذ يعظ أهلها ، فأصلح كثيراً من الخلق ، وأسلم على يديه كثيرون من غير المسلمين ، وبني جامعاً في سراي بوسنه ومسجداً في أسكوب .

وأقام في تلك البلاد عشر سنوات يعظ ويفسر القرآن الكريم ، وفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة غزا مع السلطان سليمان بلاد الحجر ، ووافقهم الفتح المبين . ثم سكن في بروسة ، وشرع في بناء جامع كبير توفي قبل اتمامه في رابع المحرم ٩٣٨ وذلك عن سبعين سنة . وولد من صلبه قريب من مائة نفس ، وله كتب ورسائل وكما أحيا من سنن ، وأمات من بدع . فهذا من الرجال الذين اشتغلوا في حياتهم وفقدهم الناس عند مماتهم !! ومنهم خير الدين خضر المعروف « بالمطوفى » كان معلماً لعبيد السلطان بايزيد ، ثم اختار طريقة الوعظ فصار يفسر أيام الجمع في مساجد القسطنطينية ، وكان ماهراً في التفسير ، وله اليد الطولى في علمى المعانى والبيان . ومنهم عبد الحميد بن شرف من أهل قسطنطينية ، قرأ على علماء عصره ، ثم رغب في التصوف ، وصحب مصلح الدين الطويل من شيوخ النقشبندية . وبعد وفاته اختار طريق الوعظ ، وعكف على التفسير ، وكان زاهداً في الدنيا .

ومنهم عيسى خليفة من قسطنطينية أيضاً ، وكان متصوفاً ، واختار طريق الوعظ وكان لكلامه تأثير في النفوس . ومنهم المولى شعيب الترابى ، جعله السلطان بايزيد معلماً لعبيده ، ثم اختار طريقة الوعظ ، وكان على الفطرة ، وكان قوى البدن الى النهاية وقيل إنه كان في شبابه يكسر نعال الدواب بأصبعيه !! ومنهم محيى الدين محمد الأماسى

وكان من العلماء المحدثين والوعاظ ، وكانت الناس تحبه لورعه وتقواه . ومنهم المولى الطوقاتي من أماسية ، لم يفارقها إلى أن مات ، ومات في أوائل سلطنة سليمان القانوني وكان مشتغلاً بالدرس والعبادة ، منقطعاً عن الناس . ومنهم المولى مصلح الدين موسى بن موسى الأماسي ، اشتهر بين الناس « بحافظ الكتب » لأنه كان قياً على خزانة كتب جامع السلطان بايزيد ببلدة أماسية ، قرأ على علماء العجم ، ثم على علماء العرب . وكان صحيح العقيدة ، مرضى السيرة ، وكانت له اليد الطولى في الفقه والأصول وله تأليف نفيسة . ومنهم المولى الشهير « بابن المعيد الأماسي » وكان فاضلاً محققاً ، سالكا مسلك التصوف ، مقبلاً على شأنه . ومنهم المولى عبد الله خواجه نزيل « قصبة كوبرجك » اشتهر بعلم العربية ، والفقه ، وكان من الصالحين . ومنهم المولى ابن دده جك ، وكان مشهوراً بالقراآت العشر ، مرضى السيرة ، زاهداً عابداً ومنهم المولى الشهير في علم القراآت صادق خليفة المغنيساوي ، وكان من القانتين العابدين . ومنهم المولى محمد بن الحاج حسن وكان عالماً ، ولكنه لم يكن على نمط العلماء في الزهد وخشونة العيش ، بل كان مائلاً إلى الزينة والترف ، فجعله السلطان سليم من الأمراء ، وكان بارعاً بالانشاء ، وله معرفة بالتواريخ . ومنهم محمد باشا حفيد المولى « ابن المعروف » معلم السلطان بايزيد ، وكان محمد باشا هذا من وزراء السلطان سليم ، وكان على جانب من المعرفة بالآداب السلطانية . ومنهم المولى عيسى باشا بن الوزير ابراهيم باشا ، وكان من العلماء ، ثم صار موقعاً بالديوان العالي ، ثم تولى الامارة في بلاد الشام . ومنهم المولى الشهير « بنهاني » وبقي مدة من حياته يشتغل بالتدريس ، ثم ذهب إلى الحج ، ومات بمكة المكرمة . وكان من العلماء الأدباء . ومنهم المولى حيدر ابن أخى المولى الخيالى ، وقرأ على علماء عصره ، ثم ذهب إلى مصر وأخذ عن علمائها ، ثم رجع إلى الروم وأقام بيروسة ، وتوفي في أواخر سلطنة سليم خان وكان جميل الطلعة ، مرضى السيرة ، جيد المحاضرة ، زينة للمجالس . ومنهم المولى محمد ابن الحاج حسن ، تولى القضاء في عدة من البلاد ، وكان حلیم الطبع معرضاً عن أبناء الزمان مشتغلاً بنفسه . ومنهم محمود بن السكال المشتهر « بأخى شلبي » كان أبوه من

الأطباء المشهورين ، وطلبه السلطان محمد ليصير طبيباً عنده فاعتذر وقال : كيف أختار الرق بعد الحرية . وبعد وفاته نبغ ولده محمود فى صناعة الطب ، حتى صار رئيساً للأطباء فى المستشفى الذى بناه محمد الفاتح بالقسطنطينية ، ثم صار رئيساً للأطباء فى زمان ولده السلطان بايزيد ، ثم عزله السلطان سليم ، ثم أعاده إلى مكانه . ولما تولى سليمان القانونى عزله أيضاً ، ثم أعاده إلى مكانه . ثم حج بيت الله . ومات بمصر منصرفه من الحج ، ودفن عند قبر الامامى الشافعى رضى الله عنه .

ومنهم هدهد بدر الدين ، وكان من الأطباء المعروفين فى دار السلطنة . ومنهم من أكابر الصوفية العارف بالله الشيخ نصوح الطوسى . ومنهم العارف بالله الشيخ مصلح الدين الامام بمدينة بروسة . والعارف بالله محمد الشهير « بابن أخى شوروه » . والعارف بالله محيى الدين محمد المعروف « بأبي شامة » والعارف بالله الشيخ عبدالرحيم المؤيدى المعروف « بحاجى شلبى » . والشيخ محيى الدين محمد بن المولى بهاء الدين أخذ عن العارف بالله محيى الدين الاسكلىبى . والشيخ مصلح الدين مصطفى المنسوب إلى المولى خواجه زاده . والعارف بالله مصاح الدين مصطفى المعروف « بابن المعلم » . والعارف بالله الشيخ نبي خليفة . والشيخ محيى الدين الأسود . والشيخ لطف الله . والشيخ أمير على بن أمير حسن . والمولى خضر بك بن المولى أحمد باشا . والشيخ محمود بن عثمان بن على النقاش المشتهر « باللامعى » وسيدى خليفة الامامسى . والشيخ عبداللطيف من أتباع طريقة الشيخ ابن الوفاء . والحاج رمضان المتوطن فى قسطنطين . والشيخ سنان الدين الشهير « بسخته سنان » .

سلطنة السلطان الأعظم سليمان القانونى

هذا ثم تولى سلطنة آل عثمان ، السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان فى شهر شوال سنة ٩٢٦ .

وأكثر المؤرخين على أن سليمان خان هو أعظم سلاطين آل عثمان ، وعلماء الأفرنج يسمونه سليمان العظيم « Le Grand » أو سليمان الفاخر « Le Magnifique »

وكان عمره ستاً وعشرين سنة يوم تولى الملك ، وبدأ ملكه بالحلم والعفو ، فأطلق سبيل ستمائة أسير مصري ، وكان أبوه السلطان سليم قد ضبط لتجار الحرير مقداراً عظيماً من متاجرهم ، فعوضهم السلطان سليمان مما خسروه وأخذ على أيدي الولاة الظالمين وأمر بالعدل والاحسان ، وجعل هذه الآية القرآنية (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) شعاره .

وعقد سليمان مع البندقية ليس هنا محل ذكرها ، و بموجبها كانت البندقية تؤدي إتاوتين إلى السلطان عن بعض البلاد التي كانت تحت احتلالها . وفي زمن سليمان القانوني ثار الغزالي والى الشام الذي انحاز إلى السلطان سليم في واقعة مرج دابق فأرسل السلطان سليمان جيشاً بقيادة فرهاد باشا ، فتغلب عليه وقتله . وغزا سليمان بلاد المجر فأرسل أحمد باشا فحصر « شاباتس » ويرى باشا فحصر « بلغراد » ومحمد ميكال أوغلي فاجتاح « ترانسلفانيا » فاستولى على شاباتس ودخلها السلطان ظافراً ، ثم استولى على بلغراد وعلى سملين ، وكان نصراً باهراً . ثم فكر السلطان في فتح « رودس » لأن فرسان رودس كانوا ملؤا البحر المتوسط اعتداءً على المسلمين ، وكانوا يقطعون الطريق على الحجاج إلى مكة إذا ذهبوا في البحر . ففي ١٦ يونيو سنة ١٥٢٢ سار الأسطول العثماني عليه مائة ألف مقاتل . وضيق السلطان الحصار على رودس ووالى عليها المهجمات نحو من شهرين بدون انقطاع . ويقول مؤرخو الأفرنج - وربما كانوا يبالغون في تقدير خسائر العثمانيين - : إن هؤلاء فقدوا في حصار رودس مائة ألف مقاتل ، منهم أربعون ألفاً ماتوا بالأمراض . إلا أن العثمانيين دخلوا أخيراً رودس عنوة واستولوا عليها وعلى الجزر التي في جوارها . وأخرج السلطان قائد فرسان رودس وكان اسمه « Villiers de l'Sile-Adam » سالماً فذهب إلى مالطة وهناك جددوا قوة الفرسان المذكورين ؛ فصاروا يقطعون الطرق على مراكب المسلمين كما كانوا يفعلون وهم في رودس .

وفي زمن سليمان عصى أحمد باشا والى مصر وحدثته نفسه بالاستقلال ، فأرسل إليه السلطان جيشاً فهزمه ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فقطعوا رأسه وعلقوه على أسوار

القسطنطينية . ثم وقع الخلاف بين والى مصر والدفتردار - أى رئيس الجباية - فأرسل السلطان وزيره ابراهيم باشا وأصله مملوك صار مقر با عند السلطان وبلغ من الخطوة ما لم يبلغه أحد ، فابراهيم باشا عزل العاملين المتخاصمين ، ورتب الأمور ونصب واليا على مصر سليمان باشا الذى كان واليا على سورية . ثم غزا السلطان بلاد المجر بمائة ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع ، فنشبت معركة هائلة . قاتل فيها الفريقان أشد قتال ، وانتهت بظفر السلطان وغرق « لويس الثانى » ملك المجر وهو منهزم هو وجانب من جماعته فى مستنقعات « موهاش » وسقط « بول طومورى » رئيس أساقفة المجر ومعه سبعة مطارين ، واثنتان وعشرون أميراً . وخمسة وعشرون ألف جندى قتل . وكانت هذه الواقعة فى ٢٦ اغستوس سنة ١٥٢٦ وعلى رواية كانت خسارة المجر مائتى ألف رجل . ولم تكن خسائر العثمانيين أكثر من مائة وخمسين رجلاً .

وقيل : إنه وقع فى أسر الأتراك عشرة آلاف مجرى فذبجهم عن بكرة أبيهم ودخل الأتراك بودابست قاعدة المملكة ، واستولوا على ما فيها من الخزائن والكنوز وأسروا مائة ألف نسمة من رجال ونساء ، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد أن أجلس على كرسى المجر أمير ترانسلفانيا المسعى « سابوليا » . وكان المجر الذين فرّوا من أمام الترك نادوا بفرديناند ، أخى الامبراطور شارل كان ملكاً عليهم ، وفى أيام سليمان حصلت قن فى بلاد قرامان ، وكليكييا وثارت البكطاشية ، وسارت الجيوش تلو الجيوش ، وخسرت الدولة جنداً كثيراً إلا أن ابراهيم باشا قمع الفتنة .

وفى زمن سليمان اشتدت العداوة بين فرانسة والامبراطور شارل كان ، وكان الامبراطور شارل كان أعظم سلطان مسيحى فى عصره ، إذ كان يلى ألمانية ، واسبانية وايطالية ، وهولاندة ، وكانت له الكلمة العليا فى البحر المتوسط فأوشك أن يخنق فرانسة ، ولم يبق أمل للفرنسيس إلا بالالتجاء إلى العثمانيين لأن السلطان سليمان لم يكن يجد أمامه قرناً يقاومه فى أوربة غير الامبراطور شارل كان ، الذى كانت الوقائع متصلة بينه وبينه على حدود النمسا . فكان من الطبيعى أن فرانسة تتفق مع السلطان العثمانى عدو عدوها ، ولكن فرانسة المشهورة بكثرة حروبها الصليبية ، وبشدة

عداوتها للإسلام ، لم يكن من السهل عليها أن تحالف العثمانيين بدون أن تكبر هذا الأمر جميع أمم النصرانية ، والأمة الافرنسية نفسها ، غير أن « فرنسيس الأول » الذي كان وقع في أسر شارل كان ، مضى في عزيمته في الالتجاء إلى العثمانيين ، ومد يده لمخالفة السلطان سليمان ، وكانت العلاقات الرسمية قد بدأت بين فرانسة والدولة العثمانية في زمن السلطان بايزيد الثاني من جهة ؛ ولويس الحادي عشر من جهة أخرى ثم كتب السلطان بايزيد كتاباً إلى « شارلوس الثامن » . وفي سنة ١٥٠٠ كتب السلطان إلى « لويس الثاني عشر » يطلب منه التوسط بينه وبين البندقية .

وكان « فرنسيس الأول » لأول حكمة عرض على امبراطور المانية وعلى فرديناند الكاثوليكي صاحب اسبانية مشروعا مآله تقسيم السلطنة العثمانية بين ملوك النصرانية ولكن لم يتم هذا الأمر لأنه لم يكن سهلا عليهم هذا العمل . ثم اتفق أن الحرب وقعت بين الالمان والفرنسيين ، وأخذ فيها فرنسيس الأول أسيرا ، فأرسلت الملكة « لويزا دوساقواي » بناء على مشورة وزيرها « دو براه Duprat » معتمدا بهدايا نفيسة إلى السلطان سليمان ، وذلك في ٢٥ فبراير سنة ١٥٢٥ ثم كتب الملك فرنسيس الاول نفسه كتابا إلى السلطان يخطب صداقته . ولما كان شارل كان قد عرض من جهته الصلح على السلطان واقترح التحالف ؛ ففضل السلطان مخالفة الفرنسيين لما كان الاتراك يعلمون من شدة الفرنسيين ، ولكن لم يرض الترك وقتئذ بكتابة حلف بالورق وإنما أجاب السلطان على كتاب الملك فرانسيس بكتاب تعالى فيه على ملك فرانسة ، وأظهر له مزيد عظمتة . وهذا الكتاب لا يزال مشهورا في التاريخ بعد أن ذكر فيه سليمان جميع ألقابه السلطانية . قال لفرنسيس : قد انتهى إلينا ما قدمته إلينا من العرض عن أن عدوك قد استولى على مملكته ، وأنت الآن في أسره ، وأنتك تلجأ إلينا لأجل إنقاذك وحمايتك ، فكل هذا قد عرض على سدتنا السنية ملجأ العالم ، وأحاط به علمنا السلطاني ، وليس غير معهود أن تدور الدائرة على الملوك ، وأن يقعوا في الأسر ، فليكن قلبك ثابتاً ، ولتكن نفسك طيبة النخ . ثم وعده خيراً .

ثم إن فرنسيس الأول تخلص من أسره بموجب معاهدة مجريط ، ولكنه لم

يعدل عن خطته من جهة مخالفة السلطان سليمان وكتب إليه يشكره قائلاً له : إننا مغتبطون بما نراه من كرم أخلاقك ، وما وعدتنا به من المساعدة في حالتنا الحرجة . الخ ثم أخذ فرنسيس الأول يجتهد في إقناع شعبه بأن تقربه إلى العثمانيين يكون وسيلة لنشر نفوذ فرانسة في الشرق ، ومحافظتها على المسيحيين الذين هناك ، وقد حصل بالفعل على امتيازات عديدة للفرنسيين بموجب الخط الشريف السلطاني المؤرخ في ٢٠ سبتمبر سنة ١٥٢٨ . فان السلطان سمح للفرنسيين والكتالان أن يجولوا في مصر ويتجروا كما يشاؤون ، وأنهم في الحصومات التي بينهم يراجعون قناصلهم فيما عدا الدم إذ يبقى الحكم فيه لقضاة الشرع . وأذن للفرنسيين والكتالان بانفاذ وصاياهم وأن القناصل يحررون التركات ، وغير ذلك من الامتيازات التي تساهل فيها السلطان ليتخذ من فرانسة رداءً ضد المانية .

ثم إنه جرى كلام بين فرانسة والسلطان بموجبه يتولى أحد أولاد ملك فرانسة على عرش المجر . وكانت الحرب قد اشتعلت بين المجر والعثمانيين ، فكان العثمانيون من جهة ومعهم الأمير « سابوليا الترانسلقاني » المولى من قبلهم على المجر ؛ والمجر والنسويون من جهة أخرى . فانكسر سابوليا ودخل فرديناند أخو شارل كان إلى بودابست . فزحف الجيش الاسلامي بقيادة ابراهيم باشا - وكان الجيش مائتين وخمسين ألف مقاتل - فدخل العثمانيون بودابست وأعادوا سابوليا إلى الملك . وجاء أمير البغدان وخضع للسلطان وسار السلطان سليمان في شهر سبتمبر سنة ١٥٢٩ إلى فيينا يحاصرها ومعه مائة وعشرون ألف مقاتل ، وأربعمائة مدفع ، ولاقاه في نهر الطونة ثمانمائة قلع . ولم يكن في فيينا أكثر من ستة عشر ألف مقاتل ، واثني وسبعين مدفعاً ، ولم تكن الأسوار متينة ، ولكن خوف الألمان على بلادهم بعث فيهم حمية خارقة للعادة ، فصدوا هجمات العثمانيين كلها . ويقال إن السلطان خسر في هذا الحصار أربعمائة ألف جندي ، واضطر إلى الرجوع خائباً ، وهي أول خيبة عرفت لها جيوش سليمان القانوني ! .

ولما رجع السلطان إلى بودابست توج سابوليا ملكاً على المجر ، وكان فرديناند

أخو شارل كان يسعى في استمالة ابراهيم باشا حتى يقنع السلطان بقبوله مد-كا محل نابوليا ، فعرض على ابراهيم باشا الرشوة فلم يجبه إلى شيء ، و بقيت الحرب تشتعل وفي سنة ١٥٣٢ استولى العثمانيون على « غون Guns » بعد حصار شديد ، ثم بثوا الغارات في إستيريا من بلاد النمسا ، وحصلت هناك معارك كانت فيها الحرب سجالا وجاء أمير البحر « اندري دوريا » المشهور فعاث في بلاد اليونان ، واستولى على الحصون التي كان بناها السلطان بايزيد على جوانب خليج ليانت ، ثم حصلت متاركة بين السلطان وبين شارل كان أراد السلطان خلالها أن يتفرغ لمحاربة العجم وذهب ابراهيم باشا على رأس جيش جرار فاستولى على تبريز ، ولكنه عامل الأهالي بالرفق . وزحف السلطان بنفسه واستولى على بغداد ، ورجع ظافراً بعد أن غاب أربعة أشهر .

وفي ذلك الوقت اشتهر في البحر المتوسط « أندري دوريا » أمير الأساطيل المسيحية وبمقابلته « خير الدين بربروس » أمير الأساطيل الاسلامية ؛ وكان هذا في مبدأ أمره هو وأخوه « عروج » من متلصصة البحر ، ثم دخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس ، ومن هناك امتدت سلطتهما على سواحل الجزائر . وقتل عروج في حرب بينه وبين الاسبانيول على تلمسان ، فانفرد بالأمر أخوه خير الدين ، وسماه السلطان أمير البحر سنة ١٥٣٣ ، وأخذ يعيث في البحر المتوسط ، ويفزو سواحل إيطاليا . ثم استولى على تونس فاضطر شارل كان الى غزو تونس وأخذها عنوة . وأطلق فيها خمسين ألف أسير مسيحي ، وأعاد سلطانها مولاي الحسن على شرط أن يؤدي له الاتاوة ، وأن تبقى هناك حامية اسبانيولية .

ثم إن فرنسيس الأول أرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه المحالفة مع معاهدة تجارية على أن سليمان وفرانيسيس يحاربان شارل كان إذا كان شارل كان يمتنع عن إعادة دوقية ميلانو ، وجنوة ، و بلاد فلاندر ، إلى فرانسة . وطلب من السلطان سليمان أن يقرضه مليوناً من الذهب حتى يقوم بنفقات الحرب اللازمة ، وكذلك كان من جملة الاقتراحات أن يفزو خير الدين جزيرة صقلية ، ومملكة نابولي

وجزيرة سردينية ، وكان المتولى لهذه المهمة الوزير الافرنسى « جان دولا فور » Jean dela Forest « فانعقدت معاهدة تتضمن حرية التجارة بين المملكتين العثمانية والافرنسية برأ وبمحرراً ، وأن تكون الدعاوى بين الفرنسيس جزائية كانت أو حقوقية متعاقبة بقناصل فرانسة . واذا وقعت جنابة من إفرنسى فلا يساق كسائر الناس إلى الحبس بل لابد أن يساق إلى الباب العالى ، وأن تجار الفرنسيس لا يؤدون إلا خمسة فى المائة عن بضائعهم ، وأن الافرنج من غير الفرنسيس كالانكليز ، والكتلان والصقليين ، والجنوية ؛ ممن ليست بينهم وبين الدولة العثمانية معاهدات إذا سافروا تحت العلم الافرنسى يتمتعون بالحقوق التى يتمتع بها الفرنسيس ، ولكن برغم الحرية الدينية التى يكفلها السلطان لرعايا فرانسة لا يحق أن يملك الفرنسيس ، ولا تملك الكنائس اللاتينية عقارات فى بلاد الاسلام ، وكذلك الافرنسى الذى يتزوج بمسيحية عثمانية تكون أولاده من رعايا السلطان ، وتضمن الاتفاق تحالفاً عسكرياً فى الهجوم والدفاع ، فالسلطان تعهد بمهاجمة مملكة المجر ، ومملكة نابولى ، والملك فرنسيس تعهد بشن الغارة على بلاد لومبارديا ، وجرى الاتفاق على أن المدن الايطالية التى يستولى عليها الاسطول العثمانى يكون للأتراك حق انتهابها وسوق أهلها أسرى ولكن ملكية هذه المدن تعود إلى ملك فرانسة . ولما انعقدت هذه المعاهدة كانت اليد الطولى فى عقدها لابراهيم باشا الصدر الاعظم ، ويقال إنه جعل توقيعها فى ذيل هذه المعاهدة باسم (سر عسكر سلطان) ففاظ ذلك السلطان سليمان وأساء فيه الظن وفى ٥ مارس ١٥٣٦ ذهب ابراهيم باشا إلى المراسى بحسب عادته فقبض عليه وخنق وتولى مكانه إياس باشا الارناؤطى . وكان السلطان سليمان والملك فرنسيس اتفقا على ادخال جمهورية البندقية فى هذه المعاهدة ، فأبى البنادقة أن يدخلوا فى هذا العقد فغزاهم السلطان بأسطول يبلغ مائة شراع ، فاجتاح سواحلهم ورجع بمشرة آلاف أسير ، واستولى على جزر الارخبيل اليونانى .

وجاء أمير البحر اندرى دوريا قائد أساطيل شارل كان لينازل الاسطول الاسلامى

فدارت الدائرة على أندري دوريا ، وذلك في واقعة « بريثيزا » التي وقعت في سبتمبر ١٥٣٨ . وفي السنة التالية حشد السلطان مائة ألف مقاتل في ألبانيا ناوياً شن الغارة على إيطاليا ، وجاء خير الدين بربروس بسبعين بارجة حربية ، فأنزل عساكره في مدينة « أوترانت » . وانتظر السلطان من ملك فرانسة أن يزحف على شمال إيطاليا ويرسل أسطوله لمعاونة الاسطول العثماني ، فلما انتشر هذا الخبر في الأمم النصرانية قامت له وقعدت ولم يجرأ فرنسيس على الاتيان بحركة . بل اشترط لأجل الهجوم على مملكة « بيمون » أن يخرج الأتراك من إيطاليا ، وعقد معاهدته مع شارل كان فلم يقع ذلك عند السلطان سليمان موقفاً حسناً ، لكنه اجتنب أن يخرق عهده للملك فرانسة ، واستمرت الحرب بين السلطان وبين شارل كان ومعه البنادقة ، وكانت الحرب بين السلطان والبنادقة سجالاً ، إلا أن البنادقة اضطروا أخيراً إلى طلب الصلح وتركوا جميع جزر الأرخبيل الرومي ، وتحلوا عن دالماسيا ، ودفعوا غرامة حربية للسلطان ثلاثمائة ألف دوكة . وفي ذلك الوقت مات اياكس باشا بالطاعون وكان أرناؤطيا في الأصل من عائلة كاثوليكية ؛ وكان ممدوح السيرة ، فتولى مكانه لطف باشا وكان أرناؤطيا أيضاً . وكان السلطان أزوجه بشقيقته ، واشتملت الحرب في بلاد المجر بين العثمانيين والنموسيين ، وثار أمير البغدان متفقاً مع النمسا ، فولى السلطان أخاه مكانه وفي أثناء هذه الحرب مات سابوليا ملك المجر من قبل السلطان سليمان فتولت الأمر امرأته ايزابيلا ، فزحف جيش النمسا لحصار بودابست ، فاستصرخت الملكة ايزابيلا السلطان سليمان فزحف بنفسه وجاؤا للسلطان بابن سابوليا وهو طفل عمره سنة وإذا بالإنكشارية دخلوا بفتة الى « بود » وتحولت هذه البلدة من بلدة مجرية الى بلدة إسلامية . فاعتذر السلطان للملكة ايزابيلا بأن مقصده بذلك تأمين بلاد المجر من غائلة النمسا . وأنه متى بلغ ابنها رشده يسلمه مدينة بود .

وكان « رنسون - Rincon » سفير قرانسة في القسطنطينية يعمل ليلاً ونهاراً لأجل إقامة الاتحاد بين فرانسة وتركية ، وكان هذا السفير يلوم مولاه فرانسيس الأول على مهادنته لشارل كان ، وفي أثناء ذلك انخدع فرانسيس بسياسة شارل كان وأرسل

الى السلطان سليمان يطلب منه مصالحة عدوه شارلكان ، فاستغرب السلطان هذا الطلب !! ولكن رنسون أصلح خطأ سيده ، فكتب السلطان الى فرانسيس قائلاً له : « إن شارل ملك أسبانيا يلتمس الهدنة بواسطتك ، فإذا كان يريد الهدنة وكنت أنت تريد ذلك من قلبك فانا اشترط عليه بأن يرد لك جميع البلاد والحصون والأراضي التي أخذها منك ، فإذا قام بهذا الشرط ، وأنت أعلمت بابي العالى بذلك ، فانا أعمل لك ما تشاء . »

وظهر أن الحق كان مع السلطان سليمان ، وأن الامبراطور شارلكان كان قد خدع ملك فرانسة ، ثم تجددت الحرب وبعث فرانسيس الأول يلتمس من السلطان تجريد الأسطول العثماني كله لمباشرة الحرب ، وكان للسفير رنسون اليد الطولى في ذلك . فأرسل شارلكان من قتل رنسون السفير الافرنسي غيلة بحجة أنه خائن للنصرانية فكتب فرانسيس الأول الى ندوة نورنبرغ يشكو عمل شارلكان ، ويتهمه بأنه زور وثائق لا صحة لها تبرئة لنفسه من ذلك الجرم .

وبلغ السلطان سليمان مقتل رنسون بينما كان في « يود » فبلغ منه الغضب أنه كاد يقتل سفراء النمسا الذين عنده ، ولولا توسط المعتمد الافرنسي « بولين Boline » الذي أتاه بخبر قتل رنسون لكاف السلطان من شدة غضبه قتلهم . وأما سياسة فرانسيس الأول فكان قد ظهر للسلطان أنها سياسة تذبذب ، وكاد يرغب عن صحبته الا أن بولين المعتمد الافرنسي التجأ الى خير الدين بربروس ، وكان هذا أصبح مقرباً جداً عند السلطان لا سيما بعد أن كسر أسطول شارلكان في بحر الجزائر ، وكان بربروس يعيل الى فرانسة . فما زال بالسلطان حتى أقنعه بارسال الأسطول العثماني نجدة لملك فرانسة على الامبراطور شارلكان ، وذلك سنة ١٥٤٣ . فسار الأسطول العثماني الى « نيس » بقيادة خير الدين بربروس ، وكان مركباً من مائة وعشر بوارج عليها أربعة عشر الف مقاتل ، فانضم اليه أسطول ملك فرانسة بقيادة الكونت « دانغين d'enghien » وكان مركباً من أربعين بارجة عليها سبعة آلاف مقاتل فاستولى العثمانيون والفرنسيون على نيس ، ولكنهم اختلفوا وقامت قيامة النصرانية

على فرانسيس الأول من أجل تحالفه مع المسلمين على النصارى ، ومن أجل موافقته على إذلال النصرانية في بلادها ، حتى قيل : إن السكنايس في سواحل نيس لم تكن تجرأ على قرع أجراسها مدة إقامة الاسطول العثمانى أمام نيس .

فتصالح فرانسيس الأول مع شارلكان ، ووجه السلطان قوته الى حرب المجر ففتح « قالبو » و « سيكلوز » و « غران » و « نيوغراد » و « قيس غراد » و « فيلكا » وغيرها ، فارسل شارلكان وأخوه فرديناند يلتمسان الصلح من السلطان وكاد السلطان ينجح الى الصلح لولا مساعى « جبرائيل دارامون d'Aramont » سفير فرنسا الذى كان يهون على السلطان أمر شارلكان ، قائلا له : إنه في المقيم المقعد مع أمراء البروتستانت في المانيا . فعاد السلطان سليمان وأجمع على الحرب وقرر الزحف ، وكتب بذلك الى الملك فرانسيس في شهر مايو ١٥٤٧ ، فوصل كتاب السلطان الى فرانسة بعد وفاة فرانسيس الأول . فتبدلت الحالة ، وجنح السلطان الى مصالحة شارلكان ، وانعقدت بينهما متاركة لمدة خمس سنوات على أن يدفع الأمير فرديناند أخو شارلكان للسلطان العثمانى خمسين الف دوكة كل سنة جزية عن القسم الباقي من بلاد المجر تحت ولايته .

ولما استراح ففكر السلطان من جهة أوربة وجه نظره إلى آسيا ، فاستنجد به أمراء الاسلام في الهند على البرتغال ، وأنجدهم ، وأرسل فاحتل اليمن ، ووقع القتال بين العثمانيين والزيديين ، وكتب السلطان إلى امام صنعاء يعاتبه على قتاله للجيش العثمانى ولكن الامام أجابه بجواب شديد قائلا له : إننا نعلم بلائك العظيم في حفظ بيضة الاسلام ، ولا نشكو منك ، وإنما نشكو من سوء إدارة عمالك ، وقد كان الأولى بهم أن يسوقوا هذه القوة على الكفار بدلا من أن يسوقوها على المسلمين الذين هم على كل حال تبعه السلطان . وهذا الكتاب مذكور في تاريخ البرق اليماني . ثم جاء ابن شاه المعجم والتجأ إلى السلطان ، فزحف السلطان إلى تبريز ، وفتحها بعد أن فتح « وان » ثم فتح جانبا من « كرجستان » .

وبينما كان جيشه يتقدم في آسيا إذ تجددت الحرب في بلاد المجر ، وذلك أن

الملك سابوليا كان أوصى امرأته إيزابيلا بقسيس اسمه « جورج مارتيموزى » فصارت تعمل برأيه ، وكان هذا القسيس يشتغل لفصل الملكة إيزابيلا عن السلطان ولتأليفها مع الأمير فرديناند ، وأقنعها بأن تترك له « ترانسلفانيا » و « البانات » وكل ذلك لم يعلم به السلطان إلا فيما بعد . فلما بلغه الخبر سيّر ثمانين ألف مقاتل فعبرت نهر الطونة ، واستولت على « ليبا » واشتدت الوقائع ، ولكنها انتهت بظفر السلطان . وأرسل أحمد باشا على أثر الواقعة أربعة آلاف أنف من أنوف التسويين إلى الاستانة ورجعت « أطمشوار » و « البانات » إلى حكم الدولة العثمانية ، وأخذ العثمانيون البارون « غوندن دورف » أسيراً مع أربعة آلاف مقاتل .

ثم استولى فرسان مالطة على طرابلس الغرب ، فأرسل السلطان الأسطول العثماني فطردهم منها وضم تلك البلاد إلى السلطنة العثمانية . وكان هنرى الثانى بن فرانسيس الأول لا يقل رغبة عن أبيه فى مخالفة الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٥٥١ تعهد هنرى الثانى للسلطان بتأدية ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية بدلا عن مساعدة الأسطول العثماني لفرانسة ورهن تحت ذلك جانبا من سفنه ، واتفقا على أن السلطان ينجده بستين مركباً حربياً وخمسة وعشرين مركباً من مراكب القرصان وأنه إذا أراد ملك فرانسة أن يستعمل هذه القوة البحرية خارجاً عن بحر طوسكانة فعليه أن يؤدى مائة وخمسين ألف ذهب وتقرر أن جميع السفن التى يغنمها الأسطول العثماني تكون ملكا للسلطان ، وأن المدن التى يستولى عليها العثمانيون يصير رجالها وأموالها ملكاً أيضاً للسلطان ، إلا أن المدن نفسها تصير لملك فرانسة . وتقرر أن الأسطول العثماني يكتسح ماشاء من ممالك شارلكان ، ويسبى بقدر ما يستطيع . وسار الأسطول العثماني بقيادة « طورغوت ريس » وانضم إليه الأسطول الفرنسى بقيادة « البارون لا غارد » فاكتمل بلاد كالابرية وصقلية ، واحتل كورسيكا ، ودانت لهما جميع المدن التى فى تلك السواحل .

إلا أنه لم يلبث الخلف أن وقع بين الحلفاء لأن الافرنسيس اعترضوا على عدم حرمة العثمانيين للدم ، والدين ، والمال ، فافترق الأسطولان ، وغضب السلطان على « طورغوت » وأرسل أسطولاً آخر بقيادة بيالى باشا كان عدده سبعين بارجة حربية

ولكن هذه المرة أيضاً لم يقع الوفاق بين أمراء الأسطولين . والفرنسيس يقولون إن قواد الترك لم يكونوا يفكرون إلا في النهب والسبي ، وأرسل هنرى الثانى إلى سفيره فى القسطنطينية يقول له : إني مع الأسف لم أقدر أن أستفيد من عضد الجيش العثمانى لى لا لعدم رغبة السلطان فى ذلك ؛ بل لاهتمام قواده بالفنائم دون الاهتمام بتنفيذ إرادة مولاهم . ومن بعد هذه الواقعة تصالح هنرى الثانى ملك فرنسا مع فيليب الثانى ملك اسبانيا وملحقاتها ، وعادت المحالفة التركية الافرنسية من ذلك التاريخ حبراً على ورق ، لا سيما أن السلطنة العثمانية بعد السلطان سليمان بدأت بالتقهقر

وكان السلطان سليمان فى آخر حياته قد اختاف مع أولاده ، لأن وزيره الأعظم « رستم باشا » وشى للسلطان على ولده مصطفى ، وكان العسكر يحب مصطفى جداً لكرمه وشجاعته ، وكان العلماء والأدباء يحبونه أيضاً لاعتنائه بالعلم والأدب فزين رستم باشا للسلطان أن ابنه يريد أن يخلعه ويجلس مكانه ، ووقر ذلك فى نفس السلطان ، فأمر بقتل ولده مصطفى فى مخيمه وهو فى الأناضول ، وذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٣ وكان لمصطفى ولد فى بروسة فقتلوه أيضاً ، وبكت المملكة كلها على مصطفى لما كان له من المنزلة فى قلوب الأمة ، ولا سيما عند العلماء وعند العساكر - أى رجال السيف والقلم معا - وكان مصطفى شاعراً له أغزال لطيفة نشرها تحت اسم مستعار (مخلصى) وكان له تفسير للقرآن ، وتعليقات على البخارى وكتب نحوية ، وراثه الشعراء ولم يخشوا والده وكان لمصطفى أخ اسمه « جهانغير » فمات حزناً على أخيه ، واثارت العساكر على السلطان وطلبت عزل الصدر الأعظم رستم باشا الذى كان الواشى بالأمير مصطفى ، وكان السبب فى هذه المأساة التى جرحت القلوب بأجمعها ، وكان مرجع كل هذه الدسائس الى السلطنة « خورشم » التى كانت تهىء العرش للأولاد الذين منها . وكان رستم باشا صهرها ، وهى التى فى الحقيقة قتلت الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، ثم قتلت الصدر الأعظم احمد باشا الذى كان قد خاف صهرها فى الوزارة . وهى التى قتلت الأمير مصطفى ابن السلطان .

ثم نشبت الحرب من جديد بين العثمانيين والمجر ، فزحف خادم على باشا على

بلاد المجر واستولى على عدة من المدن ، وقام المجر يقاتلونه وعلى رأسهم الامير فرديناند ، ولكن الدولة اضطرت الى توقيف الحرب والمنازكة ، نظراً لما طرأ من الحوادث في بيت الساطنة ، لأن الامير بايزيد ابن السلطان تار على أبيه على أثر دسائس بين الوزراء لا محل لذكرها هنا فجمع بايزيد عشرين ألف جندي وقاتل بهم عساكر أبيه ، فتغلب أبوه عليه وفر بايزيد مع ولده أورخان إلى أماسية ، ومن هناك كتب إلى والده يلتمس منه العفو ، فوقع الكتاب والرسول في يد « لا لا مصطفى باشا » الذي كان عدواً لبايزيد ، فأخفى الكتاب عن السلطان ، ولما لم يجد بايزيد جواباً من أبيه ذهب ملتجئاً إلى شاه العجم ، وكان معه اثنا عشر ألف جندي ، فقبله الشاه طماسب برأ وترحيباً في ظاهر الحال ، وانكته وضع نصب عينه استثمار هذه الحادثة بقدر الاستطاعة . وبالاختصار فقد قبض طماسب أربعمائة ألف ذهب ، وقتل بايزيد مع أولاده الأربعة ، وكان لبايزيد طفل في بروسة في سن ثلاث سنوات فقتلوه أيضاً .

وكان قد تولى الوزارة على باشا ، وكان رجلاً حليماً كريماً ، يكره الشر ، فعقد مع النمسا صلحاً في يوليو سنة ١٥٦٢ ، وبعد عقد هذا الصلح تفرغ السلطان لمشروعاته البحرية ، وأجمع غزو مالطة . فسير بيالى باشا قبطان البحر ، ومعه صالح بك أمير الجزائر ، ودراغوت أمير طرابلس ، وكان الاسطول العثماني مؤلفاً من مائة وثمانين بارجة وفي ٢٠ مايو ١٥٦٥ أنزل الاسطول عشرين ألف عسكري في مالطة وبدأوا بحصار قلعة « سنت إيلم Saint-Elme » وفي أول يوم من المهاجمة سقط « دراغوت » أمير طرابلس قتيلاً ، وبقي الأتراك يضيقون على ذلك الحصن حتى أخذوه عنوة ولكن أدوا عنه ثمناً غالياً جداً .

وكان رئيس فرسان مالطة « بطرس لاڤاليت » فأرسل قائد الجيش العثماني مصطفى باشا يعرض عليه الاستسلام ، فأجاب بأنه ليس أمامه سوى الدفاع أو الموت إلا أن الخبر ورد بأن الحرب نشبت من جديد في بلاد المجر ، فأقنع العثمانيون عن مالطة ، وذلك أنه كان الامير « فرديناند » قد مات وخلفه ابنه مكسيمليان ، وكان

راغباً في الصلح ، إلا ان إتيان بن سابوليا ملك المجر من قبل الدولة العثمانية تجاوز حدود النمسا ودخل بلدة « سآمار » فلم يسع مكسيمليان إلا أن يحشد جيشه ويدخل الى بلاد المجر ، وكان على باشا الصدر الاعظم قد مات خلفه « محمد باشا سوقولوفيتش » من بوسنة ، وكان راغباً في الحرب . فدخلت الجيوش العثمانية في « كرواسية » « وترانسلفانيا » وجاء السلطان سليمان الى بلاد المجر ، ودخل عليه اتيان بن سابوليا فوعده بأنه لن يفارق المجر قبل أن يوطد له ملكه ، فحصر السلطان بنفسه مدينة « سيغيت Szlgeth » واستولى عليها ، وامتنعت القلعة وبقى العثمانيون يحاصرونها مدة أربعة أشهر ، في أثناءها مات السلطان سليمان فأخفى سوقولوفيتش خبر موته عن الجيش وكانت وفاة السلطان في ٥ سبتمبر ١٥٦٦ وفي ٨ سبتمبر استولى العثمانيون على القلعة وذبحوا كل من فيها ، وبقى الصدر الاعظم كاتماً موت السلطان عن الجيش يقرأ الأوامر باسمه الى أن وصل السلطان الجديد من كوتاهية .

ولا شك في أن السلطان سليمان القانوني كان أعظم سلطان أنجبه البيت العثماني ، وبرغم ما عابوه من انقياده للسلطانة التي كانت أحظى حظاياه المسماة « روكسلان » وبرغم قتله وزيره ابراهيم باشا الذي كان عماد سلطنته ، وقتله أولاده فقد قال المؤرخ « هامر Hammer » أشهر مؤرخ لسلطنة آل عثمان : إن هذه الاغلاط لا ينبغي أن تنسينا محاسن هذا السلطان الباهرة ، التي جعلت من زمانه العصر الأكبر للسلطنة العثمانية ، وذلك بعلو همة هذا السلطان ، وسعة عقله ، ومتانة عزمه ، وشدة بأسه ، مع محافظته التامة على الشريعة الاسلامية ، ومع حبه للنظام وال ضبط ، ومع تشييره للمملكة وخيراتها ، ومراعاة الاقتصاد مراعاة لا تمحل بشئ . من إظهار عظمة الملك ، والبذخ في مقام البذخ . وكان السلطان سليمان محباً للعلم والعلماء موقراً لهم عارفاً بأقدارهم ، لا يألو جهداً في الاحسان اليهم ، والاعتناء بشأنهم .

وقال المؤرخ الافرنسي « لاجونكيير La Jon quiere » : إن عصر سليمان القانوني لم يكن له نظير ؛ سواء من جهة الفنون والآداب ، أو من جهة المفاخر الحرية سوى عصر لويس الرابع عشر في فرانسة ، مع الفرق بأن دور سليمان انتهى كما بدأ في

عنجهية الظفر ، ولم تكن نهايته إدباراً وبدايته إقبالا ، ولم يعهد أن السلطنة العثمانية أنجبت في عصر من الأعصر من أعظم الرجال بقدر ما أنجبت في عهد السلطان سليمان فقد نبغ فيها من رجال السياسة ؛ ابراهيم باشا ، ورستم باشا ، وصقولى باشا . ومن رجال البحر ؛ خير الدين بربروس ، وطور غوت ، ودراغوت ، وبيالى . ومن قادة الجيوش فرهاد باشا ، وأرسلان باشا ، وحمزة باشا ، وميكال أوغلى . ومن كتاب السلطنة جلال زاده ، ومحمد إيفرى عدى . ومن الفقهاء ؛ ابو السعود افندى ، وابن كمال باشا ونبغ في عصره من الشعراء ؛ عبد الباقي الذي كان عند الاتراك كما كان المتنبي عند العرب ، وحافظ عند الفرس . وكان السلطان سليمان يحل عبد الباقي اجلالاً زائداً ويجعله حلية عصره . ولما كان السلطان سليمان نفسه شاعراً فقد بعث اليه بايات يلقيه فيها بشاعر آل عثمان . ومن شعراء ذلك الوقت يحى بك الذى رثى الامير مصطفى ابن السلطان سليمان ولم يحقد عليه السلطان بسبب ذلك ، بل خصص له مرتباً . ومن شعراء ذلك العصر فضولى ، والروانى ، والسامعى ، وغيرهم . ومن مآثر السلطان سليمان المعدودة ؛ جامع السليمانية الذى لا يوجد بناء أجل ولا أدق منه في أبنية آل عثمان ، وكذلك جامع السليمية الذى بنى على قبر السلطان سليم الأول . وجوامع محمد وجهانغير في غلطة . وجامع السلطنة الخاصكى . وفي زمانه جرى إصلاح قناة المياه المسماة « بقناة يوستقنيانوس » فى استانبول . وكذلك جدد السلطان سليمان قناة جديدة على الحنايا الى دار السلطنة ، ولو شاء الكاتب أن يحصى جميع مآثر السلطان سليمان من الأبنية الفخمة ، والآثار الخالدة ، لاحتاج الى كتاب كبير ، وهو مع ذلك إنما تخصص بالقوانين حتى أطلق عليه المؤرخون اسم « القانونى » وكان له مزيد الاعتناء برتب العلماء ، وتوفير الجرايات لهم ، وإغنائهم عن الناس . وقد ميزهم فى أمور كثيرة وهذا دأب جميع آل عثمان .

وله قوانين كانت فى غاية الحكمة ، لولاها لم تكن السلطنة العثمانية بلغت ما بلغت من السعادة فى زمانه ، فان الحروب بينه وبين دول النصرانية ، وبين دول آسيا أيضا كانت متصلة ، وكانت الجيوش تتلو الجيوش ، والزحوف تتبع الزحوف ، وجميعها

تقدر بمئات الألوف من العساكر ، فلو لم تكن البلاد معمورة ، والنعم موفورة والارزاق فائضة ، والخيرات دارّة ؛ لم يكن يتيسر للسلطان قضاء نصف قرن في الجهاد المستمر ، وتعبية الجيوش الجرّارة بدون استنزاف حياة المملّكة . والحقيقة أن السلطان وجه عناية خاصة الى مسألة تنظيم المالية ، وترتيب الخراج ، بشكل يفي باحتياجات الدولة بدون أن يرهق الرعية . وبلغت واردات السلطنة في أيامه نحواً من تسعة ملايين وعشرين ألف دوكة !! هذا عدا واردات الخزانة الخاصة التي كانت تبلغ أيضاً خمسة ملايين دوكة . هذا ولما بلغ سليمان سنّ الكبر صار قليل الخروج إلى الديوان ، وصار الوزراء يستبدون ويسترسلون الى شهواتهم - وفي هذا أصاب سليمان من الانتقاد ما أصاب عبد الرحمن الناصر الأموي الذي يشبه سليمان في طول مدة حكمه ، بل تولى عدة سنوات زيادة على حكم سليمان - ويشبهه في سعة ملكه ، وعظمة أعماله ، وتوالي فتوحاته ، وسعادة الرعية في ظله ، ولكنه في آخر الأمر اعتمد على خواصه ، وأخذ الى الراحة . فشكا الرعية من عمّاله ، وتناولوه باللوم ، وأشرعوا اليه أسنة الانتقاد ، ولكنه لم يمنع هذا أن يكون عبد الرحمن الناصر وسليمان القانوني كل منهما نسيج وحده ، وأن يكون مفخرة من مفاخر الإسلام الكبرى .

وجاء في « شذرات الذهب » أنه في سنة ٩٧٤ كما في « النورالسافر » أو ٩٧٥ كما في كتاب « الأعلام » . توفي السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان الحادي عشر من ملوك آل عثمان . قال في الأعلام : كان سلطاناً سعيداً ، ملكاً أيده الله بنصر الاسلام تأييداً ، ولى السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ست وعشرين وتسعمائة ، وجلس على تخت السلطنة وما دلى أنف أحد ، ولا أريق في ذلك محجمة من دم . ومولده الشريف سنة تسعمائة ، واستمر في السلطنة تسعاً وأربعين سنة ، وهو سلطان غاز في سبيل الله ، مجاهد لنصرة دين الله ، رغم أنوف عداه ، باسان سيفه وسان قناه ، كان مؤيداً في حروبه ومغازيه ، مسدداً في آرائه ومغازيه ، مسعوداً في معانيه ومغانيه ، مشهوداً في وقائمه ومراميه ، أيان سلك ملك ، وأنى توجه فتح وفتك ، وأين سافر سفر وسفك ، وصلت سراياه إلى أقصى الشرق

والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب ، وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعان والضرب . وكان مجدد دين هذه الأمة الحمديّة في القرن العاشر ، مع الفضل الباهر ، والعلم الزاهر ، والأدب الغض الذي يقصر عن شأوه كل أديب . وشاعر إن نظّم فمقود الجواهر أو نثر فمشتور الأزاهر ، وإن نطق قلّد الأعناق نفائس الدر الفاخر . له ديوان فائق بالتركي ، وآخر عديم النظير بالفارسي ، تتداولهما بلغاء الزمان ، وتمعجز أن تنسج على منوالهما فضلاء الدوران . وكان رؤوفا شفوفا ، صادقا صدوقا ، إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدق ، لا يعرف الغلّ والخداع ، بل يتحاشى عن سوء الطباع ، ولا يعرف المكر ولا النفاق ، ولا مساوى الأخلاق ، بل كان صافى القواد ، صادق الاعتقاد ، منور الباطن ، كامل الايمان ، سليم القلب خالص الجنان .

وما تناهيت في بني محاسنه إلا وأكثر مما قلت ما أدع

وأطال صاحب الأعلام في ترجمته وترجمة أولاده ، وذكر غزواته ، فذكر له أربع عشرة غزوة انتصر وفتح في جميعها ، وذكر كثيراً من مآثره ، فمن ذلك الصدقة الروميّة التي هي الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين ، فانه أضاف إليها من خزائنه الخاصة مبلغاً كبيراً . ومنها صدقات الجوالى - ومعناه ما يؤخذ من أهل الذمة في مقابلة استمرارهم في بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها - وهي من أجل الأموال ولأجل حلّها جعلت وظائف للعلماء والصلحاء ، والمتقاعدين من الكبراء . ومنها إجراء العيون ، ومن أعظمها أجراً عين عرفات إلى مكة المشرفة ، ومنها بمكة المدارس الأربع ، ومنها تكيّته ومدرسته العظيمة بمرجة دمشق ، إلى غير ذلك مما لا يحصى فرحمه الله رحمة واسعة . انتهى ملخصاً . ومن أراد البسط الزائد فليراجع الأعلام . اهـ

قلت : كان سليمان القانوني يجمع أحياناً بين الأضداد ، فانه قد اشتهر عنه من الرأفة والعفو ما لا خلاف فيه ، كما أنه ثبت كونه أمر بقتل أولاده الذين بلغه أنهم كانوا يريدون أن يخاموه ، والملك - كما يقال - عقيم ، فلا تنفع في جانب الاستئثار بالملك رأفة ولا شفقة ، وهذا من وجوه الشبه أيضاً بين السلطان سليمان القانوني

والخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي ، الذي قتل أيضاً ابنه . وكان الحامل له على قتله سبب أشبه بالسبب الذي حمل السلطان سليمان على قتل ابنه مصطفى ، وهو ولوع الناس به ، وحموم القلوب عليه ، واشتهاره بالعلوم والآداب .

هذا وقد رثى السلطان سليمان المفتي أبو السعود العمادى الشهير بمرثية هى وإن كانت من شعر العلماء ، وعلى لهجة الفقهاء ؛ فهى لا تخرج عن طبقة الشعر العالى قال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور	فالأرض قد ملئت من نقر ناقور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن	قضت أوامره فى كل مأمور
وَمَنْ وَمَنْ مَلَأَ الدُّنْيَا مَهَابَةً	وسخرت كل جبار وتيمور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد	مؤيد من جناب القدس منصور
وصدق عزم إلى الخيرات منصرف	وحسن لحظ على الألفاظ مقصور
ومنها :	

يا نفس مالك فى الدنيا مخلقة	من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة	أليس جثمانه فيها بمقبور
يانفس فأتندى لا تهلكى أسفاً	فأنت منظومة فى سلك معذور

وأما العلماء الذين نبغوا فى زمان السلطان سليمان القانوني ، فمنهم المولى خير الدين الذى كان معلماً للسلطان ، وكان قد حصل على حشمة وافرة بسبب جاهه عند السلطان سليمان ، ومع ذلك لم يتبدل ما فى طبعه من التواضع ولين الجانب . ومنهم قادرى شلبى ، وتقلب فى المناصب العلمية حتى صار قاضياً للعساكر ، ثم عزل عن ذلك وتولى الافتاء بالقسطنطينية . ومنهم سعد الله بن عيسى ، وأصله من قسطنطينى وتولى القضاء بالقسطنطينية ، ثم تولى الافتاء بها ، وكان محمود السيرة مرضى الطريقة . ومنهم الشيخ محمد بن إلياس المشتهر « بجوى زاده » تولى القضاء بمصر ، ثم صار قاضياً للمسكر المنصور ، ثم تولى الافتاء بالقسطنطينية ، ثم تقاعد عن الفتوى وعاد إلى التدريس وكان قوَّالاً بالحق ، صادعاً بالشرع ، وقال صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه

كان من محاسن الايام . ومنهم المولى محيى الدين محمد بن قطب الدين ، وكان مدرساً وما زال يترقى حتى تولى قضاء المساكر ، ثم عزل عن القضاء فرجع الى التدريس ، ثم ترك التدريس وذهب إلى الحج ورجع ، وانقطع للعبادة واعتزل الناس . ومنهم المولى حافظ محمد بن احمد باشا بن عادل باشا أصله من بردعة ، فى حدود المعجم ، قرأ فى تبريز وفاق أقرانه ، وبلغ الغاية من العلوم العقلية مع الرسوخ التام فى الفقه ، والتفسير والحديث ، ومع الأدب ، والتاريخ ، ولم يكن يفتر عن الكتابة ، وله تأليف كثيرة وشروح وحواش على كتب السيد الشريف الجرجاني ، وله رسالة اسمها « الهيولى » وله كتاب اسمه « مدينة العلم » جعله ثمانية أقسام ، وأورد فى كل قسم منها اعتراضات على ثمانية من العلماء المشهورين فى الآفاق ؛ كصاحب الهداية ، وصاحب الكشف والبيضاوى ، والتفتازانى ، والشريف الجرجاني ، ونحوهم . وله رسالة اسمها « نقطة العلم » ورسالة أخرى اسمها « معارك الكتاب » ورسالة أخرى اسمها « السبعة السيارة » وكان بالجملة من أعظم العلماء ، ومنهم الشيخ محمد التونسى المغوشى ، قال عنه الطاشكبرى صاحب « الشقائق النعمانية » : إنه أجازه ، وقال إنه كان آية من آيات الله الكبرى فى العلم والفضل والتحقيق ، وكان يقرأ القرآن العظيم على السبع القراءات ، بل على العشر . وذلك بدون مطالعة كتاب ، وكان يحفظ الشرح المطول للتلخيص ، مع حواشيه للسيد الشريف ، ويحفظ شرح المواقف للسيد ، وشرح المطالع لقطب الدين الرازى ، والكشاف مع حواشى الطيبي ، وغير ذلك من الكتب يحفظها بأسرها . ولم يكن يحتاج إلى كتاب ، ولا إلى ورقة ، بل كان يملئ كل شىء من حفظه ! وقد يكون شأنه فى هذا من خوارق العادة ، وفى آخر الأمر استأذن السلطان سليمان فى الذهاب إلى مصر فراراً من برد استانبول الذى لم يألفه ، وتوفى فى مصر .

ومنهم المولى عبد الفتاح بن احمد بن عادل باشا ، كان من المدرسين الكبار وتوفى وهو يدرس بمدرسة الوزير ابراهيم باشا فى القسطنطينية ، ومنهم المولى علاء الدين على الاصفهاني ، وكان أيضاً من كبار المدرسين ، وأصله من بلاد المعجم . ومنهم مصلح الدين المشهور « بجاك » وأصله من بلاد منتشا ، وكان مدرساً ثم انقطع عن

التدريس ، وانقطع للعبادة . ومنهم شاه قاسم بن الشيخ الخدومي من أهل تبريز لما فتح السلطان سليم تلك البلدة أتى به معه إلى بلاد الروم ، وكان من الأدباء .

ومنهم قاضي زاده الاردبيلي ، وهو من تبريز أيضا ، فلما فتحها السلطان سليم أتى به أيضا إلى بلاد الروم . وقد ترجم « تاريخ ابن خلكان » إلى الفارسية وقتل مع الوزير احمد باشا نائب السلطان سليمان في مصر . ومنهم محي الدين محمد القرا باغي قرأ في بلاد المعجم ثم أتى إلى بلاد الروم ، وعاش مدرسا ، وله تأليف منها شرح لرسالة « إثبات الواجب » للدواني ، وحواش على شرح « الوقاية لصدر الشريعة » وكتاب في المحاضرات اسمه « جالب السرور » وقد تلقى علماء عصره هذه الكتب بالقبول . ومنهم ابن الشيخ الشبشري ، وقرأ في بلاد المعجم ، وجاء إلى بلاد الروم وله قصيدة بالفارسية مقدار ستين بيتا مصراع كل بيت منها تاريخ جلوس السلطان سليمان وكان المصراع الأخير تاريخاً لفتح قلعة رودس وله كتب وحواش على تأليف السيد الجرجاني ، وأثنى السيد الطاشكوبري عليه في أخلاقه .

ومنهم الشريف المعجمي ، قرأ في بلاد المعجم ، ثم جاء إلى بلاد الروم وعاش مدرسا ومات وهو مدرس في إزنيق . ومنهم حسام الدين ابن الطباخ ، ولد في مدينة غاليبولي وكان من المدرسين ، وتولى القضاء ثم ترك القضاء والتدريس ، وكان على المهمة لا يتذلل إلى أرباب الجاه ولا يذكر أحدا بسوء . ومنهم محمد بن بير محمد باشا الجمالي قرأ على والده ، ثم على أحمد بن كمال باشا ، وتولى التدريس بأحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ثم صار قاضيا في أدرنة ومات وهو قاض بها . ومنهم المولى عبد اللطيف من قسطنطينية ، وكان أيضا من أكابر المدرسين ، ثم استقضى في أدرنة ثم ترك القضاء وكان على جانب عظيم من الصلاح ، همه في آخرته لا في دنياه . ومنهم المولى بايزيد الشهير « بنقيضي » وكان مدرسا صالحا لا ياتفت إلى الدنيا ، وكان يرضى من العيش بالقليل . ومنهم يعقوب الحميدي ، وهو من المدرسين أيضا وكان عابدا متصوفا . ومنهم محمد الشهير « بابن المعمار » كان مدرسا في أسكوب ، ثم جاء مدرسا في إحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية واستقضى في مدينة حلب مرتين ، ومات وهو

قاض بحلب ، وكان مرضى السيرة . ومنهم شمس الدين أحمد المشهور « بابن الجصاص » صار قاضياً بدمشق ، ثم صار مدرساً باحدى المدارس الثمان في القسطنطينية ، ومات وهو مدرس بها . ومنهم علاء الدين على المشهور « بـ بـ جـ جـ جـ » وكان يدرس في المدارس المشهورة ، ومات وهو يدرس باحدى المدارس الثمان . ومنهم سيدي المنتشوي الملقب « بالدب » وكان من المدرسين . ومنهم المولى حيدر الملقب « بحيدر الأسود » كان مدرساً ، ثم استقضى بمدينة حلب ولم يحمد سيرته في القضاء فغضب عليه السلطان وعزله ، فعاش في القسطنطينية وبنى مسجداً ووقف عليه أوقافاً إلا أن اشتغاله بأمور الدنيا كان أكثر من اشتغاله بالعلم عفا الله عنه . ومنهم عبيد الله شاي بن يعقوب الفناري من جهة الأم ، كان قاضياً في مدينة حلب . قال صاحب الشقائق : إنه كان حميد الاخلاق الى الغاية ، وكان من الكرم بما لا مزيد عليه ، وربما تجاوز حد الكرم الى الاسراف ، وملك أموالاً عظيمة وكان ينفقها كلها ، وملك عشرة آلاف مجلد من الكتب ، وله شرح على « البردة الشريفة » من أحسن شروحا .

ومنهم حسام الدين حسين الشهير « بكذك حسين » كان من المدرسين الكبار ومات وهو مدرس في طرابزون ، وكان من أهل التقوى والصلاح . ومنهم محمد الشهير « بابن القوطاس » أصل أبيه من بلاد المعجم وجاء الى الروم ، وتوفي محمد المذكور وهو يدرس بمدرسة محمود باشا في القسطنطينية . ومنهم سنان الدين يوسف ابن أخي الأيدني الشهير « باخي زاده » قرأ في بلاد المعجم ، ودرس في بلاد الروم وكان عالماً سليم النفس على فطرة الاسلام . ومنهم المولى جلال الدين القاضي ، كان مدرساً ثم صار قاضياً ، وكان عالماً فاضلاً صالحاً محمود الطريقة في قضائه . ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر الحلبي ، كان مدرساً ثم تولى القضاء ، وكان مشغلاً بنفسه ، سليم الطبع خاشعاً متواضعاً ، وقد بنى دار التعليم بالقسطنطينية . ومنهم ابن الكتمخدا الكرمياني قرأ في بلاد المعجم على العلامة جلال الدين الدواني ، وتولى التدريس في الروم ، ثم صار قاضياً وحدث سيرته في القضاء . ومنهم بدر الدين محمود

من أولاد الشيخ جلال الدين الرومي ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، وكان صاحب أخلاق كريمة . ومنهم بدر الدين محمود بن عبيد الله ، كان مدرسا في إحدى المدارس الثمان ، ثم تولى القضاء بحلب ، ثم بأدرنه ، ومات وهو قاض بها . وكان مستقيم الطريقة . ومنهم اسحاق الأسكوبي ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بدمشق ، ومات وهو قاض بها . وكان صدوقا صحيح العقيدة .

ومنهم أبو السعود المشتهر « بابن بدر الدين زاده » وكان قاضيا ومن أهل العلم ومنهم دكلى برادر ، وكان من المدرسين ثم ترك التدريس وسكن في القسطنطينية بقرب البحر ، وبنى مسجدا ووقف عليه حتما ، ثم ارتحل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات . ومنهم جعفر البروسوى المشتهر « بنهالى » كان مدرسا ثم صار قاضيا في غلطة من القسطنطينية ، ثم مال إلى العزلة وكان خفيف الروح ظريف الطبع . ومنهم باشق قاسم ، وكان من المدرسين وهو من أصحاب اللطائف والنوادر ، ولكنه كان من الصالحين ، وقد عمر نحواً من مائة سنة . ومنهم فخر الدين بن اسرافيل زاده ، كان من المدرسين ثم صار قاضيا بدمشق أولاً وثانيا ، وكان له اختصاص بالعلوم العقلية . ومنهم شمس الدين احمد بن عبد الله ، كان من المدرسين ثم تولى قضاء دمشق ومات وهو قاض بها وكان محمود الطريقة . ومنهم حسام الدين حسن شلبى القراءى وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بالقسطنطينية ، وكان من العلماء ومنهم أمير حسن الرومي ، كان من المدرسين ومات وهو يدرس بدار الحديث في أدرنة . وله حواش على شرح الفرائض للسيد الشريف . ومنهم محمد الشاه بن شمس الدين اليكافى ، كان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها وكان مشغلا بنفسه لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم سليمان الرومي ، كان مدرسا ومات وهو مدرس باحدى المدرستين المتجاورتين بأدرنة . قال صاحب الشقائق : وكانت وفاته في مجلس خاص بالعلماء عند حضور سلطاننا الاعظم في وليته المباركة لختن أولاده الكرام ، وقد سقط مفشياً عاياه ، فحمل من المجلس إلى خيمة ومات هناك وكان مريضاً عن أبناء الزمان لا يذكر أحداً إلا بخير - يريد بقوله سلطاننا الاعظم

السلطان سليمان القانوني . ومنهم قطب الدين المرزيفوني ، وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس في طرابزان ، وله تعليقات على « شرح المفتاح » للسيد الشريف . ومنهم المولى پير احمد ، كان مدرساً ثم استقضى بحلب ، وكان صحيح العقيدة لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن الشيخ محمود المغلوي الوفاي ، كان من المدرسين ، وكان محباً للطريقة الوفاية ، وكان عالماً مؤلفاً وله حواش على حاشية شرح التجريد للسيد الشريف ومنهم احمد بن حمزة القاضي الشهير « بعرب شلبي » قرأ في مصر الصحاح الستة من الأحاديث ، والفقه ، والأصول ، والهندسة ، والهيئة ، وجاء إلى القسطنطينية فبنى له الوزير قاسم باشا مدرسة بقرب مدرسة أبي أيوب الانصارى ، فدرس هناك طول حياته . ومنهم ورق شمس الدين ، وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الانصارى رضى الله عنه ، وكان صالحاً لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد الأول التبريزي كان والده قاضي الحنفية بتبريز ، ورأى المولى جلال الدين الدواني وهو صغير ، وحكى أن علماء تبريز كانوا يجلسون بين يدي الدواني مطرقين رؤوسهم . وجاء محمد المذكور إلى بلاد الروم فأعطاه السلطان بايزيد مدرسة ، ثم أعطاه السلطان سليمان مدرسة أيضاً ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، ثم بالقسطنطينية ، وكانت له اليد الطولى في العلوم العربية والانشاء ، وكان كثير الاهتمام بالمحسنات اللفظية ، ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محمد بن عبد القادر المشتهر « بالمعلول » كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء مصر ، ثم قضاء العسكر ، وكان من أصحاب الثروة بنى دار القراء في القسطنطينية وغيرها . ومنهم محمد الشهير « بمرجاً شلبي » كان من مدرسي المدارس الثمان ، وتولى قضاء دمشق ، ثم قضاء أدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكان محمود السيرة . ومنهم پير محمد بن علاء الدين على الفنارى ، كان من مدرسي المدارس الثمان ، وطى جانب من العلم والورع . ومنهم علاء الدين طلى بن صالح ، كان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بأدرنة ، ومات وهو قاض بها ، وكانت له يد في الانشاء ، وترجم « كليلة ودمنة » إلى التركية ترجمة حسنة . ومنهم صالح الاسود (١٤ - تعليقات)

وكان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان عالماً صالحاً كاسمه . ومنهم المولى أبو الليث وكان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بحلب ، ثم بدمشق ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان فاضلاً حسن العقيدة . ومنهم فخر الدين بن محمد بن يعقوب وكان مدرساً باحدى المدارس الثمان ، فاضلاً صاحب أخلاق ، مات في عنفوان شبابه . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمصدر » درس باحدى المدارس الثمان ، ثم استقضى بمدينة حلب ، ثم صار قاضياً بمكة المشرفة واتصل بخدمة العارف بالله السيد علي بن ميمون المغربي . ومنهم محمد الشهير « بشيخي شلبي » درس باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو يدرس بها ، وكان محمود الطريقة لا يذكر أحداً إلا بخير . ومنهم سنان الدين يوسف الشهير « كوبرجك زاده » ودرس باحدى المدارس الثمان ، وبمدرسة أياصوفيا ، وأفتى ببلدة أماسية ، وكان مرضى الطريقة . ومنهم عبد الرحمن المؤيدى المشهور « بحاجى شلبي » وكان مدرساً بمدرسة أبي أيوب الانصارى ، ثم باحدى المدارس الثمان ، وكان عالماً بالعلوم العربية ، وينظم الشعر العربى الحسن ، ومات وهو شاب . ومنهم محيى الدين محمد بن عباد الشهير « بمحمد بك » اتصل بخدمة الفاضل ابن كمال باشا ، ثم صار مدرساً بالمدارس المشهورة ثم ظهر اختلال في دماغه ، ثم برىء منه فسافر إلى مصر ، فأسره النصارى واسترده بعض أصدقائه منهم ، وفي زمان السلطان سليمان تولى التدريس ، ثم استقضى بدمشق وكان ماهراً في العلوم العقلية والعلوم الرياضية .

ومنهم مناسترلى شلبي ، درس في مناستر ، ثم اختار العزلة واشتغل بالعلم والعبادة وكان من الصالحين . ومنهم الشيخ ابراهيم الحلبي . خطيب جامع السلطان الفاتح بالقسطنطينية ، وكان من حلب وقرأ في مصر ، ثم أتى القسطنطينية فصار خطيباً بجامع السلطان محمد ، ومات عن تسعين سنة ، وكان فقيهاً أصولياً تقياً نقياً ، ملازماً لبيته لا يراه أحد الا في بيته أو في المسجد ، وإذا مشى في الطريق يفض بصره عن الناس ، ولم يسمع منه ذكر أحد بسوء ، وله عدة تصانيف أشهرها كتاب في الفقه سماه « بملتقى الابحر » . ومنهم محمد الحسينى الشهير « بسيرك محيى الدين » كان معلماً

للأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان من ذوى السمات الحسن . ومنهم محي الدين محمد القوجوى الشهير « بمحيى الدين الأسود » كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وكان عالماً عاملاً مستقيم الطريقة ، لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم المولى خير الدين خضر ، كان معلماً للامير مصطفى بن السلطان سليمان ، وتوفى وهو معلم له . ومنهم هداية بن يار على المعجمى ، كان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، ثم صار قاضياً بمكة ، ثم ترك القضاء وجاء الى مصر وتوفى بها ، وكانت له مشاركة فى العلوم مع الأدب والتواضع . ومنهم محي الدين محمد بن حسام الدين ، تنقل فى المدارس الشهيرة بين بروسة ، وتيرة ، وأماسية ، وشورلو ، ومناستر ، ومغنيسيا ، وأدرنة وتولى القضاء بدمشق ، ثم فى أدرنة ، ثم فى القسطنطينية . وكان مطلعاً على علم الكلام ، وله يد فى التواريخ والمحاضرات . ومنهم محي الدين الأيدى الشهير « باهلجه » وكان من المدرسين ، ومات وهو يدرس بسلطانية بروسة ، وكان من الصالحين . ومنهم عبد القادر الشهير « بعبدى » كان من كبار المدرسين ، ثم صار قاضياً بمكة ، ثم فى مصر ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان مرضى السيرة فى قضائه . ومنهم حسام الدين حسين شلبى القراضوى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان وتوفى وهو مدرس بها ، وكانت له نسبة خاصة الى العلوم العقلية . ومنهم كمال الدين الشهير « بكال شلبى » وكان من المدرسين باحدى المدارس الثمان ، واستقضى بدار السلام بغداد ، وتوفى وهو قاض بها ، وكان صحيح العقيدة كريم الاخلاق . ومنهم أمير حسن شلبى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ثم بمدرسة أيا صوفيا ، وكان من أهل المروءة والفتوة . ومنهم محمد بن الوزير مصطفى باشا ، كان مدرسا بسلطانية بروسة ومات شاباً . ومنهم محي الدين محمد بن المولى خير الدين معلم السلطان سليمان كان مدرسا بمدرسة الوزير مصطفى باشا بالقسطنطينية ، ومات شاباً . ومنهم فرج خليفة القرامانى ، وكان مدرسا باحدى المدارس الثمان ، ومات وهو مدرس بها . ومنهم شمس الدين احمد اللازبى المعروف « بشمس الأصغر » وتنقل فى التدريس الى أن صار باحدى المدارس الثمان ، ثم صار مدرساً بمدرسة السلطان سليمان

بالقسطنطينية . ومنهم شمس الدين احمد البر وسوى ، وكان من المدرسين وتوفى في أوائل أيام السلطان سليمان . ومنهم عبد الرحمن بن يونس الامام ، وكان مختصا بعلم الكلام ، وقد مات شهيداً . ومنهم عبدالكريم الويزوى ، كان مدرسا وتوفى مفتيا في مغنيسيا . ومنهم شمس الدين احمد الشهير « بالقاف » تنقل في المدارس الشهيرة ، ثم قضى بدمشق ، وكان حسن السمعة ، ومنهم سعد الدين الأقسهرى تنقل في المدارس الشهيرة وأقضى بأماسية ، ومات وهو مدرس بمدرسة السلطان مراد في بروسة ، وكان عابداً زاهداً . ومنهم خير الدين الاصغر ودرس في أسكوب ، ثم في شورلو ، ثم مات وهو يدرس بها . ومنهم عبد الرحمن المشهور « بابن الشيخ » كان مدرسا ثم اعتزل التدريس وانقطع الى الله تعالى ، وكان لا يذكر أحداً بسوء ، وكان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، هذا مع القناعة والورع ، والرضى من العيش بالقليل . ومنهم حسن القراماني ، وكان مدرسا ثم استقضى في غلطة ، ثم في طرابلس ، ثم في سلانيك وتوفى بالقسطنطينية ، وكان صاحب ثروة مع الخير والدين وحسن السمعة في قضائه ولم يكن يذكر أحداً بسوء . ومنهم محيى الدين الشهير « بابن الحكيم » كان قاضيا بالمدينة المنورة صلى الله على ساكنها ، ومات وهو قاض بها ، وبنى مدرسة بالقسطنطينية ومنهم عبد الحى بن عبد الكريم بن على بن المؤيد من أماسية ، درس ببلده ، ثم بالقسطنطينية ، ثم صار قاضيا بعدة من البلاد ، ثم اعتزل القضاء ورغب في التصوف وكان محمود الطريقة . ومنهم سنان الدين يوسف ، أصله من قره سى ، كان متصوفاً واعظاً يجلس للوعظ في جامع الأمير محمد بن السلطان سليمان ، وكان عابداً زاهداً تتلأأ أنوار الصلاح من جبينه ، ذا شعبة جليلة .

ومنهم بدر الدين محمود الأيدى ، توفى وهو يدرس بمدرسة محمد باشا في القسطنطينية وكان مشتغلاً بالعلم والعبادة . ومنهم علاء الدين الأيدى ، وكان مشتغلاً بالتدريس مع العبادة . ومنهم شمس الدين محمد بن عمر بن أمر الله بن الشيخ آق شمس الدين المشهور ، وكان معلماً للأمير سليم بن السلطان سليمان ، وهو الذى تولى السلطنة بعد أبيه ، وتوفى شمس الدين محمد هذا في سن الشباب . ومنهم المولى خير الدين من

قسطنطيني ، وكان مدرساً ثم صار معلماً لبعض أبناء السلطان سليمان . ومنهم المولى بنخشي ، كان معلماً للسلطان سليم بن السلطان سليمان . ومنهم جعفر المنتشوي ، وكان معلماً للسلطان بايزيد بن السلطان سليمان ، وكان مشتغلاً بنفسه . ومنهم المولى درويش سبط المولى سنان باشا ، وكان من المدرسين . ومنهم مصلح الدين بن المنتشوي وكان من المدرسين المعروفين . ومنهم سعد الله المعروف « بابن شيخ شاذيلو » وكان من المدرسين أيضاً ، وعلى الفطرة الإسلامية . ومنهم عبد الكريم ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وكان عالماً صالحاً وتوفى شاباً . ومنهم الشريف مير علي البخاري ، قرأ على علماء عصره في بخاري ، وسمرقند ، ثم جاء إلى بلاد الروم في زمان السلطان سليمان ، وله شرح لطيف على « الفوائد الغيائية » من علم البلاغة للعلامة عضد الدين . ومنهم حسام الدين حسين النقاش المعجمي ، من أهل تبريز رأى العلامة الدواني ، وكان رجل من العلماء يقال له غياث الدين منصور ، يريد أن يباحث الدواني ، فقال ملك تبريز للعلامة الدواني : يريد غياث الدين أن يتكلم معك في بعض المباحث ؟ فقال الدواني : يتكلم مع الأصحاب ونحن نتشرف باستماع كلامه ، ولم يتنزل إلى المباحثة مع غياث الدين . ثم إن النقاش المعجمي المذكور جاء إلى بلاد الروم ، ثم جاور بمكة ، ثم جاء إلى القسطنطينية . وكان شافعي المذهب وكان حافظاً للأحاديث والتواريخ ، وله شرح على « البردة الشريفة » . ومنهم مهدي الشيرازي الشهير « بفكاري » قرأ في شيراز وأتقن علم الكلام ، والمنطق والحكمة ، وجاء إلى بلاد الروم وصار مدرساً بمدرسة فلبه ، ومات وهو مدرس بها وكانت له تآليف ، وكان كاتباً بالعربية .

ومنهم المولى سعي ، وكان أديباً بالعربية والفارسية والتركية ، وتوفى في أوائل سلطنة سليمان خان . ومنهم المولى قاسم ، لازم خدمة العارف بالله ابن الوفاء ، ثم نصبه السلطان بايزيد معلماً لخدمته ، وذلك لعلمه وصلاحه ، وكان سريع الكتابة ومرتعة كتابته لو وصفت لربما لم يصدق السامع . ومنهم ابن المكحل ، كان خطيباً بجامع الفاتح بالقسطنطينية ، وكان بليغاً صالحاً . ومنهم محيي الدين بن المرجون

وكان حسن الصوت عارفا بالقراآت ، وتولى الخطبة بجامع أيا صوفيا . ومنهم المولى
 پير محمد ، كان ماهراً بالقراآت ، وصار خطيباً بجامع السلطان بايزيد بالقسطنطينية
 ومنهم الحكيم سنان الدين يوسف ، ومهر في الطب ، ونصب طبيباً في مارستان
 أدرنة ، ثم في مارستان القسطنطينية ، ثم صار طبيباً للسلطان سايم خان « الثاني »
 وهو بعد أمير على طرابزان ، ولما تولى السلطنة جعله طبيباً لدار السلطنة . ثم جعله
 السلطان سليمان رئيساً للأطباء . وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة إحدى وخمسين
 وتسعمائة . قال صاحب الشقائق : وسألته عن مدة عمره قبيل موته بشهر أو شهرين
 فأخبر أن سنه مائة أو أكثر بسنتين . ومع ذلك لم يتغير عقله ، إلا أنه ظهر في
 يديه رعشة ، فسألته عن ذلك فقال : إنها من ضعف الدماغ ، فتعجبت من إخباره
 عن ضعف الدماغ مع ماله من كمال الإدراك والفهم . وكان طبيباً مباركا ، وله
 احتياط عظيم في معالجته لقوة صلاحه ، وكان لا يذكر أحداً بسوء . ومنهم الحكيم
 عيسى ، كان طبيباً لمارستان أدرنة ، ثم صار طبيباً بدار السلطنة ، وكان متصفاً بكرم
 الأخلاق ، مملوفاً بالخير من فرقته إلى قدمه . ومنهم الطبيب عثمان أصله من العجم
 جاء في زمان السلطان سليم إلى بلاد الروم وصار طبيباً بدار السلطنة ، وكان خيراً
 صالحاً . ومنهم يحيى شلبي المعروف « بأمين زاده » كان أبوه من أمراء الدولة
 العثمانية ، وغلب عليه حب الكمال ، واشتغل بالعلم ، وكان صاحب كمال وجمال ، وقرأ
 على المولى كمال باشا زاده ، وعلى المولى على شلبي الجمالي ، ثم صار معيداً لدرسه ، ثم
 صار مدرساً وأخذ يتنقل في المدارس الشهيرة ، ثم صار قاضياً ببغداد ، ثم صار مدرساً
 بدار الحديث التي بناها السلطان سليمان بالقسطنطينية وكان أبعد الناس عن ذكر
 مساوىء الناس . قال صاحب الشقائق : ولم يسمع منه كلمة فيها رائحة الكذب أصلاً
 ولا كلمة فحش ، وكان ماهراً في العلوم الأدبية ، وفي التاريخ ، والمحاضرة .

ومنهم عبد الكريم القادري الملقب « بمفتى شيخ » كان متصوفاً ، جلس في
 زاوية أيا صوفيا الصغير بالقسطنطينية ، واشتغل بالارشاد ، ونصبه السلطان سليمان
 مفتياً ، وظهرت مهارته في الفقه ، وكان إذا قعد في الخلوة الأربعينية يرتاض رياضة

قوية ، ويحفر في الأرض كالقبر ويقعد في تلك الحفرة ، وربما تتمطل حواسه من شدة رياضته ، وبعد تمام الأربعين يخرج إلى الناس ويعظمهم إلى وقت الخلوة من السنة القابلة ، وكان متواضعاً خاشعاً ، يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم الشيخ محمود شلبي ، انتسب إلى العارف بالله السيد أحمد البخاري وتزوج بابنته ، وبعد موته قام مقامه . قال صاحب الشقائق : وكنت لأقدر على النظر إلى وجهه الكريم لانعكاس حياته إلى ، وكان يقرأ عنده كتاب « المثنوي » يؤتله على طريقة الصوفية ومنهم الشيخ پيرى خليفة الحيدى ، وكان من اتباع السيد البخاري ، زاهداً عابداً منقطعاً عن الناس . ومنهم حاجى خليفة المنتشوى ، كان من طلبة العلم ثم انتسب إلى خدمة الشيخ محمود شلبي الذى ذكرناه وحصل عنده التصوف ، وأكمله وأجاز له بالارشاد ، وكانت له كلمات مؤثرة في القلوب ، وكل من جالسه يمتلىء قلبه خشية . ومات وهو مجاور بالمدينة النبوية على ما كنها أفضل الصلاة وأزكى التحية . ومنهم الشيخ بكر خليفة السيماوى ، وكان من المتصلين بخدمة الحاج خليفة المذكور ، وخلفه بعد وفاته ، وكان مشغلاً بالحقائق ، منقطعاً عن الخلائق . ومنهم سنان الدين يوسف الأردبيلي ، وكان من أتباع العارف بالله شلبي خليفة ، اشتغل بالارشاد ، وسكن بزواية عند جامع أيا صوفيا ، ومات عن مائة سنة . ومنهم الشيخ رمضان وهو من المتصوفة أخذ عن الشيخ قاسم شلبي وجلس مكانه بعد وفاته في زاوية الوزير على باشا بالقسطنطينية . ومنهم الشيخ بالى خليفة كان من خلفاء الشيخ قاسم شلبي ، ومات ببلدة صونية بعد الحسين والتسمانة . ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بمركز خليفة » وكان من أتباع العارف بالله الشيخ سنبل سنان ، صارفاً أوقاته للرياضة . ومنهم الشيخ سنان خليفة من خلفاء الشيخ سليمان خليفة . وكان رجلاً أميناً إلا أنه كان صاحب أحوال سنية ، وجذبات عظيمة ! ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير « بكندر » كان متصوفاً اتصل بالشيخ محي الدين القوجوى ، وخلفه بعد وفاته . وكان منقطعاً عن الناس لا يخرج من بيته إلا ليصلى في مسجده . ومنهم محي الدين الإزنيقي ، وكان من أتباع محي الدين الاسكلىبي ، وكان من الزاهدين . ومن تربي

عند الأسكايبي الشيخ اسكندر دده بن عبد الله ، وكان رجلاً أميناً حصل ببركة التصوف على معارف ذوقية تتحير فيها العقول ، كما يقال عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه . ومنهم محيى الدين محمد ، كان يبلدة اشتب فى الروملى وكان من العارفين بالله . ومنهم الشيخ ادريس ، كان من خلفاء شلى خليفة وتوطن بدمشق .

وكان من خلفاء الشيخ ادريس مريد اسمه الشيخ داود خليفة وكان عابداً إلا أنه كان يدعى أنه يصاحب المهدي ، وأن المهدي من جماعته . ومنهم الشيخ باباحيدر السمرقندى ، جاء إلى بلاد الروم وبنى له السلطان سليمان مسجداً في ظاهر القسطنطينية وكان خاشعاً يستوى عنده الكبير والصغير . ومنهم صفى الدين الملقب « بشيخ السراجين » من أماسية . ومنهم الشيخ محيى الدين محمد من قرية بقرب أماسية ولم يكن يأكل إلا من زراعة يده . ومنهم الشيخ عبدالغفار من بلدة مدرنى ، وكان أبوه منتسباً إلى طريقة الزينية ، وكان فى شبابه تابعا لهوى نفسه ، فرأى فى منامه أن والده قد ضربه ضرباً شديداً ووجحه ، فلما أصبح ذهب إلى الشيخ رمضان وتاب على يده . وكانت له توبة عظيمة . ومع هذا فقد كان من العلماء والأدباء ، قال صاحب الشقائق : وكان من محاسن الأيام . ومنهم الشيخ إسحق ، وكان طبيباً نصرانياً قرأ على المولى لطفى الطوقاى المنطق ، والعلوم الحسكية ، واهتدى للإسلام ، فترك الطب والحكمة ، واشتغل بتصانيف الامام الغزالى ، وداوم على العمل بالكتاب والسنة ، إلا أنه أنكر التصوف لأنه لم يصل إلى أذواقهم . ومنهم الشيخ أحمد شلى الأنقروى كان من العلماء ، ثم رغب فى التصوف ، ولما بلغ سن الشيخوخة أقام بمدينة أنقرة . ومنهم السيد الشريف عبد المطلب بن السيد مرتضى ، وكان سيداً صحيح النسب ، وحصل العلم والأدب ، ثم رغب فى التصوف وحجب الشيخ ابن الوفاء وأجاز له بالارشاد الشيخ محيى الطوزلى وزوجه بابنته ، إلا أنه لم يؤثر العزلة والخلوة بل بقى مختلط بالناس . ومنهم الشيخ عبد المؤمن من أتباع السيد على بن ميمون ، انقطع فى مدينة بروسة ، ومن الناس من لم يكن يعقد به ، ولكن يقال إنهم كانوا يفترون

عليه إتباعاً لأغراضهم . ومنهم الشيخ شجاع الدين الياس من الطريقة الخلوتية وكان أمياً تغلب عليه الجذبة . ومنهم الشيخ احمد بن مركز خليفة ، حصل العلم ، ثم مال إلى التصوف ، وانتفع به كثير من الناس . ومنهم نور الدين حمزة الكرمياني كان من طلبة العلم ثم رغب في التصوف ، واتصل بسنبل سنان ، ثم بمحمد بن بهاء الدين ، وكان مواظباً على آداب الشريعة . ومنهم تاج الدين ابراهيم الشهير « بالشيخ الأصغر العريان » وكان منقطعاً عن الناس ، ساكناً بقرب « مغنيسيا » ومنهم محي الدين المعروف « بامام قلندرخانه » صحب الشيخ حبيباً القراماني والشيخ ابن الوفاء ، والسيد احمد البخاري ، وكان عالماً ولكن انقطع عن الناس ، وكان خطيباً بجامع قلندرخانه . قال الطاش كوبري صاحب الشقائق : سألته عن سنه فقال مائة أو أقل منها بسنتين ، وعاش بعد ذلك مقدار ثمان سنين .

ومنهم مصلح الدين مصطفى من خلفاء السيد احمد البخاري ، كان متوطناً في القسطنطينية في زاويته المسماة « بذات الأحجار » منقطعاً إلى الله مشتغلاً باصلاح أصحابه . ومنهم العارف بالله الشيخ علي الكازرواني ، وكان في أول أمره اتصل بخدمة السيد علي بن ميمون المغربي ، وكان له اطلاع على الخواطر وأحوال القلوب . ومنهم احمد بن مصطفى بن خليل الطاش كوبري صاحب كتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » ونشأ في أنقرة ، وكان أبوه من العلماء فاعتنى به ، فقرأ على علاء الدين الملقب باليتيم النحو والصرف ، وقرأ على عمه ، وعلى أبيه ، وعلى خاله وعلى المولى محي الدين الفناري ، وعلى المولى محي الدين القوجوي ، وعلى المولى محمود ابن قاضي زاده ، وعلى الشيخ محمد التونسي ، وأجازه العلماء الكبار . وتولى التدريس بمدرسة قلندرخانه بالقسطنطينية ، ثم انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ثم إلى مدرسة السلطان بايزيد بأدرنة ، واستقضى في بروسة وتوفي وهو مدرس بأحدى المدارس الثمان بالقسطنطينية وله كتاب اسمه « المعالم في علم الكلام » وحاشية على « حاشية التجريد » للسيد الشريف ، وله كتاب كبير في التاريخ جمع فيه ما ذكره ابن خلكان وأضاف إليه . وقد جمع كتابه الشقائق النعمانية بعد أن أصابه الضرر في عينيه ، لأنه

بعد أن تولى القضاء كف نظره ، فصح فيه المثل : إذا جاء القضاء عني البصر . ومنهم يحيى بن نور الدين الشهير « كوسج الأمين » وتنقل في المدارس الشهيرة ، ولما بنى السلطان سليمان مدرسته بالقسطنطينية ، وجعلها دار الحديث أعطاه إياها ، ثم بلغ السلطان عنه شيء فغضب عليه وعزله ، فأصابه غم شديد لم يعيش بعده كثيراً . ومنهم محمود الأيدى المعروف « بخواجه قاينى » وكان من كبار المدرسين ، وتولى القضاء بحلب ، ثم بمكة . ومنهم المولى مصلح الدين وكان مدرساً في المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء بغداد ، وقضاء حلب ، واستقضى في أدرنة ، ثم في القسطنطينية ، وأناف عمره على تسعين سنة . ومنهم مصلح الدين بن شعبان من غاليبولى ، وكان معلماً للامير مصطفى ابن السلطان سليمان ، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورته ، فلما قتل السلطان ابنه عند خروجه من طاعته وقع في هوة الفقر ، وصبر على نوائب الدهر . ومنهم المولى محيي الدين الشهير « بمرجان » وكان يدرس في المدارس الشهيرة ، ثم تولى الافتاء ، ثم عزل بكائنة خروج الامير بايزيد بن السلطان سليمان . ومنهم محمد بن محمد الشهير « بعرب زاده » وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، وتولى قضاء مصر وسافر إليها بحراً في قلب الشتاء فأصابتهم عاصفة ففرق هو وجماعة من رفاقه . ومنهم نعمة الله الشهير « بروشنى زاده » وتنقل في المدارس الشهيرة ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة ، وحدث سيرته في القضاء ، ولكنه كان في لسانه بذاءة يحذر الناس من أجلاها . ومنهم شاه على شلبي بن قاسم بك ، وكان من أصحاب الزهد والصلاح . ومنهم شمس الدين احمد بن أبى السعود وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ثم في مدرسة الامير محمد بن السلطان سليمان ، وتوفي وهو مدرس فيها . ومنهم قورد احمد شلبي ابن خير الدين معلم السلطان سليمان ، وكان مدرساً . ومنهم غرس الدين احمد ، نشأ في حلب ، ثم قصد دمشق وأخذ الطب فيها عن رئيس الاطباء المشهور « بابن المسكى » ثم ارتحل إلى مصر وأخذ العلوم العقلية والرياضيات عن الشيخ ابن عبدالغفار ، وأخذ علوم الدين عن القاضي زكريا . ومنهم عبدالباقي بن علاء الدين العربي الحلبي ، وكان من المدرسين المشهورين ، وتقلد القضاء في حلب ، وفي مكة ، وفي مصر ، وكانت له شهرة عظيمة

إلا أنه كان مقبلاً على الدنيا . ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن جمال الدين المعروف « بشيخ زاده » وكان من جلة العلماء ، وأجازته المفتي أبو السعود . ومنهم محمد بن المفتي أبي السعود ، وكان مدرسا وتقلد القضاء في دمشق . ومنهم المولى صالح بن جلال وكان السلطان سليمان أمره بترجمة بعض الكتب الفارسية فأتمها في قليل من الزمن ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء مصر ، ومنهم محيي الدين الشهير « بابن الامام » وتولى قضاء حلب . ومنهم الشيخ تاج الدين ابراهيم بن عبد الله ، وكان يدرس بمدرسة سليمان باشا في إزنيق ، وله تأليف من جملتها رد على ابن كمال باشا . ومنهم دده خليفة وتولى التدريس ثم الافتاء ، وله تأليف منها حاشية على « شرح التفتازاني في الصرف » .

السلطان سليم الثاني

هذا وتولى بعد السلطان سليمان الكبير ولده السلطان سليم الثاني ، وذلك في أوائل ربيع الأول سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وكانت وفاة السلطان سليمان رحمه الله في اليوم الثاني والعشرين من صفر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وجاؤا بجنازته إلى القسطنطينية ، وكان يوماً عظيماً ، وبقي خبر موته مكتوماً خمسين يوماً ، وجاء في تاريخ سلطنة سليم الثاني : سليم تولى الملك بعد سليمان .

ولما جاء سليم بجنازة أبيه إلى القسطنطينية لم يوزع على الانكشارية العطايا التي اعتاد السلاطين توزيعها عند جلوسهم على عرش السلطنة ، فحصلت ثورة صارت تتفاقم ، وعجز الوزراء عن قمعها ، وخاف السلطان على نفسه فاضطر إلى إجابة طلب العساكر ، وأنفق جميع ما في الخزانة حتى أسكتهم . وكان سليم الثاني أول سلطان انحرف عن الجادة التي كان يسير عليها آل عثمان ، فانهم كانوا بأجمعهم أبطالاً يباشرون القتال بأنفسهم ، ولا يعرفون للراحة معنى ، ولم يكن لهم غرام إلا بالفتوحات وتأييد الاسلام ، وتحصين ثغور المملكة ، وقهر عداها . وكانت هم جميعهم سامية لا يعرف منهم نكس ولا وكل ، فما بدأ دور التراخي في آل عثمان إلا في زمن سليم الثاني . وكان محباً للدعة والراحة ، ملازماً للحرم مدمناً لشرب الخمر ، مسترسلاً إلى الشهوات

وفي أيامه ارتفع التحريج عن الخرقة ، فكاد يعم شربها . وإنما روى صاحب الدر المنظوم أنه قبل موته تاب وكسر أدوات اللهو وأواني الشراب ، وكان قد ألقى السلطان سليم بمقاليد الأمر إلى وزيره الصوقلى ، ولولا الصوقلى لسقطت هيبة السلطنة . ولم يمت سليمان القانونى حتى انعقدت في ١٧ فبراير سنة ١٥٦٨ معاهدة بين الدولة العثمانية والمجر على أن كل فريق يحفظ ما بيده ، وأن النمسا تؤدي للدولة ثلاثين ألف دوكة سنويا ، وتعترف بسيادة الباب العالي على البغدان ، والفالاخ ، وترانسلفانيا . ولم تحصل النمسا على هذا الصلح إلا بعد أن رشت رجال الباب العالي بأربعين ألف دوكة .

وكان الصوقلى يريد أن يرسل عساكر تستولى على بلاد الفولغا في شمالى روسيا حتى يقطع ما بين الروس وبين آسيا ، فسرح جيشا إلى استراخان ولكن لم توفق تلك الغزاة برغم جميع ما بذله الصوقلى من العناية ، ولم يساعده خان القريم « دولة غرائى » كما كان ينتظر . وفكر الصوقلى في فتح « ترعة السويس » لتتمكن الدولة العثمانية من البحر الأحمر والبحر الهندي ، ولكنه لم يتمكن من إجراء فكرته هذه بسبب توالى الحروب . وفي زمن السلطان سليم الأول كانت الحجاز واليمن دخلتا في طاعة الدولة ، ولكن الزيدية لم يلبثوا أن ثاروا على العثمانيين بقيادة الامام مطهر وبعد أن دخل الأتراك إلى صنعاء أخرجوهم منها ومن سائر المدن ، ولم يبق ترك إلا في زبيد . فأرسلت الدولة سنان باشا الأرناؤوطى فتغلب على الزيدية واعترف الامام مطهر بسيادة السلطان . وفي زمن سليم الثانى افتتحت الدولة « جزيرة قبرص » ويقال إن الذى رغب السلطان في فتحها رجل يهودى برتغالى اسمه « يوسف ناسى » مدح له خمر قبرص ، فجرد عليها أسطولا وفتحها ، وقيل إنه وعد هذا البرتغالى بتوليته قبرص ، ولكنه بعد الفتح استحيى من إنجاز ذلك الوعد المدنى الذى حمله عليه الشرب ولكنه أعطى البرتغالى لقب « دوك ناكسوس » وكان الوزير الصوقلى غير مرتاح إلى فتح قبرص بفضل على ذلك إنجاز مسلمى الأندلس الذين كانوا يشورون المرة بعد الأخرى على الاسبانيول ، ويستنجدون آل عثمان . ولكن « لالا مصطفى باشا »

والوزير « بيالى » وقبطان البحر أرادوا السلطان على فتح قبرص . فسأقت الدولة مائة ألف مقاتل إلى تلك الجزيرة ، ونزلت العساكر في ١ آب سنة ١٥٧٠ . وحاصر العثمانيون « نيكوزيا » وأخذوها عنوة ، ويقال إنهم قتلوا عشرين ألفاً من الأهالي واستولى الأتراك على « ليماسول » و « لارناكا » وامتنعت « فاماغوسته » وردت هجمات الأتراك ، لكنها لم تقدر على المقاومة إلى الآخر ، واستولى الترك عليها ، وقتلوا قائدها « براغادينو » الذى أبدى تلك المقاومة الشديدة . ولما وصل خبر قبرص إلى أوربة اتفقت البندقية ، والبابا ، ودولة اسبانيا ، وفرسان مالطة ، وجهزوا أسطولاً كبيراً منه سبعون سفينة اسبانيولية ، وتسع سفن لفرسان مالطة ، واثنى عشرة سفينة للبابا ، ومائة وأربعون سفينة للبندقية ، فتلاقى هذا الأسطول بالأسطول العثمانى فى ٧ أكتوبر سنة ١٥٧١ وكان الأسطول العثمانى ثلاثمائة سفينة ، واشتبك القتال بازاء جزائر « كور زولارى » على سواحل بلاد الارناؤوط .

ووقعت سفينة قبطان البحر العثمانى بين سفينتى الأميرال الاسبانيولى ، والأميرال البندقي ، فجاءت أربع سفن عثمانية لأجل تخليص أمير البحر العثمانى ، وفى أثناء المعركة أصابته رصاصة فسقط ، وهجم الاسبانيول وقطعوا رأسه ، ودارت بعد ذلك الدائرة على العثمانيين ، فأخذ الأسطول المسيحى منهم مائة وثلاثين سفينة غصباً ، وأحرقوا أربعاً وتسعين ، وغنموا ثلاثمائة مدفع ، وأسروا ثلاثين ألف مقاتل ، وأنقذوا خمسة عشر ألف أسير مسيحى . ولم ينج من الأسطول الاسلامى الا أربعون سفينة للأميرال الجزائر . وكانت خسائر أسطول النصرانية لا تزيد على خمس عشرة سفينة ، وثمانية آلاف مقاتل . وبعد هذه المعركة المشهورة بمعركة « ليبانت » لم تقم للبحرية الاسلامية قائمة تحمد فى البحر المتوسط .

ولهذه المعركة قرعت طبول البشائر فى جميع العالم المسيحى ، ولا يزال أهل ايطاليا يحتفلون كل سنة بتذكار هذه الواقعة . ولما بلغ الخبر السلطان امتنع ثلاثة أيام عن الطعام ، وطرح نفسه على الأرض يستغيث بالله أن يرأف بالاسلام ، لأن القوة البحرية التى كان أسسها سليم الأول وسليمان القانونى استولى عليها البوار بهذه الكائنة

ولكن الصوقلى بمهارته لم يلبث أن شرع بتجديد الاسطول العثماني بسرعة خارقة للعادة ، وعضده في ذلك أمير الجزائر « أولوج على » وتوجهت عليه أمانة البحر . فبنى العثمانيون مائة وخمسين سفينة حربية ، وكان القرار هو أن يبنوا مائة وخمسين سفينة ثانية ، فقال قبطان البحر : إنه يصعب على الدولة استحضار كل لوازم هذه السفن ، فأجابه الصوقلى الصدر الأعظم : بأن السلطنة بمناجيع ثروتها تقدر أن تجعل جميع الأسلحة من الفضة ، وجميع الاشرعة من الاطلس . وهكذا خرج الاسطول العثماني في سنة ١٥٧٢ بمائتين وخمسين بارجة حربية ، فعادت البندقية تحسب للعاقبة حساباً . وفي ٧ مارس سنة ١٥٧٣ ارتضت بالصلح مع الباب العالي ، وتخلت عن جزيرة قبرص ، ودفعت ثلاثمائة الف دوكة تعويضات . ثم طرد العثمانيون الاسبانيول من تونس واستولوا على هذه البلدة ، وامتنع الاسبانيول بحلق الواد الا أن « الدون جوان دوتريش » جاء باسطول الى تونس وردّ مولاي حسن الحفصي الى الملك ، ولم يطل هذا الامر اذ بعد سنة ونصف جاء سنان باشا ومعه أربعون الف مقاتل ، فطرد الحفصي والاسبانيول معاً ، واستولى على قلعة حلق الواد التي كان امتنع الاسبانيول بها . ثم عصت بلاد البغدان ؛ فارسلت الدولة جيشاً خلع أميرها ، ونصب مكانه رجلاً اسمه « ايثونيا » وفر أمير البغدان السابق الى روسيا حيث قتله « ايقان » ملك الروس . ثم إن ايثونيا نفسه عصى على الدولة ، وظاهره القوزاق ، واستولى على « برايلا » و « بندر » و « اكرمن » فزحفت اليه الجنود العثمانية فهزمته ووقع في الاسر واستؤصل القوزاق باجمعهم . ومات السلطان سليم في ١٢ ديسمبر ١٥٧٤ . ومع ما كان عليه هذا السلطان من القصور فقد كانت وفاته مصيبة على الدولة لأنه بعد وفاته سقط الصدر الاعظم الصوقلى وكان رجلاً من دهاة الرجال ، وكان نادر المثال .

وجاء في « شذرات الذهب » نقلاً عن الاعلام أن السلطان سليم الثاني ولد سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، وجلس على تخت السلطنة يوم الاثنين لتسع من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، ومدة سلطنته تسع سنوات . وسنه حين تسلط

ست وأربعون سنة ، وعمره كله ثلاث وخمسون سنة ، وكان سلطاناً كريماً ، رؤوفاً بالرعية ، رحيماً ، عفوياً عن الجرائم حليماً ، محباً للعلماء والصلحاء ، محسناً إلى المشايخ والفقراء ، طالما طافت بكفيه الآمال واعتمرت ، وصدع بأوامره الليالي والأيام فآثرتكم أظهرت لسواد الكفرة يد صارمه البيضاء آية للناظرين ، وكم جهز جيوشاً للجهاد في سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين .

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرص بسيف الجهاد ، ومنها فتح تونس المغرب وحلق الواد ، ومنها فتح ممالك الين واسترجاعها من العصاة . ومن خيراته تضعيف صدقة الحب على أهل الحرمين ، والامر ببناء المسجد الحرام . وتولى بعده ولده السلطان مراد ، وتاريخ جلوسه :

بالبعث فوق التخت أصبح جالساً ملك به رحم الإله عباده

وبه سرير الملك سر فأرخوا حاز الزمان من السرور مراده

هـ . وهو من نظم الشاعر « ماميه » الرومى .

وفى زمان السلطان سليم الثانى نبغ من العلماء ؛ الشيخ محيى الدين المشتهر « بحكيم شلبى » وكان من الاطباء . وعلاء الدين المنوغادى ، وكان من المدرسين الكبار ، وتولى قضاء بغداد . والمولى شمس الدين احمد بن أخى القرامانى ، وكان أيضاً مدرسا ، ثم تولى قضاء المدينة المنورة . ويعقوب الشهير « بجاق » وكان مدرسا أخيراً باحدى المدارس الثمان ، ثم تولى قضاء بغداد . وتاج الدين ابراهيم ، وقضى حياته فى التدريس ، وكان فى المدرسة التى بناها السلطان سليمان فى دمشق . ومحمد ابن عبد الوهاب بن عبد الكريم ، وأخذ عن أبى السعود المفتى ، وعن كمال باشا زاده ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم صار قاضيا بالعسكر المنصور . ثم اختلف مع الوزير الكبير فاعتزل ، وكان من الاجواد الكبار فوق علمه وفضله . ولما جمع المولى محيى الدين سباهى زاده حواشيه التى علقها على « حاشية التجريد » للسيد الشريف صدرها باسمه فأعطاه مائة دينار . ويقال إنه حصل له من قضائه بالعسكر سبعون ألف دينار ، أنفقها كلها ومات وعليه أربعة آلاف دينار .

وكانت له مقالات على منوال « مقامات الحريري » وعلق حواشي على « حاشية الدواني للتجريد » وله شعر عربي بديع ، ومنهم السيد حسن بن سنان ، خدم المفتي أبا السعود ، ودرس في المدارس الشهيرة ثم تقلد قضاء حلب ، ثم انتقل إلى مكة وحمد أهل الحجاز قضاءه . ومنهم مصلح الدين داود زاده ، وتنقل في المدارس حتى صار إلى إحدى المدارس الثمان ، ثم إلى مدرسة سليم خان ، ثم تقلد قضاء المدينة . ولما دخل الحرم الشريف أعتق ممالিকে ومات بالمدينة ودفن بالبقيع .

ومنهم المولى محمود معلم الوزير الكبير محمد باشا ، وتنقل في المدارس ، ثم تولى قضاء القاهرة ، وحمد الناس قضاءه . ومنهم مصلح الدين الشهير « بعلم السلطان جهازكير » ابن السلطان سليمان ، وكان من العلماء العاملين . ومنهم محي الدين الشهير « بابن النجار » نشأ في اسكوب من الروملى ، وتولى التدريس مدة طويلة ثم تولى قضاء بغداد ، وكان فاضلاً أديباً ، وله نظم بالتركي والعربي . ومنهم عبد الرحمن المعروف « بالدارزاده » كان مدرسا في ديموطقة ، ثم في القسطنطينية ، وتولى قضاء المدينة المنورة ، وقضاء حلب . ومنهم مصلح الدين بستان ، وكان مدرسا في إحدى المدارس الثمان ثم تولى قضاء بروسة ، ثم قضاء أدرنة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر المنصور . وكان من فحول العلماء ، وله تأليف قيمة . ومنهم مصلح الدين الشهير « كوجك بستان » وكان من كبار المدرسين . وأقى في بلاد مغنيسيا .

ومنهم المولى عبد الله الشهير « بغزالى زاده » وهو من ذرية الامام الغزالى ، وكان منسوبا إلى الوزير الكبير رستم باشا وولاه القضاء في قسبة أبى أيوب الانصارى مع قسبة غلطة ، فلما عزل رستم باشا عزل هو أيضا معه ، وكان محمود الطريقة . ومنهم المولى جعفر ابن عم المفتي أبى السعود ، كان مدرسا ثم تولى قضاء دمشق ، ثم قضاء العسكر فى الأناضول ، وكان عالما عابداً . ومنهم شاه محمد بن حزم ، وهو من ذرية جلال الدين صاحب « المشوى » وكان من أكابر المدرسين ، وتقلد قضاء القاهرة ، ثم قضاء القسطنطينية ، وكان من فحول العلماء إلا أنه كان معجباً مستبداً صعب المقادة ، وله حواش على كتاب « الاصلاح والايضاح » لكمال باشا زاده ، وحاشية

على « حاشية التجريد » للسيد الشريف . ومنهم احمد بن عبد الله المشتهر « بالغورى » ودرس بمدرسة السلطان بايزيد في دمشق ، وكان عالماً أديباً له رسالة « في علم الخط » ومنهم المولى يحيى بن عمر من أماسية ، وكان من المدرسين العظام ، وبلغ السلطان عنه شئ . فعزله عن التدريس ، فانقطع عن الوزراء واتخذ مسكناً في بشكطاش من القسطنطينية ، وبنى أيضاً مدارس ومسجداً ، وكان يطعم الفقراء ، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية ، ولما مات صلى عليه المفتى أبو السعود ، وكانت له جنازة عظيمة . ومنهم احمد بن محمد بن حسن الصامسوى ، وقضى حياته في التدريس ، وتولى مرة قضاء حلب ، وحمده الناس في قضائه . ومنهم المولى عطاء الله معلم السلطان سليم الثانى وكان يعلمه عند ما كان أميراً على مغنيسيا ، فلما جلس على كرسي السلطنة حظى عنده وصار يشاوره ، وصار يقدم رجاله وربما قدم غير المستحق على المستحق ، فخاض الناس في عرضه ونسبوه إلى التعصب ، ولما مات كانت له جنازة حافلة ، وصلى عليه المفتى أبو السعود ، ونزل السلطان إلى الباب العالى بنفسه . ومنهم الشيخ رمضان وكان خطيباً في جامع احمد باشا في « جورلو » وتوفى هناك ، وكانت له تأليف وحواش . ومنهم بير احمد المشهور « بليث زاده » كان أبوه قاضياً في مصر وقضى حياته في التدريس . ومنهم المولى سنان وكان أيضاً من المدرسين المعروفين ، ومن مزاياه أنه كان يسعى في مصالح الناس مقصداً لذوى الحوائج . ومنهم علاء الدين على بن محمد المعروف « بمخاوى زاده » وكان مدرساً في إحدى المدارس الثمان ، ولما بنى السلطان سليمان المدرستين اللتين بناهما غربى جامع الكبير أعطاه إحداها ، ثم تولى القضاء في دمشق ، ثم في بروسة ثم في أدرنة ، ثم في القسطنطينية ، ثم صار قاضى العساكر وكان من فحول العلماء ، وقد جمع الأدب إلى العلم ، وله بدائع النظم ، وله كتب كثيرة . ومنهم الشيخ يعقوب الكرماني . وكان أبوه من الجند ، ولكنه رغب في العلم والعبادة . ومنهم محمد بن خضر شاه المعروف « بابن الحاج حسن » ، وكان مدرساً شهيراً . ثم تقلد قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة . ومنهم مصلح الدين اللارى نسبة إلى « اللار » بالراء المهملة . وهى مملكة بين الهند وشيراز ، جاء من (١٥ — تعليقات)

بلاده إلى القسطنطينية ثم خرج إلى ديار بكر وآمد ، ومات هناك . وله تأليف وحواش على الكتب المشهورة ، وأراد معارضة المفتى أبي السعود في قصيدته الميمية فقصر عنه . ومنهم الشيخ أبو سعيد بن الشيخ صنع الله ، أصله من بلاد تبريز وكان من المرشدين ، ومن الأجواد ، وكانت له كلمة نافذة عند الملوك . ومنهم شمس الدين أحمد بن مصلح الدين المشتهر « بمعلم زاده » يقال إنه من ذرية إبراهيم أدهم رضى الله عنه . وكان مدرسا ثم تولى القضاء ، وما زال يرقى في القضاء حتى تولى قضاء عسكر الروملى .

قال صاحب « العقد المنظوم ، فى ذكر أفاضل الروم » : إنه كان مجبولا على اللطف والكرم ، غير أن فيه طمعا زائدا ، وحرصا وافرا ، ساءحه الله أولا وآخرآ . ومنهم الشيخ بالى الخلوئى المعروف « بسكران » وتعاطى فى أول أمره التدريس ، ثم تبع الطريقة الصوفية فترك التدريس والافادة ، وعكف على الزهد والعبادة . ومنهم على بن عبد العزيز المشتهر « أم الولد زاده » وكان مدرسا كبيرا ، ولكنه لم يكن له حظ فعانى كثيرا من الفقر ، ونكبات الدهر ، ثم تولى قضاء حلب ، ولم يكده يتولاه حتى مات . وعارض المفتى أبا السعود فى قصيدته الميمية لأنه كان ضاربا بسهم فى الأدب ؛ متمكنا من لغة العرب . ومنهم الشيخ محيى الدين بركيلو ، وكان عالما عادلا قوالا بالحق لا يهاب الحكام والامراء ، وربما ونجهم فى وجوههم . ومنهم محيى الدين فكسارى زاده وكان مدرسا ، وكان فى قول الحق صارما . ومنهم عبدالكريم بن محمد بن أبى السعود ، وتولى قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر ، وكان من أفذاذ العلماء وتوفى وما بلغ عمره الثلاثين سنة .

وأما أبو السعود افندى المفتى بن مصطفى العمادى الشهير ، فانه كان حسنة زمان السلطان سليمان ، وكان منه بمقام القاضى أبى يوسف من هرون الرشيد ، والقاضى الفاضل من صلاح الدين يوسف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى من عبد الرحمن الناصر الأموى ، ولم تطر شهرة أحد من شيوخ الاسلام فى دولة آل عثمان مطار شهرته ولد رحمه الله سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بقرية قريبة من القسطنطينية ، من

خواص أوقاف الزاوية التي كان السلطان بايزيد خان قد بناها للمولى محيي الدين العمادي والد أبي السعود ، وقرأ المولى أبو السعود على والده ، وعلى الشيخ عبد الرحمن المشتهر « بشيخ زاده » وبدأ أبو السعود افندى بالتدريس ينتقل من مدرسة إلى مدرسة حتى انتهى إلى إحدى المدارس الثمان ، ولما فارقتها ودعها بأبيات منها :

دنا النأي عن نجد فأصبحت قائلاً وداعاً لمن قد حل هذى المنازلاً
فيا حبذا تيك المعالم والربى بها كل من تهوى وما كنت آملأ
نسيم الصبا عرج عليها ونادها سقتك الغواذى وابلا ثم وابلا
نأت عنك دارى لا قلى وسامة بلى فعل التقدير ما كانت فاعلاً
ولن تبرح الأشواق تزداد فى الحشا إلى أن أرى أمراً من الدهر هائلاً
وتقلد قضاء بروسة ، ثم قضاء القسطنطينية ، ثم قضاء العسكر فى الروملى .

قال صاحب الدر المنظوم : « ولما انتقل المولى سعد بن عيسى بن أمير خان إلى رحمة ربه ؛ اضطرب أمر الفتوى ، وانتقل من يد إلى يد ، ولم يثبت سقف بيته على عمد حتى تسلم أبو السعود افندى زمام الافتاء وذلك سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، وبقي فى عهده محوياً من ثلاثين سنة ، وكتب الجواب مراراً فى يوم واحد . ثم قال صاحب الدر المنظوم : « وسارت أجوبته فى جميع العلوم مسير النجوم » وكانت وفاة أبي السعود فى أوائل جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، وصلى عليه المولى سنان مُحَشَّى « تفسير البيضاوى » ودفن فى جوار أبي أيوب الأنصارى . ثم قال صاحب الدر المنظوم : « إنه تفرد فى ميدان فضله فلم يجاره أحد ، وضائق عن إحاطته صدور الحصر والحد ما صارع أحداً إلا صرعه ، وما صمم شيئاً إلا قطعه ، وانهطع عن القرين . ولم يبق من يعارضه ويكايده ، وقد وصل تلاميذه وأصحابه إلى المناصب السمية ، والمراتب السنية ، فكان لا يضيع منه كلام ، ولا يفوت له مرام . وقد عاقه الدرس والفتوى والاشتغال بما هو أهم وأقوى ؛ عن التفرغ للتصنيف ، سوى أنه اختلس فرصاً وصرفها إلى التفسير الشريف ، وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأذهان ، ولم تقرر به الآذان وسماه « بارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم » ولما وصل منه إلى آخر

سورة ص ورد التقاضى من طرف السلطان سايمان خان ، وظهر كمال الرغبة والانتظار فلم يمكن التوقف والفرار ، فبيض الموجود وأرسله بصره المولى محمد المشتهر «بابن المعلول» فقابله السلطان بحسن القبول ، وأنعم عليه بما أنعم ، وزاد في وظيفته كل يوم خمسمائة درهم . و بعد ذلك تيسر له الختام ، ورتبه بالكمال والتمام ، وأرسله إلى السلطان ثانياً بعد إتمامه ، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه ، وزاد في وظيفته مائة أخرى .

وكان يمنعه عن الاكثار من التأليف تواتر الفتوى من الآفاق . ومن شمائله أنه كان ذا مهابة عظيمة قلما يقع في مجالسه أخذ ورد ، ولكنه كان كثير المداراة للناس مائلاً إلى مداينة رجال الحكومة ، وكان طويل القد ، خفيف العارضين ، غير متكلف في اللباس والطعام . انتهى بتصرف . وله من النظم القصيدة الميمية المشهورة

أبعد سليمى	مطلب ومرام	وغير هواها	لوعة وغرام
وفوق حماها	ملجأ ومثابة	ودون ذراها	موقف ومقام
وهيات أن يثنى	إلى غير بابها	عنان المطايا	أو يشدّ حزام
هي الغاية القصوى	فان فات نيلها	فكل منى الدنيا	على حرام
سلا النفس عنها	واطمأنت بنأيها	سلو رضيع قد	عراه فطام

وهي تسعون بيتاً شرحها كثير من العلماء . وله مشيراً إلى تعلق الانسان بالعالم

الجهانى قصيدة مطلعها :

طال الشتاء	بدارة الهجران	مشوى الكروب	قراة الاشجان
------------	---------------	-------------	--------------

ومنها :

حتى مَ ترتع في مراتع	غفلة	وإلى مَ تسلك مسلك	الحسران
فكأن قلبك في جناحي	طائر	بادى القلب دائم	الخفقات
مازالت تبغى مطلباً	عن مطلب	وتحل في معنى	عقيب مغاني
أوما كفى ما قد بلغت	من المني	قد كان ما في حيز	الامكان
أتى الزمان إليك	حبل قياده	مع مابه من شدة	وحران

لو أنت تملك كل ما قد رمته فاعلم بأن جميع ذلك فاني
 سر في فضاء العالم العلوى كم هذا الجثوم بعالم الجثمان
 قد آن من شمس الحياة طلوعها من حضرة الأشباح والأبدان
 وجاءه كتاب من شريف مكة ، فأجابه بجواب فيه مايتى :

وخريدة برزت لنا من خدرها كالبدريبدو من خلال غمام
 عريية فتفكرت وازينت بملابس الأعجام والأروام
 طوبى لمن رزق الوقوف ببابها فهو المرام وأى أى مرام
 باب إليه تشوق وتوجهي حرّم عليه تحيتى وسلامى
 ياليت شعرى هل أفوز بزورة يوماً وقد ضربت هناك خيامى

السلطان مراد الثالث

وتولى بعد سليم الثانى ابنه مراد الثالث ، وكان محباً للعالم والادب ، إلا أنه استولى
 عليه شهوتان ؛ إحداها حب المال ، والثانية حب الجمال . وأفرط في معاشرة النساء
 الى الحد الذى أضرب بعقله ، ولكنه أصدر أمراً قاطعاً بمنع الخمر ، فثار به الانكشارية
 والسباهية ، حتى اضطرّوه الى الغاء هذا الامر ، فانعكس المثل ، وصار : اليوم أمر وعداً
 خمر . وفي زمانه خرقت النمسا الصلح ، فسارت العساكر العثمانية وهزموا جنودها
 وقتل « هربرت بارون اوسبرغ » في المعركة وأرسل رأسه الى القسطنطينية . فطلبت
 النمسا الصلح ، ولكن العثمانيين لم يزالوا يشنون الغارات على استيريا ، وكارنيتا
 فاضطر النمسيون الى القتال . وفي ذلك الزمان صار « اتيان باتورى » ملكاً على
 بولونيا ، فاتفق مع البابا ومع امبرطور المانيا على حرب صليبية يصلونها الاتراك ، وبدأت
 المذاكرة في كيفية تقسيم السلطنة العثمانية . وقد سبق لنا في حواشى « حاضرم العالم
 الاسلامى » أن الممالك الاوربية في مدة ستمائة سنة قررت تقسيم السلطنة العثمانية
 وبلاد الاسلام مائة مرة ، ذكرنا كل واحدة منها ، وكيفية المذاكرات التى جرت بها
 فمن شاء فليراجع ذلك هناك .

وقد كانت عزيمة إتيان باتورى هذا من أهم هذه العزائم النصرانية بحق دولة آل عثمان . وكان يريد أيضاً استئصال إمارة موسكو ، ولكنه مات قبل أن يضع عزمته هذه موضع الاجراء . وفي مدة مراد الثالث ضعفت قوة الصدر الاعظم الصوقلى ، وتغلب عليه رقبائه ، وتمكنوا من عزل حواشيه والمنسوبين اليه ، وما زالوا يقصون من أجنحته الى أن أرسلوا من قتله سنة ١٥٧٩ فققدت الدولة بفقده رأسها المفكر ، وعقلها المدبر .

وكان شاه المعجم طهمااسب قد مات مسموماً ، وخلفه ابنه حيدر فقتل في يوم مبايعته ، وتولى أخوه اسماعيل فاستقر في الملك ثمانية عشر شهراً ، فانهز العثمانيون الفرصة وشنوا الغارة على أطراف المعجم ، واستولوا على بلاد كرجستان كلها ، وقسموها الى أربع ولايات ؛ فتولى أزدмир عثمان باشا ولاية شيروان ، وتولى محمد باشا تفليس وحيدر باشا صخوم ، وتولى ابن اللاوند على كرجستان الاصلية . فأرسلت سلطنة المعجم أربعة جحافل لاسترداد بلاد كرجستان ، ف وقعت المعارك بين الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بينهما . الا أن أزدмир عثمان باشا في الداغستان كان دائماً مظفراً . فآتم فتح داغستان وكرّ على الروس .

ولما كان خان القريم تخلف عن مساعدة الدولة أراد أن يقاتله ، فزحف محمد غرائى خان القريم بأربعين الف فارس ، وكاد يوقع بأزدмир عثمان باشا ، الا أن إسلام غرائى اخا محمد تولى القريم من قبل السلطان ، فزحف على اخيه فتفرق عن محمد غرائى جميع جنده وقتل . فلما رجع أزدмир عثمان باشا الى القسطنطينية ، دخل بأبهة عظيمة لم تحصل لقائد قبله ، وتولى الوزارة العظمى مع قيادة الجيش الزاحف لحرب المعجم . ثم إنه سار بجائته وستين الف مقاتل الى تبريز ، وهزم المعجم ، ودخل تلك البلدة ، ولكن ساءت صحته فتمطلت الحركات العسكرية ، وظفر حمزة مرزا قائد المعجم بالعثمانيين .. وفي أثناء ذلك مات عثمان باشا ، وتقهقر الجيش العثماني ، ورجع المعجم فحصروا تبريز وحملوا عليها خمسة عشر حملة ، وأصلوها ثمانية وأربعين معركة ولكنهم لم يقدروا عليها ، وأرسلت الدولة فرهاد باشا لنجدتها . وفي هيعة ذلك اغتيل

القائد حمزة مرزا ، وظفر فرهاد باشا ظفراً عظيماً بالاييرانيين ، فاضطر الشاه عباس الى طلب الصلح ، فانهقدت المعاهدة على أن تبقى كرجستان ، وشيروان ، ولورستان وتبريز ، وقسم من أذربيجان للدولة العثمانية . وفي زمن مراد الثالث اضطررت المملكة بكثرة الفتن ، وظهرت علامات اختلال الادارة ، فثار الانكشارية في استانبول لأنهم أرادوا أن يؤدوا اليهم رواتبهم بمعاملة ورق رقيق لم يرتضوا بها ، فهجموا على قصر السلطان .

وفي مصر ثار الجند على أويس باشا الوالى ، وفي تبريز خرج الجند أيضاً عن الطاعة فذبح منهم جمفر باشا ألقاً وثمانمائة ، وفي بود عاصمة المجر انتقض الجند بسبب تأخر أرزاقهم وقتلوا الوالى . وما زال الجند - لا سيما الانكشارية - يزدادون تمرداً حتى قرر سنان باشا الصدر الأعظم الدخول في حرب مع دولة أجنبية ليشغل الانكشارية عن العصيان ، فصرح جيشاً تحت قيادة حسن باشا والى بوسنة يهاجم النمسا ، فانهزم حسن باشا وزحف سنان باشا بنفسه ففتح « فيسيريم » و « بالوته » إلا أن قائد بود انهزم واستولت النمسا على تسع قلاع ، ثم ثارت « ترانسيلفانيا » و « الفلاح » و « البغدان » واتحدت هذه الامارات الثلاث مع النمسا وقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين فيها ، ولم تكن أحوال السلطنة العثمانية في زمن هذا السلطان على ما يرام بل اضطرب الحبل ، ومات السلطان في ٦ يناير سنة ١٥٩٦ .

ونبع في زمن هذا السلطان من العلماء ؛ الطبيب الياس القراماني ، وكان في الأصل طبيباً ثم تبهر في العلوم العقلية والنقلية ، ولكنه بقي يتعاطى الطب . وكان فرهاد باشا من وزراء السلطان مراد الثالث مبتلى بحبس البول ، فأشار عليه الطبيب الياس بتناول معجون تناوله ، فمات بعد ذلك بالزحير ، فاتهم الطبيب بأنه تعمد قتل فرهاد بإشارة من الوزير محمد باشا الذى كان رقيقه ، فدخلت زوجة فرهاد باشا على السلطان وطلبت قتل الطبيب ، فأخذ وحبس وأمر السلطان بالتحقيق ، فلم يثبت شئ على الطبيب وشفع به المفتى والعلماء . فأخرج من الحبس ، فجاء خدام فرهاد باشا وقتلوه . ولما وقف السلطان على ذلك غضب غضباً شديداً ، وقبض على ستين شخصاً

من جماعة فرهاد باشا ، و صلب منهم عشرة ، ونفى الباقين . ومنهم مصلح الدين بن علاء الدين المشتهر « بجراح زاده » ولد في أدرنة وقرأ على المولى لطف الله بن المولى شجاع ، ثم تبع طريق الصوفية ، وصار من الأولياء ، ومات بأدرنة ، وتنسب إليه الكرامات الكثيرة . ومنهم عبد الرحمن بن علي الأماصي ، كان من المدرسين ثم استقضى في بروسة ثم في أدرنة ، ثم في العسكر المنصور ، ثم في مكة المكرمة . وكان ذا خطوة عند السلطان سليم الثاني ، وبقي إلى زمن السلطان مراد الثالث . ولكن صاحب الدر المنظوم نبزه بمداهنة الوزراء وانهماكه بالرئاسة ، وليس ذلك مستحسنًا في العلماء . ومنهم الشيخ محرم بن محمد من قسطنطيني ، وكان من المتصوفة . ولما أتم السلطان سليمان جامعه الشهير نصب له به كرسي ، فكان يدرس تارة ويعظ أخرى ومنهم المولى شمس الدين أحمد ، وكان من العلماء وأصحاب الأخلاق . ومنهم محمد بن أحمد المشتهر « بزَن » كان أبوه من ندماء السلطان سليم الأول ، وطالب العلم وانتهى بأن صار من المدرسين ، يتنقل من مدرسة إلى أخرى ، ودرس في مدرسة السلطان سليمان بجزيرة « رودس » ، وكان أطلس بحيث إذا عرى عن زى الرجال يشتهبه أمره على النظر ، ويكون مصداق ما قال الشاعر :

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء ؟ !

يحكى أنه كان مع السلطان مراد الثالث ببلدة مغنيسيا ، وكان قد ظهر الجراد وأكل الزروع كلها ، فقال السلطان : كأنما الجراد لعب بلحية المفتى أيضاً . ومنهم أحمد بن حسن الصامسوني ، وكان من المدرسين ، ثم تولى قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، ثم قضاء مكة ، وحدث سيرته . ومنهم محمد بن عبد العزيز المشتهر « بمعيد زاده » من مرعش ، لازم المولى خير الدين معلم السلطان سليمان ، وصار يتنقل في المدارس ، ودرس في مدرسة السلطان سليمان في دمشق ، ثم تولى قضاء بيت المقدس وكان عالماً أديباً ، وله نظم يمدح به أهل بروسة ويقول فيهم :

رأيناهم أشد الناس حباً لأهل العلم رأساً أو مسوساً
فلو كان البلاد بنى أئينا لكانت هذه فيهم عروساً

ومنهم المولى محمود المشتهر « بالكاتب » ولد في سلانيك ، وكان من المدرسين المعروفين ، وتولى قضاء بغداد ، ثم قضاء آمد . ومنهم المولى زين العباد من أولاد الشيخ ابراهيم التنورى القيصرى ، ولد في قيصريه ، وطلب العلم ، واتصل بكبار العلماء ، وأخذ عنهم ، وصار من المدرسين ودرس في دمشق بمدرسة السلطان سليمان . ومنهم رمضان المشتهر « بناظر زاده » وكان من المدرسين المعروفين ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، وكان عالماً عاملاً حسن الصورة والسيرة ، احترز من التأليف خوفاً من الخطأ . ومنهم المولى حسن ولازم المفتى أبا السعود ، ودرس باحدى المدارس الثمان ، وتقلد قضاء الشام ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء مكة ، ثم قضاء القسطنطينية . ومنهم المولى حامد من قونية . وكان من المدرسين ، وتقلد قضاء دمشق ، ثم قضاء مصر ، ثم قضاء بروسة . وتولى قضاء العسكر في الرومللى ، وكان من الفقهاء المشهورين وكان عظيم النفس مهيباً في أعين الناس . ومنهم المولى محمد بن عبد اللطيف المشتهر « بيخارى زاده » تولى القضاء بطرابلس الشام . ومنهم المولى يوسف المشتهر « بسنان » قرأ على محي الدين الفغارى ، وعلى علاء الدين الجالى ، ودرس بدار الحديث في أدرنة وتقلد قضاء حلب ، ثم قضاء دمشق ، وانتهى أمره بأن صار من قضاة العساكر ومات عن تسعين سنة . وكان شيخاً جميل الصورة والسيرة على أخلاق كريمة كثيرة وكتب حواشى على تفسير البيضاوى . ومنهم احمد بن محمد المشتهر « بنشأنجى زاده » وكان مدرساً وتقلد قضاء مكة ، وقضاء مصر . ومنهم المولى محمد المعروف « همشير زاده » وكان من المدرسين .

قال صاحب الدر المنظوم : إنه كان محباً للصلحاء ، تردداً إلى مجالسهم اللطيفة مستمداً من أنفاسهم الشريفة ، غير أنه كان كثير الاقتحام في مصالح الفئام ، باذلاً عرضه الخطير في الأمر الحقيق . ومنهم محمد بن المولى سنان ، كان مدرساً بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة خانقاه ، ثم بالمدرسة الخاصكية ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى المدارس السلمانية ، وكان معروفاً بحدة الذهن ، وفرط الذكاء ، وقوة البحث ، وله حواش على الشرح « الشريفى للمفتاح » . ومنهم المولى احمد المعروف « بالكامل »

كان مدرساً بمدرسة مصطفى باشا باستانبول ، ثم نقل إلى مدرسة السلطان محمد بجوار أبي أيوب ، ثم باحدى المدارس الثمان ، ثم باحدى مدارس السلطان سليمان . ولما فتح السلطان سليم الثانى جزيرة قبرص تولى قضاءها ، وتسلم هناك زمام الحكومة ، لكنه عجز عن القيام بأمر قبرص ، فاستقال من ذلك المنصب وعاد إلى القسطنطينية . قال صاحب الدر المنظوم : إنه كانت له مكاتيب تارة يختار فيها الحروف العارية عن النقط ، وتارة يلتزم فى كلمة حرفاً واحداً فقط ، ومن الذى ما ساء قط . ومنهم محمود المشتهر « بمعلم زاده » وكان ملازماً للمفتى أبى السعود ، ودرس بمدرسة مراد باشا ثم بمدرسة داود باشا ، ثم بمدرسة رستم باشا فى القسطنطينية ، ثم بمدرسة بنت السلطان سليمان باسكدار ثم باحدى المدارس الثمان ، ومات شاباً . ومنهم محمود المشتهر « بيابا شلبى » قرأ على المولى القادرى ثم ذهب مذهب الصلاح ، واشتهر بالتقوى فنصب لتعليم بنت السلطان سليمان صاحبة الخيرات الحسان ، فلما تزوجت بالوزير الكبير رستم باشا أكرمه غاية الاكرام وجمع كتباً كثيرة نفيسة . ومنهم شمس الدين احمد بن بدر الدين المشتهر « بقاضى زاده » وكان مدرساً فى المدارس الشهيرة ، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء القسطنطينية ثم قضاء العسكر . وفى زمان السلطان مراد الثالث نال الحظوة التامة ، وتقلد الفتوى بدار السلطنة . قال صاحب الدر المنظوم : « إنه أنعم من عارضه بشقاشقه الهادرة وأرغم من عاناه بمحقاققه النادرة ، كثير الاعتناء بدرسه ، دائم الاشتغال فى يومه وأمسه ، رفيع القدر ، شديد البأس ، عزيز النفس ، يهابه الناس ثم قال : إنه كان فيه من التهور المفرط والحدة ما زاد على المعتاد . ومنهم احمد المشهور « بمظلوم ملاك » وكان معلماً لأبناء السلطان سليم ، فلما جلس على سرير السلطنة السلطان مراد الثالث وقتل إخوته الذين كان هذا الشيخ معلماً لهم — فقد قيل إن السلطان مراد قتل من إخوته خمسة — أصبح هذا الشيخ منكوباً . ثم قلده قضاء بيت المقدس ، ثم قضاء المدينة المنورة ، ثم قضاء مكة المشرفة ، ثم عاد إلى القسطنطينية ، وكانت سيرته مرضية . ومنهم عبد الواسع بن محمد ابن المفتى أبى السعود ، كان من المدرسين المعروفين وكان يكتب الخط النادر الجميل . ومنهم محمد بن نور الله المشتهر « بأخى زاده » أخذ

عن عرب شلبي ، وعن المولى عبد الباقي ، ولازم خير الدين معلم السلطان سليمان ثم درس بمدرسة خير الدين باشا في بشكطاش وفي غيرها . ثم تقلد القضاء ، وانتهى بأن صار قاضياً للعساكر ، وكان بجرأاً من بحار العلوم ، أنظر أهل زمانه . ومنهم شمس الدين احمد المعروف « بالعزمي » ولد في القسطنطينية ، وطلب العلم ودرس بالمدرسة الأفضلية ، ثم بمدرسة سنان باشا ببشكطاش . ومنهم المولى محمد المعروف « بصارو كرداوغلي » كان من ملازمي المفتي أبي السعود ، وتنقل في المدارس الشهيرة . ومنهم المولى خضر بك بن عبد الكريم القاضي ، وكان من المدرسين ، وتوفي وهو مدرس في بروسه .

قال صاحب الدر المنظوم : « وكان من الفاضلين في بحار العلوم ، غير أنه لا يخلو عن القيل والقال ، مطلق اللسان في الساف ، ومزدرياً بشأن الخلف ، مع غاية الاعجاب بنفسه ، لطف الله به في رسمه . »

السلطان محمد الثالث

وتولى بعد مراد الثالث محمد الثالث ، وكانت أمه من البندقيه (يافه) ولما تولى محمد الثالث كان له تسعة عشر أخاً فقتلهم جميعاً !! وبرغم هذه الفعلة الغريبة كان حسن العقيدة ، صارماً في إحقاق الحقوق ، مهتماً بتنفيذ الشريعة الغراء !! وفي زمانه تولى الأمور سنان باشا ، وحسن باشا ، وسيكالا زاده ، وعسفوا الرعية ، وأتقلوا كواهل الاهالي بالضرائب . ولم يقدر السلطان على إصلاح الحال ، وكانت الحرب مستمرة ، وكانت العساكر العثمانية غير موقفة في بلاد الفلاخ حيث اتفق أمير الفلاخ مع أمير ملداقيا ، وأمير ترانسلفانيا ، والامبراطور روداف الثاني . فزحف سنان باشا واستولى على بخارست سنة ١٥٩٥ إلا أن ميشيل أمير الفلاخ عاد فهزم العثمانيين وقتل أسرى الأتراك « بالخازوق » وشوى « على باشا » و « كدجي بك » على النار !! وصار الفلاخيون يتقدمون كل يوم الى الأمام ، ولكن الدولة العثمانية لم تكن تستغنى عن بلاد الفلاخ لما كانت تستدره من أخلافها ، وتنعم به من خيراتها . وبينما

هى تفكر فى استرداد بلاد الفلاخ التى هى فى هذا العصر مصاص مملكة رومانيا مات الأمير ميشيل هذا فتخلصت الدولة العثمانية من شره .

وأما النمسا فكانت جيوشها استولت على « غران » و « ويسغراد » و « بابقشه » و « كليس » فهاجت خواطر العثمانيين جداً ، واضطر السلطان أن يخرج بنفسه الى الحرب سائراً على خطة أجداده الأوائل . فوقع المصافى فى سهل « كيرستس » فى ٢٦ اكتوبر ١٥٩٦ ودارت الدائرة على النمسيين والمجر ، وخسروا خمسين الف مقاتل فى تلك الموقعة ، إلا أن العثمانيين لم يحسنوا الاستفادة من هذا الظفر العظيم . وفى سنة ١٥٩٨ رجعت النمسا وهاجمت مدينة « راب » وعرضت على « ساتورجى باشا » تسليم البلدة فرفض ، ولما وقع فى أيدي النمسيين قطعوه إرباً !! والتجأ ثلاثمائة من العثمانيين الى القلعة ، ووضعوا النار فى البارود فانفجر مخزن البارود ، وقتل فيه المحاصرون والمحصورون ، واستولى النمسيون بعد ذلك على « دولا » و « ويسبريم » و « پايا » وانكسر حافظ أحمد باشا فى « نيقوبوليس » ثم فى « بود » . فزحف الصدر الأعظم ابراهيم باشا وانقذ « بود » واستولى على « كانيشة » سنة ١٦٠٠ واستعمل ابراهيم باشا حسن السياسة مع الصرب والفلاحيين ، فانقادوا الى الطاعة .

وأما حالة السلطنة فى الداخل فقد كانت من أسوأ ما يكون ، فلم تكن تسكن ثورة فى جهة حتى تثور ثورة فى جهة أخرى . وأهمها ثورة « قره يزدجى عبدالحليم » فى الأناضول ، وكان استولى على « أورفه » ثم اتفق مع أخيه الدلى حسن والى بغداد وادعى السلطنة . ولم تتغلب الدولة عليه إلا بعد جهاد طويل ، وثار والى ديار بكر ، ووالى الشام ، ووالى حاب ، ووالى كوتاهيه ، ووالى بغداد الدلى حسن المذكور ؛ فتغلبت الدولة عليهم بعد عناء لا يوصف . ونقلت والى بغداد الى بوسنه . ولكن أوجاق السباهية ثار على الحكومة بسبب تأخر أرزاقه ، ولو شاركه أوجاق الانكشارية لقلبوا الحكومة والسلطان معاً ، ولكن الانكشارية حافظوا على الأمانة . وفى أثناء ذلك مات محمد الثالث .

السلطان احمد الاول

وخلفه ابنه احمد الاول وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من العمر ، وكانت السلطنة منهوكة القوى بكثرة الفتن ، وهى تحارب النمسا فى أوروبا ، والعجم فى آسيا ، لأن الشاه اسماعيل كان أعلن الحرب ، واسترجع تبريز ، ووان ، وإيروان ، بينما العصاة فى أكثر بلاد الاناضول قد رفعوا رؤوسهم ، وفى ذلك الوقت عصى الأكراد تحت قيادة « جان بولاد » فى حلب ، وعصى الدروز الذين تحت قيادة الأمير « فخرالدين المعنى » فاسترضى مراد باشا الصدر الأعظم جماعاً من رؤساء العصاة ، وأرسلوا جان بولاد والياً على « طمشوار » فى البلقان . وأرضوا « قلندر أوغلى » بولاية أنقرة فرفضت أنقرة ، قبول التأثير فعاد الى العصيان . فزحف اليه مراد باشا فهزمه . وأرسل من فتك « بموصلى شاويش » وهو من رؤساء العصاة ، كما أنه استجلب اليه يوسف باشا والى منتشة ، وآيدين الذى كان عاصياً أيضاً . فلما حصل فى يده خنقه . وفر الأمير فخرالدين المعنى إلى البادية ، والخلاصة أن مراد باشا أتى بخوارق العادات من الحزم والدهاء حتى استأصل جرائم الفتن التى كادت تقضى على كيان السلطنة . العثمانية ، فلقبوه بمجدد السلطنة . وما انتهى من قمع الفتن الداخلية حتى وجه همته لمحاربة العجم .

ومن أغرب الأمور أن هذا الشيخ قام بجميع تلك العزائم والعظام وهو فى سن التسعين — أى كان أسنّ من موسى بن نصير يوم فتح الأندلس — ولكن أثر فيه التعب ، وفى ٥ آب ١٦١١ انتقل إلى رحمة باريه . فاستدعى السلطان أحمد للصدارة الوزير نصوح باشا والى ديار بكر ، فمقد الصلح مع العجم ، وأعاد لهم البلاد التى كانت الدولة أخذتها منهم . فأما من جهة النمسا فانه كان وقع بينها وبين المجر خلاف نفع العثمانيين ، وبايع المجر ملكا اسمه « بوسكاى » فدخل تحت حماية السلطان وزحف لالا محمد باشا بجيش استرجع « غران » و « ويسغراد » و « ويسپریم » . فعادت النمسا فصالحت « بوسكاى » ملك المجر ، وبقيت عساكر الدولة وحدها

تحارب النمسا . وكانت الدولة مضطرة إلى الصلح تطفي نيران الفتن المشتعلة في الأناضول فامضت بين الدولة وبين النمسا معاهدة « سيتفاتوروك Sitvotorok » سنة ١٦٠٦ فزلت الدولة عن الجزية السنوية التي كانت تدفعها لها النمسا وهي ثلاثون ألف دوكة ، واكتفت بقبض مائتي ألف ريال غرامة حربية . وأعاد كل من الفريقين الأسرى الذين في يده ، وبقيت للدولة « غران » و « ايرلو » و « كاندشة » . وبقيت في يد النمسا « راب » و « كومورنو » وهذه المعاهدة هي أول معاهدة حصلت بها المساواة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، لأنه إلى حد ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية تعامل الدول الأوربية معاملة الأعلى للأدنى ، وتتقاضى الأوربيين جزى سنوية ، وإتاوات متنوعة : وبهذه المعاهدة حصلت ترانسيلفانيا على نصف استقلال وتخلصت مملكة المجر من دفع الجزية عن القسم الذي لم يكن العثمانيون يحتلونه .

ومن خصائص تلك المعاهدة أن الدول المسيحية أمكنها أن تناقش الدولة العثمانية في كيفية تحرير الصك ، وقبل ذلك كانت الدولة تملئ مثل هذه المعاهدات باللغة التركية ، وتبلغها أعداءها ، وكان عليهم أن لا يراجعوا فيها . وبالاختصار كانت هذه المعاهدة أعظم إرهاب بين يدي تقهقر آل عثمان .

هذا وقد رفض أهالي ترانسيلفانيا الدخول في طاعة النمسا ، فرجع الباب العالي عما تقرر في المعاهدة ، وزعم أن « بوسكاي » لم يكن له حق بالتصرف بالإمارة بدون رضی الأهالي فولى أمراء آخرين من قبله منهم « بيتلنغابور » وكان من أشد أعداء النمسا ، فاعترضت النمسا على ذلك ، فأجاب الصدر الأعظم بأن المتاركة غير شرعية ، لأنه لم يكن وقع عليها مفتى السلطنة . فنارت إمارة « مولداقيا » وطرد الأهالي « طومزه » الأمير الذي كان من قبل الباب العالي ، إلا أن اسكندر باشا جاء فقمع الثورة ، وأعاد طومزه إلى مكانه . ثم نشبت الحرب في تلك المدة بين الدولة واسبانيا ، وجاءت سفن فرسان مالطة وصارت تعيش في سواحل الدولة ، وغنمت أساطيل الطليان عدة سفن حربية عثمانية ، فوجهت الدولة قوتها البحرية إلى البحر المتوسط ، وانتهر القوزاق هذه الفرصة

ونزلوا في سينوب ونهبوها . فغضب السلطان على الصدر الأعظم نصوح باشا وأمر بحرقه . وفي سنة ١٦٠٤ تجددت المعهود التي كانت بين الدولة وفرنسا ، ورمازيد فيها وشدت الدولة في منع الأعمال القرصانية في البحر المتوسط ، وعزلت والى تونس ، وخنقت والى الجزائر ، ثم تجددت المعهود بين الدولة وبولونيا وتعهدت بولونيا بمنع القوزاق من الغارة على مولداقيا ، كما تعهد الباب العالي بمنع التتار من الغارة على بولونيا . وفي سنة ١٦١٢ انعقدت معاهدة تجارية بين هولاندة والباب العالي .

وفي ذلك الوقت ظهر التبغ بواسطة الهولانديين ، فأقضى شيخ الاسلام بمنعه بحجة أنه من الخبائث على نحو ما يذهب إليه اليوم الوهابية ، وأتباع الطريقة السنوسية أيضاً . ولكن الشعب ثار بالمفتى وقالوا إنه لا يوجد تحريم للدخان في الكتاب أو السنة ، فمن أين للمفتى حق تحريم ما لم يرد على منعه نص ؟ فاضطر المفتى إلى إلغاء فتواه . وكان السلطان أحمد الأول قد بلغ رشده وظهرت مناقبه ، فكان عادلاً كريماً محمود السيرة ، معتزلاً بأمر المملكة ، وكان موصوفاً بالتقوى والورع ، أهدى نفائس نادرة إلى الحجرة الشريفة النبوية ، ولو لم يكن له علة إلا أن رئيس الحصيان في القصر السلطاني كان في زمانه صاحب الأمر والنهي !! ولما مات السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٧ كان ابنه عثمان في سن الثالثة عشرة .

السلطان مصطفى

فرجحت الأمة مبايعة السلطان مصطفى أخى السلطان أحمد ، وفي زمن السلطان أحمد هذا أجلى الأسباب بقية مسلمى الأندلس الذين كانوا أكرهوا على التنصر لكنهم لبثوا مسلمين في الباطن ، وسبب ذلك أن هؤلاء أرسلوا وفداً إلى السلطان أحمد يستغيثون به ، فخاف ملك اسبانيا من الدولة العثمانية فقرّر إجلأهم ودخل منهم ألفوف إلى فرنسا ، فأرسل السلطان أحمد إلى هنرى الرابع ملك فرنسا يطلب منه إرسالهم إلى بلاده وبلاد الاسلام ، ففي الحال اركبهم السفن إلى بلاد الاسلام .

وفي بداية زمن السلطان مصطفى وقعت حادثة كادت تشعل الحرب بين الباب

العالى وفرنسا ، وذلك أن أميراً من أمراء بولونيا كان معتقلاً فى الأبراج السبعة بالقسطنطينية ، ففرمها بمساعدة أحد كتاب سفارة فرنسا ، فقبضت الدولة على السفير واعتقلته ، ووصعت مأمورى السفارة تحت الاستنطاق ، ولبثوا فى الاعتقال أربعة أشهر . فأرسلت فرنسا تهديد بالحرب وتطلب التعويضات ، فلم يصل معتمد فرنسا إلى الأستانة حتى كان العثمانيون خلعوا السلطان مصطفى .

السلطان عثمان الثانى

وبايعوا السلطان عثمان الثانى ابن أخيه ، فكانت مدة مصطفى ثلاثة أشهر فقط . واعتذرت الدولة لفرنسا ، وكتب السلطان والصدر الأعظم ، وقبطان البحر كتاب اعتذار إلى لويس الثالث عشر ، وانتهت المسألة . وفى ذلك الوقت وقع خلاف بين الدولة و بولونيا من أجل مسائل تتعلق بترانسلفانيا ، فأجمع السلطان على غزو بولونيا ، وكان ينوى ذلك حتى يتمكن من منع تجاوز روسيا التى كان قد بدأ أمرها يستفحل . فزحفت الجيوش العثمانية وقطعت نهر « دينستر » وحملت على الجيش البولونى حملات شديدة لكنها لم تقدر عليه ، فلما رأى العثمانيون عقم هذه الحرب وكان البولونيون فى وجل شديد من الهزيمة ؛ انعقدت معاهدة الصلح فى ١٦ أكتوبر ١٦٢٠

وفى ذلك الوقت حصلت مؤامرة فى فرنسا على الدولة العثمانية يرأسها كارلس الثانى الملقب « بكارلس دوغنزاق de gauzague » وزعموا أنهم يريدون الاستيلاء على القسطنطينية ، وكان منهم البرنس « دوكليف de Cleves » التى كانت جدته « مرغريت باليولوغ » من سلالة الامبراطور « اندرونيك باليولوغ » فبدأ هؤلاء الأمراء بالسعى لدى امبراطور ألمانيا ، وملك اسبانيا ، حتى يعضداهم فى هذه الحرب الصليبية ، وأرسلوا يوقدون نيران الفتن فى بلاد العرب وكرواسيا ، ودالماسيا ، والبانيا ومكدونيا . وفى ٨ سبتمبر ١٦١٤ حصل اجتماع حضره زعماء من الصرب ، والهرسك والبشناق ، والدالماسيين ، فى أرض القبيلة الألبانية الكاثوليكية المسماة « بكونجى »

وكان في هذا الاجتماع بطريرك الصرب وكثير من الأساقفة ، وتقرر إدخال أسلحة وأعتدة من البحر إلى أرض الجبل الأسود وتوزعها على القبائل الألبانية ، وأن تشور هذه القبائل وينضم إليها الصربيون ، وقدروا أن عدد الثوار لن يقل عن اثنين وأربعين ألف مقاتل ، منهم اثنا عشر ألفاً من الفرسان ، وأنهم يدهمون المدن مثل « قالونة » و « شقودرة » و « كاستانوڤو » قبل أن يتنبه الترك للمكيدة .

و بلغ الخبر أمراء مولداڤيا والفلاخ فوعدوا بأنهم بمجرد اشتعال الثورة يعبرون نهر الطونة بجيوشهم وينضمون إلى الثوار المسيحيين ، وكان كارلس الثاني دوغنزاع قد شرع بتكتيب كتائب من فرانس ، وفي بناء سفن حربية على نفقة نفسه ! وتبرع البابا بمبلغ مائتي ألف ذهب لهذه الحرب ، وبتقديم ألفي مقاتل في عشرين سفن ! ووعد ملك اسبانيا بستمائة ألف ذهب ، وعشرين سفينة ، ووعد فرسان مالطة بست سفن وتمهد اليونان بالدخول في هذه الثورة ، واتفق الكاثوليك والارثوذكس من يونانيين وألبانيين ، وصرب ، وبلغار ، وتعاهد الأساقفة على ذلك . وكان الرأي العام في فرنسا مائلاً جداً إلى اصلاء هذه الحرب الصليبية على المسلمين ، ونشر « ساڤارى دو بريڤ » « de Brèves » سفير فرنسا في تركيا سابقاً ١٦١٩ نشرة في وجوب محو السلطنة العثمانية ، ودعا القسيسون والأساقفة في الكنائس ، وأعلنوا الحرب الصليبية سواء في فرنسا ، أو في النمسا ، أو في بولونيا ، أو في ايطاليا ، إلا أن كل هذا توقف من نفسه وحبط العمل ، ويقال : إن الأسطول الذي كان أعده كارلس دوغنزاع المسمى « بدوك نيڤير » احترق بسبب لايزال مجهولاً ، واضمحلت هذه المسألة من ذلك الوقت .

وقد أشرنا في حواشي « حاضر العالم الاسلامي » إلى هذه المؤامرة الصليبية في جملة المائة مشروع التي اثمرت بها أوربا على الاسلام في مدة ستمائة سنة ، فمن شا فليراجع ذلك هناك .

وكان السلطان عثمان قد صمم أن يتخلص من أوجاق الانكشارية ، ويستبدل به جيشاً يكون أطوع للسلطنة منه . فعلم الانكشارية بذلك وثاروا به ، وعينو

داود باشا صدرأ أعظم ، وخلصوا السلطان وساقوه إلى الأبراج السبعة ، وهناك قتلوه في ٢٠ مايو سنة ١٦٢٢ . وهو أول سلطان قتل في الدولة العثمانية .

السلطان مصطفى ثاني مرة

وتولى مكان السلطان عثمان عمه السلطان مصطفى فما مضى يومان على مبايعته حتى ثار السباهية بـداود باشا وطالبوه بدم السلطان عثمان ، فقال لهم : إنه ما قتله إلا بأمر السلطان مصطفى ، فلم ينفعه هذا العذر وأسقطوه من الوزارة ، وصارت الحكومة العوبة في أيدي المساكر ، حتى يقال إنهم أسقطوا ستة صدور عظام في مدة خمسة عشر شهراً التي تولاهم مصطفى ، وصارت الأمور في نفس الأستانة أشبه بالفوضى وعصى باشا طرابلس الشام فطرد الانكشارية من بلده ، وعصى باشا ارضروم وزحف إلى أنقرة وسيواس وعذب من سقطوا في يده من الانكشارية ، وانضمت بلدان كثيرة في الاناضول إلى الثوار كرها بالانكشارية ، وأراد العلماء أن يوقفوا الانكشارية عند حدهم فلم يفلحوا ، وأخيراً تولى الصدارة على باشا فرأى أنه لا يستتب النظام بوجود سلطان بلغ هذا الحد من ضعف العزم ، فقرر خلعهم ومبايعة مراد أخى السلطان عثمان .

السلطان مراد الرابع

وكان مراد مرافقاً لم يتجاوز اثنى عشرة سنة من العمر ، فلذلك بقي السباهية والانكشارية يسرحون ويمرحون كما يشاؤون ، ويمسفون الأهالي باسم السلطان . واستفادت المعجم من هذه الحالة فتجاوزت على ملك آل عثمان ، وزحف الشاه عباس على بغداد وفتحها بعد حصار ثلاثة أشهر ، وعذب أهل السنة ، وشنق نوري افندي قاضي بغداد ، وعمر افندي خطيب الجامع الأعظم . وكان والى بغداد في الاصل ضابطاً من ضباط الشرطة اسمه « بكير آغا » فعصى الوالى وأراد أن يستأثر هو بالولاية واعصو صب حوله جماعة على شاكلة ، فتغلب عليه حافظ باشا وكاد يوقع

به ، فأرسل بكير آغا الى الشاه عباس ليأتى الى بغداد فيسلمه البلد ، فلما جاء الشاه عباس وطلب مفاتيح بغداد وجد بكير آغا قد صالح العثمانيين على شرط أن يكون والياً فالتزم الشاه عباس أن يحصر بغداد ، وأخذ يغاديهما القتال ويراوحهما ، ولم يتمكن منها إلا بخيانة ابن بكير آغا الذى وعده الشاه عباس بأن يجعله والياً محل أبيه . فلما فتح الشاه عباس بغداد بقى يعذب بكير آغا سبعة أيام ، ثم وضعه فى زورق مطلقاً بالقطران المتهب ، وتركه فى دجلة ، ثم قتل ابنه الذى خان أباه !

ولما وصل خبر سقوط بغداد الى السلطان مراد الرابع ، حاول على باشا الصدر الأعظم إخفاء الخبر عن السلطان ، ولكن المفتى أسعد افندى أخبره بالحادثة . فصدر أمر السلطان بقتل الصدر ، وعين مكانه « شركس محمد » وسرحه بجيش لقتال أباطة والى أرضروم الذى عصى الحكومة ، وأخذ يقتل الانكشارية فى كل سهل وجبل . فزحف اليه القائد حافظ باشا وهزمه ، ثم صالحه على أن يبقى والياً على أرضروم ، وفى أثناء ذلك مات الصدر الاعظم محمد باشا ، فتولى مكانه « حافظ باشا » وزحف الى بغداد لطرد المعجم منها ، فما زال الانكشارية يثورون عليه حتى اضطر الى ترك حصار بغداد ، وانكفأ الى الموصل ، ثم إلى ديار بكر . وعاد الانكشارية إلى الثورة ، فعزل السلطان حافظ باشا وولى مكانه خليل باشا ، فزحف هذا لياخذ أباطة والى أرضروم فلم يقدر عليه ، فعزله السلطان وولى خسرو باشا ، فتمكن هذا من إخضاع أباطة ولكنه عوضه من أرضروم بولاية بوسنة .

وبقيت الثورات تتوالى فى وسط السلطنة ، والحالة تسوء ، ولكن الله فرج عن الدولة العثمانية بموت الشاه عباس أكبر سلاطين الدولة الصفوية . فخلفه ابنه وكان شاباً غراً ، فزحف خسرو باشا إلى العراق وهزم جيوش المعجم ، لكنه لم يقدر على فتح بغداد برغم مهاجماته الكثيرة لها ، ورجع خسرو باشا إلى الموصل ، فرد السلطان إلى الصدارة حافظ باشا الذى لم يكن عنده مثله فى كفايته .

فلما علم العسكر أن السلطان عزل خسرو باشا ثاروا على السلطان وتقاضوه رأس حافظ باشا ، وكان الحرك للعسكر على هذا العمل هو خسرو باشا نفسه . فأذن السلطان

للمساكر في الانصراف من العراق أملاً بتسكينهم ، فلما وصلوا إلى الأستانة ازدادوا تمرداً وهجموا على القصر ففتح السلطان لهم الأبواب ، واستدعى اثنين من الانكشارية واثنين من السباهية ، وقال لهم قولاً ليناً لعلهم يتناهون عن غيهم ، فلبثوا مصرين على أخذ رأس حافظ باشا ، فبذل حافظ باشا نفسه لأجل راحة مولاه ، وخرج إليهم حتى قتلوه طعناً بالخناجر ، ولكن لم يسهط رخيصةً برغم شيخوخته ، ولم يقتل إلا بعد أن قتل منهم عدة . وسكنت ثورة المسكر مؤقتاً ، ولكن السلطان لم ينس عصيانهم لأمره ، وكونهم إنما عملوا بدسائس خسرو باشا ، فأمر بخنقه . فثار المسكر مرة ثانية ونادوا بخلع السلطان مراد . وكان متولى كبر هذه الثورة رجب باشا ، فظهر في هذه الحادثة أن السلطان الشاب كان بطلاً غشماً ، فانه أمر حالاً بقتل رجب باشا والرمي بجثته إلى المسكر ولم يبالي بهم !! وطلب السلطان من أحمد آغا قائد السباهية أن يقبض على رؤوس الثورة ، فماطل في إنفاذ الأمر السلطاني ، فأمر السلطان بقتله مع أربعة من رفاقه وجاء المفنى الأعظم يخوف السلطان من عاقبة استخفافه بغضب العلماء فقتله ، فعلت السلطنة أن على رأسها رجال غير الرجال الذين عرفتهم إلى ذلك الوقت منذ مدة طويلة ودخلت الناس في الطاعة .

وكان الأمير « فخر الدين المعنى » أمير لبنان ثار بالدروز على الدولة ، وعقد معاهدات مع بعض الدول الأوربية ، ولما لم يقدر على مقاومة الدولة جاء إلى فلورانسة من إيطاليا ، ثم بعد أن أقام عدة سنوات في فلورانسة في خبر يطول شرحه ، ولا يسهه هذا المختصر ؛ زحف إليه « الكوجك أحمد باشا » بجيش جرار ، وبعد وقائع شديدة دارت الدائرة على الأمير فخر الدين ، وقتل ابنه الأمير على . وكانت أم الأمير على أرسلانية - في واقعة حاصبيا ، فالتجأ الأمير فخر الدين إلى مغارة في جبل الشوف اسمها « شقيف تيرون » ويقال لها اليوم « قلعة نيعا » . وهى كهف عظيم في بطن جبل أشبه بالمناط لا يمكن الرقي إليه من الأسفل ، ولا النزول إليه من سطح الجبل ، ولا العبور إليه من الجانبين !! وإنما يدخلون إليه من أحد الجانبين زحفاً على البطن واحداً وراء واحد ، على صخرة ضيقة مشرفة على الوادى لا يمكن الانسان أن يمر بها واقفاً .

وقد دخلت أنا بنفسى زحفاً على هذه الصورة إلى هذا الكهف الذى كان يلجأ إليه العصاة فى كل حين ؛ وكان من لجأ اليه الضحاك بن جندل الخارجى فى أيام الحروب الصليبية ، وهذا الكهف يسم نحواً من خمسمائة مقاتل ، وليس فيه ماء نبع ولكن آبار تجري إليها مياه تحت الأرض بأنابيب من عين يقال لها « عين الحلقوم » كانت فى ذلك الوقت مطمورة ، فلما جاء الكوجك أحمد باشا ورأى استحالة الوصول إلى الكهف ، لأنه لا يؤتى لا من فوق ولا من أسفل ، ولا من عن أيمانه ولا من عن شمائله ، سأل عن مشرب أهل الكهف ؟ فقيل له إن الماء يجرى تحت الأرض ، ولكنه غير معلوم أصله ، ولا مكان جريه . فأتى القائد المذكور بخيل تركها عدة أيام عطاشاً ، فلما أفلتها على سطح الجبل وهى عطاش شئت رائحة الماء فصارت تضرب بأرجلها على الأماكن التى كان الماء يجرى تحتها ! فعلم الكوجك أن الماء هو هناك ، فأمر بحفر الأرض حيث كانت الخيل تضرب بأرجلها ، فوجد أنابيب الماء ، فلم يقطع الماء لأنه لو قطع الماء والآبار التى فى الكهف ملأى لبقى الأمير فخر الدين قادراً على الامتناع مدة طويلة ، فذبح الكوجك بقرأ فى مجرى الماء فجرى دماً إلى الآبار . وفى أحد تلك الأيام قام الأمير فخر الدين صباحاً فقال له جماعته : تعال فانظر الآبار ، فنظر فاذا هى دم ، فأمر الجند الذين معه بأن يخرجوا ويستسلوا للقائد ، وفى جوف الليل دلى نفسه هو ومدير أموره « أبو نادر الخازن » ومعهما خادم وذلك من الكهف إلى أسفل ، وهو علو خمسين متراً ، ومن هناك ذهب إلى كهف آخر يشابه « شقيف تيرون » واسمه « مغارة جزين » فأرسل الكوجك أحمد باشا جماعة نقبوا الصخور من تحت الكهف الثانى وما زالوا يحشونها بالبارود ويقطعون منها جانباً بعد جانب حتى أوشكوا أن يصلوا إلى المغارة ، فاضطر الأمير فخر الدين أن يستسلم إلى الكوجك أحمد الذى أرسله إلى الأستانة مع أولاده الثلاثة منصور وحيدر ، وبلك .

فلما وصل الأمير فخر الدين إلى الأستانة قال للسلطان : إننى مظلوم ، ولم أبن القلاع لإحماية من الأعداء ، ولم أحارب إلا من كان عاصياً للدولة ، وقد أمنت

طريق الحج ، ومنعت الاعراب عن التعدي ، وأديت الأموال الأميرية ، وأيدت الأحكام الشرعية ، فغفا عنه السلطان . إلا أن الأمير « ملحم المعنى » جمع رجالا من حزبه القيسية ونهض لقتال الأمير « على علم الدين » الذي كانت الدولة ولته جبل الشوف ، فنهض الأمير على لقتاله ومعه الينية ، فخرى بينهم قتال دارت فيه الدائرة على الينية ، فكتب الكوجك أحمد باشا للسلطان بأن هذه المشاغبات كلها هي من دسائس الأمير فخر الدين ، فصدر أمر السلطان بقتله مع أولاده ، وذلك ٣ مايو ١٦٣٥ ، واستحى السلطان من أولاده الأمير حسيناً ، واستخدم بالحضرة وترقى وعاش زمناً طويلاً . وكان عمر الأمير فخر الدين يوم قتل اثنتين وخمسين سنة ، وكان قصير القامة طويل الباع ، على الهمة ، استولى على معظم سورية ما عدا دمشق وحمص ، وحماء ، وحلب ، وقيل له سلطان البر ، وكان عنده جيش دائم ١٢ ألفاً . هذا ولقد تمكن السلطان مراد الرابع بحزمه وشدة بأسه من قمع الفتن الكثيرة وهدأت الأحوال في زمانه ، وزحف لقتال المعجم على رأس جيش جرار . وبينما كان زاحفاً كان يأتي من الصرامة أعمالاً توقع الرعب في قلوب الذين تحدتهم أنفسهم بالانتقاض ، وفي طريقه استولى على قلعة « أريوان » ثم على قلعة « تبريز » وأحرقها ثم عاد إلى القسطنطينية يستريح من وعثاء السفر ، فما كاد يستقر به المقام حتى رجع الإيرانيون فحشدوا واسترجعوا أريوان وكسروا العثمانيين في صحراء ميربان . فنهض السلطان مراد ثانية وزحف إلى بغداد ، ولبس ثياب جندي من عامة الجند ، ونزل بنفسه يقاتل في الخنادق ! وكان معه الصدر الأعظم ، فلما حمل العسكر العثماني كان السلطان والصدر الأعظم والوزراء يقاتلون بأنفسهم كسائر العسكر وأصاب الصدر الأعظم « طيار محمد باشا » رصاصة برأسه فسقط قتيلًا ، وأخذ السلطان مراد بغداد عنوة على أثر حملة استمرت ثمانية وأربعين ساعة ، ثم انعقد الصلح بين الدولة والمعجم على أن بغداد تعود لآل عثمان ، وأن أريوان تعود للمعجم وكان مراد الرابع في شدة بأسه ، ومضاء عزمه ، وعظمة مهابته ، أشبه بآل عثمان الأولين ، ولو طالبت حياته لجدد عهد سليمان القانوني ، ولكنه بعد أن استولى على

بغداد استرسل إلى الشهوات البدنية ، وأدمن شرب الخمر فاعتلت صحته ، وبلغت منه العلة أن صارت الروح فيه ذمء . وبقى يأمر بسفك الدماء ، ويقال إنه بينما كان وصل إلى دور النزاع أمر بقتل أخيه إبراهيم !! ولكن السلطانة الوالدة أمرت بعدم إنفاذ هذا الحكم ، وقالت له إنه نفذ ، وفي ٩ فبراير سنة ١٦٤٠ أسلم الروح وكان عمره تسعا وعشرين سنة . وهو الذى أنقذ السلطنة بعد أن كادت تتمزق أيدي سبا بالفتن والثورات وانتقاض الأمراء كل واحد من جهة . فأعاد مراد وحدة السلطنة بشدة حزمته وصرامته ، وأزال كثيراً من المظالم ، وأعاد النظام إلى الجيش . وفي أيامه ازدادت واردات السلطنة وحسنت جباياتها . ولم يكن يعاب إلا في ظمئه إلى سفك الدماء ؛ فانه كان يتلذذ بالقتل . وكان له عيب آخر ؛ وهو شدة غرامه بالمال ، فكان يحب الأحمرين « الدم والذهب » ولم يكن لمراد الرابع أولاد ، فتولى السلطنة بعده أخوه السلطان إبراهيم ، ولولا وجود السلطان إبراهيم هذا لانقرضت عائلة آل عثمان لأنه لم يكن بقي منها غيره .

السلطان ابراهيم

وبدأ السلطان ابراهيم ملكه بمصالحة النمسا ، ولكن حصلت حادثة أدت إلى الحرب بينه وبين جمهورية البنادقة ، وهذه الحادثة من أغرب حوادث التاريخ ، وهى أن رئيس الحصيان فى القصر الذى يسمونه « قيزلر آغاسى » كان عنده فى الحرم جارية حسناء بارعة الجمال ، اختيرت لتكون ظئراً للامير محمد بن السلطان ابراهيم ، وكانت هذه الجارية قد حملت ثم وضعت ولا يعلم من أين وقع حملها ، فشغف حبها السلطان حتى صار يفضل طفلها على طفله ، فوقعت الغيرة فى السراى وكاد السلطان يقتل طفله من شدة شغفه بالجارية وحبه لطفلها ، فلم يجد « القيزلر آغاسى » حيلة أحسن من أن يقصد الحج ويأخذ معه الجارية والطفل .

ومن المعلوم أن فرسان مالطة لم يكن لهم مهمة سوى قطع طرق البحر على المسلمين فهاجموا الاسطول الذى كان فيه « القيزلر آغاسى » فاشتبكت بين الفريقين معركة

ووقع « القيزلر آغاسى » قتيلاً بعد أن دافع أشد الدفاع عن نفسه ، ووقعت الجارية وطفلها في أيدي فرسان مالطة ، فظن الفرسان أن الطفل هو ابن السلطان وبالفوا في الاعتناء به وبأتمه ، إلا أنهم عرفوا فيما بعد أن الطفل لم يكن ابن السلطان ، فربّوه في الديانة المسيحية ، ونشأ قسيساً وكان يطلق عليه اسم « الاب العثمانى Paere ottomani » وكان الناس في أوروبا يعتقدون أنه من ذرية السلطان . ثم إن فرسان مالطة بعد هذه الغنيمة عرجوا على قندية من جزيرة « إقريطش » ونزلوا على البنادقة هناك فأكرموهم فوصل هذا الخبر إلى السلطان فجن جنونه ، وأصدر أمره بادىء ذى بدء باستئصال جميع المسيحيين ، إلا أن شيخ الاسلام عارضه بشدة فتوقف عن إنفاذ هذا الامر وأمر بقتل جميع الافرنج ، فجاء الوزراء وأبدوا وأعادوا حتى أرجعوه عن أمره هذا وحسنوا الاكتفاء بقتل كهنة الكاثوليك . ولكنه رجع عن هذا أيضا . وإنما اعتقل سفراء الدول المسيحية كلهم ، وأرسل يقول لهم : إنه يجعلهم مسؤولين عن الاهانة التى لحقت به ، فأجابه سفراء البندقية وانكاثرة وهولانده بأنه لا يوجد في فرسان مالطة واحد من تبعة حكوماتهم ، وأن جميع فرسان مالطة هم فرنسيس . فهاج غضب السلطان ابراهيم على الفرنسيين ، و بينما هو يريد الانتقام منهم أغراه الصدر الأعظم بفتح جزيرة « كريت » أو « قريطش » وفي ٢٤ يونيو ١٦٤٥ كان الاسطول العثمانى المؤلف من ثلاثمائة وثمان وأربعين سفينة أمام هذه الجزيرة ، وأنزل إلى « خانيا » خمسين ألف مقاتل ، فجاء أسطول البنادقة متأخراً فأخذوا ثأرهم باحراق « باتراس » و « كورون » و « مورون » وأخذوا خمسة آلاف أسير من العثمانيين . فلما اتصل الخبر بالسلطان اشتد غضبه وأصدر أمراً جديداً بقتل المسيحيين في السلطنة ، ورجع المفتى فعارضه أيضاً بشدة . وفتح العثمانيون « ريتمو » و « أبو كورونو » و « كسانو » من مدن « اقريطش » ولكن امتنعت عليهم « قندية »

وكان السلطان مسترسلاً إلى شهواته البدنية ، منقاداً لجواريه الحسان يفعل لمن ما يشأن ، فاستنزفن خزانة السلطنة ، وأسفت الرعية من هذه الحالة التى عليها السلطان وكثر القال والقيل ، فعزم السلطان على البطش بقواد الانكشارية والسباهية ، فتجمعوا

وانضم إليهم العلماء وقرروا خلع السلطان ومبايعة ابنه محمد الرابع - وهو طفل - ووقع ذلك في ٨ آب ١٦٤٨ وما مضى أسبوع على هذا العمل حتى قام السباهية يطلبون إرجاع السلطان ابراهيم إلى العرش ، تخاف المفتى والعلماء على أنفسهم إذا رجع وجاءوا بالجلاد « قره على » ودخلوا على السلطان ، فأخذ السلطان يستغيث وقال للمفتى : كان يوسف باشا سؤل لى قتلك وأنا لم أقبل منه ، واستحييتك وأنت الآن تريد قتلى أفلا تلوت القرآن وعلمت كيف يكون حكم الظالمين ؟ ! وبينما يقول هذه الكلمات إذ وضع الجلادون الحبل فى عنقه وشدوه فأزهقوا روحه .

السلطان محمد الرابع

وبقى السلطان محمد الرابع على عرشه وهو ابن سبع سنوات ، ورجعت الفوضى كما كانت قبل أيام مراد الرابع ، واضطر العثمانيون لرفع الحصار عن قندية ، وانكسر الاسطول العثماني فقتل الوزير صوفى محمد باشا بسبب هذه الهزيمة ، وزحف الثوار من الأناضول صوب القسطنطينية ، وقابلهم الصدر الأعظم « قره مراد » فهزموه وكادوا يستولون على الاستانة ؛ إلا أن الخلف وقع بينهم فنفروا ، وتمكنت الدولة من الايقاع بهم ، ومن استرضاء بعضهم .

وفى سنة ١٦٥١ ثار الانكشارية طالبين عزل شيخ الاسلام « بهائى » لأنه أفتى بجواز الدخان والقهوة ، وكانت الصدور العظام لا تستقر فى الدسوت إلا أياما قلائل . وفى سنة ١٦٥٦ ثار الانكشارية والسباهية بسبب تأخر رواتبهم ، وطلبوا عقاب الوزراء . فاضطر السلطان لارضائهم . ولحسن الحظ كانت النسا مشغولة بحرب الثلاثين سنة . فلم تقدر أن تسترجع بلاد المجر . ولكن الحرب بين البندقية والدولة العثمانية لم تكن سعيدة الطالع للدولة وتغلب الاسطول البندقى على الاسطول العثماني بازاء الدردنيل واستولى على « تيندوس » وعلى « لمنى » وبينما الحالة هى فى الدرجة القصوى من الخلل ، تولى زمام الصدارة الوزير « محمد باشا الكوبرلى الشهير » ولم يقبل الصدارة إلا على شرط إطلاق يده فى العمل فوعده السلطانة الوالدة بعدم

معارضته بشيء . وأول ما بدأ به من الاعمال أنه ألغى الأمر الصادر بقتل سلفه ، ثم ثار العسكر فأنزل بهم العقاب الصارم ، ورمى في البحر أربعة آلاف جثة . وبدأت خيانة من « بطربرك الروم » فشنته . ثم جدد الحرب على البنادقة بشدة عظيمة واسترجع تيندوس ولمنى . وجاء رسل « شارل غوستاف » ملك السويد يعرضون على الباب العالي محالفة دفاع وهجوم على بولونيا . فرفض الكوبرلى وألقى في السجن معتمدى أمير ترانسلفانيا « راكوشى » الذى كان تحالف مع السويديين ومع القوزاق على البولونيين . ثم عزله الكوبرلى وأقام مكانه رجلا يونانيا . وانقرضت بذلك عائلة (باسارابية) التى نبغ منها عدة أمراء . فثار راكوشى على الدولة ، وانتصر فى أول الأمر ، إلا أن الكوبرلى تغلب عليه . ووقعت معارك فى بلاد رومانيا أوقع بها المسيحيون بالمسلمين الذين هناك . فزحف الكوبرلى على بلاد الفلاخ ، وظهره التتار فزحفوا الى مولداڤيا وقهروا الرومانيين ، وأقاموا أميراً من قبلهم على تلك البلاد .

ثم إن التتار تجاوزوا حدود مملكة النمسا ف وقعت الحرب بين النمسا والدولة من أجل ذلك فصارت الحرب بين الدولة من جهة ، والنمسا والبندقية من جهة أخرى وكادت تقع مع فرنسا أيضا . وكانت امتيازات فرنسا فى المملكة العثمانية مقررمة ومسكوكاتها مقبولة ، وما عدا الانكليز والبنادقة فكل الامم لأجل أن تتجر فى البلاد العثمانية يجب عليها رفع العلم الافرنسى . وكان الفرنسيس لا يؤدون شيئا من الضرائب فى بلاد الدولة ، وكان قرصان الجزائر لا يقدررون أن يمسوا بسوء السفن الافرنسية ، وكان لافرنسيس حق اصطياد الصدف فى سواحل الجزائر ، وأكثر من وطدهذه الامتيازات لفرانسا هو السفير « ساقارى دوبريىث » ولكن بعد انقضاء أيام هذا السفير أخذت المحبة بين فرنسا والباب العالي بالنقصان ، ولا سيما فى زمان مراد الرابع .

وكان الانكليز والهولنديون أقنعوا السلطان بطردالجزويت ، وجاء سفير لفرانس اسمه « هنرى دوغورنيه de Gournay » فأساء السياسة ، فصدرالأمر بأغلاق كنائس غلطة التى كانت تحت حماية فرانسا ، وبمنع الفرنسيس من حمل السلاح ، وبأجباره

على دفع الرسوم والضرائب . ثم إن الأروام في القدس الشريف حصلوا على الاذن بحراسة الأماكن المقدسة ، وقد كانت من قبل في أيدي الفرنسيين . وأخذ قرصان الجزائر يعتدون على مراكب الفرنسيين ، وانضم إلى ذلك أن سفير فرنسا عند ما تولى الصدارة « محمد باشا الكوبرلي » لم يقدم له الهدايا المعتادة ، وقد كانت هذه سنة متبعة ، ثم رأى السفير الموسيو « دولاهاي » أن هذا الصدر الأعظم طالت أيامه ، فقدم له الهدايا اللازمة وعوض ما فرط ، ولكن كانت سخيمة الصدر الأعظم تمسكنت من قلبه ، فصار يترصد الفرصة ليوقع بين فرنسا والدولة وكانت الحرب لا تزال مشتعلة بين البنادقة والدولة على « اكريطش » . وفي سنة ١٦٥٩ جاء افرنسي اسمه « فيرتامون » إلى الصدر الأعظم وسلمه رسائل واردة من جيش البنادقة في قندية باسم الموسيو « دولاهاي » سفير فرنسا في الاستانة وكان هذا الافرني خائناً لقومه ، فسئل السفير عن ذلك وكان طريح الفراش بمرض الحصى ، وكان الصدر الأعظم وقتئذ في أدرنة ، فأرسل السفير ابنه ينوب عنه فبينما كان الصدر الأعظم يسأل ابن السفير عن معنى هذه المكاتيب لأنها كانت محررة بالأرقام ؛ أجابه الولد بغلظة ، فأمر الصدر بحبسه وقال : لا تتحمل من ابن سفير ما يجوز أن تتحمله من سفير ! فقام السفير من فراشه وذهب إلى أدرنة يحاول تخليص ابنه ، فسأل الصدر السفير عن معنى هذه المكاتيب ؟ فأبى السفير أن يجيب بشيء . فبقى الولد في الحبس ، وأرسل الكردينال « مازارين » الماريشال « بلونديل » ومعه مكتوب من ملك فرنسا إلى السلطان يطالب فيه عزل الصدر الأعظم ، فلم يلتفت الكوبرلي لمعتمد فرنسا ، ولا أذن له بمقابلة السلطان . فتحمل الكردينال مازارين هذه الاهانة ، وانتقم لفرنسا بارسال متطوعين يساعدون البنادقة في « اكريطش » وكان أمر الكوبرلي يغلظ يوماً فيوماً ، وكلما ازدادت سنه علواً ازداد بطشاً وعتواً . وحصلت بعض فتوق في أيامه فسدها بدهائه وحزمه ، وأطفا ثورة حصلت في مصر وقبل أن مات سأله السلطان عن الشخص الذي يليق بأن يخلفه ؟ فأشار عليه بابنه « أحمد باشا الكوبرلي » وكان كأييه في الدهاء والحزم .

ولما تولى هذا الصدارة عرضت النمسا والبنادقة الصلح فلم يجب أحمد باشا الكوبرى هاتين الدولتين إلى الصلح ، وزحف وعبر الطونة عند « غران » وهزم الكونت « دوفورغاكس » وضيق الحصار على بلدة نوهيزل Neuhoesel وهى أمنع معقل فى بلاد المجر كان يقال إنها لا تؤخذ ففتحها الكوبرى عنوة بعد حصار ستة أسابيع ثم عاث الجيش العثمانى فى المجر ، ومراغية ، وسيليسية ، وسحب فى رجوعه ثمانين ألف أسير فاستغاث الأمبراطور ليو بولد صاحب النمسا بدول النصرانية ، فدعا البابا جميع النصارى إلى حرب صليبية .

وكان « لويس الرابع عشر » غير ناس الإهانة التى لحقت بسفيره ، فوعد بتجهيز ستين ألف مقاتل لحرب الترك ، وأرسل بالفعل ثلاثين ألفاً بقيادة الكونت دوكلينى de Coligny « وتطوع فى هذا الجيش أكثر أبناء بيوتات الشرف فى فرنسا وكان الكوبرى قد استولى على « سيرين ثار » و « كورمورن » الصغرى ولكن عندما وصل جيش الفرنسيين صارت الحرب سجالا ، وقطع الكوبرى الأمل من محو قوة النمسا . فمقد الكوبرى الصلح المسمى بصلح « فازقار » سنة ١٦٦٤ ووقع الاتفاق على أن ترانسلفانيا لا يكون فيها عثمانيون ولا نمسويون ، وأن يتولاها أمير تحت سيادة السلطان ، وفى الولايات المجرية السبع يكون منها ثلاث للنمسا ، وأربع للدولة العثمانية . وبقي الفرنسيين فى البحر المتوسط يتجاوزون على سواحل الدولة ويتعرضون لمراكبها ، فاشتد غضب الأتراك ونادوا بالثارات .

وكان فى فرنسا الوزير « كولبير Colbert » لا يرى فى هذه العداوة خيراً فأرسل ابن الميسولاهاى لأجل السعى فى الصلح ، ولم يكن هذا الاختيار فى محله لأنه هو الذى أغلظ القول لمحمد باشا الكوبرى وأمر هذا بحبسه ، فلما وصل لاهاي الصغير وقابل الكوبرى الصغير اختصما فى الكلام فسمع لاهاي من الصدر الأعظم كلاماً مهيناً ، فخرج مغاضباً وقال للصدر إنه سيفادر القسطنطينية ، فلما وصل عند الباب قبضوا عليه وحبسوه . ولما بلغ الخبر السلطان أمر بإطلاق لاهاي واسترضائه ولكن الكوبرى رفض تجديد امتيازات الفرنسيين ، ومنعهم من المرور بالبحر

الأحمر ومصر في تجارتهم مع الهند ، وأذن في ذلك للانكليز والجنويين . فأخذ الفرنسيس يوالون النجدات لجزيرة « اكريطش » وكان الحصار على قندية ، فركب أحمد باشا الكوبرلى بنفسه وضيق الخناق على تلك البلدة ، وأقبل فرسان مالطة وأكثر أبناء النبلاء في فرانسأ ينجدون قندية إلا أنهم انكسروا في واقعة حاسمة وتركوا ميدان القتال منصرفين إلى بلادهم . فازداد ضغط الأتراك على تجار الفرنسيس فأرسل لويس الرابع عشر أربع سفن لأجل حمل السفير ورجال السفارة وجميع التجار الفرنسيس الذين في القسطنطينية ، ثم جهز اثني عشر تابوراً وثلاثمائة فارس في خمسة عشر سفينة تحت قيادة « الدوك بوفور Beaufort » وأرسلها إلى كريت . ولكن هذه الحملة لم تكن عظيمة الفائدة لكريت والبنادقة ، ولم تمنع تغلب العثمانيين على الجزيرة . وانعقد الصلح في ٦ سبتمبر سنة ١٦٦٩ ، ودخلت كريت كلها تحت حكم الدولة ، ما عدا ثلاثة مراس « كورابوزه » و « صوده » و « اسپينالونفة » وكان فتح العثمانيين لكريت هو آخر فتح لهم فتحوه من ممالك النصرانية . ولم يوجد في التاريخ بلدة اشتد حصارها وطال نظير قندية ، واستمرت حرب كريت خمساً وعشرين سنة ، في أثناءها قام العثمانيون بست وخمسين حملة ، وصدوا خمساً وأربعين هجمة ! وأحرق المحصورون ألفاً ومائة واثنين وسبعين « لنما » وأحرق الأتراك ثلاثة أضعاف ذلك . وبلغ عدد خسائر البنادقة أربعين ألفاً .

وذكر المؤرخ هامر أن خسائر العثمانيين بلغت مائة ألف .

وكان لويس الرابع عشر وأكثر شبان فرانسأ يريدون محاربة تركيا ، إلا أن « كولبير » الوزير المعروف كان لا يزال يعارض في هذه الحرب ، وعزل السفير لاهاي وأرسل مكانه الماركيز « دونوانتل de Nointel » فطالب من تركيا مطالب رفضها الكوبرلى ، وقال إن تلك الامتيازات التي كان يتمتع بها الفرنسيس كانت من قبيل الانعام لا غير ، وليست شرطاً لازماً ، فان لم يكن السفير يفهم هذا فما عليه إلا أن يرجع إلى بلاده . فلما علم لويس الرابع عشر بما جرى أمر بتجهيز أسطول خمسين بارجة حربية ، ولكن في آخر الأمر تغلب الميل إلى السلام ، وأعيدت معاملة

الفرنسيس في تركيا إلى ما كانت عليه ، واعترفت الدولة لفرنسا بحماية الكاتوليك في الشرق . ومع هذا فان لويس الرابع عشر بقي طول حياته يكره تركيا ويفكر في شن الغارة عليها ، ولم يتأخر عن ذلك إلا عجزاً ، لأن الدولة في أيام أحمد باشا الكوبرلي عادت فصعدت إلى ذروة المجد .

وفي أيام الكوبرلي دخل القوزاق الروس في طاعة الدولة ، وكانت الدولة أعلنت الحرب على بولونيا في ١٨ آب ١٦٧٢ وزحف السلطان بذاته وكسر البولونيين ، وعقد ملك بولونيا « ميشيل فيسموڤيكي » صلحاً مهيناً ، وتخلى عن « بادوليه » للعثمانيين وعن « أوكرانيا » للقوزاق ، وتعهد بدفع جزية سنوية عشرين ألف دوكة . فالشعب البولوني لم يوافق على هذا الصلح ، وعاد القواد فاستأنفوا الحرب ، وكانت سجالات بين الفريقين . فتوسط خان القريم في الصلح ، وانعقدت المعاهدة على أن يبقى قسم من أوكرانيا تابعاً للدولة العثمانية . ومن سوء حظ الدولة مات أحمد باشا الكوبرلي ؛ وكان لم يتجاوز إحدى وأربعين سنة ، وكانت وفاته في ٣٠ أكتوبر ١٦٧٦ ، ولم يكن سفاكاً للدماء كأبيه ، ولا كان شرهاً إلى المال . وكان محباً للعدل ، قائماً بالقسط . فتولى الصدارة بعده ابن عمه قره مصطفى باشا ، ولم يطل الأمر حتى استؤنفت الحرب في رومانيا ، وبلاد القوزاق ، فزحف قره مصطفى بجيش جرار ، واستولى على كورين من أوكرانيا .

وبينما العثمانيون يحاربون في أوكرانيا إذ حصلت وقائع في بلاد المجر حملتهم على عقد الصلح ، وذلك أن المجر كانوا قد اقتتلوا مع النمسيين ، وكانوا منقسمين إلى قسمين ؛ أحدهما حزب الكونت « تكللي Tekeli » وهؤلاء كانوا يعتمدون على تركيا ، والحزب الآخر كان يعتمد على النمسا ، فاستعان تكللي بالدولة ، وزحف قره مصطفى باشا على رأس مائة وأربعين ألف مقاتل ، وكان النصر حليف جيشه ، فاغتر بقوته وساق الجيش إلى فيينا طامعاً في أخذها . وكان الكونت تكللي والقائد العثماني في بود وأكثر القواد ضد هذا الرأي ، إلا أن قره مصطفى أصر على حصار فيينا وكان قائد البلدة الأمير « اشتار نبرغ Stiharemburg » فجند الأهالي كلهم ، وقابل

هجمات الأتراك بمداخلة نادرة المثال . وقام الترك بثمانية عشر هجمة ، وحمل النمساويون من الداخل أربعا وعشرين حملة ، ووقع كثير من الحصون في أيدي الأتراك .

ويقول المؤرخ الافرنسي « دولا جونكيير » : إنه لولا بخل قره مصطفى لربما كان الجيش العثماني استولى على فيينا ، وذلك أنه كان يعتقد كون فيينا ملائى بالأموال والكنوز ، فلو كان أمر بحملة عمومية واستولى الجند على البلدة لكانوا نهبوها لأنفسهم فكان يريد أن يأخذها بدون أن يترك للعسكر حق التصرف بالغنائم ، فبقى منتظرا النصر مع حفظ النظام إلى أن تمكن امبراطور النمسا « ليو بولد » من استجلاب البولونيين لنجدة فيينا . وكان البابا استصرخ لويس الرابع عشر باسم النصرانية ، إلا أن شدة بغضاء ملك فرنسا لامبراطور المانيا حالت دون نجدة ملك فرنسا الذي كان يثبط سائر الدول المسيحية عن اصراخ الألمان .

وبرغم كل مساعي لويس الرابع عشر في خذلان النمسا زحف « صوبيسكى » ملك بولونيا . وزحف أمراء « الساكس » و « الباير » لنجدة النمسا وفي ١٢ سبتمبر ١٦٨٣ اشتبكوا في معركة حاسمة مع العثمانيين ، فخاب السعد في هذه المعركة وقد العثمانيون عشرة آلاف قتيل ، وغنم الألمان والبولونيون ثلاثمائة مدفع وخمسة آلاف خيمة وصناديق لا تحصى ملائى بالعدد . وسقط في أيدي الألمان أعلام الجيش العثماني عدا السنجق الشريف ، وتقهقر قره مصطفى باشا قاصداً إلى بود فتعقبه البولونيون وهزموه هزيمة ثانية ، وقتلوا من جيشه ثمانية آلاف واستولى الرعب على الأتراك فولوا مدبرين ، ووصلت الأخبار إلى الأستانة فثار ثائر الأمة ، واضطر السلطان محمد الرابع إلى إصدار الأمر بقتل قره مصطفى باشا ، وأرسلوا رئيس القراء إلى بلغراد لأجل تنفيذ هذا الأمر ، وتولى الصدارة ابراهيم باشا في أخرج وقت عرفته السلطنة ، وتألبت على الدولة العثمانية عصابة من دول النصرانية ؛ المانيا ، و بولونيا ، والبندقية ، والبابا ، وفرسان مالطة : وانضم اليهم الروس طمعاً في دخول البحر الأسود ، وغزو بيزنطية ، وكان الشيخ العثماني قد دب الرعب في قلبه ، وكانت الخزانة خاوية ، وكانت فرانساً غير داخلية في هذا الحلف بغضا بالمانيا ، ولكن كانت

المراكب الافرنسية تغزو سفن المسلمين . ووقع قتال بين الأسطول الافرنسي والمراكب العثمانية أمام جزيرة « شيو » وضرب أمير البحر الافرنسي « دوكن Duquesne » مدينة الجزائر بالقنابر ودمرها ، ولم يرجع الفرنسيين عنها إلا بعد أن أخذوا غرامة الحرب من إمارة الجزائر ، وتسلموا الأسرى المسيحيين الذين عندهم . وضرب أيضاً دوكن مدينة طرابلس فأوقع بها ما أوقع بالجزائر . وجاء الفرنسيون فغزبوا مراسي المغرب ، ودمروا الأسطول المغربي . ثم إن الهزائم التي وقعت على جيش قره مصطفى باشا في النمسا تركت الطريق مفتوحاً للعدو ، فزحف إلى المجر كما أن البنادقة أعملوا الحركة لأجل فتح بلاد المورة ، ووقعت « بريثيزه » في أيدي البنادقة ، ثم « نافارين » و « مورون » و « أركاديه » و « پاتراس » و « لپانت » و « كورنتيه » و « أثينا » .

وأما النمساويون فانهم استولوا على « فيسغراد » و « فاكسن » ودخلوا « پست » وحصروا « بود » واستولوا على بعض مواقع للعثمانيين في « كرواسية » ودحروا إلى بوسنة . ثم استولى قائد النمسا « الدوك دولورين » على « غران » و « نوهيزل » كما أن الكونت « هر بشتاين » استولى على « ليكة » و « كور باقية » و « وادي أودفينه » كما أن الجنرال « شولتس » هزم « تسكلى » الأمير المجري المولى من قبل العثمانيين فعين السلطان سليمان باشا صديقاً أعظم وعهد إليه باسترداد شرف السلطنة التي أصيبت من النوائب بما لم يسبق له مثيل ! وكان سليمان باشا شديد البأس مقداماً إلا أنه كان ينقصه علم الحرب الذي كان موصوفاً به « الدوك دولورين » وهو القائد الأول في زمانه وكان الدوك دولورين يحاصر بود وفيها القائد عيسى باشا ، وكان المحاصرون تسعين ألف مقاتل ، فردهم عيسى باشا على الاعقاب مرتين . إلا أنه قتل في المعركة و بعد قتله دخل النمساويون وحلفاؤهم إلى بود ، وذلك في ٢ سبتمبر سنة ١٦٨٦

وكانت بود هي آخر حدود الاسلام من جهة أوربا . وبقى العثمانيون فيها مائة وخمسة وأربعين سنة ، وكانت هي باب الجهاد ومفتاح السلطنة . وكانت فيها مساجد ومدارس

عديدة فلم يبق منها شيء سوى مدفن لمجاهد يقال له « كل بابا » حافظ عليه المجر إلى الآن وهو على رابية عالية من بود .

ومن آثار العثمانيين في بود حمامات معدنية لا تزال إلى الآن . ثم اشتبك سليمان باشا مع العدو في « موهاك » وهو مكان كان العثمانيون كسروا فيه المجر قبل ذلك التاريخ بمائة وستين سنة . فلم يسعدهم طالع الحرب هذه المرة ، وخسروا عشرين ألف مقاتل ، مع المدافع ، والذخائر . ودخل العدو بلاد ترانسلفانيا واستولى عليها ، واستولى على أربعة عشر حصناً في « سلافونيا » وعلى كثير من القلاع في كرواسية ، والمجر السفلى . فبعد توالى هذه المصائب على الدولة لم تجد الأمة أمامها وسيلة لاصلاح الحال سوى خلع السلطان محمد الرابع ، فخلعوه في ٨ نوفمبر ١٦٨٧ وبايعوا أخاه السلطان سليمان الثاني .

السلطان سليمان الثاني

وكان سليمان الثاني محبوساً مدة ستة وأربعين سنة في أحد القصور ، لا يخالط أحداً ولا يخاطبه أحد ، وكان يقضى أوقاته بالمطالعة ، فلما عرضوا عليه السلطنة حاول الاستعفاء منها ، فأجبروه على القبول . ولكن الانكشارية والسباهية ثاروا على الحكومة وقتلوا الصدر الأعظم ، وأهانوا حرمة . فلما شاع الخبر في الآستانة ثارت حمية الشعب ، وخرج العلماء تحت العلم النبوي ودعوا الأهالي إلى تأديب العسكر فانقضوا عليهم وفتكوا بهم ، وقتلوا كثيراً من رؤسائهم ، فأخلدوا إلى السكون . وبقى النمسيون والبنادقة يتقدمون في فتوحاتهم فاستولوا على « أرلو » وطردها العثمانيين من « دالماسية » وأخيراً دخلوا بلغراد ، فالتمس الأتراك الصلح فاشتترط النمسا شروطاً ثقيلة إلى الغاية ، فحاول العثمانيون الثبات فتقهقروا أيضاً ، وأخرجهم العدو من « نيش » و « ودن » وأصبحت أسكوب تحت خطر السقوط . وقال أحد الوزراء : لا يزال

أمامنا حملة واحدة ، و يصير العدو في الآستانة . فمقدت الدولة مجلساً في أدرنة للتشاور فيما يجب عمله لانقاذ السلطنة ، وعهد بالصدارة إلى مصطفى باشا الكوبرلى ابن الكوبرلى الكبير ، وأخو أحمد باشا الكوبرلى . فقام بالأمر خير قيام ، وبدأ باصلاح السلطنة من الداخل وملأ الخرائن بالأموال ، واستأصل الرشوة ، وأخذ على أيدي الظالمين وسن قوانين عادلة للخراج . وكان جانب من موارد السلطنة تحول إلى الأوقاف فاسترجعها الكوبرلى ، وقال : إن الجهاد أولى بها ، ثم بعد أن ملأ خزانة السلطنة بالأموال اللازمة ؛ نشر فرماناً يقول فيه : إن الله يأمر المؤمنين بالجهاد ، إلى آخر رمق من حياتهم ، وإنه يجب على المسلمين أن ينفروا خفاً وثقلاً ، فثارت الحمية في رؤوس المسلمين ونفروا من كل صوب . وفي الوقت نفسه عامل النصارى بمزيد الرفق ، وأطلق حرية التجارة ، فاستفاد من ذلك اليهود والنصارى . ومن جملة ما شدد به هذا الصدر الأعظم الرشيد منع العساكر من الاعتداء على الأهالي ولو بمثل حبة الخردلة ، ومن خالف ذلك أنزل به العقاب الصارم : ثم نظر إلى أحوال القضاء فظهر المحاكم ، وأشعر الرعية وجود العدل ، وأعاد مجد السلطنة كما بدأ ، وبحسن إدارته هذه حفظ للسلطنة بلاد « المورة » لأن الأهالي قاموا إذ ذاك وانتصروا للدولة على البنادقة ، لا سيما أن هؤلاء كانوا يسمون في نشر المذهب الكاثوليكي بين الأروام الأرثوذكسيين . فلما رأى الأروام ما رأوا من عدالة هذا الصدر وحسن إدارته رجعوا إلى الدولة العثمانية من تلقاء أنفسهم .

وبعد أن سدد الكوبرلى أحوال السلطنة وأعاد هيبة الحكومة كما كانت زحف إلى الثغور ووافاه خان القريم سليم غرائى ، فبدأوا ببلاد الصرب فدوخواها وهزموا جيشاً المانياً في قوصوة . وهزم الأمير « نكلى المجرى » حليف الدولة الجنرال « هوسلر » وأخذه أسيراً . واسترجعت الدولة « نيش » و « ودين » و « سيمندريا » و « بلغراد » وذلك سنة ١٦٩٠ . ثم مات السلطان سليمان الثانى .

السلطان احمد الثانى

وخلفه أخوه أحمد الثانى فى ٢٣ يونيو ١٦٩١ فكان للكوبرىلى فى مدة أحمد من نفوذ الكلمة ما كان فى مدة سليمان ، حتى أن السلطان أحمد قال مرة : إنى لا أريد أن أعترض الكوبرىلى فى شىء من أمور الادارة خوفا من أن يتعطل بذلك ما هو أدرى منى . إلا أن الأقدار أبت إلا حرمان السلطنة العثمانية من هذا الرجل العظيم ، فانه فى الحرب مع النمسا تلاقى فى « سالان كنيم Salan Kenem » مع جيش المانى يقوده « لويس فون بادن » . وكان الصدر الأعظم مخترباً سيفه أمام الجيش ، فأصابته رصاصة فى صدره فخرقتيلاً ، ودارت الدائرة على الأتراك وفقدوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل ، ومائة وخمسين مدفعاً ، وكانت مصيبة من أعظم المصائب على الدولة ، وفقدت بفقده وزيراً عاقلاً ، عادلاً ، نشيطاً ، جريئاً ، مهذباً صادقاً ، اجتمع فيه من الخلال الباهرة ما قلما وجد فى رجل من رجال السياسة . فبكاه المسلمون والمسيحيون معاً ، وأسف الجميع لفقده . وبقيت الدولة مدة أربع سنوات لم يلتئم جرحها الذى تركه موت الكوبرىلى .

السلطان مصطفى الثانى

ثم تولى السلطنة مصطفى الثانى بن محمد الرابع ، وكان عهده متمماً بالمتانة والصلابة ورجع السلطان إلى دأب أجداده الأولين ، وأعلن أنه سيباشر قيادة الجيش بنفسه فقال له بعض وزرائه : إنه لا يجوز له أن يعرض للتهلكة شخصه المقدس ، فرفض كلامه وفى بداية أمره كسر الأسطول العثمانى فى خليج « شيو » أسطول البنادقة ، وزحف خان التتار إلى بولونيا ، وأوقع بأهلها ، ولم يتوقف إلا عند « لمبرغ » . وجاء الروس فحاصروا « آزوف » فهزمهم العثمانيون والتتار ، وقتلوا منهم ثلاثين ألفاً . وذلك فى أكتوبر سنة ١٦٩٥ ، ثم دخل السلطان بنفسه بلاد الحجر وفتح « لبيّة » وجاء الجنرال « فيتيرانى » ليصدّه فأحاط به الجيش العثمانى ، وبعد عراك شديد كثرت

فيه الخسائر من الفريقين أخذ فتييراني أسيراً وأمر السلطان بدق عنقه . ثم انتصر السلطان في وقعة « أولاش » على أمير الساكس . وبينما كانت الأمور جارية وفق مراد العثمانيين ؛ إذ تولى البرنس « أوجين دوساقوا » قيادة الجيش الألماني .

سلطنة مصطفى الثاني ابن محمد الرابع التي ابتدأت سنة ١٦٩٥ كانت فاتحتها فاتحة حزم وعزم ، وما مضى ثلاثة أيام على استواء السلطان على سرير الملك حتى أعلن نيته أن يتولى قيادة الجيوش بنفسه خلافاً لما كان عليه أسلافه المتأخرون . وقد حاول بعض وزرائه أن يأفكه عن عزمه هذا فلم يستفد شيئاً ، وقال له السلطان : إني ماض في خطي هذه ، ثم إن عهد هذا السلطان بدأ بالظفر ، فالأسطول العثماني كسر أسطول البنادقة أمام جزيرة « ساكس » واستولى العثمانيون على هذه الجزيرة ، وزحف خان القريم على بولونيا وأوغل وأنخن ، ولم يتوقف إلا عند « لمبرغ » : وكذلك الروس تركوا حصار « آزوف » بعد أن فقدوا ثلاثين ألف مقاتل ، وذلك في اكتوبر سنة ١٦٩٥ ثم إن السلطان نفسه دخل بلاد المجر وافتتح مدينة « ليپه » عنوة وأسر الجنرال « فتييراني » وأمر بقطع عنقه . ثم تغلب السلطان في واقعة « أولاش » على أمير الساكس قائد الجيش الألماني في السنة التالية ، فاشتعلت حماسة العثمانيين وصاروا يجودون بالمعاطيا لتجهيز الجيوش ، ولتكتيب كتائب من المتطوعة ، إلا أن طالع الحرب لم يستمر طويلاً على هذا الشكل ، فان بطرس الأول قيصر روسيا عاد فافتتح « آزوف » والبرنس « أوجين دوساقوى » تولى قيادة الجيوش النمساوية فكسر الجيش العثماني على نهر « تيس Thaiss » حيث فقد العثمانيون ثلاثين ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف غرقوا في النهر ، وقُتل الصدر الأعظم ، وفر السلطان ودخل العدو بلاد بوسنه وذلك سنة ١٦٩٧ فماد الخطر فأحرق بالسلطنة ، وعوّل السلطان على وزير جديد من آل كوبرلي وهو الكوبرلي حسين باشا ، وكانت الخزانة فارغة ، فجاء الكوبرلي هذا ورّمم الاحوال ، وحشد جيشاً عهد بقيادته الى « دالتبان باشا » وسرّحه الى بوسنه فأجبر النمساويين على الانكفاء الى الورا فعبروا « نهر الساف » . وكان لويس الرابع عشر يغري تركيا بمتابعة القتال ، ويتعهد لها

بواسطة سفيره الماركيز « دوفريول » بأنه لا يصلح النمسا الا اذا استرجعت تركيا بلاد المجر وجميع البلدان التي فقدتها . ولكن سياسة النمسا تغلبت في ذلك الحين وقيل إن الذهب لعب دوره في هذه المسألة ، وانعقد الصلح بين تركيا والنمسا على شرط ترك الأولى للثانية جميع المجر وترانسلفانيا . وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة « كارلوفيتس » وتاريخ انعقادها ٢٦ يناير سنة ١٦٩٩ ، وبموجبها تقررت الهدنة بين الدولتين الى مدة خمس وعشرين سنة ، وصار نهر « الساف » ونهر « أنة » فاصلا بين تركيا والنمسا ، واسترجعت بولونيا « كامينيك » و « قادولية » و « أوكرانية » وبقيت آزوف للروسيا . وصارت بلاد المورة وجميع دلماسية الى جمهورية البندقية ، وألغيت جميع الجزى التي كانت تدفعها الدول المسيحية الى الدولة العثمانية .

ومعاهدة كارلوفيتس هذه كانت الى ذلك العهد أعظم ضربة على السلطنة العثمانية ، فتراجع الأتراك عن بولونيا والمجر الى ما وراء نهر الدنيستر ، والساف والأنة ، وظهر للجميع الضعف الذي كان قد بدأ يعمل عمله في سلطنة آل عثمان .

وكان الخلل عاما جميع فروع الادارة ، وكانت الفتن مشتعلة على حدود إيران وفي القريم ، وفي أفريقيا ، وفي بلاد العرب . فقام الكوبرلى حسين الذى اقتنى أثر عمه برأب الصدوع ، وسد الفتوق ، وأعفى أهل بوسنة و « البانات » مما كانوا يؤدونه باسم الجيش ، وترك لأهل الروملى مليوناً ونصف مليون من متأخر الضرائب وأصدر أوامراً فى جميع السلطنة بأن جميع المأمورين يجب أن يكونوا علماء ، وأن يحفظوا القرآن وقواعد الدين ، وشدد فى انتخاب المدرسين ، ووضع الادارة وقيادة الجيش تحت رقابة شديدة ، وأصلح الأمور المالية ، وسن قانوناً للبحرية ، وبنى المساجد ، والمدارس ، والأسواق ، والشكن العسكرية ، ورمم أسوار بلغراد ، وتمشوار ونيش . وشحنها بالاقوات ، ونظر فى أحوال المسيحيين من الرعايا فعاملهم على قدم المساواة مع المسلمين . ولكن هذه الاصلاحات كلها لم تقع بدون مقاومة ؛ فتألب على الصدر الأعظم حزب ممن كانوا يعيشون بالغلول من أموال الدولة ، وأخذوا يدسون الدسائس حوله وحول أعوانه ، الى أن اضطرروه الى الاستقالة وكان أصيب

بمرض عضال وفي ٥ سبتمبر سنة ١٧٠٢ بعث الى السلطان بختم الصدارة ، ومات بعد ذلك بسبعة عشر يوماً ، وفقدت الدولة به رجلاً عظيماً ممن آخروا أجل سقوطها نظير سائر آل الكوبرلى

وقد أحدث موت الكوبرلى هذا فتوراً جديدة في السلطنة ، وتولى الصدارة « دالتبآن باشا » وكان مغرماً بالحرب يريد نقض المعاهدة التى انعقدت مع النمسا الا أنه لم يطل أمره وقتل قيل بدسائس بعض العلماء - فتولى الصدارة « نامى محمد باشا » فأراد أن يحدو حدو الكوبرلى فى الاصلاح فأثار عليه المشايخ جيش الانكشارية وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى الثانى ، ومبايعة أخيه احمد الثالث .

السلطان أحمد الثالث

وفى أول الأمر اضطر السلطان الجديد الى إرضاء الثوار ، وقتل المفتى فيض الله افندى بفتوى من خلفه محمد افندى وهو حادث لم يسبق له مثيل ، غير أن السلطان بعد أن تمكنت أقدامه فى السلطنة عاد فأخذ ينكل بزعماء الثورة فقتل منهم وغرب وعهد بالوزارة الى صهره المسمى داماد حسن باشا ، فسار بالملكة سيرة حسنة ، واثارت فى أيامه بلاد الكرج فدوخها ، واعتنى بتأمين قافلة الحج من الشام الى مكة ، وبنى مدارس ، وأنشأ دار صنعة بحرية .

وفى أيام احمد الثالث كان لويس الرابع عشر قد خاض الحرب المسماة بحرب الوراثة فى أسبانيا ، فعرض بواسطة سفيره على تركيا أن تدخل فى حرب مع النمسا وتسترجع ما فقدته ، ولكن حزب السلام كان فى تركيا غالباً ، فرفض السلطان طلب ملك فرنسا . وكانت روسيا قد نجحت قرونها إذ ذاك ، فانهزت فرصة اشتغال الدول الغربية بالحرب وخلالها الجو ، ورأت تركيا قد مالت الى الدعة فجعلت تتأهب لقتالها ، وتركيا كانت لا تحفل بما تفعله روسيا بقيادة بطرس الا كبر . وكان كارلوس الثانى عشر قد خشى مغبة قوة روسيا ، فحمل عليها وطلب معاونة السلطان فوعده بارسال خان القريم لمعاونته ، فاعتمد على هذا الوعد وأوغل فى أرض روسيا

بسته عشر الف مقاتل لا غير ، فانكسر والتجأ الى « بندر » ضمن الحدود العثمانية وحاول أن يجر العثمانيين الى محاربة الروسية فلم يفلح . وذلك لأن نيمان باشا الكوبرلى الصدر الأعظم كان يكره دخول الدولة فى الحرب ، وكان هذا الكوبرلى نظير أسلافه فى العدل ، إلا أنه كان ينقصه علو أفكارهم ، فسقط أخيراً . وكان أكثر السبب فى سقوطه مشرقاً له ، لأنه عارض السلطان فى إسرافه ، وأبى أن يجعل معاشات الانكشارية من طرق غير شرعية . فقال له السلطان : إن سلفك « شورلولى » كان يجد طريقاً لتأديته رواتب المساكر ، فأجابه الكوبرلى : لى الفقير بأن أجهل مثل هذه الطرق . فعزله السلطان وولى مكانه « محمد باشا البلطجى » الذى أعلن الحرب على روسيا ، وتولى بنفسه قيادة الجيوش .

وكان بطرس الأكبر يؤمل أن المسيحيين فى السلطنة العثمانية يرفعون لواء الثورة فلم يتحرك منهم أحد ، وسار البلطجى بمئتى الف مقاتل من الترك والتتار وأحاطوا بجيش بطرس الأكبر على ضفاف نهر البروت ، وأوشك بطرس وجيشه أن يقيموا فى الأسر وكانت روسيا لو أسروا ستسقط من عداد الدول ، فبادرت كاترينا بدهائها لتلافى الخطب ، ودخلت فى المذاكرة مع الصدر الأعظم ، وعززت الكلام بهدايا فاخرة قدمتها له ، وانمقدت معاهدة « فالكسن » وذلك سنة ١٧١١ وبموجبها تعهد قيصر روسيا بإعادة قلعة « آزوف » وبهدم القلاع التى بناها فى تلك البلاد ، وبعدم التدخل فى أمور القوزاق . فكانت هذه المعاهدة مفيدة لتركيا إلا أنها كانت أفيد جداً للروسيا ، لأنها أنقذت القيصر من الأسر . وثار غضب ملك السويد وويج البلطجى على عدم أسره بطرس الأكبر ، فأجابه البلطجى جواباً بارداً وهو أنه لو أسر بطرس لبقيت بلاد الروس بدون رئيس . فهذا الكرم كان بغير محله ، بل كان نوعاً من الخبال . وجاء الكونت « بونياثوفسكى » سفير السويد وعرض القضية لسلطان وعضده خان القريم « دولة غرائى » فغضب السلطان على البلطجى وعزله ونفاه ، على أن خافه يوسف باشا لم يكن أيضاً مغرمًا بالحرب ، فعقد متاركة مع روسيا إلى مدة ٢٥ سنة . وصدر الأمر لكارلوس الثانى عشر بأن يعود إلى بلاده ، وكان كارلوس

جباراً عنيداً فإني أن يمثل الأمر وبقي معلقاً أمله ببحر العثمانيين إلى محاربة روسيا فالتزمت الدولة أن تعالج إخراجه من أرضها بالقوة فعصى الأمر ، فساقوا اليه عشرين ألف عسكري من التتار وستة آلاف من الترك ، فحاول مقاومة هذا الجيش بثلاثمائة من رجاله ولكن العثمانيين لم يريدوا أن يفقدوا بنزيلهم ، وصبروا عليه حتى رجع إلى السويد من نفسه بعد أن أقام سنتين في تركيا .

وفي تلك المدة استفادت الدولة من الهدنة مع روسيا ، وطردت البنادقة من جميع بلاد المورة ، ومن بعض البلاد التي كانت باقية لهم في كريت . ولكن جزيرة « كورفو » امتنعت على العثمانيين ، فالتجأت البندقية إلى النمسا وكان قائد جيوشها « أوجين دوساقوى » الشهير فأعلن الحرب على تركيا وهزم الجيش العثماني في « پترفاردن » وذلك في ٥ أغسطس سنة ١٧١٦ وقتل الصدر الأعظم في الواقعة واستولى النمساويون على « تمشوار » وحاصروا « بلغراد » . فزحف الصدر الأعظم الجديد خليل باشا لنجدة بلغراد فانكسر أيضاً ، فالتزمت الدولة أن تعقد الصلح مع النمسا ، وأخلت لها تمشوار وبلغراد وقسماً من بلاد السرب ، ومن بلاد الفلاخ ، ورجع بطرس الأكبر فاستفاد من هزيمة تركيا هذه وأخل بالمعاهدة التي كان عقدها معه البلطجي ، فتجددت معاهدة أخرى وأقنعت روسيا عدوتها تركيا بالاتحاد معها على قضية النظام الارثي في مملكة بولونيا ، وغفلت تركيا عن كون بولونيا حصناً حصيناً لها فسأيرت روسيا .

وتولى الصدارة ابراهيم باشا ، فقام يحارب المعجم ، وأثار السنية الذين في بلادها فانهز بطرس الأكبر الفرصة وأغار على الطاغستان وسواحل بحر الخزر ، فأرسل خان القريم ينذر الدولة بسوء المصير فزحفت الجيوش العثمانية على أرمينية وكرجستان وكادت الحرب تقع بينها وبين الروس فخاف بطرس الأكبر أن تدور عليه الدائرة هذه المرة أيضاً فوسط فرنسا بينه وبين الدولة ؛ فسعى « دوبا » سفير فرنسا في إرضاء الفريقين وذلك من أملاك المعجم .

وكانت فارس يومئذ في حال أشبه بالفوضى ، وكان الشاه مير محمود قد تغلب

عليه أشرف ابن عمه واستولى على الملك ونازعه طاهماسب ، وكان هذا أحق بالملك شرعاً فتحارب الاثنان وانتهى الأمر بهزيمة أشرف والتحقه بسجستان حيث مات وكان عند طاهماسب قائد عظيم اسمه « نادر كولى » كان فى الأصل زعيم أشقياء فزحف صوب تركيا واسترجع الولايات الفارسية التى كانت قد دخلت فى الحوزة العثمانية ، فلم يشأ السلطان أن يثير على فارس حرباً ، ففضبت الانكشارية وثاروا وطلبوا رأس الصدر الأعظم ، ورأس شيخ الاسلام ، ورأس القبطان باشى فامتنع السلطان عن إعطائهم رأس شيخ الاسلام ، ولكن قتل لهم الآخرين . فلم يزد هم ذلك إلا تمرداً ، وخلصوا السلطان أحمد وبايعوا محمود الأول

وفى زمن أحمد الثالث دخلت المطبعة فى تركيا وأفتت مشيخة الاسلام بجوازها إلا أنه بقى طبع المصحف الشريف ممنوعاً . وطبع فى ذلك الوقت كتب كثيرة مثل « جيهان نوما » وهو جغرافية للشرق مع أطالس وخلاصات تاريخية . و « تقويم التواريخ » وهو سلسلة ملوك الشرق وعظمائه إلى سنة ١٧٣٢ « وتحفة الكبار » وهى تاريخ البحرية العثمانية إلى سنة ١٦٥٥ « وتاريخ تيمور » من قلم نظمى زاده . و « تاريخ مصر للسهيلى » . و « تاريخ الافغان » مع « مختصر تاريخ الدولة الصفوية فى فارس » . و « تاريخ بوسنه » من سنة ١٧٣٦ إلى سنة ١٧٣٩ وهى مدة اتصلت فيها الحروب فى ذلك الاقليم . و « تاريخ الهند الغربية » . و كتاب « الفيوضات المغنطيسية » يتكلم عن خصائص المغناطيس وإبرته المعروفة . فهذه هى الكتب الأولى التى طبعت بالمطبعة العثمانية بحسب رواية المؤرخ « لاجونكيار LaJonquière » وقد قرأت فى بعض المظان ما يخالف هذا وهو أن أول كتاب طبع فى الأستانة هو « صحاح الجوهري » . ثم ان الدولة عادت فمنعت المطبعة ، وبقى ذلك إلى زمن السلطان عبد الحميد الأول الذى أصدر خطأ شريعاً فى تاريخ ١٢ مارس سنة ١٧٨٤ باعادة المطبعة تحت ادارة محمد رشيد افندى ، وأحمد واصف افندى . فكانت مدة إهمال المطبعة أربعين سنة ثم إن السلطان محمود الأول اهتم بها مزيد الاهتمام .

وكان السلطان أحمد الثالث شاعراً أديباً ، وله شعر رقيق لا سيما في الغزل .
أحفظ من جملته :

عجباً لسلطان يذل له الورى ويصول ساطان الغرام عليه
وما أكثر الأدباء والشعراء في آل عثمان !! .

السلطان محمود الأول

تولى السلطان محمود الأول سنة ١٧٣٠ ولأول سلطنته نار الانكشارية وعلى رأسهم المسمى « بترونه خليل » فقمعت الحكومة ثورتهم وقتلت منهم سبعة آلاف وعاد السكون إلى العاصمة . ثم استأنفت الدولة محاربة المعجم وأجبرت الشاه طهماسب على طلب الصلح ، فانهقد في ١٠ يناير سنة ١٧٣٢ ونزلت المعجم عن تبريز ، وأردهان وهمدان ، وجميع اللورستان ، وأيضاً تركت لتركيا الداغستان ، وناختشيفان ، وأريقان وتفليس ، وغيرها . ولكن هذا الصلح لم يطل أمره ، فانه برز « نادر كوليخان » من قواد المعجم وخلع الشاه طهماسب وصار هو كافلاً للمملكة الفارسية ووصياً على القاصر الشاه عباس الثالث . فنقض نادر المعاهدة وغزا البلاد العثمانية وحصر بغداد فاشتبكت معركة شديدة على دجلة وانكسر المعجم أولاً وثانياً ، ولكنهم عادوا فانتصروا في المعركة الثالثة ، ووقع السر عسكر طوبال عثمان باشا قتيلاً . وكان هذا قائداً بطلاً ، ووزيراً عادلاً فاضلاً ، خسرت تركيا بموته خسارة لا تعويض . وأرسلت الدولة جيشاً آخر بقيادة السر عسكر عبد الله باشا الكوبرلى بن مصطفى باشا الكوبرلى فقتل هذا السر عسكر أيضاً فاضطرت الدولة إلى طلب الصلح وعقدته مع نادر شاه الذى كان تولى سلطنة المعجم ، ورجعت مع إيران إلى الحدود التى كانت تحدت بين السلطان مراد الرابع والمعجم سنة ١٦٣٩ وأكثر السبب الذى حدا تركيا على طلب الصلح هو نشوب الحرب بينها وبين روسيا

وكانت بولونيا فى فوضى مستمرة ، فانهزت روسيا من جهة ، والنمسا من جهة أخرى الفرصة لأجل اقتسامها . وقاتل « ستانسلاس » ملك بولونيا قتلاً شديداً إلا

أن الروس تغلبوا عليه فصارت بولونيا في قبضة الروسية ، بينما فرنسا مشغولة بالحرب مع النمسا .

وكانت عند الدولة العثمانية رجل إفرنسي اسمه أحمد باشا أصله من البحرية الافرنسية وقد جرت معه وقائع خرج من أجلها من وطنه ودخل في خدمة النمسا وامتاز بالبسالة في الحرب بين النمسا وتركيا ، ثم وقع الخلاف بينه وبين البرنس أوجين فألقاه في السجن ، فوجد وسيلة للفرار من السجن والتجأ إلى تركيا وصار قائداً وتسمى بأحمد باشا ، وقدّم للسلطان تقريراً يطلعه فيه على أسرار السياسة الأوربية ، وأشار على السلطان بمقعد محالفة مع فرنسا وأقنعه بها ، فرضى السلطان بذلك حتى يتمكن من قهر النمسا . ولما علم كارلس الثاني أمبراطور النمسا بمشروع هذه المحالفة مع فرنسا أسرع بمصالحة هذه ، وفي أثناء ذلك زحف الروس إلى تركيا بينما هي في حرب مع المعجم فاستولوا على آزوف ، والقريم ، وغيرها .

ولما كانت النمسا قد صالحت فرنسا واستراحت من حروبها مع اسبانيا وسردانيا عبت جيشاً كبيراً وغزت به بلاد الصرب ، والفلاخ ، والبوسنة ، وظنّت نفسها قد نالت مرامها فانكسر جيشها في بناالوفة ، والتزمت أن تخلى البوسنة . وكذلك انكسر جيشها في الصرب تحت قيادة البرنس « هيلدبورهوزن » فطلب أمبراطور النمسا الصلح وذلك سنة ١٧٣٧ وتوسطت انكلترا وهولاندا في إعادة السلام ، إلا أن الباب العالي اشترط أن يكون الصلح بواسطة فرنسا . واسترجعت الدولة في تلك النوبة بلاداً كثيرة كانت قد استولت عليها النمسا . ولولا غفلة الحاج محمد باشا الصدر الأعظم لكان الجيش النمساوي قضى عليه بتمامه . فأما الحرب مع روسيا فكانت سبجلاً ، ففي البداية انكسر الروس على نهر « الدينيستر » وأحرق الأسطول العثماني أسطول روسيا إلا إنهم عادوا فيما بعد فانتصروا على العثمانيين ودخلوا ملداثيا . وبمساعدة المريكز « فيلنوف Villeneuve » انعقد الصلح بين الدولتين روسيا والنمسا ، وبين الدولة العثمانية وذلك بكفالة فرنسا . وبموجب هذه المعاهدة رجعت بلغراد و « وشاباتز » وجميع بلاد الصرب ، والفلاخ ، وقلعة أورزوقة إلى تركيا .

وجُعِلَت هذه المعاهدة لمدة سبع وعشرين سنة ، وقد محت معاهدة كارلوفيتس السابقة التي كانت وصمة عار على العثمانيين .

فاما الروسيا فقد رضيت بالصلح على شرط أن تهدم قلعة آزوف ، ولا يكون لها سفن حربية لا في قلعة آزوف ولا في البحر الاسود ، وأعاد الروس جميع البلاد التي كانوا احتلوها من تركيا . وقال المؤرخ الألماني « هامر Hammar » : إنه في ذلك الوقت ساد النفوذ الافرنسي في الآستانة الى أن صار كل شيء بيد فرنسا تقرّياً وطلبت فرنسا تعديلات في الامتيازات الأجنبية المعروفة بامتيازات سنة ١٦٧٣ فأجبت اليها وذهب السفير العثماني محمد سعيد ليقدم ذلك الى لويس الخامس عشر في فرساي فقبل باحتفال عظيم ، ورجع ومعه مدربون افرنسييس للجيش العثماني بحسب طلب « بونفال Bonval » الافرنسي الذي كان أسلم وتسمّى بأحمد باشا ، وهو الذي مات سنة ١١٦٠ هجرية ودفن في « بيره » من بلاد اليونان . ثم إن تركيا عقدت محالفة عسكرية هجومية دفاعية مع السويد في وجه الروسيا .

وفي ذلك الوقت توفي الامبراطور « كارلس السادس » صاحب النمسا ، وترك الملك لابنته « ماري تيريز » فتحرّكت أطماع الدول الاوربية وأردنَ اقتسام النمسا . وكانت هذه أحسن فرصة للدولة العثمانية حتى تسترجع بلاد المجر ، وكانت فرنسا على رأس الدول التي تريد تمزيق النمسا ، فدعت تركيا الى الاشتراك معهن فأبى السلطان نقض العهد ، وشرع يرسل المواءم الى تلك الدول حتى تمتنع عن إثارة الحرب . وأصدر الصدر الأعظم منشوراً طويلاً يصف فيه أهوال الحروب بأبلغ العبارات ويحثه بدعوة الدول المسيحية الى السلام . وعبثاً حاول بونفال المسمى أحمد باشا وسفير فرنسا وغيرها تحريك السلطان ورجاله لانتهاز هذه الفرصة ، وساعدهم في ذلك أرسلان غرائي خان القرّيم الذي كان يعرف مقاصد الروسيا ، فالدولة العثمانية حينئذ أصرت على التزام السكوت وتوسطت انكلترا بينها وبين الروسيا واوستريا حتى عقدت بين الدول الثلاث معاهدة سلم دائمة . ثم ان الدولة وحّدت بين إمارة الفلاخ وملدافيا وصارت ترسل إلى هناك أميراً تنتخبه من أروام استانبول ؛ فكان رجال

الدولة يضعون هذه الامارة بالمزاد فيذهب الأمير الرومى من الآستانة فيجمع مايقدر عليه من الأموال بالطرق الدنيئة وغير المشروعة ، ويرشوبها رجال الديوان لأجل إطالة امارته ، حتى إذا جاء من زاد عليه صرفوه عن الامارة وولوا الذى زاد . وهكذا ساءت إدارة الفلاخ والبغدان ، وكان هذا النسق فى الحكم يزيد بغضاء أهالى رومانيا للأتراك ويحملهم على محبة الروس . وقد جنت الدولة العثمانية من تحكيم هؤلاء الأروام فى بلاد رومانيا اتحاد الرومانيين مع الروس فى وجهها وكان ذلك وبالا عليها .

السلطان عثمان الثالث

وفى ١٣ ديسمبر سنة ١٧٥٤ توفى السلطان محمود الأول بعد أن ملك أربعاً وعشرين سنة وكان حليماً رؤوفاً محبوباً ، فأسف عليه الناس أجمع ، وخلفه السلطان عثمان الثالث . وكان الصدر الأعظم هو طلى باشا فاستخف بأمر السلطان وأكثر الغلول من مال الدولة ، فأمر السلطان بقتله ووضع رأسه فى صحن من فضة على باب القصر السلطانى ، وولى الصدارة وزيراً اسمه محمد راغب باشا . وكان فى غاية الدهاء والحكمة مع الحزم والعزم ، وكانت له خبرة بالسياسة الخارجية . ولم يطل أمر عثمان الثالث ولم يحصل شئ فى زمانه سوى حريق لم يسبق له مثيل فى الآستانة التهم نصف هذه العاصمة . ومات عثمان الثالث فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٥٧ .

السلطان مصطفى الثالث

وخلفه ابن أخيه وهو السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث . وقد بدأت سلطنته فى أثناء حوادث أثارت ثائر الأمة ؛ منها الاعتداء الذى جرى على قافلة الحجاج بين الحرمين ، ومنها أن سفينة أمير الماء - أى القبطان باشى - خرج منها جنودها وبقي فيها بعض النواتية من الأرقاء المسيحيين فذهبوا بها إلى مالطة . غير أن السلطان بدأ بالإصلاح فعلاً ، وأول ما وجه إليه هم هو إصلاح الأمور المالية ، وضبط الجبايات ، واتباع سياسة التوفير ولا سيما فى القصر السلطانى . وأخذ

السلطان ادارة الاوقاف من يد « آغا القصر » وسلمها إلى الصدر الأعظم . وكان راغب باشا يبنى المحاجر الصحية توقيماً من الطاعون ، ويقوم باصلاحات أخرى مثل بناء دار الكتب العظيمة التي بناها في استانبول ، وكان مراده أن يشق بلاد الاناضول بترعة تتكون من نهر سقارية ، ومن بحيرة واقعة بين سقارية وإزنيق ، وذلك تسهيلاً لنقل الحبوب والاقوات فمات قبل أن يتمكن من إجراء هذه الفكرة الحسنة وكانت وفاته سنة ١٧٥٢ .

وبينما كانت الدولة في أشد الحاجة إلى مثل راغب باشا جرت حوادث في غاية الخطورة ، منها قتل بطرس الثالث قيصر روسيا وجلوس كاترينة الثانية على عرش تلك المملكة ، وموت أوغوست الثالث ملك بولونيا ، وكانت روسيا قد دخلت في صف الدول العظام ، وأخذت تنمو بسرعة فوجت جميع دسائسها إلى إسقاط مملكة السويد ، ومملكة بولونيا والسلطنة العثمانية . وقد تغلبت على السويد ونزعت من يدها بموجب معاهدة « نيستاد » أحسن ولاياتها في البلطيق الغربي ، ثم قضت روسيا على مملكة بولونيا وأجلست على عرش هذه المملكة الكونت « ستانسلاس بونياثوفسكى » عشيق القيصرة كاترينة أو أحد معشوقها الذين كان لا يأخذهم الاحصاء ، فاحتجت تركيا وفرنسا على عمل روسيا هذا ولكن الدولة العثمانية كان بلغ منها فساد الادارة وفشو الرشوة والحيانة إلى أقصى حد يتصوره العقل وكان الانكاز يستعملون المال في جميع مقاصدهم ، وينالون به جميع ما يريدونه من الدولة وكان السلطان يعرف كل ذلك ولا يقدر على الاصلاح نظراً لشمول الفساد وعموم البلوى حتى أنه قال لخان القريم : إن جميع الباشوات الذين عندي قد فسدت أخلاقهم ولم يبق لهم هم الا في اقتناء الجوارى ، وآلات الطرب ، وبناء القصور . وفي أثناء ذلك اعتدى الروس على حدود الدولة ودخل القوزاق الى « بالطة » فأعلنت الدولة الحرب على الروس ولكن كانت جيوشها في أسوأ حالة ، وكان مضى زمن طويل وهي خافضة في السلم ففسدت أهم معدات القتال ، وكانت قلاعها قد تداعت الى الخراب ، وكانت المدفعية في أشنع حال ، وكان الولاة قد أخذوا يستقلون في ولاياتهم مثل احمد باشا في بغداد

والحاج يملكى فى طرابزون ، والمملوك على بك فى مصر ، وغير ذلك . وثار يومئذ
ظاهر العمر الزيدانى فى عكة .

هذا ولما أعلنت تركيا الحرب على روسيا زحف خان القريم كريم غرائى
فاخترق حدود روسيا ، وهزم الروس وعاد الى بندر بخمسة وعشرين الف أمير
منهم . ولسوء الحظ مات كريم غرائى فى أثناء ظفـره هذا ، فزحف الروس وحاصروا
« شوقسين » فامتنعت عليهم ، وجاء أمين باشا قائد العثمانيين لنجدة التتر فانهزم
وأمر السلطان بقتله . وخلفه وزير يقال له « المولدوفنجى » فلم يتوفق لانه بينما كان
يمبر نهر دنيستر طغت المياه فزعزعت أركان الجسرين اللذين على النهر ، فازدحم
الجيش العثمانى ازدحاماً ساعد على انهيار الجسور ففرق منه عدد كبير ، بينما كان الروس
يرمون على الجيش بنيرانهم فانكفأ العثمانيون الى نهر الطونه ، ودخل الروس الى بلاد
رومانيا . ثم أرسلت روسيا أسطولا الى البحر المتوسط فأثار بلاد الموره ، وبلاد
الجلب الأسود ، فتوالت الوقائع بين الأتراك وبين الثائرين من الأروام ، ومن السلاف
واشتعلت الحرب بين الأسطولين العثمانى والروسى ، واحترق الأسطول العثمانى فى
« ششمه » . وكان يقود الأسطول الروسى « أورلوف » الشهير عشيق القيصرة
كاترين الثانية ، ولكن قيادته كانت اسمية والفعل كان لأمير الماء الايكوسى المسمى
« الفينستون » وأراد الفينستون هذا أن يخترق الدردنيل فأبى أورلوف أن يطيعه
وجاء فحصر جزيرة لمبى التى هى قبالة ذلك البوغاز . وكان العثمانيون قد بادروا الى
تحصين الدردنيل ، وحشدوا على الضفتين ثلاثين ألف مقاتل ، وهكذا أمنوا خطر
عبور الروس الى الأستانة .

وأما فى رومانيا فدارت الدائرة أيضاً على العثمانيين ، مع أنه كان عندهم هناك
مائة وثمانون ألف مقاتل ، وأوشكوا أن يحيطوا بالروس ، ولكن بسوء إدارتهم
تغلب الروس عليهم فى معركة « كاهولو » وقيل إنهم فقدوا خمسين ألف مقاتل .
ولم يكن من يفكر فى حفظ شأن السلطنة غير السلطان وحده ، وكان الوزراء كلهم تحت
تأثير الانكليز يريدون الصلح ، وقد طلبوا وساطة النمسا لذلك . وكان البارون « دوطوط

« de Tott » الافرنسى يشتغل بأمر السلطان فى ترميم المدفعية العثمانية ، اذ بعد أن كانت هى المدفعية الأولى فى أوربا تقهقهرت الى الدرك الأسفل ! ! فأنشأ السلطان مدرسة للمدفعية والهندسة فى الكاغدخانه ، وكذلك بنى السلطان مدرسة للبحرية وذلك فى دار الصنعة التى يقول لها الأتراك « الترسانة » وكانت البحرية وصلت الى أقصى حدود الخلل وصار القبطان باشى - أى ناظر البحرية - يضع السفن تحت المزد ، فالذى يزيد له فى الرشوة يقلده قيادة السفينة . ومما لا شك فيه أن البارون دوطوط خدم العثمانيين فى ذلك الوقت خدمة جزيلة فى ترميم المدفعية والبحرية .

وفى سنة ١٧٧١ هاجم حسن بك التركى ومعه أربعة آلاف متطوع جزيرة « لمنى » وهزم الروس وألجأهم الى الفرار بأسطولهم ، فكافأه السلطان بنظارة البحرية وانهزم الروس أيضاً فى كرجستان ، وفى طرابزون ، إلا أنهم تغلبوا على القريم وكانت هذه قاصمة الظهر لتركيا اذ أعلن البرنس الروسى قائد جيشهم استقلال القريم عن تركيا ، ووضعها تحت حماية روسيا . ومن بعد ذلك صار البحر الأسود بين الدولتين بعد أن كان عثمانياً بحتاً .

أما النمسا فقد اتفقت مع بروسيا والروسيا على اقتسام بولونيا ، ثم توسطت النمسا فى الصلح بين تركيا والروسيا واجتمع رجال الدول الثلاث فى مولداقيا ، وعندما بدأوا بالمذاكرات الصلحية اشتط الروس فى مطالبهم فرفضت تركيا صلحاً كهذا ، واستؤنفت الحرب . فانكسر الروس فى « روسجق » و « سيلستريه » من بلاد البلغار . فذهبوا الى « بازرجيك » وهى مدينة غير محصنة فانتقموا عن هزائمهم بقتل الأهالى وفيهم النساء والأطفال ، وروى المؤرخ « هامر » أن حسن باشا قبطان البحر على رأس جيش من السباهية طرد الروس الى ماوراء الدانوب ، وغنم مدافعهم وأرزاقهم وقدر الطعام فيها اللحوم وهى نصف ناضجة .

ثم إن الدولة تغلبت على علي بك الثائر بمصر بالاتفاق مع ظاهر العمر الزيدانى والى عكة الذى كانت السفن الروسية تتمد به بالمال والسلاح ، ولسوء طالع السلطنة مات مصطفى الثالث بينما كان يريد أن يقود الجيش المربط على الدانوب ، وذلك

في ٢١ سبتمبر سنة ١٧٧٣ وأسفت الأمة العثمانية بأجمعها عليه ، لأنه كان مصلحاً كبيراً ، وجاء في زمن بلغت فيها الادارة أبعد ما يتصوره العقل من الخلل ، فعالج أمراض السلطنة بصبر عجيب ، وأصلح جانباً كبيراً مما كان ينوى إصلاحه . وقد فكر السلطان في خرق برزخ السويس وكلف البارون دوطوط بأن يرسم له خطة لهذا المشروع الذي كان ينوى إجراؤه بعد عقد الصلح .

السلطان عبد الحميد الأول

فتولى الملك السلطان عبد الحميد الأول والملك جرة تضررم ، ولم تصل الفوضى في السلطنة العثمانية إلى مثل ما وصلت إليه لذلك العهد ، فان أحمد باشا والى بغداد كان قد أعان استقلاله ، وظاهر العمر الزيداني كان قد استفحل أمره واستولى على بلاد الجليل التي يقول لها العرب « بلاد الأردن » وحصن عكة واتخذها عاصمة له وكان محمد بك والى مصر ثائراً تقريباً ، وكان محمود باشا والى اشقودره في شمالي ألبانيا قد انفصل عن الدولة ، وكان أهم منه على باشا والى يانيا الذي أسس في جنوبي ألبانيا مملكة مستقلة .

دخل عبد الحميد الأول على السلطنة وهي بهذه الحالة ، وجاءت روسيا وأعلنت عليه الحرب انتقاماً عن هزائمها الماضية ، وأسرع القائد الروسى الكونت « رومانسوف » فقطع بين الجيش العثماني وبين ميرته التي كانت في « فارنة » فوق الرعب في الجيش وتبدد شمله ، ولم يبق مع السرعسكر إلا ١٢ ألف مقاتل . فرأى السلطان أن مداومة الحرب مستحيلة ، وعقد مع روسيا معاهدة « كوتشوك قينارجى » في ٢١ يوليو سنة ١٧٩٤ . وبهذه المعاهدة انساخت بلاد القريم ، وبلاد بوجاق ، وبلاد قوبان عن تركيا ، واستولى الروس على كيلبورم ، وبنى قلعة ، وآزوف ، وصار لهم حق الملاحة في البحر الأسود ، ورجعت الغلاخ والبغدان إلى تركيا ولكن مع الاعتراف للروسيا بحق إبداء رأيها في شئون تينك الامارتين ، وكذلك صار للروسيا حق آخر وهو

التكلم في الشئون العائدة للمسيحيين وكنائسهم ، مما كان السبب في الحرب المسماة بحرب القريم سنة ١٨٥٤ .

قال هامر مؤرخ السلطنة العثمانية : من بعد هذه المعاهدة صار السلم والحرب مع الدولة العثمانية في قبضة روسيا ، وكلما وُجدت معاهدة على تركيا أشأم منها ، ولم ينشف الحبر على الورق حتى أعملت روسيا دسائسها في شبه جزيرة القريم ، فثار الأهالي وخلعوا « دولة غرائي » الأمير الشرعي وبايعوا « شاهين غرائي » الذي انضوى تحت لواء روسيا . فلم يقبل أشراف البلاد أن يدخلوا في طاعة الخان الجديد ، فاستنجد هذا كاترينة فارسلت اليه جيشاً سبعين ألف عسكري ، فقبضوا على أشراف البلاد وأعيانها ، وقتلوا منهم وغربوا وارتكبوا الفظائع ، وانتهى الأمر بخضوع القريم للحكم الروسي . وبعد أن قضت روسيا وطرها من القريم رمت الخان شاهين هذا الى الخارج ، فلجأ الى تركيا فنقوه الى رودس ، وقيل إنهم قتلوه . وصارت القريم والقوبان من ذلك العهد جزءاً من روسيا ، واعترف الباب العالي بذلك سنة ١٧٨٤ وكانت النمسا والروسيا متفقتين حينئذ ، وتعاهد الامبراطور يوسف الثاني صاحب النمسا ، والقيصرة كاترينة على اقتسام تركيا . فاضطر الباب العالي أن يعلن الحرب على الدولتين ، فزحفت الجيوش النمساوية من جهة بلغراد فكسرها الصدر الأعظم في « لاغوس » واكتسح بلاد « البانات » التي كانت لتركيا من قبل . وهاجم الاتراك مدينة « كيلبورم » فامتنعت عليهم لان الروس أحسنوا الدفاع عنها ، واستولوا على « هوقسيم » وعلى « أوقزاقوف » وجاء قبطان البحر حسن ياشا لينقذ « أوقزاقوف » فخسر خمس عشرة سفينة ، وأحد عشر ألف مقاتل ، فكانت نتيجة هذه الفادحة أن الروس دخلوا « أوقزاقوف » وذبحوا ٢٥ ألف نسمة من أهلها .

وفي أثناء هذه الحرب ظهر رجل في الأناضول تسمى بالشيخ « أوعلان أولو » وزعم أنه المهدي ، وكاد يشير الأناضول كلها على الدولة . ومن الغريب أن هذا المهدي كان في الحقيقة رجلاً طليانياً اسمه الأصلي « جيوفني فاتيستابوتتي Giovanni Battista Boatti » ولد في « بيازانو » من إيطاليا ، ودخل راهباً عند الدومينيكان

في « رافين Ravenne » فأرسلوه إلى الموصل ، فاختلف هناك مع المطران وخرج من الدير وأخذ يجوب بلاد الأناضول ، و بلاد إيران ، وانقلب من الرهبانية إلى القيادة العسكرية ، وإلى الدعاية المهدوية ، وأخذ يخطب في الأمصار في إعادة الاسلام إلى نقائه الأول كما كان عليه السلف ، فانقاد الناس إلى كلامه وأطاعوه ، وزحف إلى أرضروم واستولى عليها وتلقب بالمنصور ، وأراد أن يتقدم منها إلى سيواس . فأرسل الباب العالي رساله إلى هذا المهدي يقول له : إنه مادام المهدي المنتظر فليظهر حماسه الدينية في محاربة الروسيا ؛ فاقتنع المهدي المنصور بهذا الكلام وسار إلى القوقاس يحارب الروس ، وانتصر في الوقعة الأولى على القائد الروسي « أبركسين » ثم انكسر وما زال يحارب مدة أربع سنوات والحرب بينه وبين الروس سجال ، إلى أن وقع في أيدي الروس أسيراً فعاملته كاترينة معاملة حسنة ، وأجرت عليه رزقا كافياً وعاش في دير الأرمن الكاثوليك إلى سنة ١٧٩٨

أما السلطان عبد الحميد الأول فبعد توالى هذه المصائب على المملكة مات غماً وذلك في ٧ ابريل سنة ١٧٨٧ .

السلطان سليم الثالث

وتولى مكانه ابن أخيه السلطان سليم الثالث ، وكان عبد الحميد بخلاف السلاطين السابقين برّاً بأهله ، فكان يعامل السلطان سليماً معاملة الأب لابنه

فجلس السلطان سليم أسوأ ما كانت السلطنة حالا ، وكان سليم مقتنعاً بوجوب إصلاحها والأخذ في إدارتها بالطرق العلمية الأوروبية . وكانت هذه الفكرة قد ملأت دماغه فتجشم مشقة إجرائها ، وأنفذ كثيراً منها . وكان حميد الخصال عاقلاً حليماً ، فبدأ ملكه بالعفو والرحمة ، وساعد المديونين بأداء ثلاثين في المئة إلى دائنيهم من خزنة السلطنة تخفيفاً للازمة الاقتصادية ، ولكن طالع الحرب كان لا يزال مشتوماً . فان قبطان البحر حسن باشا انكسر في « فورشاني » في ٢١ يوليو سنة ١٧٨٩ و بعد ذلك بشهرين لحقت بالعثمانيين هزيمة أخرى ، وكانت الفلاح ، ومولداقيا ، و بلاد السرب

في أيدي الاعداء ، والروس يحاصرون قلعة اسماعيل التي هي معقل العثمانيين الأعظم على الدانوب ، وكانت الخزانة فارغة ، فكانت من كل جهة علامات الشؤم مُطبقة إلا أن حادثاً جاء فخفف الازمة وهو موت يوسف الثاني أمبراطور النمسا سنة ١٧٩٠ فان أخاه ليوبولد خالف السياسة التي كان سائرا عليها أخوه في عداوة تركيا وعقد الصلح مع الباب العالي ، وأعاد اليه جميع البلاد التي كانت النمسا احتلتها من تركيا سوى بعض أما كن على ضفة « نهر الأنة » ولكن الروس لبثوا ظافرين ، وفتحوا قلعة اسماعيل عنوة بعد حصار شديد يفوق الوصف ، فذبح الروس جميع المسلمين كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء ، واستمرت المذبحة ثلاثة أيام ، ولما وصل الخبر إلى استامبول ثار الشعب وطلبوا الاقتصاص من رجال الدولة ، فقتلوا لهم الوزير حسن باشا الذي كان قبطان البحر رغم ما كان من بسالته وقيامه بواجباته ، وكان السرعسكر يوسف باشا قد انهزم أيضاً في « مانشين » فتدخلت انكلترة وبروسيا في الصلح ، وانهقدت معاهدة « ياسي » في ٩ يناير سنة ١٧٩٢ وبموجبها استولت روسيا على القريم ، وعلى شبه جزيرة طامان ، وقسم من قوبان ، وقسم من بسارايا ، ومدينة أوقزاقوف وغير ذلك .

ونبغ في ذلك الوقت « كوتشوك حسين باشا » فتولى نظارة البحرية ، وكان صهراً للسلطان ، وكان متحلياً بزايا نادرة ، ولو لم يمت قبل وقته وذلك سنة ١٨٠٣ لبلغت تركيا بواسطة هذا الوزير الدرجة القصوى من الرقي ، فانه بدأ فطهر البحر من القرصان بمد أن طال عيشهم فيه ، ثم أخذ بترميم القلاع وشحنها بالمقاتلة ، ثم انتدب مهندسين من فرنسا والسويد ، ثم أخذ بإنشاء الاساطيل ، وجدّد مدرسة المدفعية ، ومدرسة البحرية اللتين كان أنشأهما البارون الافرنسي دوطوط . وأنشأ خزانة كتب تشتمل على أحسن كتب الفن ، واعتمد في أكثر اصلاحاته العسكرية على ضباط الفرنسيين وأدخل اصلاحات في دار السبك في الطوبخانه ، وكانت روسيا تنظر إلى هذه النهضة العثمانية بعين الحذر ، وقد تحفّزت للنكث « بمعاهدة ياسي » وثار في ذلك الوقت باشا

« ودين » من بلاد البلغار ، فسأقت الدولة عسكرا لمحاربتة ولـسكنها التزمت أخيرا أن ترضيه بترك ودين له مدة حياته .

وكانت هذه الفتن المصطلمة المستمرة في السلطنة العثمانية في داخلها ، وهذه الحروب المضطربة المستمرة عليها من خارجها ؛ قد أطمعت فيها دول أوربا ، وصيرتها تفكر في دنو أجل هذه السلطنة . وصارت كل دولة تتحفز للاستئثار بشقص من هذه التركة . وقد كان حديث اقتسام أوربا للسلطنة العثمانية قديماً ، وطالما تذاكرت الدول الأوربية جماء في هذا الأمر ، أو تفاوض القسم الأكبر منها في إتمامه ، وكان يحول دول ذلك الاختلاف فيما بينهم ، مع صعوبة إتمام العمل بنفسه ، لأنه ليس بسهل . وقد لخصنا في حواشي « حاضر العالم الاسلامي » كتاباً لأحد وزراء رومانيا اسمه « مئة اقتسام لتركيا » يدل بالوثائق على قدم الفكرة الصليبية في أوربا وعدم انقطاعها ، ومن الغريب أن الأوربيين فكروا في هذا الأمر أيام كانت تركيا في عنجحية أمرها ، وكانت جيوشها توغل في قلب أوربا . فبديهي أنهم ازدادوا تفكيراً به بعد أن ظهرت عليها علامات الانحطاط ، وتوات فيها الثورات ، وتحفز رعاياها البلقانيون المسيحيون كالسرب ، واليونان ، للانقراض عليها .

فلما تولى سليم الثالث السلطنة كان الناس في أوربا يعتقدون أن أجل السلطنة أصبح قريباً جداً ولذلك قررت الحكومة الفرنسية غزو الديار المصرية ، وحاولت اقناع تركيا بأن هذه الغزاة لا تنوى بها فرنسا العداوة لتركيا ، وإنما تريد بها سبيلا الى الهند ، كما أنها ترى حكم المماليك في مصر شيئاً أشبه بالفوضى فتريد القضاء عليه . وكانت انكلترا في غير شديدة من نفوذ كلمة فرنسا لدى الباب العالي ، فلما غزت فرنسا مصر اهتبلت في ذلك الفرصة حتى تقربت الى الحكومة العثمانية ، وصارت معها يداً واحدة . فأعلنت الدولة الحرب على فرنسا ، واتحدت معها انكلترا والروسيا وقبضت الدولة على معتمد فرنسا وحبيسته في الأبراج السبعة بالأستانة ، وضبطت أملاك الفرنسيين في جميع البلاد العثمانية . وكان الفرنسيين قد تغابوا على المماليك في واقعي « الاهرام وامبابة » وسقطت مصر كلها في أيدي الفرنسيين وجاء جيش

عثماني بقيادة مصطفى باشا عدده ١٨ ألفاً فنزل عند أبي قير ، وقبل أن يتحصن في مراكزه هجم عليه بونايرت ومزقه شر ممزق ، الا أن الأسطول الانكليزي أحرق الأسطول الافرنسي في مياه أبي قير ، فتعذر على الفرنسيين إنجاز عسكرهم ، وصار كالمحصور . ومع هذا فقد زحف « بونايرت » الى سورية ، وما زال يتقدم حتى وضع الحصار على « عكة » وكان لو أخذها استولى على سورية ، وربما وصل الى الأستانة . وهذا شيء لا يقدر مؤرخ أن يحزم به ، وإنما يتفق العقلاء على أن فشل بونايرت أمام عكة قضى على آمال فرنسا في هذه الحملة المصرية . « فاحمد باشا الجزار البوسنوي » قائد الحامية العثمانية في عكة « والاميرال سيدني سميث » قائد الأسطول الانكليزي في بحر عكة ، ردّا بونايرت خائباً . فرجع الى مصر ومنها أبحر الى فرنسا ، وترك قيادة جيشه للجنرال « كليبر » . فأخذ الانكليزيون يفاوضون كليبر في الصلح ، ولكنهم طلبوا منه تسليم جيشه فأبى قبول هذا الشرط المهين ، فجاء واحد اسمه سليمان الحلبي سار من حلب الى مصر بمجرد حميته ، وطعن كليبر بخنجر فقتله ، فأنقذ الاسلام من عدو كبير . فخلفه الجنرال « منو » فانكسر ، وأخيراً تم الاتفاق سنة ١٨٠١ على إخلاء الفرنسيين للديار المصرية .

وكان السلطان راغباً جداً في عقد الصلح ، وذلك لأن الفتوق كانت متوالية من كل جهة ، فالانكشارية عصوا في بلغراد واستولوا على القلعة . وكانت عصابات من الأشقياء تعيث في بلاد البلقان ، ومكدونية . وكان السرييون بقيادة « قره جورج » جد العائلة المالكة اليوم قد رفعوا لواء الثورة . وكان « على باشا تبلي » المتغلب على يانيا قد أعلن استقلاله عن الدولة ، وكان الوهايون قد غزوا الحجاز واستولوا على الحرمين الشريفين ، وكانت في نفس العاصمة ثورة أحدثها الانكشارية بالاتفاق مع العلماء بسبب التشكيلات العسكرية التي قام بها السلطان سليم مقتدياً فيها بالجيوش الأوربية ، وقد أطلق عليها اسم « النظام الجديد » فوقع القتال بين الانكشارية والنظام الجديد ، وانتهى الأمر بغلبة الانكشارية .

وفي ذلك الوقت رجع التقارب بين تركيا وفرنسا ، وأرسل بونايرت الجنرال

« سياستيانى » لأجل حمل الباب العالى على محاربة روسيا ، وكان الباب العالى عزل أميرى الفلاخ ، ومولدافيا صنيعتى روسيا ، فأرسل اسكندر الأول قيصر روسيا عسكرياً احتل تينك الامارتين وأعلنت الحرب .

ثم لم تكفِ الثورات الداخلية . والفتن والحرب مع روسيا ، حتى جاء الانكليز يطلبون من الدولة أن تعقد تحالفاً مع روسيا وانكلترة ، وأن تعلن الحرب على فرنسا ، وتطرد الجنرال سياستيانى الذى أرسله بونابرت إلى الاستانة ، وأن تتخلى عن الفلاخ ومولدافيا للروسيا . وقد طلبوا أن يتسلموا الدردنيل والأسطول العثمانى . فأبى الباب العالى قبول هذه الشروط ، ودخل الأسطول الانكليزى من الدردنيل الذى كانت حصونه ضعيفة جداً بسبب إهمال الانراك لها . وكان الأسطول العثمانى أمام غاليبولى فأحرقه الانكليز ، ولما وصل الخبر إلى الاستانة عوّل رجال الدولة على الاستسلام لارادة الانكليز والروس ، وأشاروا على السلطان سليم بترك كل مقاومة ، إلا أن الانكشارية والأهالى ثاروا عليهم ، وأجبروا السلطان على المقاومة واستفاد من ذلك الجنرال سياستيانى والفرنسيس ، وانضم إليهم سفير أسبانيا ، وحرّضوا الأهالى على القتال ، وابتدأت التحصينات بالعاصمة بينما الأدميرال الانكليزى دوكنورت يتفاوض مع رجال الديوان فى شروط الصلح . فما مضت خمسة أيام حتى كانت الحصون قد ترممت وصار فيها تسعمائة مدفع ، وكان ناظر البحرية من حزب المقاومة يخالف الزملائه ، فجهّز عشر بوارج وأعدها للقتال . فلما رأى الأدميرال دوكنورت أنه بهذه الايام الخمسة التى أضاعها فى المفاوضات الصلحية أصبحت الاستانة فى منعة عظيمة ، خاف على أسطوله فأسرع بمفارقة الاستانة ، وبينما هو عابر الدردنيل أطلقت عليه الحصون مدافعها فأغرقت له بارجتين وأهلكت ستمائة بحرى .

فغضب الانكليز وأرادوا الاستيلاء على الديار المصرية ؛ وكانت الدولة قد أرادت التخلص من المالك فثاروا عليها وتغابوا على خسروباشا فى دمياط .

محمد علي باشا

وكان هناك قائد ألباني اسمه « محمد علي » من ذوى التدبير استفاد من سوء إدارة المماليك ، واستجلب إلى ناحيته عواطف الأهالى ، فصار له حزب عظيم وثاروا على المماليك ، وثاروا أيضا على خسرو باشا الوالى من قبل الدولة وسفروه إلى الاستانة . فأرسلت الدولة مكانه خورشيد باشا ، فأراد هذا أن يتخلص من محمد علي فلم يقدر عليه بسبب انتصار الاهالى له . وألح المصريون على الدولة بتولية محمد علي على مصر ، فرضيت الدولة بذلك تسكيناً للفتنة ، وأصدرت فرمان بولاية محمد علي ، على أن يدفع لها خراجاً سنوياً سبعة ملايين فرنك ، وكان ذلك سنة ١٨٠٥ . فاتفق المماليك تحت رئاسة « محمد بك الألفى » مع الانكليز وشرع الفريقان بمحاربة الدولة ، واحتل الجنرال « فريزر » الانكليزى الاسكندرية سنة ١٨٠٧ إلا أن محمد علي لم يكن على طرز المماليك فى الإهمال ، فتغلب على الانكليز ، واسترجع الاسكندرية ، وأعلنت الدولة الحرب على انكلترة وجرت معركة بحرية هائلة بين الأسطول العثمانى والأسطولين الانكليزى والروسى على باب الدردنيل .

وفى ذلك الوقت عادت الثورة إلى الاستانة ، وكان الصدر الأعظم غائبا مع أعوانه الوزراء فى سد الفتوق البعيدة فتولى الأمر قائمقام الصدارة ، فخان السلطان وأفسد بين الجند ، فهاجموا القصر وطالبوا من السلطان أن يسلمهم سبعة عشر شخصا من رجاله ليقتلوهم . وكان السلطان توقف عن مقابلة الانكشارية بالعسكر الجديد تخرجاً من سفك الدماء بين عساكره ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على تسليم رجاله للقتل ، وفى مقدمتهم « البستانجى باشى » الذى عند مارأى استفحال الثورة وإحاطة الانكشارية والجيش المسمى « يَمَك » بالقصر أراد أن يستسلم إليه ليقتلوه ويخلص مولاه السلطان من هذا المأزق وأخذ السيف يعمل فى جميع أنصار الإصلاحات الجديدة ثم ازداد تمرد الجند حتى طلبوا خلع السلطان سليم نفسه ، فاستفتوا شيخ الاسلام قائلين له : إذا كان السلطان مخالفاً لأحكام القرآن فهل يجوز بقاؤه على عرش السلطنة ؟

فأجاب شيخ الاسلام : كلاً والله أعلم بما يجب . وكان رئيس الثورة رجلاً يقال له « قاباقتجى أوغلو » فاستند على هذه الفتوى وخلعوا سليم الثالث

السلطان مصطفى الرابع

وبايعوا مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول ، ودخل شيخ الاسلام فأبلغ السلطان سليم فتوى الخلع وإرادة الشعب . فتلقى السلطان سليم هذا الأمر بالصبر الجليل واعتزل جانباً وأخذ يقضى أوقاته في تعليم محمود ابن عمه الذى تولى السلطنة فيما بعد باسم محمود الثانى . ولما وصل الخبر إلى الانكشارية على نهر طونة زاطوا فرحاً ، وثاروا على الصدر الأعظم وجعلوا مكانه شاي مصطفى باشا .

وصار الحكم فى استانبول لشيخ الاسلام ، وقائمقام الصدارة ، ولكن لم يطل الأمر حتى وقع الخلف بينهما واستفاد « قاباقتجى أوغلو » من ذلك فأنحاز إلى شيخ الاسلام وأسقطا الصدر الأعظم فقام مقامه طيار باشا فاختلفا معه أيضاً فأسقطاه فالتجأ إلى مصطفى باشا البيرقدار وإلى رُسجق . وكان البيرقدار من حزب السلطان سليم ، فقرر أن يزحف إلى الآستانة ويخلصها من هذه الفوضى ويرد سليماً إلى السلطنة . فأرسل من قبله سعاة إلى الصدر الأعظم - وكان الصدر مصطفى شاي - فأكد له أن كل مراده تخلص الآستانة من شيخ الاسلام وقاباقتجى أوغلى ، فوافق الصدر على ذلك ، ومالهم السيد على ناظر البحرية ، وزحف البيرقدار بستة عشر ألف عسكرى على الآستانة ، فلما علم السلطان مصطفى الرابع بهذه الحركة صدر أمره بعزل شيخ الاسلام وأعوانه ، وحل نظام عسكر اليَمَك . وكان مصطفى البيرقدار على باب الآستانة ، فأظهر رضاه وظن السلطان مصطفى أن الفتنة قد انقضت ، وذهب إلى كوشك كوك صوتنيزه ولكن البيرقدار كان ناوياً أن لا يرجع حتى يرد السلطان سليماً إلى السلطنة ، فهاجم القصر واتفق الانكشارية معه ، وبلغ السلطان مصطفى ذلك فرجع إلى القصر ، وأرسل إلى البيرقدار يقول له لیتمهّل فانه لا يلبث أن يخرج إليه السلطان سليم . وفى الوقت نفسه أمر مصطفى الرابع جماعة من رجاله بقتل سليم الثالث ، وكان السلطان سليم

قوى البنية موفّق العضلات ، فصرع جملة ممن هاجموا قبل أن سقط قتيلًا . ولما قيل للسلطان مصطفى أنه قد قُضى عليه جاء ونظر إليه وقال : قولوا لباشا روسجق ليأخذ الآن السلطان سليم الذي يريد ، وكان البيرقدار ويقال له أيضاً « العَلَمَدَار » قد دخل القصر عنوة ، فرأى السلطان سليم مدرجاً بدمائه فصاح وى أفندم . وأخذ يلاطم نفسه ويبكى . فقال له سيد علي ناظر البحرية : ليس لباشا روسجق مصطفى العَلَمَدَار أن يبكى بكاء النساء ، فلندع البكاء ولنقتص من قتلة السلطان سليم ولنخلص السلطان محمود الذي يجوز أن يقتل أيضاً . فرجع البيرقدار إلى رشده وخلع السلطان مصطفى وحبسه

السلطان محمود الثاني

و بايع أخاه محموداً بالسلطنة وذلك في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٨ . وفي سنة ١٩١٧ طفت أنا محرر هذه السطور مع بعض زملائي نواب الأمة العثمانية في قصر طوب قبو مقر السلاطين العظام قبل أن صاروا يسكنون في قصر « طوله بفعه » وكشك « يلدز » وكان يدلنا على آثاره التاريخية ، وأقسامه الكثيرة المدهشة ، المؤرخ أحمد رفيق بك . ولما وصلنا إلى الغرفة التي قتل فيها السلطان سليم الثالث رحمه الله دلنا على المكان الذي سقط فيه صريعاً ، وهو لا يزال معروفاً إلى الآن . وبهذه المناسبة روى لنا حادثة مصطفى العَلَمَدَار هذه بتفاصيلها وقال : إن الذين قتلوا السلطان سليماً أرادوا قتل السلطان محمود أيضاً بحيث لا يبقى غير السلطان مصطفى فيضطر العَلَمَدَار إلى قبول سلطنته ، فانه كان لم يبق إلا سليم ومصطفى ومحمود ، فجماعة مصطفى بعد قتل سليم جاسوا خلال القصر ليجدوا محمود ليقتلوه ، فكان الجوارى أخذن محمود وخبأته في مدخنة لم تخطر على بال القتل ، فبقى مختبئاً في هذه المدخنة إلى أن قبض مصطفى باشا البيرقدار على السلطان مصطفى ، فأخرجوا محموداً من المدخنة وبايعوه سلطاناً . ولو لم يوجد محمود لكانوا مضطرين أن يبقوا طائعين للسلطان مصطفى . قال لنا رفيق بك ، إنه أدرك جارية عاشت طويلاً ، وماتت في زمان

السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود ، وكانت تقص له كيفية قتل السلطان سليم الثالث لأنها شهدت ذلك عياناً .

ولما تولى السلطان محمود الثاني ولّى البيروقراطية مقام الصدارة العظمى ، فبدأ هذا بقتل جميع أعوان السلطان مصطفى ، وزعماء عسكر اليمك . وانفرد البيروقراطية بالأمر والنهي وعقد مجمعات من جميع الأعيان والوزراء ، وأوضح لهم وجوب إصلاح أوجاق الانكشارية وتأسيس جيش يضارع الجيوش الأوروبية في تعليمه ومعداته . وقال الصدر الأعظم إنه هو من جملة الانكشارية ، وهو يفتخر بكونه من هذا النظام ، ولكنه يرى أن هذا النظام قد فسد ، وأنه كان نظاماً لا يُغلب لو لم ينحرف عن جادة تعاليم الحاج بيكتاش . ولكن هذا الجيش بعد أن كان مدة قرون هو عماد السلطنة ، وكان العالم يرتجف خوفاً منه ، آل من الفساد إلى أن فقد كل مزاياه القديمة ، ونسى جميع القوانين التي كان فرض عليه العمل بها السلطان سليمان القانوني ، وصار الترقى فيه بالرشوة وصارت الرتب تحت المزاد ، وعم الجهل بالفنون العسكرية فانحطت منزلة هذا الجيش انحطاطاً عظيماً ، ولذلك فقد أمرني السلطان بأن استأصل جميع هذه المفاصل من أوجاق الانكشارية ، وأن أجبر جميع الانكشارية غير المزوجين على السكن في الشكن العسكرية ، وأن لا أدفع رواتب إلا للانكشارية المقيمين في الشكن ، وأن أمنع بيع الجرايات والرواتب ، وأن أوجب على جميع الانكشارية التقيد بتعاليم السلطان سليمان واتباع الطرق العصرية الأوروبية التي أفقها العلماء بوجوب اتباعها ، كما أن مولاي السلطان عازم على تأسيس جيش جديد من شبان المسلمين ، ومن أنفس الانكشارية يتلقى الطرق العصرية الأوروبية التي يمكنه أن يقاتل بها الكفار بنجاح ، هذا مع المحافظة على نظام الطاعة والاتحاد الذي كان عند الانكشارية القدماء .

فوافق جميع الوزراء وأعيان السلطنة على هذا القرار ، وأفقي شيخ الاسلام بوجوده وظن الناس أن كل شيء قد انتهى .

إلا أن فوز البيروقراطية كان عظيماً إلى حد أن غصّ به النظراء ، وصاروا يتر بصون به الدوائر . وكان قد أغضب العلماء باحتقاره إياهم ، وبعرمه على التصرف بأوقاف

المساجد ، وارتكب البيرقدار خطيئة تبديد الجيش الذى دخل به الأستانة ؛ فانه كان أرسل منه اثني عشر ألفاً إلى مدينة « فيلبه » لقتال « مولاً أغا » الثائر بها فلم يبق عنده إلا سبعة آلاف لم يكونوا بقوة كافية لينعموه من أعدائه ، فزحف الانكشارية إلى القصر لينقذوا السلطان مصطفى الرابع ويردّوه إلى السلطنة ، فقابلهم البيرقدار بشرذمة من العسكر الجديد فلم يقدر عليهم لتفوقهم في العدد ، فقتل السلطان مصطفى ورمى اليهم بجثته فازدادوا حنقاً ، وأحرقوا جانباً من القصر ، ودخلوا وأوشكوا أن يقبضوا عليه وعلى أعوانه ، فلجأ إلى مخزن البارود ووضع فيه النار ، فهلك هو وأعوانه تحت أنقاض مخزن البارود ، ولم يشأ أن يستسلم إلى أعدائه .

وانتصر للعلمدار رامز باشا ناظر البحرية ورمى الانكشارية بالقنابر ، وأسرع قاضى باشا بثلاثة آلاف من الجند للمحافظة على شخص السلطان ، وأخذ الانكشارية يتراجعون ، وأراد رامز باشا أن يعلن العفو إلا أن قاضى باشا خالفه في هذا الأمر وأصرّ على الانتقام . فلما رأى الانكشارية أنهم قد أحيط بهم حلّ بهم اليأس فوضعوا النار بالبلدة وهى كما لا يخفى مبنية بالخشب ، فسكادت النار تلتهم جميع الأستانة لتشاغل الناس بالفتنة عن إطفاء الحريق .

ثم إن رامز باشا وقاضى باشا وأعوانهما عند ما علموا أن البيرقدار قد هلك في مخزن البارود سقط في أيديهم ، وفروا إلى رسجق وأرادوا هناك المقاومة فلم يتمكنوا فالتجأ رامز باشا إلى بطرسبرج لأن أصله من القريم وفرّ قاضى باشا وبهيج أفندى من أعوانه إلى بلاد القرامان فوقما في أيدي أعدائهما وقتلا . وقد زعزعت هذه الثورة أركان السلطنة ، فاضطرت الدولة إلى عقد الصلح مع الانكليز ، فانهقد في ٩ يناير سنة ١٨٠٩ أما مع الروسيا فلم يمكن عقد الصلح ، وزحف الروس وأخذوا « برايلا » على الدانوب ، وكسروا العثمانيين أمام « سيلسترية » . ولكن لم يقدروا على القلعة ودارت السنة الثانية والصدر الأعظم معتصم بقلعة « شمله » لكنه لا يقدر أن يحصى البلاد . فاستولى الروس على « سيلسترية » و « رسجق » و « بيقوبوليس »

و « بزارجق » فجعلت الدولة أحمد باشا صدرًا أعظم فزحف بستين ألف مقاتل على الروس وأجبرهم على إخلاء رسيق .

وفي ذلك الوقت أعلنت فرنسا الحرب على روسيا فاضطر قيصر روسيا إلى طلب الصلح من الباب العالي ، فانعقد الصلح في ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ وصار « نهر البروت » هو الحد الفاصل بين المملكتين ، ولم يبق في أيدي الروس سوى أفواه الدانوب ، وقسم من بessarabie . وندم السلطان على عقد هذه المعاهدة لأن الناس تنبهوه فيما بعد إلى أن روسيا لم يكن لها مناص من قبول جميع شروطه ، وأن وزراءه أضاعوا الفرصة فمزلمهم ، وتسعى هذه المعاهدة بمعاهدة « بخارست » .

ولما تولى محمود الثاني كانت السلطنة في الداخل ممزقة تمزيقاً ، فكان آل شعبان أوغلو حاكمين في شمالي الأناضول ، وكان آل قره عثمان أوغلو متغلبين على البلاد المجاورة لأزمير . وكان في سراس من مقدونية وفي قلبه من تراقية أمراء أصحاب جيوش وقوة ومنعة لا يخضعون تمام الخضوع للحكومة ، وكانت بلاد العرب في أيدي الوهابيين وكانت مصر في يد محمد علي ، وكانت بلاد السرب ثائرة ، وكان علي باشا والي يابا مستائراً ببلاد تساليا وأبيروس . وكان « مولاً أغا » غالباً على ودين ، فأخذ السلطان محمود يعالج أمراض السلطنة ، فرمى الوهابيين بمحمد علي والي مصر ، فساق عليهم جيشاً بقيادة ولده طوسون باشا ، فتغلب الوهابيون على هذا الجيش في الحجاز ، ولكن توالى النجذات من محمد علي فهزم الوهابيين .

ثم صارت الحرب سجالاً بين الفريقين ، ثم أرسل محمد علي ولده إبراهيم باشا فبعد حروب شديدة حصر الوهابيين في الدرعية ، واستولى عليها عنوة ، وأخذ الأمير السعودي أسيراً وأرسله إلى أبيه ومعه ولده . فحمد علي أرسلهما إلى استانبول ، وقال لهما : إنني أوصيت الدولة بكما ليحسنوا معاملتكما . فقال له ابن سعود : يكون ما أراد الله . ولكن لما وصل الأمير وابنه إلى الأستانة شنقتهما الدولة . وكان محمد علي قد ذبح المالك واستأصلهم جميعاً في القطر المصري ، وبعد أن استراح فكره منهم وجهه همته إلى إصلاح مصر ، وقام بأعمال مدهشة بحيث يمكن أن يقال إنه من أعظم

مصلحي الشرق ، بل مصلحي العالم لانه بعث مصر من قبرها ، وأنقذها من عيث الممالك ، وأنشأ لها جيشاً عظيماً على طرز الجيوش الأوربية ، واعتمد في تدريبه على ضباط من الفرنسيين وأنشأ أسطولاً عظيماً ، ودار صنعة بحرية ، ومعامل للسلح ، وبنى مدارس ، وأرسل طلبة يحصلون العلم في أوربا ، واحتقر ترعة بين الاسكندرية والقاهرة وفتح محمد على السودان ، وكان في الحقيقة ملكاً مستقلاً لولا الخراج السنوى الذى كان يدفعه للدولة .

وفى ذلك الوقت ثار الصرب على الدولة لسببين ؛ أحدهما نزوعهم الطبيعى إلى استرداد ملكهم ، والثانى سوء الادارة وظلم العمال لهم . فلما انتقضوا أراد الوالى أن يسكن الأمور باللاطف وحسن السياسة فجاء الانكشارية وذبحوا الوالى ، وقتلوا من السريين عدداً كبيراً . وكان الحمر والنسويون يساعدون السريين ، وامتاز بين السريين رجل اسمه « جورج » لقبه الأتراك « بقره جورج » أى الأسود . وكان صارماً جداً ، فاعصوب حوله جماعة من السريين وأرادوا عبور نهر « الساف » لينضموا إلى النمساويين ، ويقاتلوا العثمانيين . وكان والد قره جورج غير راغب في الثورة ، فراود ابنه على الرجوع فأبى ، فتنازعا وانتهى الأمر بأن الولد قتل الوالد . وامتدت الثورة واستولى قره جورج على « شاباتس » و « سمندرية » فأرسلت الدولة جيشاً للتنكيل بهم وعززته بجيش ثان ، ولكنهم لم يقدروا على قمع الثورة . وكان القائد ابراهيم باشا تراضى مع السريين على إعطائهم الاستقلال الداخلى تحت سيادة السلطان ، وأن تقيم الحاميات العثمانية فى المدن ، فأبى الباب العالى تصديق هذا الصلح فاستؤنف القتال بشدة وحصر السرييون بلفراد وكان فيها سليمان باشا . فلما أوشك أن يسقط اتفق معهم على الخروج بجيشه وتسليم البلدة ، ولكن لما خرج نكث السرييون بالعهد وقتلوه مع جميع العساكر التى معه . ثم أرسلت الدولة جيوشاً للانتقام من السريين ، فكانت الحرب سجالاً . وازدادت شهرة قره جورج بين السريين واستبد بالأمور ف وقعت المنافسة بينه وبين كثير من أقرانه ، واستفادت الدولة من هذا الخلاف فساقت العساكر واسترجعت بلفراد وبددت شمل السريين .

وفرقه جورج إلى بلاد المجر ، ورجع الحكم إلى الاتراك ، فبدأوا هم والارناؤوط بالانتقام من السرييين ، وقتلوا ونهبوا . فعاد السرييون وتآلبوا وثاروا ثورة ثانية وتجدد القتال بشدة . وكان « ميلوش أوبرنوفيتج » من زعماء السرييين قد عرض على القواد العثمانيين الصلح على شرط العفو العام ، وتأليف مجلس من ١٢ عضواً ينتخبهم الاهالى ويكون على يدهم توزيع الضرائب ، وتكون بلاد السرب متممة باستقلالها المدنى والدينى والقضائى ، ويكون لها أمير ، وأن يبقى فى بلغراد قائد عثمانى ومعه حامية . فانتُخب أوبرنوفيتج أميراً ، وصار بيده الأمر والنهى . ولم يبق فى يد والى التركى من الولاية إلا الأسم . وبلغ قره جورج خبر هذا الاتفاق بين الدولة وأوبرنوفيتج فثار به الحسد ، وجاء إلى بلاد السرب أملاً باشعال الثورة فوصل إلى سمندرية فلما علم به أوبرنوفيتج أرسل اليه من قتله غيلة ، وبعث برأسه إلى الاستانة . فنصبت الدولة رأسه على حائط القصر وفوقه كتابة « هذا رأس الشقى قره جورج » هذا ما كان من أمر السرب ؛ فأما على باشا التيملىنى فكان أرنائوطياً وكان أبوه رأس عصابة فورث العيث والفساد فى الأرض عن أبيه . ولكنه كان داهية حكماً وبطلا مغواراً معاً . ولم يكن عنده وجدان يردعه عن شىء . فدخل فى خدمة الدولة وأقنع ولادة الأمور بتوليته « ترخالة » و « تبالين » أولاً ، وسمت نفسه إلى الاستيلاء على يانيا ، فبث فى أطرافها عصابات من قطاع الطريق أقلقوا راحة الأهلىين ، وبعث من جهة أخرى إلى الدولة يعرض عليها أن توليه يانيا وأنه يعيد الأمن إلى نصابه فقبلت الدولة اقتراحه وولته يانيا ، وكانت فرنسا استولت على جزيرة كورفو وأخواتها فخدع على باشا ضباط الفرنسيس ونال منهم الاذن بالملاحاة فى بحر كورفو . ولما نشبت الحرب بين الدولة وفرنسا زحف على باشا على الفرنسيس واستولى على فونيززة وبريفيزه . ثم وجه قوته إلى محو الامارات المسيحية التى بين بلاد اليونان وبلاد الأرنائوط ولا سيما جمهورية « شولى » فقهروهم بعد أن أعمل الحيل والمال والسيف لذلك وبعد هذا حاز على باشا والى يانيا شهرة عظيمة ، ولقبته الدولة بوالى الروملى . ثم أعطت ولديه « ولى » و « مختار » باشويتى الموره ، وضمت إليه بشوية براءة . ثم إنه

كلن في أيروس بلدتان لاتزالان مستقلتين ، وهما « أرجيروكاسترو » و « كاردىكى » فشنّ عليهما الغارة واستأصل أهاليهما ، ولا سيما أهالى كاردىكى وكان له في ذلك ثأر قديم غريب الشكل . وذلك أن أمه « خاميكو » بعد وفاة أبيه تولّت قيادة العصاة محل زوجها ، فوقعت في إحدى المرات في أيدي أهل كاردىكى هي وابنتها « شاميتزه » فارتكبوا فيهما الفاحشة ، فاستحلفت ولدها علياً الذى كان قاصراً أنه متى بلغ رشده يأخذ بثأر أمه وأخته من أهل كاردىكى . فلم ينسَ على هذا الثأر ، ولما وقع أهل كاردىكى في يده بحث عن الذين اعتدوا على عرض أمه وأخته فنظّمهم بالسفافيد وشوام على النار كما يُشوى لحم الغنم ولسكن المذابح التى أجزاها على أنارت عليه السخط العام ، وبدأت الدولة تخشى غائلته فأرسلوا اليه من استانبول من يقتله فكان بحزمه ويقظته يطلع على ذلك ، فلم يصل أحد من المرسلين لقتله إلى يانيا ، بل كان يأخذهم السيف في الطريق قبل وصولهم ، وكان جمع أموالاً عظيمة لأن البلاد التى تولاها كانت مملكة فيها عدة ملايين ، وبقي والياً عليها نحواً من ستين سنة ، فتمكنت قدمه الى حد أنه أصبح لايعبأ بطاعة السلطان . وكان أحد المقر بين إلى على باشا واسمه اسماعيل باشو قد اختلف معه ؛ وجاء فمرض للسلطان جميع ما يعلمه من مظالم على وأقنع السلطان بعزل ابن على باشا عن ولاية المورة ، فلما علم على باشا بالخبر أرسل اليه من يقتله ، فهجم الجناة على اسماعيل باشو على باب جامع أيا صوفيا ولكنهم لم يوفقوا لقتله ، فقبضوا عليهم واستنطقوهم فأقروا بأنهم مرسلون من قبل على باشا . فغضب السلطان غضباً عظيماً وولى اسماعيل باشو على يانيا ، ودلفينو ، وسرح معه جيشاً عظيماً لقتال على باشا ، فلما علم على باشا بأنه لم يبق له أمل في عفو السلطان أجمع المقاومة ، وحاول أن يستجلب المسيحيين الذين في بلاد اليونان ، والارناؤوط إلى صفه واعدأ إياهم بالتحرر من حكم الاتراك . فأجاب بعضهم نداءه وامتنع البعض الآخر . فأما الذين التفوا حوله فسكان الجبال من اليونان الغربية ومن تساليا ، وكان في مقدمتهم أساقفتهم . وأما الذين رفضوا الانضمام إليه فالكاثوليك من الأرناؤوط ، لأنه لم يكن لهم ثقة به غير أنه بسبب سوء

إدارة اسماعيل باشو انضم أكثر المسيحيين إلى علي باشا . وبدأت الحرب فأنكسر على باشا في البداية وذلك في تساليا وأنحاز اثنان من قواده عمر فريُون وطاهر عباس في خمسة عشر ألفاً من الجنود إلى العسكر السلطاني . وخان علياً أولاده الثلاثة وسلموا القلاع التي في أيديهم إلى الدولة ، ولما باغى خيانة أولاده له نادى أنهم ليس لهم حق أن يرثوه ، وقال إنه لا يعرف له أولاداً غير الذين هم أنصاره ، ولم يبق مع علي باشا سوى ثمانية آلاف مقاتل كانوا من نخبة جنوده و بينهم رجال مدفعية ماهرون ، فوقف بهذه القوة أمام عشرين ألف مقاتل من عسكر الدولة كانوا أحاطوا بمدينة يانيا ، وشرع علي باشا يرسل المسيحيين الذين مع جيش الدولة ، وفتح خزائنه لهم ، وبث الدعاة إلى الثورة في جميع بلاد اليونان ، وكذلك في بلاد رومانيا . ثم لجأ إلى حيلة أخرى لأجل استجلاب النصارى إلى صفه وهو أنه زوّر كتاباً زعم أنه ورد إليه من خالد افندى أحد مقربي السلطان يقول له فيه : إنه في الربيع القادم يجب القيام بقتل عام يستأصل فيه جميع المسيحيين القادرين على حمل السلاح وتسبى نساؤهم ، ويؤخذ أولادهم المراهقون لينشأوا في الديانة الاسلامية . فصدّق النصارى هذا المكتوب المزور ، وثاروا بأجمعهم وفي مقدمتهم أهالى « جمهورية شولى » وأنحازوا إلى علي باشا ومعهم كثير من الارناؤوط المسلمين ، فزعزعت مراكز الأتراك ونسبت الدولة عدم النجاح إلى سوء تدبير اسماعيل باشو فعزلته وعهدت بالقيادة إلى خورشيد باشا وذلك سنة ١٨٢١ فسار خورشيد باشا بعشرة آلاف من بلاد اليونان قاصداً يانيا . فلما وصل إلى « لاريّسا » بلغه أن أهالى مدينة « باتراس » رفعوا لواء العصيان ، فأمر بنزع السلاح من أيديهم وتغريم المسيحيين جميعاً ، فبدأت من ذلك الوقت ثورة اليونان . وكان أهالى الجزر اليونانية لم يفقدوا قوة المقاومة في وجه الأتراك ، وكذلك أهالى الجبال الغربية من بلاد اليونان فانهم كانوا حفظوا نوعاً من الاستقلال الداخلى . وكان لهم جند وطنى يقال له « الارماتوليس » - ومعنى هذه اللفظة الرجل الشاكي السلاح - وكان الارماتوليس الذين في الجبال لا يخضعون للدولة إلا قليلاً ، فأرادت الدولة أن تخضع شوكتهم ،

(١٩ - تعليقات)

وشكّلت بأزائهم قوة مسلحة من الأرناؤوط المسلمين بقيادة الأتراك يقال لها « درفتد باشا » فتنبّه الأروام إلى أن مراد الدولة هو استئصال قوتهم والقضاء على الارماتوليس فلما عصى على باشا وسأقت الدولة عليه الجيش حاول على باشا أن يستجلب إلى ناحيته هؤلاء الارماتوليس الذين كان هو من قبل آفة عليهم .

وكانت بلاد اليونان قد استعدت للثورة ، وذلك لأن الأروام أهل حزكة ونشاط وهم أقوم على التجارة والملاحة من كل قوم ، وكانت ثروتهم قد ازدادت كثيراً عن ذي قبل بانصرافهم إلى التجارة ، وكانوا يجوبون البحار كلها ، وفي كل مكان من أوربا تجار من الأروام ، فلا يكاد يخلو منهم مكان . وكانوا هم الواسطة بين الشرق والغرب ، وكانت الدولة العثمانية نفسها تحتاج إليهم وتستخدم منهم في سفنها وباحتكاك الأروام الدائم مع الأوربيين وحروب الأوربيين مع الدولة العثمانية ازداد نزوع الأروام إلى الاستقلال ، وانقسموا إلى قسمين ؛ منهم من يريد الاستقلال العاجل بقوة السلاح ، وآخرون يرون المصلحة في عدم مقاومة الدولة العثمانية بالسيف بل بتهديب الأمة اليونانية وترقيتها حتى تنال تدريجاً حقوقها ، ويأتى وقت تتحرر من حكم الترك تماماً .

وفي سنة ١٨١٣ عند ما تألّبت جميع دول أوربا على نابوليون ظن الأروام أن دول الاتحاد المقدس ستمد إليهم يد المساعدة ؛ ولكن دول الاتحاد المقدس كانت تسكره تحرير الشعوب لمخالفته لمبادئها ، فخاب أمل اليونان فيها . ثم إن على باشا التبتلينى كان قد ضرب التجارة اليونانية ضربة شديدة باستيلائه على مرافئ أبيروس وألبانيا ، فعند ذلك اتحد اليونان من تجار رأوا كساد تجارتهم ، وضباط تدرّبوا في الجيوش الأوربية ، وناشئة تعلموا في مدارس أوربا ؛ أنه لا خلاص لبلاد اليونان إلا بالثورة العامة . وكما يحصل في جميع الأمم المقهورة تألفت الجمعيات السرية ودخل فيها ألوف من الأروام ، وتألفت شعب لهذه الجمعيات السرية في أوربا وفي نفس القسطنطينية ، ويقال إنه كان في القسطنطينية عاصمة تركيا ١٧ ألف شخص تابعون للجمعية المركزية ، وكانوا مطلعين على كل شيء . وكانت لهم في بلاد رومانيا وبسارابيا

جميعات تعمل بالاتحاد مع الأروام ، فتنهت تركيا لهم و بطشت بكثير منهم . وكان أهالى باتراس فى بلاد اليونان قد ثاروا بالسلاح على الحامية التركية ، وانتظروا أن تأتيم نجدة من الروس . وكان الثوار نحواً من عشرة آلاف ، فساقت الدولة جيشاً مزق شملهم فاعتصموا بالجبال ، وامتدت حركة العصيان فى الجزر اليونانية ، وبلغت الحاسة من الأروام أن امرأة اسمها بوبولينه جهزت بملها ثلاث بوارج حربية وتولت قيادتها ، ووجد من أغنياء اليونان عدد كبير نزلوا عن كل ثروتهم لأجل ثورتهم . وكان أحد القضاة من الأتراك آتياً مع حرمه فى سفينة من مصر إلى الاستانة فظفر اليونان بالسفينة وأهانوا القاضى وضربوه ، ويقال إنهم اعتدوا على عفة زوجته ، ثم تركوا السفينة تمضى إلى الاستانة . فلما وصلت شاع خبر هذا الاعتداء فى العاصمة وكانت صدور الأتراك قد امتلأت وغراً من أخبار الثورة اليونانية ، فهاج الشعب التركى وهجموا على دار البطريكىة وذبحوا البطريك غريغوريوس مع ثلاثة من الأساقفة وقتلوا ألوفاً من الأروام . واحتج سفراء الدول الأوربية على هذه المجزرة ، فأجابتهم الدولة بأن دول أوربا كلها تقتص من جميع الذين يكيدون عليها بلا استثناء ، فأى حق لها فى الاعتراض على الذين يأتمرون بسلامة الدولة العثمانية ؟ وقتك الأتراك بالأروام فى مقدونيا وتراقيا والأناضول . وقيل إنه هلك ثلاثون ألف رومى منهم ثمانون أسقفاً . ولما وصلت أخبار هذا الانتقام إلى بلاد اليونان ؛ اشتدت الثورة وانتخب « ديمتريوس إبسيلنتى » فى مدينة « هيدرة » قائداً عاماً للثورة . ولكن الجيوش العثمانية كانت دوخت « مون بازى » و « نافارين » وحصرت « باتراس » و « نابولى » و « تريبوليتزة » وغيرها ، وأرسل خورشيد باشا وهو يحاصر يانيا عساكر طهرت كثيراً من البلاد اليونانية من الثوار ، ولا سيما فى « آرثة » إلا أن اليونان ذبحوا من الأتراك فى تريبوليتزة ١٢ ألف نسمة ، ثم وقع الخلف بين الأروام أنفسهم فكانوا ثلاثة أحزاب كل منها يخالف الآخر فى آرائه ، وكان على باشا لا يزال يدافع عن يانيا وخورشيد باشا يحاصره إلى أن تمكن خورشيد من الاستيلاء على قلعة يانيا ، ففر على باشا إلى بحيرة يانيا واعتصم بجزيرة فى وسط البحيرة حيث يوجد برج فيه مخزن بارود

جلس فيه ناوياً إذا وصل اليه العدو أن يضع النار في البارود فيطير هو والعدو معاً ولكن بقية عساكره لم يطيعوه فاضطر إلى قبول شروط الصلح التي عرضها خورشيد باشا ، وأقسم له هذا على المصحف الشريف بأنه إذا استسلم يسلم ، فلما استسلم أمر خورشيد باشا الجند بقتله ، وكان ذلك الشيخ لم يفقد شيئاً من بأسه ، فلما هجموا عليه أعمل فيهم النار ثم هجم بيطقانة ، وما زال يصارعهم حتى وقع قتيلاً ، وكان ذلك في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ .

أما الأروام فضجروا من الشقاق ، وعقدوا مؤتمراً في «أبيدور» وأعلنوا استقلال اليونان ، وذلك في أول يناير سنة ١٨٢٢ وأعلنوا الحرية الدينية ، واحترام الملك الشخصي ، والمساواة التامة أمام القانون ، وانتخبوا مجلساً يقال له مجلس الشيوخ مؤلفاً من واحد وخمسين عضواً ينوب كل واحد منهم عن مقاطعة ، ولهذا المجلس لجنة إجرائية مركبة من خمسة أعضاء ، وانتخب «ديمترىوس إيسيلنتى» رئيساً للمجلس الشيوخ ، وانتخب «ماثروكورداتو» رئيساً للجنة الاجرائية . ولكن إيسيلنتى استقال من رئاسة الشيوخ ، وأبى كثير من رؤساء العصابات أن يعترفوا بهذا المجلس ، ومضوا في أعمالهم ، كأنهم غير مسؤولين .

وكان من أشهر هؤلاء قائد عصابة اسمه «أندروزوز» لم يكن أهالى تيسالية وليقادية يخضعون لغيره ، فهذا الرجل عصى أوامر المجلس فأمر ماثروكورداتو بعزله عن القيادة وأعلن خيانه . ولما سقط على باشا والى يانيا ساق خورشيد باشا عساكره إلى بلاد اليونان ليقضى على الثورة منتهزاً فرصة الخلاف الذى وقع بين زعمائها ، ولكن خورشيد أخطأ في كونه أعلن على الأروام بياناً مهيناً لهم ، وفي أثناء ذلك جاء زعيم أرناؤوطى مسيحي اسمه «بوتزاريس» مشهور بالبسالة ومعه عصابة من نخبة رجاله فانضم إلى الأروام واشتدوا به ، وكان هذا الرجل أبى النفس شريف المبدأ ، فوجههم على قتلهم نساء الأتراك وأطفالهم قائلاً لهم : إنكم بهذه الاعمال لوتم القضية الوطنية بالعار ، وزحف ماثروكورداتو لقتال خورشيد باشا فانهكس ، وانهكس أيضاً زعماء عصابات أخرى ، وسقط في أيدي الأروام . ولم تعد اليهم حماسهم إلا بعد وصول

المتطوعين الاوربيين وكان خورشيد باشا استولى على «قورنتية» وفرّ رجال الحكومة الوطنية التي تألفت هناك واستولى اليأس على الاروام ما عدا الزعيم ابسيلنتى ، وزعيم آخر اسمه « كولو كوترونى » فهذان بقيا يقاتلان واجتمع اليهما بقايا السيف ، وأخيراً هزما الاتراك فى «ستفانى» « وبارباتى » ومات بعد ذلك خورشيد باشا ، قيل إنه سم نفسه من شدة اليأس ، غير أن عمر غريّون استولى على جمهورية شولى ، وأجلى أهلها من هناك إلى جزيرة كورفو والجزر التي حولها .

وظهر أن الاروام لا يقدرّون أن يقاوموا الدولة العثمانية فى البر ، لكنهم كانوا على جانب عظيم من القوة فى البحر ، لأنّ مراكب القرصان كانت تملأ ببحر اليونان وكانت تعتدى على الجميع . وكان عدد القرصان الاروام وافرأ جداً ، وكانت الدول الأوربية تضطر أحياناً إلى تأديبهم ، فلما حصلت حرب الاستقلال الرومى اجتمع هؤلاء القرصان كلهم ونصروا القضية الوطنية ، وصاروا أكبرهم المسمى « طومبازيس » ومعه مئة سفينة ، وأجبر الأسطول العثمانى على عبور الدردنيل راجعاً ، وبقى يجول فى الارخبيل الرومى ، ويجاذب الاسطول العثمانى الحبل . فاستنجدت الدولة الاسطول المصرى وأرسلت قوة بحرية عظيمة فتمكن قرصان الاروام من أن يدهموها على غرة فى عيد رمضان ، وأن يحرقوا بارجة قائد الاسطول بدون أن يشعر أحد . فوقع الرعب فى سائر الاسطول ، ودارت الدائرة عليه . فأرسلت الدولة أسطولاً ثانياً فلم يقدر على قرصان اليونان ، ودخلت سنة ١٨٢٣ والوقائع مستمرة ، والحرب سجال بين الفريقين إلا أنه فى هذه السنة قُتل « بوتزاريس » المسيحى الذي يُعد هو « وإبسيلنتى » و « كناريس » أعظم رجال الثورة اليونانية .

ولما طالّت هذه الثورة ثارت الحمية فى جميع بلاد أوربا لنصرة اليونان ، الذين يقاتلون لاجل استقلالهم . وهبّ الشبان فى فرنسا وانكلترة والمانيا يريدون التطوع فى هذه الحرب ، وتآلفت الجمعيات لجمع الأموال ، واكتتب الناس فيها من كل فج وأقبل كثيرون من القواد والضباط يركبون البحر إلى بلاد اليونان وانضموا إلى الثوار

وقُتل كثير من هؤلاء المتطوعين ، وكان منهم أفراد من أشرف العائلات النبيلة وقواد من المشهورين بالبسالة .

وفي سنة ١٨٢٤ استولى الأسطول المصرى على جزيرة « كازوس » وقطع المصريون خمسمائة رقبة من الأهالى ، وأرسلوا ألوفا من الأذان المصلومة إلى الأستانة واستولى الأسطول التركى على « بسارة » ولكن لم يطل فرح الأتراك هذا فان السفن اليونانية تغلبت على الأسطول العثمانى وفرّ أمير البحر تاركا الجنود التى أنزلها فى « بسارة » فهجم عليهم الأروام وذبحوهم ، فأرسلت الدولة أسطولا اجتمع مع الأسطول المصرى فى جزيرة « ساقس » إلا أن « ميوليس » اليونانى من أكبر زعماء الثورة تغلب على الأسطولين ، وفقد عدداً من جنودهما . فأرسل السلطان محمود إلى محمد على والى مصر يوليه بلاد « المورة » وجزيرة « كريت » ويعهد اليه بقمع الثورة ، فأرسل محمد على ولده ابراهيم باشا فأنزل عساكره فى المورة سنة ١٨٢٥ واستولى على « ناغارين » و « كالاماته » وجميع السواحل ماعدا « نابولى » وهزم « كولو كوترونى » فى مدينة « تريكورفة » وهزم أبسيلنتى فى مدينتى « ريزس » و « إردوفه » برغم مساعدات المتطوعين الأوربيين الذين كانوا فى صفوف اليونان ، وكاد ابراهيم يسحق الثوار بأسرهم فصاروا يفرّون إلى الجبال ولم يبق ثائراً إلا زعيم اسمه « بابا فليشاس » فإن هذا الرجل لم يقدر على ابراهيم ولكنه ألحق بعسكره خسائر غير قليلة ، ولم يبق بلدة غير طائفة فى بلاد اليونان غير « أثينا » و « ميسولونكى » التى جاء القائد التركى رشيد باشا يحاصرها فدافعت هذه البلدة دفاعاً شديداً ، وكان فيها أربعة آلاف من نصارى الأرناؤوط ، وأقبلت عليها النجيدات من كل فج بحيث لم يقدر رشيد باشا على فتح البلدة ، فاستنجد ابراهيم باشا فجاء وضيق الحصار على « ميسولونكى » فاشتدت المجاعة بالمحصورين حتى أكلوا الخيل والكلاب ، وأخيراً أجمعوا من يأسهم على الخروج وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل ومعهم النساء والأولاد ، فقاتلوا قتالاً شديداً ولكنهم لم يقدرُوا على النجاة ، فسحقهم عساكر ابراهيم باشا ورشيد باشا واستولى المسلمون على « ميسولونكى » ومن بعد ذلك ذهب رشيد باشا يحاصر أثينا ، حيث اجتمع

ألوف من الثوار ومعهم قواد أورييون فانتصر الأتراك عليهم . ثم أخذت البلاد اليونانية تقدم الطاعة لابراهيم باشا وكاد ينقطع كل أمل من استقلال اليونان الذين أخذ الزعماء منهم يقاتل بعضهم بعضاً ، وصارت الحالة عندهم أشبه بالفوضى ، فعند ذلك تدخلت الدول الثلاث فرنسا وانكلترا والروسيا وطلبت من الدولة ومن الثوار الأروام توقيف الحرب . فالأروام أسرعوا إلى القبول بطبيعة الحال . وأما الدولة فقد رفضت هذه المداخلة في مملكتها ، واستمرت على القتال ، فاقترحت روسيا تقسيم بلاد اليونان إلى ثلاث إمارات تحت حماية أوروبا ، فرفضت ذلك الدولة واليونان معاً فالدولة رأت في هذا التدبير خروجاً لبلاد اليونان من السلطنة العثمانية ، واليونان رأوه تدبيراً يخالف مبدأ استقلالهم ووحدةهم . وفي ذلك الوقت أى سنة ١٨٢٥ في شهر ديسمبر توفي القيصر اسكندر وخلفه ابنه نقولا الأول الذى أجبر تركيا على عقد معاهدة تخول للروسيا حق الملاحة في البحر الأسود ، وتجعل للفلاح ومولدافيا إمارتين ينتخب الأهالي أميريهما إلى مدة سبع سنوات ، وتجعل سربيا إمارة مستقلة استقلالاً داخلياً تحت سيادة السلطان ، وإنما تبقى حاميات عثمانية في بلغراد ، وثلاث قلاع أخرى ، وتدفع للدولة جزية سنوية . ثم قررت الدول توكيل انكلترا والروسيا بإيجاد طريقة حل للمشكلة اليونانية ، ووافقت النمسا ، وبروسيا ، وفرنسا على ذلك . فلما خاطبت انكلترا والروسيا الباب العالي بشأن حرب اليونان أجاب بأن السلطان لن يقبل تدخل الأجانب بينه وبين رعيته ، ولن يجاوب على اقتراحات كهذه . فعند ذلك اتفقت الدول الثلاث في ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ على أن تفصل بلاد اليونان عن تركيا فصلاً إدارياً وتجعلها إمارة مستقلة داخلياً ، وعليها أن تؤدي جزية للدولة العثمانية . فأجاب الباب العالي كالأول بالرفض البات ، فأمرت الدول الثلاث أساطيلها بمنع الجيوش العثمانية من الحركات العسكرية . فأبلغ أمراء البحر الانذار اللازم إلى ابراهيم ، وهو تعهد لهم بأن يتوقف عن كل حركة إلى ما بعد ورود الجواب من السلطان ومن محمد علي . فأما اليونان فلم يتقيدوا بانذار الدول الذى كان موجهاً إليهم أيضاً ، وهاجموا بقوتهم البحرية أسطولاً صغيراً كان في ميسولونكى فأحرقوه .

فثار غضب إبراهيم باشا وأرسل إلى أمراء البحر بأنه لا يمكنه أن يبقى مكتوف اليد بازاء اعتداء الثوار ، وكان ابراهيم قد جاءه الأمر من الأستانة بعدم توقيف القتال فكرر قواد الأساطيل الثلاثة إنذار ابراهيم بارجاع الأسطول العثماني الى الدردنيل والأسطول المصرى إلى الاسكندرية ، وباخلاء بلاد المورة . وكان ابراهيم باشا غائبا فأجيبوا بأن هذا البلاغ سيرسل إليه ، فاجتمعت الأساطيل الثلاثة في مياه ناغارين وكان الأسطول العثماني ثمانين قطعة مصطفيا صفين على شكل هلال ؛ ولم يكن عند الفريقين نية القتال ، ولكن بطريق القضاء والقدر انطلقت رصاصة من جهة الاسطول العثماني فأصابت رجلا انكليزيا من نواب المجلس البريطاني ، فقابل ذلك ربان السفينة الانكليزية التي وقع فيها هذا الحادث باطلاق الرصاص المتوالى . ثم إن الانكليز أرسلوا إلى محرم بك قائد الأسطول المصرى يقولون له إنهم حاضرون لتجنب الحرب إذا توقف العثمانيون عن إطلاق النار ، ولكن في ذلك الوقت أصابت رصاصة أخرى جندياً انكليزياً فقتلته ، ويقول الافرنج إن هذه الرصاصة جاءت من بارجة الأميرال التركى . فندبت الحرب واستمرت الممركة خمس ساعات إلى المساء فلم يبقَ من الاسطول العثماني سوى خمس عشرة سفينة . ولما بلغ الخبر إبراهيم باشا تلقاه بسكون جأش وأعلن أنه يقتل كل من أراد الاعتداء على مسيحي . ووصل الخبر إلى الاستانة فأبلغ الصدر الاعظم سفراء الدول الثلاث الاقتراحات الآتية : الاول عدم التدخل في قضية اليونان ، والثاني دفع غرامة عن السفن الحربية العثمانية التي احترقت في ميناء ناغارين ، هذا مع اعتذار الدول للدولة . فأجاب سفراء الدول الثلاث بأن دولهم قطعت علاقاتها مع تركيا ، وبرحوا الأستانة .

فأعلن السلطان محمود الجهاد باسم الدين الاسلامى ، وحرّض المؤمنين على القتال فأعلنت روسيا الحرب على الدولة على حين أن الدولة كانت محقت أوجاق الانكشاريه فبقيت بدون جيش تقريبا . ولما حصلت معركة ناغارين تجددت آمال اليونان ، وزحفوا للقتال من كل صوب إلا أن الاتراك حفظوا مراكزهم في ناغارين ومودون ، وباتراس وكورون . وأما ابراهيم باشا فسحب أسطوله وعاد إلى الاسكندرية بموجب عقد هدنة

ولم يترك سوى اثني عشر ألف جندي في بعض القلاع . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨ انعقد في لوندرة مؤتمر دولي لأجل تحديد المملكة اليونانية التي قررت الدولة تأسيسها واتفقوا على أن يجعلوها ملكا مسيحيا تحت حماية الدول الثلاث ، وجعلوا للدولة على هذه الامارة اليونانية جزية سنوية نصف مليون قرش . وكذلك قرروا التعويض على المسلمين الذين أجلاهم الاروام عن بلادهم ، وبعثت الدول إلى السلطان ليفيب عنه مندوبا في المؤتمر فرفض السلطان هذا الطلب ، واستؤنفت الحرب في بلاد اليونان ولكن روسيا أغارت على بلاد الدولة وعبرت جيوشها نهر البروت واحتلت الفلاخ ومولدافيا ثم حاصر الروس قلعة سيلسترية ، وأحاطوا بريالة على نهر الطونة وكان السر عسكر حسين باشا في قلعة « شملة » وكان يوسف باشا في « قارنة » فالروس الذين أمام سيلسترية انهزموا عنها ، ولكن بريالة سقطت في أيديهم . وجاء القيصر نقولا الأول بنفسه إلى ساحة الحرب ، وضيق الروس الحصار على سيلسترية وقارنة وهاجموا شملة واسكى استانبول ، ولكنهم فشلوا ، وبينما العثمانيون يدافعون الروس أحسن دفاع إذ باع يوسف باشا قائد موقع قارنة قلعة هذه المدينة من الروس وقبض على ذلك مبلغاً من المال وفرّ به إلى روسيا يتنعم بثمن خيائته ؛ فلما دخل الروس إلى قارنة امتنع ثلاثمائة من الاتراك بالقلعة وأبو تسليمها برغم الامر الصادر من يوسف باشا ، وبعد أخذ ورد ارتضى القيصر بأن يخرجوا بأساحتهم و يلتحقوا بالمساكر العثمانية .

وأما في آسيا فقد ظهر الروس على العثمانيين وأخذوا قارص وأردهان وغيرها وتولّى الصدارة في استانبول رشيد باشا فاتح ميسولونكى وأثينا ، فزحف إلى البلقان وناجز الحرب الجنرال « روت » فخف الكونت ديابتش القائد الكبير للجيش الروسى لمعاونة الجنرال روت وهزموا الصدر الأعظم في ١١ يونيو سنة ١٨٢٩ ثم استولى الروس على سيلسترية . فاعتصم الصدر الأعظم بقلعة « شملة » فانتهر الروس هذه الفرصة وعبروا الطونة من وراء الصدر الأعظم ، ولبثوا يزحفون إلى أدرنة ، فاستسلمت البلدة لهم بدون قتال ، واحتل الروس « قرق كليسة » و « ديموطقة » وغيرها .
وأما من جهة آسيا فاستولى الروس على أرضروم ، وكانوا سائرين إلى الأمام

وأما في بلاد اليونان فاشتدت عزائم الأروام واسترجعوا كل المواقع التي خلت منهم والخلاصة أن السلطان محمود شاهد في هذه الحرب هزائم لم تحمل بالدولة من قبل فطلب الصلح بواسطة بروسيا ، وانعقدت معاهدة أدرة التي بموجبها استولى الروس على مصاب الطونة ، وصار لهم الحق في حرية الملاحة في البحر الأسود والخروج منه إلى البحر الأبيض . وأخذوا « بوتي » في آسيا ، وفصلوا بين تركيا وبلاد القوقاس . فحسرت تركيا علاقتها بتلك الأمم القوقاسية التي كانت من أشد أنصارها ! فسهل على روسيا إدخالهم في الطاعة تدريجاً ، وتعهدت الدولة بأن لاتعزل أمراء الفلاخ ومولدافيا وأما سربيا فبقيت على حالها ، وتعهد الباب العالي بدفع غرامة حربية ١٢٥ مليون قرش يؤديها تقسيطاً على عشر سنوات على شرط أن الروس لا يخلون بلاد الفلاخ ومولدافيا قبل دفع الأقساط كلها . وفي سنة ١٨٣٠ اعترفت الدولة باستقلال اليونان وبالحدود التي وضعتها الدول بينها وبين تركيا .

وكان السلطان محمود معتقداً أنه لا بد من الإصلاح في داخل السلطنة والسير بتركيا على الطرق العصرية الأوروبية ؛ ولما توالى الهزائم على الجيوش العثمانية في زمان سليم الثالث ومحمود الثاني تحققت الناس أن السبب في هذه الهزائم إنما كان قصور الانكشارية في التعليم العسكري عن الجيوش الأوروبية ، وأنه لا بد للدولة من جيش مرتب على نسق الجيوش الأوروبية حتى يمكنه أن يقاتلها بنجاح أو ثبات ، ولم يكن في الامكان تنظيم هذا الجيش الجديد مع وجود الانكشارية الذين كانوا يعارضون في هذا الامر معارضة من يقاتل عن حياته . وكانت الدولة تعاني من ثورات الانكشارية ما لا يوصف ، وكمن مرة كانت ثوراتهم سبباً في الانهزام أمام الأعداء وكمن استبدوا بالاهالي وعاثوا في البلاد حتى عاف الناس مجرد سماع ذكرهم ؛ فكانت الصدور ملأى من أعمالهم ، وكانت الأمة ترجو الخلاص منهم . فلما أمر السلطان محمود بتنظيم الجيش الجديد كانت جميع الأمة مؤيدة لفكرته هذه ، وبدأ السلطان بتنظيم هذا الجيش ، وأخذت ضباط الانكشارية تتعلم الحركات العسكرية في « آت ميدان » . وإذا بالانكشارية تآمروا وثاروا على السلطان بغتة ، وزحفوا إلى

السراى يهددون السلطان و يطلبون منه رؤوس الذين وافقوا على النظام الجديد ، ولم يكن السلطان محمود خوَّار العزيمة ولا ممن يهاب الاخطار ، فامتنع من إجابة طلبهم ونادى بالامة ، وأخرج السنجق النبوى ، فاجتمعت الامة تحته والعلماء فى مقدمتهم وصمدوا إلى الانكشارية ورموهم بالنيران ، وأطلقوا المدافع عليهم فكسروهم ، وبعد أن انهزموا أعملت الأمة السيوف فى رقابهم فقتلوا منهم عشرة آلاف رجل ، وقيل عشرين ألفاً ، وتخلصت الأمة من معرتهم ، وبعد ذلك نشر السلطان خطاً شريفاً يقول فيه : إنه من المعلوم بين المسلمين أن السلطنة العثمانية إنما رقت ونمت واستولت على الشرق والغرب بقوة الدين الاسلامى ، وأن نظام الانكشارية كان فى أول الأمر يوم كانت الطاعة شعاره حصناً حصيناً للدولة ، وطالما كان النصر معقوداً برايات هذا النظام ، ولكن فى العصر الأخير فشا فى الانكشارية روح التمرد وصاروا بلاء على الدولة ، وصاروا لا يلقون الأعداء إلا انهزموا ، فأجمعت الأمة على إيجاب التخلص من هذا النظام البالى ، وعلى تنظيم جيش جديد يمكننا أن نصادم به أعداء الدين الخ. وما اكتفى السلطان باستئصال الانكشارية ، بل أراد استئصال جميع جرائم الفساد التى كانت آفة على المملكة ، فألغى الطريقة البكتاشية ، وقتل رؤسائها وأقفل تكاياها . ولكن بعد أن سار على خطة التجدد فى المملكة ، وغيّر الأزياء القديمة ؛ حاول الرجعيون الانتقام ، فأشعلوا النار عدة مرار ، وفى إحدى المرات أحرقوا ثمن الأستانة ! ولكن السلطان ضمّد الجروح ، وساعد المصابين . وفى مرة أخرى أحرقوا «بيك أوغلو» محلة الاوربيين ، وحصلت أيضاً ثورة بالسلاح ، ففضى السلطان عليها ولم يثنه شئ عن عزمه ، ومضى فى سياسة التجدد ، وبنى المدارس ، وأسّس المدرسة العسكرية الكبرى ، وأنشأ المراكب النارية ، وأسّس المحاجر الصحية .

وكان بالجملة مقتنعاً بوجوب الاصلاح والتجديد ، حازماً رابط الجأش ، غير هيّاب للموت ، عادلاً بالرعية ، مهتماً بالصغيرة والكبيرة من شئون الامة ، مساوياً بين جميع أجناس رعيته . ولكن المصائب بسبب أطاع الدول الأوربية توالى على السلطنة فى زمانه .

وفي سنة ١٨٣١ استولى الفرنسيين على الجزائر في خبر ليس هنا موضعه
فمجزت الدولة عن دفع هذا الاعتداء ، لاسيما أن الجزائر كانت منفصلة عنها ولم تكن
سيادتها عليها إلا بالاسم ، ثم خرج محمد علي والي مصر على الدولة وأغزى ابنه ابراهيم
بلاد الشام بخمسين ألف جندي فاستولى على غزّة ، ويافا ، وحيفا ، وحاصر عكة التي
كان قائدها عبد الله باشا ، فأمر السلطان محمد علي برد عساكره إلى الورد ، فاشتراط
محمد علي على السلطان توليته سورية ، فأبى السلطان قبول طلبه ، وأرسل جيشا لقتال
الجيش المصري تحت قيادة حسين باشا ، فانكسر حسين باشا وفتح ابراهيم باشا عكة
عنوة ، واستولى على جميع سورية ، وفي ذلك يقول الشيخ أمين الجندى الشاعر :

لو قيل إبراهيم جاء محارباً سقطوا ولو كان الكلام تقوُّلاً
قامت قيامة عكة من بأسه وأحاط من كل الجهات بها البلا
بدافع ما إن لها من دافع وقنابر تحكى القضاء المنزلا
تنسبك بدرّاً والنضير وخيبراً وحروب مكّة والبسوس وكر بلا
من مبلغ الأتراك أن جنودهم هُزموا وأن حسينهم ولّى إلى

ولم يقف في وجه ابراهيم باشا غير الدروز ، فانهم اجتمعوا في « وادي التيم »
وناجزوا جيشه القتال في وقائع متعددة أشهرها واقعة « وادي بكّا » حيث أحاط
ابراهيم باشا ومعه اثنا عشر ألف مقاتل نظامي بخمسمائة من الدروز ققاتلوه طول النهار
وأبوا أن يستسلموا إليه إلى أن ماتوا جميعاً . وما نجا منهم غير ٢٥ شخصا . اختلطوا
سيوفهم وشقوا الجند النظامي على كثافته ، وخلصوا من بين الجند كله . وقد عرفت
منهم واحداً عُمر طويلاً اسمه أمين المصني من قصبة بعقلين ، وأمادروز حوران فالتجأوا
إلى اللجاء واتفقوا مع عرب السلوط ، وساق عليهم ابراهيم باشا جيشاً فكسروه مراراً
وقتلوا منه مقتلة عظيمة ، وبقى الدروز عصاة على ابراهيم إلى أن انصرف من سورية
ولكن الأمير بشير الشهابي الوالي على جبل لبنان لان إلى ابراهيم باشا لأنه كان ذهب
إلى مصر وتعاهد مع محمد علي ، فلما زحف ابراهيم إلى الشام مهد له كثيراً من العقبات
ولم تمنع ابراهيم باشا ثورة الدروز من أن يزحف إلى الأناضول ويهزم جيش الدولة عند

قونية ، وأن يتقدم من هناك إلى بورسة ، فوقع الهلع في الأستانة ، وقد كان خوف الروس من محمد علي أعظم من خوف الترك . وذلك أن الروس فكروا في أن محمد علي قد يستولى على القسطنطينية وينظم تركيا كما نظم شئون مصر ، ويؤسس دولة جديدة شابة غير الدولة العثمانية التي كان حل بها الهرم ، فعرضت روسيا على السلطان محمود محالفة عسكرية في وجه محمد علي ، وأنزلت خمسة عشر ألف جندي بقرب الأستانة ، وكانت على نية زيادة هذا الجيش حينما نبيه السلطان سفيرا انكلترا وفرنسا إلى خطر وجود العساكر الروسية في الأستانة ، وقالوا له : إن الأولى به أن يقبل شروط محمد علي ، وهي إضافة سورية كلها وولاية « آطنه » إلى مصر تحت سيادة السلطان من أن يستعين بالروسيا صاحبة الطمع السرمدي في القسطنطينية ، وهكذا اقتنع السلطان باعطاء سورية وكيليكية إلى محمد علي ، ولكن السلطان لم يكن ليرضى من قلبه بمصالحة محمد علي على هذا الشرط وبقي يجهز العساكر ليقاقل ابراهيم باشا ويرده إلى الورا فزحفت العساكر العثمانية تحت قيادة حافظ باشا ، وتلاقى الجمعان في « نِزْب » وكان مع ابراهيم باشا جيش كبير من العرب ، فانكسر حافظ باشا كسرة شنيعة وغنم ابراهيم أكثر مدافعه ، ومات السلطان محمود من الغم عند سماع خبر هذه الهزيمة وذلك سنة ١٨٣٩

السلطان عبد المجيد

وتولى السلطنة ولده الكبير السلطان عبد المجيد ، وكانت الدولة أصبحت بدون جيش تقريباً ، وكان أمير البحر أحمد باشا اختاف مع الصدر الاعظم فذهب وسلم الأسطول العثماني إلى محمد علي في ميناء الاسكندرية . فصارت الدولة مضطرة إلى الصالح مع محمد علي إلا أن الروسيا وانكلترا والنمسا وبروسيا عقدت مع السلطان عبد المجيد معاهدة سنة ١٨٤٠ بموجبها لا يبقى لمحمد علي سوى مصر التي تعود إمارة له ولذريته وفلسطين التي يتولاها بصورة مؤقتة ، وعليه أن يخلى سورية وبلاد العرب وجزيرة كريت ، وبقيت فرنسا خارجة عن هذا الاتفاق ، لكنها لم تصل في مساعدة

محمد على إلى العمل ، وذلك بما رأته من تألب أوربا عليه . فصار محمد على يقاوم بدون سند من جهة الدول ، وكانت قوة ابراهيم باشا أكثرها في عكّة ، فجاء الاسطول الانجليزى وضرب عكّة بالقناير ، وطير مستودع البارود والذخيرة فاستسلمت عكّة وسحب ابراهيم جيشه إلى مصر ، وكانت الدولة تريد الخلاص من محمد على تماما إلا أن الانكليز كانوا عقدوا معه معاهدة لابقاء مصر في يده ، فأجبروا الدولة على مراعاة هذه المعاهدة .

وأما الأمير بشير الشهابى حليف محمد على فلما التزم ابراهيم باشا إخلاء سورية لم يتبعه إلى مصر ، بل بقى يرجو أن يصلح أموره مع الدولة ، وكان الأمر والنهي وقتئذ فى يد الانكليز ، فلما نزل إلى صيدا وقابل أمير البحر الانكليزى سمع منه مايدل على أن انكلترا لاتريد إبقاءه أميراً على لبنان ، ثم أتوا به إلى بيروت وأبلغوه أن الدولة العثمانية قررت عزله فليختار بلاداً يقيم بها ، فاختر فرنسا . فقال له الانكليز لك أن تسكن فى أى بلد شئت ما عدا فرنسا ، ومصر ، فاختر مالطة ، ثم وجد مالطة فى عزلة عن الدنيا كلها فسعى فى التحول إلى استامبول ، وجاء اليها وبقى فيها إلى أن مات . وكان قد تعين الأمير بشير قاسم الشهابى والياً على جبل لبنان وكان الفرق بينه وبين ابن عمه فى الحزم والعزم وحسن التدبير كما بين الأرض والسماء ، فما مضى على ولايته إلا أشهر قلائل حتى سخط عليه مشايخ الدروز أصحاب الاقطاعات ، لأنه كان بذى اللسان ، فكانت بذاته تجرح فى قلوبهم ، على حين لا يوجد فى الدنيا بلد كجبل لبنان يهتم أهله قبل كل شئ ، بالآداب وحفظ اللسان فقرر الدروز الاجتماع لخلع الأمير بشير قاسم ، فانتصر له النصارى لأنه منهم ، فوقعت الوقائع بين الفريقين فى « دير القمر » سنة ١٨٤١ وتسمى هذه الوقائع فى لبنان بالحركة الاولى . فعزات الدولة الامير بشير قاسم ، وأرسلت عمر باشا النمساوى إلى جبل لبنان فأخذت فرنسا تسعى فى إعادة الحكم إلى آل شهاب بناء على كون الطائفة المارونية ترغب فى ذلك ، إلا أن الدروز وسائر الطوائف غير المارونية عارضوا رجوع الحكم إلى الشهابيين ، فبعد أخذ ورد بين الدول تقررر قسمة الجبل إلى قسمين يفصل بينهما

طريق دمشق ، وجعلت الدولة الامير احمد عباس الأرسلاني والياً على القسم الجنوبي والامير حيدر اسماعيل أبي الدمع والياً على القسم الشمالى ، وألحقت بلاد جبيل بياشوية طرابلس . فأغضب هذا التدبير الطوائف الكاثوليكية وحاميتهم فرنسا . ولكن الدول الاخرى حياً بالتوازن وبمقاومة نفوذ فرنسا التى تريد السيادة فى جبل لبنان عضدت الدولة العثمانية فى الترتيب الجديد . وهنّ انجلترا ، وبروسيا . وأميركا والروسيا . وتآلف فى كل من القامقاميتين ديوان مختلط تتمثل فيه كل الطوائف وما مضت سنوات قلائل على هذا النظام حتى تشاجر الدروز والنصارى مرة أخرى ، وحصلت وقائع بين الفريقين ، فسكنت الدولة هذه الفتنة .

وجاء شكيب افندى ناظر الخارجية من الأستانة فرتب الأمور ، وعزل الأمير أحمد أرسلان بسبب حصول الفتنة فى أيامه ، وجعل مكانه أخاه الامير أمينا فبقى إلى سنة ١٨٥٩ خلفه ولده الامير محمد الأرسلاني ، وفى مدة هذا ثارت العامة فى قضاء كسروان وكلهم هناك من الموارنة ، وكانت ثورتهم على مشايخهم آل الخازن فطردوهم واستولوا على أملاكهم ، وقتلوا منهم فذهبوا إلى بيروت يشتكون إلى الوالى التركى ، فرأى الوالى أنه لا بد من حرب لقمع ثورة الاهالى ، فرأى الاولى أخذ المسألة بالسياسة فطال الامر بينى الخازن ، فالتجأوا إلى مشايخ الدروز لأنهم أصحاب إقطاعات مثلهم ، وبين الفريقين تكافل إقطاعى طبيعى . فقرر مشايخ الدروز الزحف على كسروان وإعادة بنى الخازن إلى بيوتهم ، فقامت من أجل ذلك قيامة المارونيين الذين فى بيروت وفى بلاد الشوف وجزين ، وقالوا . إنهم لا يرضون بذهاب الدروز إلى كسروان يقاتلون إخوانهم ، فوقع التنافر بين الفريقين ، وبدأ المارونيون بالحركة . ثم انفجر الدم فى حوادث جزئية فى البداية ، واجتمع المسيحيون فى زحلة وزحف منهم عدة آلاف قاصدين قضاء الشوف على تفاهم مع نصارى الشوف بأن يشوروا من جهتهم فيضعوا الدروز بين نارين ، واعتمدوا على كثرة عددهم لأن الدروز لايزيدون على السدس بالنسبة إلى النصارى ، ولكن الدروز المشهورين بالشجاعة وبحسن الانقياد إلى رؤسائهم فى الحروب قابلوا ذلك الجيش الذى زحف اليهم ، وذلك فى

« ظهر البيدر » شرق عين صوفر ، وجرت معركة تقهر فيها النصارى إلى « قب الياس » ثم حصلت وقائع أخرى كان الفوز في جميعها للدروز ، ثم جمع خطار بك العماد جمعا كبيرا من الدروز وقصد مدينة زحلة حيث تجمع فيها النصارى من كل جهة فوقعت واقعة شديدة انتهت أيضا بأن النصارى تركوا زحلة واستولى عليها الدروز وأحرقوها . وكانت قصبة دير القمر المسيحية الواقعة في وسط بلاد الدروز تدافع بشدة الدروز الذين يهاجمونها ، فلما سقطت زحلة خارت عزائم أهالي دير القمر فاستولى عليها الدروز ، وأعمل الجلاء منهم السيف في أهلها ، وقتلوا مقتلة عظيمة . ولكن عند ما بلغ الخبر آل أرسلان ، وآل جنبلاط ، وآل نكد ، أرسلوا رجالهم إلى دير القمر وأنقذوا ألوف من بقايا السيف من المسيحيين وآوؤهم ، وقاموا بإعاشتهم إلى أن جاءت وزراء الدولة والدول وبدأوا بالتحقيق عن الحوادث ، وكذلك حصلت حادثة كهذه في حاصبيا وأخرى في راشيا وكان الدروز مع كونهم أقل عدداً يتغلبون على النصارى ، وكانت تقع من الجلاء بعد الفوز حوادث مؤسفة لامراء فيها إلا أنه في جميع هذه الوقائع لم يكن الدروز هم البادئين بالشر ، وكيف يبدأون وزعمائهم هم أصحاب الاقطاعات الوافرة وتحت حكمهم عشرات ألوف من النصارى وفي أيديهم أكثر الأملاك . فكان لا يخفى عنهم وهم عقلاء محنكون أن الفتنة تكون سبب انقراض نعمتهم ، وتؤل إلى جمل الحكومة على نسبة عدد الطوائف فيفقدون أكثر امتيازاتهم ، بخلاف النصارى الذين كانوا يرون أنهم لا يحصلون على المساواة ، ولا يتخلص ذلك العدد الكبير منهم عن حكم الدروز إلا بشورة تجبر الدولة على انصافهم ، فقضية أن الدروز كانوا مستولين على أكثر كثيراً مما يحق لهم بحسب العدد هذه قضية لا نزاع فيها .

وأما قضية كون الدروز هم الذين بدأوا بقتال النصارى وأنهم هم الذين اعتدوا عليهم فهي كذب محض قد تحققت لجنة التحقيق الدولية التي وقفت على جميع الحقائق ولذلك أبى الجانب الأعظم من الدول أن يعد الدروز معتدين ، وإن كانوا حكموا على مئات منهم بالنفي ، فلم يكن ذلك مبنياً على اعتدائهم ، ولكن كان ذلك تسكيناً لخواطر النصارى الذين قتل منهم عدة آلاف بعد تغلب الدروز عليهم . واقد حكمت

الدولة بالقتل على المشير احمد باشا قائد الفيالق العثمانى في دمشق وعلى مئات من المسلمين ممن كانوا المسئولين عن الحادثة التى وقعت على نصارى الحاضرة السورية ، ولكنها بالاتفاق مع الدول عدا فرنسا لم تقتل أحداً من الدروز لما ظهر من أن الاعتداء لم يقع منهم ، ولما ثبت بالوثائق والمنشير التى صدرت عن أساقفة النصارى من أن الرؤساء الروحانيين كانوا هم المحرضين على الحرب ، وغير معقول أن الدول المسيحية مع شدة تعصبها فى النصرانية مثل انكلترا ، والنمسا ، وبروسيا ، والروسيا ؛ تساعد الدروز بقدر الامكان وتأبى مجازاة فرنسا على قتل جانب منهم لو تحقق عندها أن الدروز كانوا هم المعتدين ! ولا تبال أصلاً بأقوال المؤلفين الا فرنسيين الذين ينكرون هذه الحقيقة ويروون روايات إذا قرأها الانسان يضحك أو يحزن لشدة بعدها عن الواقع ، ولغياب الوجدان فيها تماماً ، ودعوى الفرنسيس أن الانكليز لأجل أن يتوكلوا على الدروز ويتخذوا لأنفسهم أنصاراً فى سورية قد اجتهدوا فى إنقاذهم على أثر تلك الحوادث المسماة بحوادث « الستين » - لوقوعها سنة ١٨٦٠ - هى دعوى لا تتركز على أدنى أساس ، لأن الانكليز هم أشد تحمساً للنصرانية من أن يرضوا بذبح الدروز للنصارى وبأن يتركوا بدون قصاص ، ولما وصلت إلى لندرة أخبار هذه الحوادث مقلوبة عن وجهها اشتد غضب الانكليز ، وطلبوا فى أول الأمر من حكومتهم الاقتصاص من الدروز بكل صرامة ، إلا أنه كان بعض الانكليز المنصفين المقيمين بسورية لا سيما المستر « سكوت » صاحب معمل الحرير فى قرية شمالان من لبنان قد كتبوا إلى انكلترا بحقيقة ماجرى ، وقالوا إن الدروز إنما كانوا مدافعين لا مهاجمين ، فهدأ عند ذلك رأى العام الانكليزى .

ولما تألفت اللجنة الدولية فى بيروت ثبت أيضاً أن الدروز لم يكونوا هم البادئين بالقتال . وثبت أن الأمير محمد أرسلان أمير لبنان الجنوبي راجع الوالى خورشيد باشا لأجل إرسال جيش نظامى يكفى لمنع الحوادث ، واستمد أيضاً قناصل الدول كلها حتى يسموا فى هذا الأمر لدى الوالى ، وهذا كان سبب خلاص الأمير محمد من القتل والنفي

ومن كل مسئولية ، ولا يُنكر أن الانكليز كانوا قد بدأوا بتأسيس علاقة مع آل جنبلاط وحزبهم من الدروز ، وربما كانوا لأجل حفظ التوازن . غير راغبين في استئصال هذه الطائفة القليلة العدد من جبل لبنان ، ولكنهم لو كانوا قد تحققوا كون الدروز هم المعتدين لكانوا وافقوا بالأقل على اجراء القصاص بحق عدة مئات منهم كما جرى في دمشق بحق المشير احمد باشا ومئات من المسلمين ، وأيضاً فان روسيا والنمسا وبروسيا لم يكن عندهن أقل سبب سياسى يقتضى العفو عن الدروز ، والاكتفاء بنفى مئتين أو ثلاثمائة رجل منهم إلى الخارج ، مع أن النصارى قدموا جدولاً إلى اللجنة الدولية يلتمسون فيها قتل سبعة آلاف من الدروز .

والخلاصة لما ثبت أن الدروز لم يكونوا إلا مدافعين عن حوزتهم ترفقت بهم الدولة العثمانية وجميع الدول عدا فرنسا ، وإنما نفي من نفي منهم نكالا وعبرة من أجل المذابح التي لا تنكر مما قام به جهلاؤهم بعد الغلبة ، ولقد قلب مؤرخوا هذه الوقائع من الفرنسيين حقائقها رأساً على عقب ، وجعلوا الابتداء والاعتداء من الدروز وليس ذلك بصحيح . ثم إنه قد ثبت أيضاً باعتراف عقلاء النصارى أنفسهم أنه لم يوجد واحد من الدروز سطا على عرض امرأة نصرانية ، ولا وجد منهم من قتل ولداً ، أو امرأة ، أو شيخاً عاجزاً . وقد اعترف بذلك صاحب كتاب « حسر اللثام عن نكبات الشام » المطبوع بمطبعة المقطم بمصر ، وفيه سرد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه من الطعن بالدولة العثمانية ومن الوقعة بالمسلمين والدروز ما يزيد على كل وصف ، إلا أنه صرح بكون الدروز في جميع هذه الوقائع لم يتلوثوا بالاعتداء على أعراض النساء ، ولا قتلوا امرأة ، ولا ولداً ولا عاجزاً ، وهو يذكر أيضاً هم كثيرين من زعماء الدروز الذين أنقذوا النصارى ألوفا ، كما يذكر أن أعيان المسلمين في الشام مثل محمود افندي الحزاوى وصالح أغا المهابنى ، وعمر آغا العابد ، وعدداً كبيراً من الوجهاء ليس الأمير عبدالقادر الجزائرى فقط ؛ قد حافظوا على النصارى ، وآمنوهم من خوف ، وآووهم من قعر ، مع أن مؤرخى الفرنسيين يحصرون هذه المحافظة فى الأمير عبد القادر رحمه الله وحده وهو بدون شك قد حافظ على ألوف من المسيحيين ، وكان السبب فى نجاتهم من الغوغاء

الذين اعتدوا عليهم بدون علم الرؤساء ، ولكن الأمير عبد القادر لم يكن هو الوحيد الذى قام بذلك الواجب .

ثم إن السلطان عبدالمجيد أعلن التنظيمات المسماة « بخط كوخانة » وماآله أن حياة الأشخاص وأموالهم وأعراضهم تكون مصونة ، وتكون الأموال الأميرية عائدة إلى نظام واحد ، وأن تلغى الاحتكارات ، وأن تكون الضرائب بحسب الثروة وأن تكون مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات ، وأن تكون المحاكمات علنية وأن تكون المساواة أمام القانون شاملة لكل أصناف الرعية ، وأن يكون الناس أحراراً فى البيع والشراء ، وأن يكون ضبط أملاك المجرمين ممنوعاً ، بل تعود إلى ورثتهم .

وقد زعم بعض مؤرخى الفرنسيس أن الضرائب وإن أوجب خط كوخانه استيفاءها على نسبة الثروة ، فقد كانت تجب بصورة جائزة على المسيحيين . وهذا الكلام أيضا غير صحيح ؛ فالضرائب فى السلطنة العثمانية كانت على حسب مقدار الأملاك وريعتها ولم يكن فيها تمييز طبقة على طبقة مما هو شأن الدول الاستعمارية الاوربية .

وأُسست الدولة جامعة باسم « دار الفنون » وجعلت التعليم ابتدائياً ، واعدادياً وعالياً . وقامت باصلاحات كثيرة ؛ وفى سنة ١٨٤٨ ثارت الفلاخ ومولدافيا ، وكادت الفتنة تؤدى إلى الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية ، ولكن الحرب لم تقع بينهما هذه المرة ، وتفادوها بتدابير سلمية .

وفى زمان السلطان عبدالمجيد نشبت حرب القريم ، وأساسها الخلاف بين الروم واللاتين على كنيسة بيت لحم التى فيها المغارة التى يقال إن المسيح ولد فيها ، فاللاتين كانوا يدعون حق الولاية على هذه الكنيسة بموجب فرامين بأيديهم ، وزعموا أن الأروام بدسائسهم لدى الدولة قد استولوا على حقوق لم تكن لهم من قبل ، وأخذوا مفاتيح كنيسة القيامة وبسطها وقناديلها بفرمان من السلطان محمود الأول . وزعم اللاتين أن السلطان سليمان الثانى كان خولهم هذه الحقوق سنة ١٦٩٠ فرجع الأروام واستردوا ما فقدوه فى سنة ١٧٥٧ ، ثم إن روسيا سنة ١٨٠٨ ساعدت الأروام

لدى الباب العالي فاستولوا على جميع الأماكن المقدسة تقريباً ، فبقيت فرنسا تحتاج على ذلك . سنة ١٨٥١ طلبت فرنسا من الدولة تأليف لجنة مختاطة لأجل النظر في الفرامين التي بأيدي اللاتين والروم ، وادعت الاستيلاء على كنيسة القيامة ، وعلى المكان الذي فيه مدافن ملوك الافرنج ، وعلى قبر العذراء ، وعلى كنيسة بيت لحم ، وغيرها .

فلما بلغ ذلك روسيا اعترضت على هذا الأمر وقدمت إلى الدولة مذكرة لوقبلها الباب العالي لكان ذلك اعترافاً منه بحماية روسيا لجميع المسيحيين الارثوذكسين فذلك رفض الباب العالي إجابة طلب روسيا ، فقطعت روسيا العلاقات مع الدولة وزحفت العساكر الروسية تحت قيادة البرنس « كورتشا كوف » فقطعت نهر الباروت بتسعين ألف ماش وعشرين ألف فارس ، وستة آلاف مدفعي ، فاحتل هذا الجيش الفلاح ، ومولدافيا ، وكانت الحصون العثمانية عند الطونة خراباً تقريباً ولكن كان عند الدولة قائد اسمه « عمر باشا النمساوي » أصله خرواطي كان من عظماء القواد فرمم تلك القلاع وجمع جيشاً جراراً وصد الروس وردّهم ، أما في آسيا فتقهقر العثمانيون إلى الورا ، وجاء أسطول روسي فأحرق أسطولا عثمانيا في ميناء « سينوب » وفي ذلك الوقت كانت انكلترا ترى من مصالحها توقيف روسيا على حدها خوفاً من استيلاء الروس على الأستانة ، وكان نابوليون الثالث إمبراطور فرنسا منقاداً إلى السياسة الانكليزية ، وكانت الامّة الافرنسية الكاثوليكية ترى أن الدولة العثمانية قبلت هذه الحرب مع روسيا من أجل عدم تسليمها حقوق اللاتين في القدس فلما أحرق الاسطول الروسي السفن العثمانية التي كانت في سينوب دخل الاسطول الانكليزي والاسطول الافرنسي من الدردنيل إلى الأستانة محافظة عليها من روسيا فأرسل نيقلولا الاول قيصر الروس يحتاج على هذه الحركة ، ونشر على شعبه منشوراً أشبه باعلان حرب على فرنسا وانكلترا ، فعقدت هاتان الدولتان محالفة هجومية دفاعية مع السلطان عبد المجيد في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ وكان تحت قيادة « عمر باشا » — وكان يقال له المرردار — مئة وثلاثون ألف نظامي ، وخمسون ألف

متطوع . وكان الجيش الروسى تحت قيادة البرنس « باسكيفتش » يبلغ مئة وتسعين الفا ، فهاجم الروس سيلسترية فدحرقهم العثمانيون عنها ، فتقهقروا على طول الخط . وأراد عمر باشا أن يجتاز نهر البروت إلا أنه كان الفرنسيين والانكليز قد عمدوا إلى نقل ميدان الحرب إلى القريم ، وقرروا حصار سيباستوبول فانتقل السردار عمر باشا إلى القريم ، وهناك جرت الوقائع الكبرى . ونارت بلاد اليونان انتصاراً للروسيا وتجاوز الاروام على الحدود العثمانية فانهزموا . واحتل جيش إفرنسى آثينا ، وأما فى القريم فانتصر الانكليز والفرنسيين والعثمانيون فى وقائع « آلمة » و « بالا كلاقة » و « انكرمان » و « ترا كثير » وافتتح عمر باشا « أوبانورية » عنوة . وفتح الحلفاء « برج مالا كوف » بعد معارك شديدة ، قيل إن الفرنسيين هناك فقدوا عشرة آلاف مقاتل . ودمرت أساطيل الحلفاء مرافق الروسيا فى البحر الاسود ودخلت أساطيلهم من البلطيك ، واستولوا على بومارسوند ، وانضم إلى فرنسا وانكلترة وتركيا فى هذه الحرب مملكة الساردوا ، والبيمونت ، فأرسلت ١٥ الف مقاتل ، فلما توالى هذه المصائب على الروسيا طلب القيصر نقولا الصالح ، فانعقد مؤتمر فى فينّا فى أول فبراير سنة ١٨٥٦ وتقررت فيه شروط الهدنة ، ثم انعقد مؤتمر الصالح فى باريز وكان الجانب الواحد هو فرنسا وانكلترة وتركيا ومملكة الساردوا ، والجانب الآخر الروسيا . وكانت بروسيا والنمسا كفيلتين ، وبهذه المعاهدة تقرر استقلال السلطنة العثمانية التام ، وعدم تدخل أية دولة فى شئونها الداخلية ، وذلك بموجب المادة التاسعة كما أنه بموجب المادة العاشرة تقرر عدم مرور السفن الحربية من الدردنيل ، وبحسب المادة الحادية عشرة تقرر حرية التجارة والملاحة فى البحر الاسود ، وكذلك بحسب المادة العشرين تقرر أن الروسيا تتخلى لمولدافيا عن قسم من بساراييا . ثم جعلت مصابطة الطونة تحت إشراف لجنة أوربية ، وبهذه المعاهدة جرى إلغاء حماية الروس على بلاد السرب ، والفلاخ ، ومولدافيا ، ورجعت هذه الامارات تحت سيادة الباب العالى وحماية أوربا . وبمقابلة معاهدة باريز هذه جددت الدولة العثمانية مآل خط كوخلخانه

من جهة إعلان المساواة التامة بين أصناف رعاياها ، ومن جهة حرية المذاهب وغير ذلك من الإصلاحات .

وفي ١٣ يوليو سنة ١٨٥٨ هجم بعض أهالي جدة بالحجاز على قنصل فرنسا ومعاون قنصل انكلترا فقتلوهما ، فجاء أسطول انكليزي إفرنسي فضرب البلدة بالقناير وفي سنة ١٨٦٠ جرت الوقائع التي سبقت الإشارة إليها بين الدروز والنصارى في جبل لبنان ، وكانت الدولة سكنت الأمور ، واستدعت زعماء الفريقين إلى بيروت ووقع الصلح بينهما ، إلا أن بعض الجهلاء في دمشق طمعاً بالذهب والسلب استفادوا من غفلة الحكومة فانقضوا على حارة النصارى وفجروا الدماء الغزيرة ، وارتكبوا الموبقات الكبيرة ظالماً وعدواناً ، فكانت هذه الحادثة المشثومة سبباً في احتلال جيش افرنسي لبيروت ولبنان تحت قيادة الجنرال « بوفور دوبول Beaufort D'haipoul » فأرسلت الدولة فؤاد باشا المشهور إلى سوريا ، فأخذ فؤاد باشا يضمّد جروح المسيحيين ووزّع عليهم تعويضات بالملايين ، وبحسن سياسته سكن الأمور وقتل عدداً من الجناة في حادثة دمشق يبلغ ١٣٠ ، ونفى كثيراً من العلماء والأعيان وفي مقدمتهم الشيخ عبد الله الحلبي مفتي الشام ، وقد كان نفيمهم لأجل السياسة لأنهم كانوا بالحقيقة أبرياء من كل ما وقع على المسيحيين .

وما رجع فؤاد باشا من سوريا إلى الأستانة إلا بعد أن استرجعت فرنسا عساكرها ، وكانت يومئذ انكلترا والنمسا مساعدتين لتركيا . وفي ٢٥ يوليو سنة ١٨٦١ توفي السلطان عبد المجيد ، وكان سلطاناً كريماً الأخلاق عادلاً حليماً متواضعاً ، وكانت الرعاية العثمانية من جميع الطبقات تحبه وتحترمه ، ولذلك أسف عليه الجميع .

السلطان عبد العزيز

وتولّى مكانه السلطان عبد العزيز . وفي زمانه لم تحصل حوادث تذكر سوى ثورة كريت التي قمعتها الدولة بالقوة ، والسلطان عبد العزيز هو أول سلطان زار أوروبا عند ما دعاه نابليون الثالث سنة ١٨٦٧ إلى معرض باريز مع سائر الملوك ، وفي زمانه

أيضاً جرى خرق بوغاز السويس بواسطة شركة افرنسية يرأسها المسيو « داليسبس » وذهب السلطان عبد العزيز بنفسه إلى مصر ، وكان السلطان عبد العزيز سليم الطوية جسوراً إلا أنه كان مسرفاً ترك على الدولة ديونا كثيرة . على أن من أهم مآثره اعتناؤه بالأسطول ، ففي زمانه كان للدولة قوة بحرية عظيمة ، وكانت هي الدولة الثالثة في البحر ، وقد كان في أيامه من رجال الدولة « مدحت باشا » وكان مولماً بالحرية ، فلما بواسطته حزب الأحرار ، وصاروا يتحدثون بخلع السلطان لكثرة اسرافه واستمالوا إليهم السر عسكر « حسين عوني باشا » ودبروا على السلطان مكيدة فاتفقوا مع ناظر البحرية وأتوا بالأسطول فرسا أمام سراي طوليه بفجعه ، بينما العساكر كانت تحيط بالسراي من جهة البر ، ثم أدخلوا على السلطان من أبلغه أن الأمة خلعتة . فأراد السلطان أن يستخف بهذا الموضوع فأطاعوه على العساكر المحيطة بالقصر من جهتي البر والبحر ، وأنزلوه من السراي ووضعوه في قصر آخر .

السلطان مراد

و بايعوا السلطان مراد كبير أولاد السلطان عبد المجيد ، وما مضى عدة أيام على خلع السلطان عبد العزيز حتى وُجد في قصره قتيلا ، فذهب الناس إلى أنه قُتل بأيدي هؤلاء الذين خلعوه . وليس ذلك بصحيح ؛ بل كان الخلع فجأة قد أثر جداً في عقل السلطان ، فتناول مقراضا وقطع به عروق زنده فسال دمه إلى أن مات .

وكان ضابط اسمه « حسن الشركسي » شقيقاً لاحدى نساء السلطان ، فجاء إلى الباب العالي ودخل على مجلس الوزراء فاغتال السر عسكر حسين عوني باشا وناظر البحرية أحمد باشا القيصرلى ، وراشد باشا ناظر الخارجية وكان مراده قتل مدحت باشا ولكن هذا فرّ ونجا بأعجوبة ، فجاء الجند ولم يتمكنوا من القبض على حسن الشركسي إلا بقتله . وأما السلطان مراد فما مضت عليه إلا ثلاثة أشهر في السلطنة حتى حصل له اختلاط في عقله ، فاتفق رجال الدولة على إقصائه عن السلطنة ونصب أخيه السلطان عبد المجيد مكانه .

السلطان عبد الحميد الثانى

وكان ذلك سنة ١٢٩٤ هجرية . وكانت فى أواخر مدة السلطان عبد العزيز قد نجمت قرون الثورة فى البلقان ، وكانت بدايتها فى الهرسك ، وكان على رأسها « قره جيورجيو فتش » من ذرية قره جورج الذى تقدم الكلام عليه وهو جد ملك يوغوسلافيا الحالى . ثم امتدت الثورة الى بلاد السرب فأرسلت الدولة جيشا للتنكيل بالمعصاة ، فاتسعت الثورة وكان مراد السريين أن يستقلوا استقلالاً تاماً ولا يؤدوا جزية للسلطان .

فساقت الدولة جيشاً بقيادة عثمان باشا الذى صار فيها بعد يلقب بالغازى ، فهزم السريين ودوّخت الدولة جميع ثوار البلقان من بلغاروسرب ، وهرسك . وكانت روسيا تظاهر الثائرين كما لا يخفى ، فلما سحقتهم العساكر العثمانية أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية . وهذه الحادثة تشبه كثيراً إعلان روسيا الحرب على النمسا عند ماساقت النمسا جيشها على السرب فى أول الحرب العامة ، أى أن روسيا كانت دائماً ترى نفسها مرجعاً للأمم السلافية ، ولا سيما الأمم السلافية الارثوذكسية ، فأما السلافيون الكاثوليكيون فلم يكونوا يرجعون إليها . فكانت بداية سلطنة عبد الحميد الثانى هي بالحرب مع روسيا ، ونظراً لكون تاريخ هذه الحرب معلوماً وعليه تأليف كبير بالفرنسية « La Puerre Russo turque » فاننا لا نجد لزوماً للتطويل فى شأنها ، ولا للأسباب فى تاريخ سلطنة عبد الحميد ، لأن حوادث أيامه معروفة مشهورة وقد كُتِبَ عنها بكل اللغات . فالحرب الروسية التركية جاءت وبالاً على الدولة إذ أن الروسية فى القرن الأخير قد نمت نمواً زائداً فصار عدد سكانها يفوق عدد سكان السلطنة العثمانية أربع مرات بالأقل ، وكانت البلاد البلقانية من سرب وبلغاروفلاخين وأروام يداً واحدة مع روسيا ، ولم تكن هذه الأسباب وحدها كافية للفشل الذى حل بالجيش العثماني ، بل حصل خطأ كثير فى التدبير العسكرى ، وكانت لوازم الجيش ناقصة كما هو شأن الدولة فى حروبها فى العهد الأخير ، وتدخل السلطان كثيراً

في أمور الحرب بدون معرفة . وخلاصة القول أن الروس عبروا نهر الطونة وتقدموا ظافرين وصار الجيش العثماني بقيادة السردار عبد الكريم باشا يرجع إلى الورا . وكادت الحرب تنتهي بفشل تام للعثمانيين ، وإذا بعثمان باشا قاهر السرب جاء ودخل في قلعة بلاقنة واعتصم بها ، فجمع الروس جيوشهم وصمدوا إليه فكسروهم كسرة شنيعة فأعادوا الكرة عليه أولا وثانيا وفي كل مرة كان يهزمهم ، وفي إحدى المرات فقدوا خمسة عشر ألف عسكري ، ورجعت الحرب تبشر بحسن مآل العثمانيين ، ولكن عثمان باشا لم يبقَ عنده وهو محصور من كل الجهات ذخائر تساعد على الثبات ، وجاء قيصر روسيا اسكندر الثاني بنفسه واستصرخ إمارة رومانيا - أي الفلاخ - ومولدافيا وذلك باسم النصرانية قائلا : إنها كلها تحت الخطر ، فأنجده الرومانيون بسبعين ألف عسكري انضافت هذه إلى الجيش الروسي المحاصر لثمان باشا في بلاقنة . ومع هذا فلولا نفاق الذخيرة لم تكن تلك الجيوش كلها لتغلب على عثمان باشا ، وفي آخر وقعة أراد عثمان باشا أن يخرق جيوش الروس برغم كثافتها وينفذ إلى الخارج ، فوقع جريحا فاضطر إلى النكوص نحو بلاقنة وعرض على أمبراطور روسيا الاستسلام ، ولما دخل عليه وأراد أن يسلمه سيفه كما هي عادة كل المستسلمين قال له الأمبراطور : إن قائدًا مثلك يحق له أن يُبقي سيفه معه ، وبالغ القيصر في إكرامه .

و بعد تسليم بلاقنة زحفت جيوش الروس إلى الأستانة واحتلت أدرنة ، ووصلت إلى سان استفانو ؛ وكان العثمانيون قد أعدوا جيشا للدفاع عن الأستانة إلا أنهم كانوا يخشون أن تدور عليهم الدائرة بكثرة جيوش الروس ، فأما من جهة القوقاس فكان القائد الكبير أحمد مختار باشا الغازي قد انتصر على الروس في وقعة « كدكار » وتقدم إلى الأمام ، ولكن الروس عادوا فتغلبوا عليه بتفوقهم في العدد ، وكان درويش باشا قائد الجيش العثماني المرابط في باطوم تحت الحصار ، فهاجمه الروس مراراً فدحر جميع مهاجماتهم ، وانتهت الحرب و باطوم في يده ، هذا وعند ما وصل الغراندوق نقولا إلى سان استفانو طلب السلطان عبد الحميد الصلح ، فاشتترطت روسيا شروطا ثقيلة جداً التزمت الدولة العثمانية أن تقبلها خوفا على الأستانة من السقوط ، إلا أن الانكليز وجدوا

الصالح على هذه الشروط عبارة عن استيلاء روسيا القريب على ساطنة آل عثمان ووصولهم إلى البحر المتوسط ، فاعترضوا روسيا ودخل أسطولهم إلى الأستانة وأجبروا الروس على تمزيق المعاهدة ، وفاوضوا الدول السبع في عقد معاهدة ثانية بدلا عن معاهدة «سان استفانو» . فتقرر عقد مؤتمر برلين المشهور ، واتفقت الدول هناك على أن تكون إمارة رومانيا مملكة مستقلة تماما عن السلطنة العثمانية ، وأن تستقل تماما أيضا إمارة السرب ويسمى أميرها « ميلان أونوفتش » ملكا عليها ، وأن يستقل الجبل الأسود ويعطى قسما من بلاد الأرناؤوط ، وأن تضاف تساليا وأبيروس إلى اليونان ، وأن تكون بلاد البلغار إمارة تحت سيادة السلطان ويليهما ولاية ممتازة . ومن جهة آسيا تضاف قارص وأردهان وباطوم وتوابعها إلى روسيا ؛ وأن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية وتعويضات لتجار الروس الذين لحقهم خسائر بسبب تدمير الأسطول العثماني لسواحل روسيا ، وهذا هو مجمل معاهدة برلين ، وبعد ذلك اتفقت الدولة مع انكلترة على أن تتخلى لها عن قبرص ، وتؤدى انكلترة للدولة خراجاً سنوياً عن هذه الجزيرة ، وبمقابلة هذا التخلي تعهدت انكلترة للدولة بأنه إن تجاوزت روسيا على حدود تركيا من جهة آسيا تكون انكلترة مساعدة لها ثم تقرر بموجب «معاهدة برلين» هذه أن تحتل النمسا ولايتي بوسنة والهرسك احتلالاً مؤقتاً ، ولما دخلت الجيوش النمساوية هاتين الولايتين ثار في وجهها مسلمو تلك البلاد وبقيت المعارك بين الفريقين مدة أربعة أشهر ، ولم يساعدهم الأهالي السرييون في شيء بل انحصرت المقاومة في المسلمين . وكذلك ثار الارناؤوط في وجه الجبل الاسود وأبوا أن يلتحق من بلادهم شيء بمحكومة الجبل المذكور . وكان الشركس والطاغستانيون ثاروا على الروس في أثناء الحرب بين الدولة وروسيا ، فلما انكسرت الدولة هاجر منهم مئات الوف إلى الأناضول . وبعد مضي عدة سنوات على معاهدة برلين شن اسكندر أمير البلغار الغارة على ولاية الروملية الشرقية ، وألحقها بامارة البلغار ، فصارت الولايتان واحداً ، وفكر السلطان عبد الحميد في سوق جيش لارجاع الشيء إلى

ما كان عليه ، إلا أن كامل باشا أشار بعدم الحرب ، و باقرار هذه المسألة ، فأعجب رأييه السلطان وجعله صدرًا أعظم .

ولما رأت فرنسا ما حل بالدولة العثمانية من الضعف أرادت أن تستغل ضعفها بالاستيلاء على تونس ، فلم يصعب عليها أن توجد لذلك سبباً ، وشتت الفارة على تونس ، وأجبرت باى تونس محمد الصادق على إمضاء معاهدة تضمن لتونس استقلالها الداخلى تحت حماية فرنسا ، وكان ذلك سنة ١٨٧٩ واحتجت الدولة على ذلك ولكنها لم تقدر على محاربة فرنسا من أجل تونس . وزعمت فرنسا بأنه جاء وقت على تونس لم يكن فيه للباب العالى عليها إلا سيادة إسمية ، وثار بعض الاهالى والجند التونسى بقيادة على بن خليفة ولكن لعدم تكافؤ القوتين انتهت الثورة بتغلب الفرنسيين كما حصل فى الجزائر من قبل ولو لم تحتل فرنسا بلدة الجزائر لم تكن لتستولى على المغرب الأوسط كله العمالات الثلاث ؛ الجزائر ، ووهران ، وقسنطينة ، ثم إنه بقيت فرنسا خمسين سنة تقاثل أهل الجزائر حتى أدخلتهم فى الطاعة . فلما انتهت منهم بدأت تفكر فى الاستيلاء على تونس ، ولما انتهت من خطب تونس بدأت تفكر فى الاستيلاء على المغرب الأقصى ، ولما رأت إيطاليا أن فرنسا استأثرت بهذه الممالك الثلاث من دونها اعترضت على فرنسا من جهة ، واعترضت على انسكلترة من جهة أخرى وقالت لهما : إنكما تقاسمتما قارة إفريقيا ، فمصر والسودان لانسكلترة ، وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وأواسط أفريقيا لفرنسا ، ولم تدع لإيطاليا شيئاً ! . فاتفقت هذه الدول الثلاث على أن تكون لايطاليا ولاية طرابلس مع برقة ، ومن هنا جاءت حرب طرابلس ، وهكذا الاستعمار سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض . ومن تساهل فى أمر ملكه فى البداية خوفاً من شر أعظم فانه لا يلبث أن يقع فى أعظم من الشر الذى تفاداه . وكذلك احتلال الانكليز لمصر كان نتيجة وقوع تركيا فى الضعف لئذى كانت روسيا هى السبب فيه .

واذا نظرنا إلى حروب روسيا نجد أنها كانت تقدم رجالها وأموالها ، وتنفق النفائس والأنفس فى سبيل غيرها ، فاستقلال اليونان ، والجبل الأسود ، والسرب

والبغا، والرومانيين واحتلال النمسا للبوسنة والمهرسك، واستيلاء فرنسا على تونس واحتلال الانكليز لوادي النيل والسودان، واحتلال إيطاليا للاريتري ثم لطرابلس وبسط انكلترا حمايتها على لحج وحضرموت، وظفار، وسلطنة عمان، وجزيرة البحرين، ومدينة الكويت، ونزولها في جزيرة قبرص، كل ذلك كان من نتائج الضعف الذي أوقعته روسيا بتركيا، فالروسيا كانت تطبخ والآخرون كانوا يأكلون وفي زمن السلطان عبد الحميد وقعت الحادثة الجلي وهي احتلال الانجليز لمصر وبسببها نفر السلطان من انكلترا نفوراً شديداً، وصار الانكليز يعملون بكل الوسائل لهدم بنيان السلطنة العثمانية. وقد تقدم لنا في هذا التاريخ أن عيون الانكليز كانت طامحة إلى مصر منذ قرون، وأنها على أثر خروج الفرنسيين من مصر أرادوا أن يستأثروا هم بها، ولكن محمد علي لم يكن كالماليك، فأجبر الانكليز على الخروج من مصر وبقيت انكلترا تترصد الفرصة لاحتلال وادي النيل في أول فرصة، لا سيما بعد فتح برزخ السويس الذي جعل طريق الهند على مصر.

وكان انكلترا استأجرت قبرص من الدول العثمانية لتكون لها قاعدة بحرية في وجه مصر، وقد حدث أن الجيش المصري كان فيه عنصران؛ أحدهما عربي مصري والآخر تركي وشركسي، فحصل خلاف بين العنصرين لم يعرف العقلاء أن يتداركوه ولا حسبوا حساباً للعواقب، فنشأ عن هذا الخلاف حزب وطني مصري ترأسه الميرالاي « أحمد عرابي » وصار هذا الحزب يطالب بحقوق المصريين الاقحاح ووقف موقفاً مناوئاً للخديوي توفيق باشا. فشعر الانكليز بأن هناك حركة يمكنهم أن يستفيدوا منها، فأخذوا يتدخلون فيها بحجة أن لهم مصالح مالية في مصر يخشون عليها، وكانت أمنيتهم إنما هي إحداث ثورة في مصر يتمكنون بسببها من الاحتلال، وتحقيق تلك الأمنية القديمة وهي الاستيلاء على الديار المصرية. فأعملوا في هذا الموضوع جميع الدسائس التي اشتهروا بها، ولم تكن شهرتهم فيها بدون أساس. فأخذ الحزب الوطني ينمو تحت زعامة عرابي ومحمود سامي وغيرها من الزعماء، وانقلب عن أصله قبلًا من أن يكون منحصرًا في دائرة ضيقة مناوئًا للأتراك والشركس، أصبح حزبًا هدفه

الأسمى كسر نفوذ الأوربيين في مصر ، لأن نفوذهم كان بلغ في زمن اسماعيل باشا مبلغاً لا يكاد يتصوره العقل ؛ فان اسماعيل وضع نصب عينيه إدخال مصر في المدنية العصرية الأوربية ، وظن أن من لوازم هذا المبدأ ترغيب الأوربيين في السكنى بمصر وتمييزهم على الأهالي في كل شيء ، فانتهى الأمر بأن أصبح الأهالي في حكم العبيد للأجانب .

فلما تألف هذا الحزب الوطنى نظر إلى حالة البلاد فوجدها أصبحت لا تطاق من جهة النفوذ الأوربى ، فترك مناوأة الترك والشركس واتحد معهم على مناوأة الأفرنج ، وأخذ الانكليز يشعلون النار حتى يحدثوا ثورة من المصريين على الأوربيين وكان السلطان عبد الحميد قد ارتكب هو وأعوانه خطأ كبيراً ساعد الانكليز في الوصول إلى مرامهم ، وذلك أنه أخذ يقوى الحركة العرابية بطريق غير مباشرة على أمل إسقاط الخديوى توفيق وعائلة محمد على كلها ، وإعادة مصر ولاية عثمانية كسائر الولايات ، وكان هذا رأياً سقيماً جداً . إذ لا يعقل أن الدولة بمكانها من الضعف وكثرة المشكلات والخطوب تفتح على نفسها أبواباً كهذه يتعذر عليها سدها فيما بعد وتجعل العائلة الخديوية ضد الدولة أحوج ما كان الفريقين إلى الوثام لما هناك من الخطر الأجنبى على الاثنين ، ثم إنه لما شعر الأجانب بأن الحركة العرابية منظور إليها بعين الرضا فى الأستانة ، طلبوا من السلطان أن يصدر فرماناً بعصيان عرابى باشا ولم يسمعه إلاّ إجابة طلبهم فبعد أن كانت سياسة الأستانة مشجعة للعرايين على العصيان رجعت تحت الضغط الأجنبى إلى تقوية الخديوى وكسر نفوذ العرايين بحيث انقض عنهم كثيرون بحجة أن السلطان الخليفة أعلن عصيانه .

ومع هذا فبقيت الثورة تمتد وتشتد حتى جرت مذبحة الاسكندرية ، وذهب فيها كثير من الأجانب ، وانتشرت الفوضى في البلاد ، وهذا الذى كانت انكلترة تتمناه حتى تدخل من هذا الباب وهو حماية أرواح الأجانب ، وبالفعل دخلت منه وجاء الأسطول الانكليزى فضرب الاسكندرية ودمّر قلاعها بالقنابر ، ثم بعد تدميرها نزلت العساكر الانكليزية إلى البلدة ، ثم وقعت الحرب بين الانكليز والعرايين

وكان الانكليز في ظاهر الحال يحاربون باسم الخديوى والسلطة الشرعية .
وانقسم الناس في مصر الى قسمين ؛ منهم من استمسك بالخديوى وقاوم العرايين
بحجة أنهم خارجون عن السلطة الشرعية ، ومنهم من انحاز إلى العرايين بحجة أنهم
المدافعون عن الوطن ، وحشد العرايون جيشاً في التل الكبير وصمموا على المقاومة
هناك فزحف إليهم الانكليز وبددوا شملهم في أقل من ساعتين ، ثم سارت العساكر
الانكليزية ودخلت القاهرة ، وكل هذا بزعمهم على نية تأييد الخديوى ، والرجوع
من حيث أتوا ، ولبت الجيش الانكليزي مدة من الزمن في مصر بحجة توطيد سلطة
الخديوى المتزعزعة ، فكلمنا طالبت الدولة الانكليز بالجلء عن مصر كان جوابهم
إن هذا يكون بعد توطيد الأمن ، وتمكين الخديوى وكيل السلطان الشرعى . ثم
أنهم عقدوا مجالس عسكرية ، وحاكموا العرايين ، ونفوا عرابى باشا ومحمود سامى باشا
وعددا من الباشوات إلى جزيرة سيلان في الهند ، كما أنهم نفوا عدداً من الضباط
الكبار إلى بيروت ، ونفوا أيضاً معهم إليها الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقانى
وغيرهما من الوطنيين أصحاب الأقلام ، وطال مكث الانكليز في مصر والباب العالى
يعترض عليهم ويطلب جلءهم بحسب وعدهم ، حتى أنهم أحصوا مواعيدهم الرسمية
بالجلء فبلغت اثنين وستين وعداً نكثوا بها كلها ! وكان احتلال الانكليز لوادى النيل
سنة ١٨٨٢ و بعد أخذ ورد طويلين بين انكلترة والباب العالى وصل الفريقان إلى
اتفاق على الجلء شاترط فيه انكلترة حق احتلالها لمصر فيما إذا تجددت فيها حوادث
مخلّة بالأمن ، أو وقائع ذات خطر على حياة الأوربيين ، وكاد السلطان عبد الحميد
يوقع على هذا الاتفاق ، إلا أن فرنسا ألحت عليه برفضه فامتنع في آخر ساعة من
التوقيع عليه .

وكان مراد فرنسا الحقيقى أن تتفق هى رأساً مع انكلترة فتترك منازعتها على
مصر بمقابلة تخلى انكلترة عن منازعتها إياها على مراکش ، وهكذا تم بينهما فيما بعد
وأصبحت انكلترة في مصر لا ينازعها سوى الدولة العثمانية التى كانت مشكلاتها الكثيرة
وعداوتها مع روسيا تقيدها تقييداً شديداً عن الاندفاع فى عداوة انكلترة . وأما فرنسا

فبطل اعتراضها على انكلترة في احتلال مصر بمقابلة سكوت انكلترة عن احتلال فرنسا للمغرب .

وبقيت الحال على غير استواء بين انكلترة والدولة العثمانية مدة سلطنة عبدالحميد كلها ، وذلك كله بسبب مصر ، وكان السلطان قد أرسل إلى مصر الغازي مختار باشا مندوباً من قبله للملاحظة مصالح الدولة ، وكان المصريون يجلبون مختار باشا مزيد الاجلال باعتبار تمثيله للسلطان الخليفة ، وأيضاً بسبب كونه في نفسه قائداً عظيماً ، وعالماً كبيراً ، ولكن الانجليز لم يجمعوا له سبيلاً لأى تدخل في أمور مصر ، ووضعوا هناك مسيطراً على مصر السر « اقلين بارنغ » الذي لقبوه فيما بعد « بالورد كرومر » . وكان هذا الرجل شديد الفطرسه ، متكبراً فظاً ، وله عداوة خاصة للإسلام ، فتصرف بأمور مصر كما لو كانت إحدى مستعمرات انكلترة ، وفي زمانه ثار السودانيون تحت قيادة محمد احمد الذي لقب نفسه « بالمهدى » فقالوا له المتهمدى ، وانقضوا على العسكر المصري الانجليزى الذى كان يقوده « غوردون باشا » فاستأصلوه ، وكان عدده عشرة آلاف جندي . واستولى المهدى على السودان واتقطع الحكم الانجليزى المصرى من هناك ، ومات المهدى خلفه « التعايشى » وكان هذا ظالماً عاتياً جبّاراً ، فأسرف في سفك الدماء ، وأفنى كثيراً من الخلق فتغيرت عليه قلوب الإهالى وصاروا يريدون التخلص منه .

وفي ذلك الوقت قرر الانكليز استرجاع السودان ، فجهزوا جيشاً مصرياً عهدوا بقياداته إلى ضباط منهم ، وأنفقوا على الحملة من خزانة مصر ، وفتحوا السودان ولكن بدلا من أن يردوه إلى مصر كما كان جعلوا الحكم مشتركاً بينهم وبين المصريين - بزعمهم - والحقيقة أنهم جعلوا شركة لمصر بالاسم فقط ، ورفع العلم المصرى ، وقبضوا على كل شىء ، وتصرفوا بكل شىء كما يشاؤون . وهم الذين أذنوا لاطاليا في احتلال مصوع ، وعصب ، والاستيلاء على بلاد عثمانية واسعة كانت تحت إدارة الحكومة المصرية ، ولما احتل الانكليز مصر كانت الحكومة المصرية تدير من قبل الدولة

شمالى بلاد الحجاز ، ففى الحال فطن والى الحجاز لمغبة هذا الأمر ، وأخرج قضاء الوجه من تحت الادارة المصرية .

ولكنه بقى فى يد مصر القسم الأكبر من شبه جزيرة سيناء ، فأراد العثمانيون إجراء تحصينات فى القلاع التى إلى الغرب من العقبة ، فاعترضت انكلترة على الدولة فى ذلك ، فأصر السلطان على التصرف ببلادها بحجة أنها بأجمعها بلاد عثمانية ، فاستبد الانكليز فى هذه المسألة استبداداً شنيعاً ، وأنذروا الدولة بالحرب . وكان مصر أصبحت فى نظرهم من جملة الأمبراطورية البريطانية ، فازداد السلطان عبد الحميد شغلاً لبريطانيا العظمى ، وكان ذلك من جملة أسباب موالاته لألمانيا . وانعقدت بينه وبين الأمبراطور غليوم الثانى مودة أكيدة صارت تزداد بمرور الايام ؛ وعول السلطان على ألمانيا فى تدريب جيشه ، واستدعى « فون غولتس » من قواد ألمانيا ليكون على رأس المدرسة العسكرية فى الأستانة واستجاد غيره من أهل العلم والصنعة فى ألمانيا واستخدمهم فى حكومته . وكان يرسل كل سنة عدداً كبيراً من الطلبة إلى ألمانيا ، وبقى السلطان عبد الحميد صديقاً للأمبراطور غليوم إلى نهاية ملكه .

ولما أعلن الدستور العثمانى وصار الأمر إلى جمعية الاتحاد والترقى ، ظن رجال هذه الجمعية أنهم يتركون صداقة ألمانيا التى كانت تعتمد على السلطان عبد الحميد وتنال بواسطته الامتيازات فى تركيا ، ومن جملتها سكة حديد بغداد ، رأوا أن يرجعوا إلى صداقة انكلترة ، وأخذوا يتزلفون الى هذه ويذكرونها بالصحة القديمة يوم كانت انكلترة تساعد العثمانيين على الروس ، ويوم كان السلطان عبد الحميد فى ثورة الهند الكبرى يخاطب مسلمى الهند ناصحاً لهم بعدم الاشتراك مع الهنادك فى محاربة الانكليز ، إلا أن المسألة المصرية منعت كل تقارب بين العثمانيين والانكليز وما مضت ثلاثة أشهر على حكم الاتحاديين فى تركيا حتى رجع الاتحاديون وأدركوا أن لا أمل فى عطف الانكليز وعادوا أصدقاء لألمانيا كما كان السلطان عبد الحميد وبقيت الاحوال بين تركيا وانكلترة مُشربة بروح العداوة إلى الحرب العامة أى كانت قد بدأت العداوة بين انكلترة وتركيا من سنة ١٨٨٢ ، لأجل مصر

واستمرت إلى ١٩١٤ أى إلى سنة الحرب العامة وهى مدة اثنتى وثلاثين سنة . وذلك كله بسبب احتلال الانكليز لمصر والسودان وتوابعهما . ثم خاضت الدولة غمرات الحرب العامة إلى جانب ألمانيا نفوراً من إنجلترا ، ولما بدأت الحرب الكبرى وحاولت دول الحلفاء روسيا وفرنسا وإنجلترا إقناع الدولة العثمانية باجتناّب الحرب ؛ كان أول شرط اقترحه رجال الدولة هو إخلاء الانجليز لمصر ، وكان الأتراك مستعدين أن يقبلوا التحالف مع الانجليز إذا أراد هؤلاء إخلاء مصر ، فلم يقبل الانجليز أن يسمعوا كلمة واحدة فى هذا الموضوع .

وعند ما دخلت الدولة فى الحرب العامة أعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، وخلصت الخديوى عباس حلمى المنصوب بفرمان سلطانى ، ونصبت عمه الأمير حسين بن اسماعيل سلطاناً على مصر ، وأرادت تجنيد جيش من المصريين لقتال الأتراك فاعترض على ذلك السلطان حسين نفسه لأنه كان وطنياً سادقاً ، ورضى بعض زعماء مصر بالدخول فى الحرب إلى جانب إنجلترا على شريطة أن إنجلترا تعترف باستقلال مصر وتخلي وادى النيل فرفضت إنجلترا هذا الطلب أيضاً وأصرّت على إرادتها وسأقت من المصريين عشرات الألوف استخدمتهم فى جيوشها ، وتصرفت برجال مصر وأحوال مصر كما تتصرف بالهند أو بغيرها من المستعمرات الانجليزية .

وكانت إنجلترا لا تفكر أصلاً أن تلقى شيئاً من القوة الحيوية التى ظهرت من السلطنة العثمانية فى أيام الحرب الكبرى ، ولكن عند ما حى الوطيس ورأت دول الحلفاء مارأته من قوة تركيا ، وعظمة المقام الذى قامته بجانب ألمانيا ؛ علمت خطل رأيها وكونها استخفت بتركيا استخفافاً دلت الحوادث على أنه لم يكن فى محله . ففكر قواد الانجليز فى اختراق الدردنيل والاستيلاء على الأستانة ، وعبأ الحلفاء جيشاً جراراً وأرسلوا أساطيلهم وحاولوا عبور مضيق الدردنيل ، فقاتلهم العثمانيون قتالاً شديداً وأغرقوا جانباً من بوارجهم ، فأتوا بجيوش أخرى وأنزلوها فى البر وحاولوا التقدم إلى الأمام ، فصادمهم الترك بشدة استبسلوا فيها إلى أقصى ما يتصور العقل . واستمرت

حرب الدردنيل هذه ثمانية أشهر والحلفاء يكرون والعثمانيون يصدونهم إلى أن قطع الحلفاء كل أمل من الفوز وركبوا بوارجهم خائبين ، وقد فقدوا بين قتيل وجريح ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف جندي حسبما قرأت في وثائق الحرب الكبرى المطبوعة في باريز ، وفيها أن هذا العدد هو خسائر الجنود البرية ، ولم يدخل فيه عدة آلاف من خسائر الأساطيل ، وقد جاء في هذا الكتاب أن بعض البوارج التي أغرقها العثمانيون بمدافعهم لم ينجح من بحريتها إلا عشرون جندياً لا غير ، وقد كانت حرب الدردنيل هذه هي ألمع صفحة من تاريخ العثمانيين في الحرب الكبرى ، كما كانت حرب بلقنة ألمع صفحة من تاريخ الحرب الروسية التركية . وتعادل خسائر العثمانيين في حرب الدردنيل بمئتي ألف مقاتل بين قتيل وجريح .

ولما رأت إنجلترا بعينها أن حساباتها من جهة تركيا وقوة مقاومتها كان أكثره خطأ ؛ عادت ففكرت في فصل العرب عن الترك حتى تشغل العثمانيين بعضهم ببعض وقد كان الشريف حسين بن علي ، أمير مكة قبيل الحرب الكبرى داخل الانكليز في عقد محالفة معهم على أن يثور على الدولة وتمده انكلترة بالمال والسلاح إلى أن تستقل البلاد العربية وتنفصل عن تركيا ، فرفضت انكلترة اقتراح أمير مكة هذا استخفافاً بالقوة العربية ، واعتماداً على أنها لا تحتاج إلى العرب في القضاء على تركيا إذا نشبت الحرب ، وكان معلوماً أن الحرب العامة ستقع لاحالة ، ولذلك اتفق الانجليز والفرنسيين على اقتسام سورية وفلسطين منذ سنة ١٩١٢ ، أي قبل الحرب العامة بسنتين . وهذا من أوضح الدلائل على كون دول الحلفاء كانت تتأهب لقتال ألمانيا ولاقتسام تركيا بعد تغلبهم على ألمانيا ، وأيضاً يستدل على تلك النية التي كانت عندهن بأن تركيا في أول الحرب العامة عند ما صار الحلفاء يراودونها على عدم الدخول في الحرب أجابتهم بأنها لا تقدر أن تبقى على الحياد التام خوفاً من أن يتفق الجميع عليها ويتصالحوا على ظهرها ، فهي إن لم تدخل في الحرب إلى جانب ألمانيا ، فلا بد لها من الدخول في الحرب إلى جانب الحلفاء تحت محالفة تعقد بينهم وبين تركيا . فرفضت انكلترة هذا الاقتراح ، ولم تجد من حاجة إلى عقد محالفة مع تركيا قد تمنعها فيما بعد

من الاستيلاء على البلاد العربية . وهذا مثل رفضها للتحالف مع مصر والسبب نفسه وكذلك مثل رفضها للتحالف مع إيران والسبب نفسه ، أى حتى لا تضطر إلى الاعتراف باستقلال هذه الممالك الإسلامية التى كان الانجليز وضعوا نصب أعينهم القضاء عليها .

ونعود إلى أخبار السلطان عبد الحميد فقول : إن من أهم الحوادث التى جرت فى أيام هذا السلطان هو فتنة الأرمن ، وهذه الفتنة أساسها أن الأرمن كانت لهم فى الأعمار القديمة دولة ، وكان لهم استقلال ، وكانت مملكتهم واقعة فى شرق الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية ، ولما استولى الأتراك على تلك البلاد فى أيام الأتراك السلاجقة ، وبعد واقعة ملازكرد التى وقع فيها قيصر القسطنطينية أسيراً رحل منهم جانب إلى غربى الأناضول ، وأقاموا فى جبال طوروس وفى سهول كيليكية . وكانت لهم هناك إمارات لعبت أدواراً فى الحروب الصليبية ، ومساء كانوا فى شرق الأناضول أو فى غربيه ، لم تكن لهم أكترية عدد بالنسبة إلى السكان المسلمين . وإذا وجدت منهم جماعة فى مقاطعة صغيرة كانت أكثر من غيرها فلم يكن ذلك ليقم لهم ملكاً مستقلاً ، وقد كانت الدولة العثمانية أحصت عددهم فى جميع بلادها فكانوا لا يزيدون على ثلاثة ملايين مبعثرة ما بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين مليوناً من الأمم الأخرى . ففى بعض الولايات كانوا خمسة فى المائة ، وفى بعضها عشرة فى المائة .

وأكثر الولايات سكاناً من الأرمن كانت ولايات موش ، وبتليس ، فى شرق الأناضول وكانوا هناك خمسة وثلاثين فى المائة ، وبرغم هذا كله كانوا يزعمون أن لهم حقاً فى الاستقلال كما استقل اليونان ، والبلغار ، والسربيون ، والفلاحيون وغيرهم من الأمم المسيحية التى كانت خاضعة لسلطنة آل عثمان . ولكن هذا قياس مع الفارق ، فإن الفلاحيين والبغدانيين كانوا عدة ملايين من أمة واحدة ، وعلى حدود روسيا ولم يكن بينهم إلا مئتان أو ثلاثمائة ألف من الترك ، وإن السربيين كانوا مليوني نسمة ، وليس بينهم سوى بضعة عشر ألف مسلم . وكذلك البلغار كانوا خمسة

ملايين وليس بينهم سوى مليون من الأتراك ، وكان اليونان من قبل أكثر من مليون في بلادهم وليس بينهم إلا مائتان أو ثلاثمائة ألف من المسلمين . فذلك تيسر لهذه الأمم أن تقوم وتدعى الاستقلال ، وتقاتل الدولة العثمانية قتالا لم يكن يخمد حتى يشتعل ، واستمر ذلك مئات من السنين ، فانتهى الأمر بانسلاخ هذه الأقوام عن السلطنة العثمانية بمساعدة أوربا .

فأما الأرمن فلم يكونوا في أوربا مثل اليونان ، ولا البلغار ، ولا السرب ، ولا الرومانيين ، ولم يكونوا مجتمعين في ولاية واحدة حتى تتألف منهم كتلة تستحق الاستقلال ، وإنما كانوا مشتتين في جميع ولايات السلطنة ، وكانوا في كل مكان هم الأقلية ، ولم يكن سائر السكان من أتراك وأكراد يقبلون الخضوع للأرمن . فلهذا كان ادعائهم الاستقلال غير وارد ولا من جهة ، وكان بينه وبين إمكانه فعلا بون شاسع . وهذا ما قد كان يدركه قدماء الأرمن ، فذلك كانوا وطنوا أنفسهم على الارتباط بالدولة العثمانية التي كانت تعتمد عليهم ، وتستخدم كثيراً منهم حتى في المناصب العالية . وفي ظلها نما عددهم ، وازدادت ثروتهم ، ولما كانوا هم أهل جد ونشاط ، وإقدام على الأعمال ؛ كان كثير من مرافق السلطنة في أيديهم ، وأينما توجه الانسان في البلاد العثمانية كان يجد على الأرمن آثار النعم . وكانت الدولة تثق بهم وكان الأتراك يخطونهم بأنفسهم ، ويسمون الأرمن « الملة الصادقة »

واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بدأ الضعف في السلطنة العثمانية ، فصار الأرمن يرفعون رؤوسهم وينتهزون الفرص من خطوط الدولة ليطلبوا بتجديد ملكهم القديم ، وإن كانت قد درست معالم ذلك الملك ، وكانوا هم تفرقوا شذروا مذر وزاد هذا الادعاء عندهم أنهم أخذوا يرسلون أولادهم لتحصيل العلم في أوربا وأمريكا فجميع هؤلاء الشبان الذين كانوا يتعلمون في الديار الأوروبية والأمريكية كانوا يسودون متشبعين بأفكار الانفصال عن الدولة العثمانية ، وكان الأوربيون بواسطة رسالاتهم الدينية الكثيرة يذهبون إلى الديار التي فيها أرمن من تركيا ويفتحون المدارس والملاجئ ، وكان جميع من يتعلم في هذه المدارس الأوروبية يخرج كارهاً للدولة ، عدواً

للمسلمين ، وذلك بسبب المبادئ التي كان الأوربيون - ولا سيما الأقسة والمبشرون - يرضعونهم إياها من الصغر . فاهمّ عوامل الشقاق الذي وقع بين الأرمن وبين سائر الرعية العثمانية ، كان هو التعليم في مدارس الأوربيين ، فأصبح غير ممكن تساكن الجنسين بعضهم مع بعض ، وظهرت عند الأرمن نزعات شيطانية ، ونزعات عدوانية تخالف ما كان عند آبائهم بتمامه ، فلم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم وبين المسلمين ودارت الدائرة على الدولة في الحرب التركية الروسية .

طلب الأرمن من الدول الأوربية استقلالاً داخلياً للبلاد التي في شرقي الأناضول على أمل أن يجددوا هناك مملكة أرمينية القديمة ، وبديهي أن الدول في مؤتمر برلين أمكنها أن تفصل الولايات الأوربية التي كانت للدولة بسبب كثرة المسيحيين فيها ، وقلة المسلمين الذين يسكنونهم ، ولكنها لم تقدر أن تفصل الأرمن عن حكم الدولة العثمانية نظراً لقلة عددهم بالنسبة إلى من يسكنهم من المسلمين ، فقررت اقتراح بعض اصلاحات إدارية في البلاد التي فيها أرمن ، ولما كانت هذه الاصلاحات ليست هي مرمى الأرمن الحقيقي سواء أنفذها الأتراك أو لم ينفذوها ؛ لم تكن هذه المسألة لتشفي للأرمن غليلاً .

فمن ذلك الوقت شرعوا يعدّون معدات الثورة ويتحفزون للقيام على الدولة حتى ينالوا ما يريدونه بالثورة ، فأخذوا بتشكيل جمعيات سرية جعلوا مركزها في أوربا وهي ذات شعب وفروع في جميع البلاد التي فيها أرمن ، فكان المركز الأرميني بالوسائل الكثيرة التي له ؛ يجمع الأموال من الأوربيين ومن الأرمن الموسرين ، ويقرر الأعمال ويرسم الخطط والحركات ، ويشترى الأسلحة ويعين متطوعين فدائية يفادون بأنفسهم في سبيل مصلحة أمتهم .

وهكذا جعلوا حركة الانتفاض على الدولة تسكاد تسكاد عامّة ، لاسيما بين النشء الجديد ، وكانوا إذا رأوا من أبناء قومهم من لا يريد أن يسايرهم في طريقهم إما اقتناعاً بفساد عملهم ، أو خوفاً من سطوة الدولة ؛ بطشوا به وعدوه خائناً ، كانوا يستحلون دمه وقد قتلوا من هذا النمط عدداً غير قليل منهم ، وكانوا يعاقبون أجدانهم أسماء ملوك

الأرمن القدماء ، ويذكرون أسماء قديسي الأرمن في الكنائس ليشيروا في رؤوس الشبان الحمية الأرمنية ، ويحيوا تذكار الملك الأرمني القديم . وكل هذا تحملته الدولة العثمانية مدة طويلة ، ولكنها في الآخر رأت أن رعيتهما المسلمين لن يستطيعوا على هذه الأحوال صبراً ، فأمرت بإقفال بعض مدارس كانت تبقى فيها بعض التعاليم الثورية ، فثار الأرمن بسبب إقفال هذه المدارس ، وقاموا بحركة عصيان ، وكان الأتراك والأكراد قد امتلأت صدورهم وغرا منهم فحصلت حوادث وسالت دماء في ولاية أرضروم ، وموش ، فجاء الأرمن يشكون إلى الدولة وقامت قيامتهم في الأستانة وطلبوا من بطريركهم عشقيان افندى أن يراجع السلطان في الاقتصاص من المسلمين الذين حملوا على الأرمن .

ولما وجدوا من عشقيان افندى فتوراً في المراجعة هجموا عليه وهو في كنيسة « قوم قبو » وحاولوا قتله ففرّ من بين أيديهم وتوارى ريثما جاءت الشرطة فقبضت على الثائرين وألقوا عدداً كبيراً من شبان الأرمن في غيابات السجون . وكانت تشكلت في استانبول لجنة أرمنية ثورية اسمها « اللجنة الحمراء » يديرها أرمني من التبعة الروسية اسمه « آغوب بدر يكوف » وأخذت هذه الجمعية السرية تفتك بالأرمن الذين كانوا لا يوافقون على الثورة فقبضت الساطة على بدر يكوف هذا وحكمت عليه المحاكم بالقتل ، ولكن السلطان عفا عنه وسله إلى سفارة الروسي على شرط إخراجه من الأستانة وخرج ، ولكن اغتيال الأرمن الصادقين للدولة بقي مستمرا ، وكانت هذه الوقائع سنة ١٨٩٠ .

ثم إن جمعيات الأرمن لاسيما التي يقال لها « هيكان » ازدادت جرأة وأخذت تبث حركة العصيان في الأناضول فاشتعلت الفتنة في سيواس ، وأنقرة ، وقونية ، وأطنة وقبضت الدولة على المشاغبين ، وأخذت بمعاجلة كمتهم ، وأكبر الناس - حتى عقلاء الأرمن أنفسهم - هذه الحركات وأصدر البطريرك عشقيان افندى منشوراً ينصح فيه أمتة بالاخلاد إلى السكون وتجنب هذه الحركات المخالفة للأمانة للدولة ، ولمصلحة الأرمن أنفسهم . فما مضى على ذلك أيام قلائل حتى أطلق أحد المنسوين إلى هذه

الجمعيات الرصاص على البطريرك وهو في كنيسة قوم قبو ، واسكنه أخطاه ، فأخذت الحكومة العثمانية تشدد في معاقبة ثوار الأرمن .

وفي أثناء ذلك نجمت بوادر الثورة في جبل يقال له « جبل ساسون » من سنجق موش ، في ولاية بتلس . وذلك بأن أهالي هذا الجبل كانوا امتنعوا عن تأدية الضرائب ، فأبرق والى بتلس إلى الباب العالي عن عصيان أهالي هذا الجبل ، ووجوب تأديتهم . فأرسلت الدولة المشير زكى باشا بقوة من المشاة والخييل والمدفعية فدمروا ديار العصاة ، وجعلوا عاليها سافلها . فما وصلت أخبار إيداب الدولة لعصاة الأرمن إلى صحف أوروبا حتى قامت قيامتها ، وأخذت تتكلم عن مذابح الأرمن كما هى عادتها كلما ثار نائر أمة مسيحية على حكومة إسلامية .

وما زالت الصحف الأوربية تضرب على هذا الوتر حتى أمر السلطان عبد الحميد بارسال لجنة تحقيق إلى محل الواقعة ، ودعا الدول التى هنّ موقعات على معاهدة برلين أن ترسل معتمدين من قبلها مع اللجنة المذكورة ليشهدوا سير التحقيق ، فجرى التحقيق بحضورهم وثبت عصيان الأرمن بشهادات تفوق الاحصاء وأدلة لا تقبل المراء ومع ذلك فقد بقى قناصل الدول فرنسا وانكلترة والروسيا يدّعون أنهم لم يقدرُوا أن يتصلوا تمام الاتصال بالأهالى حتى يطلعوا على الحقائق . ثم عندما وجدوا كون هذا العذر واهياً جعلوا يقولون إنه على فرض وقوع عصيان فلم يكن من العدل أن يتناول العقاب جميع أهالى الناحية والحال أنه قد بطش الأكراد بالأرمن الذين ثاروا على الدولة وذلك بمرأى ومسمع من العساكر العثمانية ، وأخذت الصحف الأوربية تحت تأثير الكنائس لاسيما فى انكلترة تستفز الدول إلى التدخل لرفع المظالم عن الأرمن ولما كانت انكلترة تسمع كثيراً لرؤساء الكنائس فى بلادها سمعت لدى الدول فى التدخل بهذه المسألة فأجابتها فرنسا والروسيا ، واتفقت الدول الثلاث على تقديم اقتراحات للسلطان لأجل إصلاح الادارة فى البلاد التى كان الأوربيون يطلقون عليها اسم « أرمنية » وهى فى الحقيقة بلاد الأكراد .

فمن جملة هذه الاقتراحات تعيين مفتش عام لتلك الولايات ، وتشكيل لجنة

مختلطة دائمة لمراقبة سير الاصلاحات ، ويكون مركز اللجنة في الأستانة . فرفض السلطان قبول تشكيل هذه اللجنة الدائمة المختلطة ، وعيّن المشير شاكر باشا مفتشاً عاماً لولايات شرق الأناضول ، فرفضت الدول تعيين هذا المفتش ، وأصرّت على تعيين مراقبين أوربيين وجرى بينها وبين السلطان كثير من الأخذ والرد ، والسلطان ثابت لا يتزعزع . فخطب اللورد ساليسبورى في مجلس اللوردية خطاباً أنذر به السلطان بسوء المصير إذا لم يقبل نصائح الدول ، فاشتد بذلك عزم ثوار الأرمن وقاموا بظاهرة عظيمة بحجة أنهم يطالبون بتنفيذ الاصلاحات الموعودة ، فعند ذلك هجم عوام المسلمين على الأرمن في نفس العاصمة وذبخوا منهم عدداً كبيراً ، لأنهم رأوا الأرمن يتعمدون إثارة الفتنة سبيلاً لدخال الدول الأوربية في أمور السلطنة الداخلية . وهذا ما كان يقصده الأرمن فعلاً ، وكان يعتقدون أن في ذبحهم فائدة لأنفسهم في المستقبل

فلما وقع هذا الانتقام من الأرمن ؛ واتهم الأجانب رجال الشرطة وناظم باشا ناظر الضبطية بأنهم أغضوا النظر على ذبح الأرمن ، وأنهم كانوا يقدرّون على منع الشر فلم يمنعوه ؛ أبعد السلطان ناظم باشا عن الأستانة وجعله والياً على بيروت ، وعزل سعيد باشا الصدر الأعظم وجعل مكانه كامل باشا . ثم أصدر خطأً سلطانياً يتضمن قبول اقتراح الدول وتشكيل مجلس مراقبة لسير الاصلاحات ، ولكن خبر ثورة الأرمن والمذبحة التي حلت بهم كان انتشر في ولايات الأناضول وامتلات صدور المسلمين غيظاً منهم .

وكان للأرمن حينئذ بطريك اسمه إزميرليان عقد الأرمن به جميع آمالهم ، وكانوا يبالغون في مدح مناقبه لأنه كان يقوى عزائمهم ، ويجدد روحهم القومية ، فازدادت حركتهم نمواً . ولما كان الأرمن غير مقتصرين في حركتهم هذه على البلاد العثمانية بل كانت هذه الحركة ممتدة إلى بلاد القوقاس ، فقد تنكر لها رجال الدولة الروسية أيضاً ، وسعوا لدى الباب العالي في استبدال بطريك آخر بالبطريك إزميرليان الذي كانت روسيا ترى فيه مصدر هذه الحركات ، فانه كان يعارض في الغاء التعليم الأرمني في القوقاس ، والروسيا تأبى إلا التعليم الروسى وحده ، ولما كان طلب روسيا موافقاً

لهوى تركيا ، فقد حملت الدولة العثمانية هذا البطرك على الاستقالة فاستعفى في ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ وعين مكانه بطريركا برلتماوس مطران بروسه ، فبلغ الأرمن من الحق لهذا التبديل أن أجمعت جمعياتهم الثورية المهجوم على القصر السلطاني ، ووزعوا الاسلحة سرّاً على كثير من أعضاء الجمعيات ، وعينوا عيد الجلوس موعداً لهذه الحملة إذ يكون الشعب التركي غافلاً منصرفاً إلى إعداد الزينة بعيد السلطان . فوصل الخبر إلى السلطان بواسطة البطريرك برلتماوس نفسه ، ويقال إن الحكومة الروسية هي نفسها أبلغت السلطان خبر هذه المؤامرة لأنها كانت تكره جمعيات الأرمن الثورية وتعلم اتصالحهم بحزب النيهيلست الذين كانوا اغتالوا القيصر اسكندر الثاني : فأخذ السلطان حذره وتهيأت الضابطة للتنكيل بثوار الأرمن . وفي ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ دخلت عصابة من الأرمن إلى البنك العثماني بغتة ومعهم أكياس ملأى بقنابر الديناميت ، وقتلوا الجند المحافظ على البنك ، وقصدوا الاستيلاء على خزانة البنك فجاء الجند وأحاطوا بهم من الخارج وصاروا يطلقون النار عليهم وهم يقابلون الجند بالمثل ، وشاع في الامتانة أن ثوار الأرمن حاولوا نسف البنك العثماني ، فهاج الشعب التركي وصاروا يقتلون الأرمن أينما ثقفوهم ، فحصلت مذبحة استمرت ثلاثة أو أربعة أيام فقتل منهم ألوف ، وكان سيقتل أضعاف ذلك لولا أن كثيرين من المسلمين حموا كثيرين من الارمن وآووهم في بيوتهم ، وكان كثير من أئمة المساجد ومن رجال الدين ينهون العامة عن أن يمسوا الأرمن بسوء ، وكذلك كثير من رجال الدولة وقوا الأرمن في الحارات التي تجاور بيوتهم . وامتاز بين هؤلاء المشير فؤاد باشا الجركمي . فأما العصابة التي دخلت إلى البنك فقد أخرجوها تحت ضمان سفراء الدول وأبعدوها من الامتانة ، بعد أن كانت هذه العصابة هي سبب ذبح عدة آلاف من الأرمن ربما كان كثير منهم أو أكثرهم أبرياء .

وكانت جزيرة كريت - أو إقريطش - قد أخذت تتحرك وذلك لاختلاف وقع بين أهالي الجزيرة وبين الدولة ، وكانت الثورة في كريت خُلُقاً متأصلاً في أهل هذه الجزيرة ، ويقال إنهم مفظورون على القاق والشغب وقد كانوا كذلك في القديم قبل

الدولة العثمانية بل قبل الدولة الرومانية نفسها ، وفي هذه الجزيرة حل ثوار قرطبة الذين بطش بهم الحكم الأموي أمير الإندلس في وقعة الربض المشهورة ، فخلا منهم طائفة إلى فاس ، وسارت طائفة أخرى بضعة عشر الف نسمة إلى الشرق فنزلوا في الاسكندرية وثاروا فيها على الدولة العباسية ، فقاتلهم عمال مصر من قبل بنى العباس وأخرجوهم من مصر إلى جزيرة إقريطش قائلين لهم ليتبوا أو منها ما يشاؤون . فذهبوا ونزلوا بهذه الجزيرة ، وأسسوا لأنفسهم إمارة مستقلة في جانب من إقريطش تحت رئاسة عبد العزيز بن شعيب البلوطي ، واستمرت هذه الإمارة على استقلالها أكثر من مائة سنة . ثم أرسل عليهم الروم من بيزانطية جيشاً حصرهم حتى استسلموا وأخذ أميرهم أسيراً إلى القسطنطينية ، وشردهم من تلك الجزيرة ، ومن بقي منهم فيها تنصروا .

ويقال إنه لا يزال في كريت قرى معروفة يقال إن أصل أهلها من العرب وسحناؤهم تدل على ذلك ، ولا تزال عندهم عادات عربية محفوظة إلى اليوم . وقد ذكرنا في ما سبق كيفية فتح الدولة لكريت وأنها آخر فتوحات الدولة العثمانية وأنها بقيت تقاوم كريت سبعاً وعشرين سنة إلى أن دوتختها . وفي سنة ١٧٦٦ عصت هذه الجزيرة الدولة ثم ساقطت الدولة عليها عسكرياً أدخلها في الطاعة ، وسنة ١٨٧٨ ثارت مرة ثانية فاتفقت الدولة مع أهلها على دستور خاص بهم وعيَّنت لهم والياً مدته بحسب هذا الدستور خمس سنوات ، وتقرر أنه إذا كان الوالى مسلماً يكون له معاون مسيحي ، وإذا كان مسيحياً يكون له معاون مسلم . وكذلك المتصرفون إذا كان المتصرف مسلماً كان المعاون مسيحياً ، وبالعكس . وكانت نواحي الجزيرة ٨٨ ناحية منها ٥١ مختلطة أي مسلمين ونصارى ، و ٣٤ مأهولة بمسيحيين فقط ، وثلاث نواح ليس فيها غير مسلمين . وكان للجزيرة مجلس تشريعي يجتمع مدة أربعين يوماً في السنة ، وعدد أعضائه ٨٠ منهم ٤٩ مسيحيون و ٣١ مسلمون ، ولا يتقرر شيء إلا بثلاثي الاصوات . ففي سنة ١٨٨١ طلب المسيحيون تعديل هذا الدستور بحجة أنه مجحف بحقوقهم ، وأن التمثيل في المجلس غير متناسب مع عدد السكان ، فإذا كان أعضاء المسيحيين فيه ٥٠ وجب أن لا يزيد المسلمون على ٢٥ ، والحال أن الدولة جعلتهم ٣١

ولا شك في أن الدولة كانت تعلم من استعداد أهل كريت للانفصال عنها ما جعلها تحتاط لمستقبل الحكم العثماني فيها ، وتراعى الأقلية الاسلامية . ومع ذلك فمسلحو كريت كانوا لا يقلون عن ثلث السكان ، وكان بينهم عدد غير قليل من عرب برقة وجماعات وافرة من مهاجري بوسنه والمهرسك والبلغار المسلمين . ثم إن المسيحيين في كريت اختلفوا مع الدولة من أجل الموازنة المالية لإدارة الجزيرة ، واشتد الخصام في سنة ١٨٨٧ فأرسل السلطان عبد الحميد المشيرشاكر باشا لأجل إصلاح الأحوال فوجد أنه لا مناص من استعمال القوة ، فان المسيحيين خرجوا عن الطاعة وأبوا دفع الضرائب ، وصاروا يعتقدون على المسلمين في القرى التي أكثرها مسيحيون ؛ وصار المسلمون يرحلون من القرى إلى المدن لأنهم في المدن كانوا هم الأكثرية . فساق شاكر باشا القوى العسكرية على عصابات الأروام فشنت شملها ، وأخلد الجميع إلى السكون برغم أنه كان لكريت جمعية في أثينا ترسل إلى كريت متطوعين وأسلحة فلما رأى اليونان أن الدولة العثمانية قهرت ثوار كريت هاجوا وطلبوا من حكومتهم إرسال الاسطول اليوناني إلى مراسي كريت بحجة حماية المسيحيين ، حيث كان الاتراك بطشوا بالأروام في مدينتي « خانبة » و « قندية » فلما رأت الدول استفحال الخطب أرسلن إلى مرسى « سودا » سفنا حربية فأنزلت عساكر في الجزيرة وذلك في ٣ فبراير سنة ١٨٩٧ ولم تشترك ألمانيا ولا النمسا في هذه الحركة ، وإنما كانت الدول اللواتي تولينها انكاثرة ، وفرنسا ، والروسيا ، وإيطاليا . فبدلا من أن الأروام يسكنون إلى عمل الدول هذا ؛ كان منهم أن أرسلوا في ١٠ فبراير الكولونيل فاسوس ومعه عدة توابير من الجند المنظم ، وجماعة من المتطوعين ، فساروا بالأسطول اليوناني ونزلوا بقرب خانبة ، وأنذرتهم الدول حتى يرجعوا ، وألقت عليهم النار من سفنها فابتعدوا إلى داخل الجزيرة ، وأعلنوا الحاق كريت بمملكة اليونان .

فعند ذلك أعلنت الدولة الحرب على اليونان ، وزحف المشير أدهم باشا بمائة وخمسين ألف جندي على اليونان ، فما انقضت مدة شهرين حتى تمزق الجيش اليوناني كل تمزق ، ولولا أن أبرق قيصر روسيا إلى السلطان عبد الحميد يرجوه العفو عن اليونان

والتوقف عن متابعة الحرب ؛ لـ كان الأتراك دخلوا أثينا واستولوا على اليونان كلها . فلم يسمع الساطان إلا إجابة رجاء . التقيصر ، وانعقد مؤتمر الصلح ؛ و بعد مذاكرات طويلة تقرر إعادة الجيوش العثمانية من بلاد اليونان كما دخلت بدون أن تجنى الدولة العثمانية أدنى ثمرة من انتصارها عملا بالقاعدة الأوربية ؛ إن ما يؤخذ من الهلال للصليب لا يعاد ، وإن ما يؤخذ من الصليب إلى الهلال لا بد من إعادته . . . فكل نتيجة تلك الحرب كانت تصحيح بعض الحدود بين تركيا واليونان ، بحيث أن جميع ما استردت الدولة من تساليا كان عبارة عن قريتين ، ولـ كن أجبرت الدول اليونان المغلوبة على دفع غرامة حربية أربعة ملايين جنيه كلفة الحملة العثمانية . على أن الدولة استفادت فائدة أدبية لا تذكر بهذه الحرب ، لأنها كادت في مدة شهرين لا غير تستولى على بلاد اليونان كلها ؛ واجتاز الجيش العثماني جبالا يحار العقل كيف اجتازها بهذه السرعة !! ومن ذلك الوقت خمدت الحركة الأرمنية ، واستراحت الدولة مدة سنوات من مشكلات الأرمن ، ووقفت الدول عن مطالبتها بتنفيذ برنامج المطالب الأرمنية .

فأما في جزيرة كريت فكان النصارى قد طردوا المسلمين من جميع القرى واقتلعوا أشجارهم ودمروا بيوتهم ، فالتجأ المسلمون إلى المدن واشتدت العداوة بين الفريقين ، فهاجم الكريتيون المسلمون ومعهم جماعة من عرب بنغازي على حارة النصارى في قندية فأحرقوها ، و بطشوا بالمسيحيين ، وحصل مثل ذلك في خانية حاضرة الجزيرة ، فتمصبت الدول وأندرت الدولة بأن تخرج عساكرها من كريت أو تعلن هي استقلال الجزيرة ، وهي وإن لم تفعل ذلك دفعة واحدة فقد كانت تريد أن تصل إلى هذه الغاية تدريجاً ، فأنت بالبرنس جورج ابن ملك اليونان وجعلته والياً للجزيرة ، وبقيت هذه الحالة إلى أن انتهت الحرب البلقانية في زمن السلطان محمد رشاد . فقرر ضم كريت إلى اليونان ، وعانى المسلمون في كريت شذائد كثيرة وهاجر منهم قسم كبير إلى بلاد الدولة العثمانية ، ومنهم جماعات وصلوا إلى دمشق ولهم حارة في جبل الصالحية ، ومنهم جماعات تفرقوا في سائر الاقطار . وأناس ذهبوا إلى

الاسكندرية ، وكانت الدولة أسكنت منهم جماعة في الجبل الاخضر من برقة ولكن مهاجرتهم الكبرى وقعت بعد الحرب العامة ، وانعقاد مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ وفيه تقرر تبادل السكان ، فأخرجوا جميع المسلمين الذين في الرومالي ، أى في البلاد اليونانية من أوربا وفي الجزر وكريت من الجبل ، وقرروا إسكانهم في تركيا ، وبمقابلة ذلك أخرجوا جميع الروم الذين في بلاد الأناضول بدون استثناء ، فلم يبق في تركيا رومى واحد إلا من كان غريباً ، ولم يبق في بلاد اليونان مسلم واحد إلا عبر سبيل وقد حصلت مبادلة الأملاك والأراضي أيضاً ، وإنما وقع استثناء للأروام الذين في الأستانة ، فان مؤتمر الدول في لوزان لم يشأ إخلاء القسطنطينية عاصمة الروم القديمة من المسيحيين ، فأبقوا فيها الأروام الذين لم يهاجروا من تلقاء أنفسهم ، وهم مائة وخمسون ألف نسمة وأبقوا في مقابلة ذلك الأتراك الذين في ولاية تراقية الغربية ، أى الولاية التى إلى الغرب من ولاية أدرنة ، وذلك لأن الأتراك المذكورين هم أكثرية هذه الولاية ، ولم تكن لهم رغبة في الهجرة .

وأما في جزيرة كريت ، فلم يبق مسلم واحد ، ولا في سائر جزر الأرخبيل الرومى ماعدا رودوس وأخواتها التى احتلتها إيطاليا في أثناء حرب طرابلس الغرب ، ثم استلمتها نهائياً ، فهذه الجزر لم تتبع قاعدة تبادل السكان لكونها خرجت من ملك تركيا واليونان معاً ، فلا يزال عشرة آلاف من المسلمين في جزيرة رودوس ، وبضمة آلاف في سائر الجزر العشر « dédocanaire » وذلك تحت حكم إيطاليا . وانطوى بساط كريت كما انطوى بساط الاندلس بعد أن ملكها المسلمون ثلاث مرات ؛ الأولى في زمن بنى أمية في دمشق ، والثانية عند ما احتلها ثوار قرطبة تحت إمارة عبدالعزیز ابن شعيب ، والثالثة في أيام الدولة العثمانية ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وقد عرفت من أعيان كريت المسلمين رجلين ؛ أحدهما أحمد نسيى بك ناظر الخارجية العثمانية في أيام الحرب ، وهو من أعز إخوانى ، وأمثلة من عرفت في حياتى وأحسنهم أخلاقاً ، فضلا عن ذكائه وسعة اطلاعه ، وكان يحدثنى عن كريت الأحاديث والآخر فاضل بك أحد أعيان المسلمين في قندية ، وقد كنت أسأله مرة عما يقال من

حسن جزيرة كريت وزكاه تربتها ، ولذة فواكهها وطيب نبعثها فقال لى : جميع ماتسمعه من هذا القبيل عن كريت هو الواقع ، وربما أقل من الواقع ، ولكن لا يوجد فى الدنيا أكثر شراً من أهلها . وفنزيلوس الوزير اليونانى المشهور كان من زعماء ثوار كريت على الدولة العثمانية ، ولما صار وزيراً للدولة اليونانية كان هو العامل مع دول الحلفاء فى خلع قسطنطين ملك اليونان كما لا يخفى وفى أخريات هذه الايام ترأس ثورة على الحكومة اليونانية وهو قد بلغ من السكبر عتياً .

وفى زمن السلطان عبد الحميد ساءت الاحوال فى مكدونية ، لأن السلطان كان أكثر همه فى المحافظة على شخصه ، وكان شديد التخيل إلى درجة الوسواس . فاستكثر من الجواسيس ، وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد ، وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف فى قلوب الرعية وصارت فى قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ فى الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام على هذه الحالة ، وبرغم ما كان السلطان يعفو ويصفح ، ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ما كان يفعل . وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الخطوة عنده ، فصار الناس يعلون جميع خطوب المملكة بسوء الادارة ، ويعلون سوء الادارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية . وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد محدود ، فليس بصحيح على إطلاقه ؛ لأن خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية ، لاتذكر قضية الجواسيس فى جوانبها شيئاً . فأما العوامل الداخلية فهى انحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، واستيلاء الجهل ، وانقسام سكان المملكة إلى أقوام شتى كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ما هو عدو عامل لا يرضيه إلا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر فى صدور الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذى انقطع الأمل من شفائه .

فأما العوامل الخارجية فهى مطامع الدول الاوربية فى أجزاء هذه السلطنة

كل دولة منهم تحب أن ترث شقصا من هذه التركة فهي تدس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتى تتوصل منها إلى مآربها

ولو كان سهم واحد لا تقيته ولكنه سهم وثن وثالث بل كانت الأسهم التي تتلقاها الدولة العثمانية مما لا يعد ولا يحصى ، ولكن المسلمين في السلطنة نظراً لمعرفتهم أن هذه الدولة هي ملجؤهم الوحيد ؛ كانوا لا يريدون أن يعتقدوا زوالها ، فكانوا يتأوهون من جهة لحالتها هذه ، ويجتهدون من أخرى في إصلاحها ، ويظنون أن الإصلاح ليس بالمستحيل ، وأن في استطاعة الدولة أن تنهض وتسترجع مكانها السابق ، وذلك إذا كان السلطان يقلع عن سياسته الخاصة وعن حصر الأمور في يده ، ويترك الاهتمام بالجواسيس ، ويطبق على المملكة القانون الأساسي الذي كان بدأ به في أول سلطنته ثم عطله تعطيلاً مؤقتاً ، فاستمر هذا التعطيل ثلاثين سنة . وكان الشبان على الخصوص يعتقدون أن لا نجاة للمملكة من السقوط إلاّ بإعادة الدستور ، وانتخاب مجلس الأمة ؛ وكان لذلك العهد كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادئ الحرية قد هجروا بلادهم وأقاموا بباريز وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدي ، ويثيرون روح الثورة بين الناشئة ، فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوّه سمعته في العالم الأوربي ، وكثيراً ما كان يتمكن من إرضاء أناس من هؤلاء الشبان بتقليدهم مناصب عالية ، أو بإغداق النعم والعطايا عليهم ، ولكن بقي هناك من هذه الفئة من كانوا لا يبيعون من السلطان سكوتهم ، بل ابشوا يرفضون جميع ما يعرض عليهم من أموال أو مناصب . وكان في طليعة هؤلاء أحمد رضا بك المقيم بباريز ، والذي كان يصدر جريده حرّة باسم « مشورت » تدخل إلى البلاد العثمانية سرّاً ، والدكتور ناظم الذي كان من أركان جمعية الاتحاد والترقي - وشنقة مصطفى كمال من عهد قريب - وغيرها .

ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحال تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلى هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلى أوربا ، وشرعوا

في التحريك لأجل إعلان الحكم الشورى في تركيا . وكان بعض المسيحيين من سورية مشتركين أيضا في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهى ؛ مقاومة السلطان ، والعمل لاسقاطه ، وأخيراً انتدب بعض شبان الأتراك وألفوا جمعية سرية في سلانيك ، وسموها « جمعية الاتحاد والترقى » وأخذوا يجتذبون إلى جمعيتهم كل الوطنيين المخلصين الذين قدروا على اجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتى أن بعض المستخدمين في الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية ، وكانوا يجتمعون في المحافل الماسونية حتى يتقوا الشبهة فيهم . وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجها إلى استجلاب الجيش حتى تصير في أيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان ، وتوفقت هذه الجمعية إلى استجلاب عدد كبير من الضباط ، ولما كان عصائب البلغار واليونان يعملون بدون انقطاع في بلاد الرومالي ، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الرومالي منهم ، وكانوا يعملون في جوار سلانيك ؛ تسنى لرجال الاتحاد والترقى أن يتصلوا بضباط الجيش ، وأن يقنعوهم بأن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغب وتمشوا في الأرض لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان وهذه الإدارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة فأما إذا أمكن خلعهم ، وجعل الحكم في السلطنة دستوريا شوريا كما هو في سائر الممالك المتقدمة فإن جميع هذه المشاغبات تنتهى من نفسها ، وتخلد جميع الأقوام إلى السكينة وهكذا تنجوا السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدث بها . فشرب أكثر الضباط هذه المبادئ ، التي ليس بعجب أن تقبلها عقولهم ، لأن المسيحيين من أروام ، وبلغار ، وسريين كانوا يدعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلا من سوء الإدارة وأنه إذا اصطلحت الإدارة فهذه تكون غاية أمانهم ، ويدخلون في الطاعة .

ولم يكن هذا الادعاء صحيحاً بل حقيقة الحال أنه سواء اصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم ، واليونان إنما يسمعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلى مملكتهم ، ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم

الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن شبان الأتراك منهم من آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها لكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور ، وجعل الحكم في السلطنة للشورى كما هو في سائر البلاد .

و بلغ السلطان سر يان هذه الحركة إلى الجيش المرابط في الروملى ، فراعاه الأمر وأرسل لجنة تحت رئاسة القائد إسماعيل ماهر باشا لأجل الفحص عن هذه الحركة فرجعت هذه اللجنة وقررت للسلطان أن أكثر الضباط دخلوا في جمعية الاتحاد والترقى ، وأن الخطب عظيم ، وأن الخرق اتسع على الراقع ، وكان حسين حلمى باشا مفتشاً عاماً لولايات الروملى ، فكتب هو أيضاً إلى السلطان يعظم من شأن حركة الجيش ، ويشير على السلطان بإعلان الدستور . وفى أثناء ذلك ذهب أنور بك وعصى بشرذمة من الجند فى جوار سلانيك ، كما أن نيازى بك استولى على مدينة مَدَسْتَر وكاد يعان فيها الدستور ، ولما بلغ جمعية الاتحاد والترقى مقام به أنور ونيازى من العصيان اشتدت عزيمتهم ، واجتمعوا حول منزل حسين حلمى باشا وطلبوا إعلان الدستور ، وأصبحت سلانيك فى أيديهم . ولما وصل الخبر إلى السلطان استشار الصدر الأعظم وكان الصدر يومئذ فر يد باشا الأرناؤوطى ، فأشار إليه بإعلان الدستور ، وذلك تسكيناً للفتنة ، وكذلك جمال الدين افندى شيخ الاسلام أبدى له ضرورة هذا الاعلان ، وكان أحمد عزّت باشا الدمشقى مستشاراً للسلطان - كما لا يخفى - وهو المطلع على ماجريات هذا الخطب ؛ قد عارض فى إعلان الدستور بكل قوته ، ولكن الوزراء خالفوه ، وهو نفسه الذى قال لكاتب هذه السطور عند ما اجتمعت به بعد الحرب العامة هنا فى جنيف : بأن الذى أثر فى السلطان بالدرجة الأولى حتى أعلن الدستور هو جمال الدين افندى شيخ الاسلام . أما كوچك سعيد باشا . ففى أول الأمر نصح للسلطان بالثبات ، وبقمع هذه الحركة بالقوة ، إلا أنه بعد ذلك جاءت الأخبار بأن الفيلىق الثانى الذى مركزه أدرنة انضم إلى جمعية الاتحاد (٢٢ - تعليقات)

والترقى ، فوق العجب في قلوب الوزراء جميعاً ، وعادوا فأشاروا على السلطان باعلان الدستور انقاء لشر أعظم !! والحقيقة أن القوة التي في يد جمعية الاتحاد والترقى كانت ضئيلة ، وكان الجيش أكثره طائفاً للسلطان ، ولـكن قوة الجمعية كانت معنوية ، والأمة - حتى في نفس قصر يلدز - أصبحت تعتقد أن لانجاة للدولة إلا باعلان الدستور ، وعقد مجلس الأمة .

والخلاصة أن السلطان عبد الحميد أعلن القانون الأساسي ، وأمر بانتخاب المبعوثين ، وتعين كوكبك سعيد باشا رئيساً للوزارة الجديدة . فأراد سعيد باشا إعطاء السلطان بعض حقوق في تعيين الوزراء خلافاً للقانون الأساسي ، فوقع بسبب ذلك خلف بين الوزراء أدنى إلى استعفاء الوزارة ، فانتدب السلطان للصدارة كامل باشا وتألقت وزارة جديدة فيها رجال أمثال مثل رجب باشا الأرناؤوطى ناظر الحربية وحسن فهمى باشا ناظر العدلية ، وغيرهما . ولكن وزارة كامل باشا هذه شهدت حوادث ذات بال ، مثل إعلان بلغاريا استقلالها التام ، ومثل أن دولة النمسا أعلنت استلحاق ولايتى البوسنة والهرسك ، ومثل أن الأروام أعلنوا إلحاق جزيرة كريت باليونان ، وكان إعلان البلغار لاستقلالهم بموجب كتاب من أميرهم فرديناند إلى السلطان عبد الحميد في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨ فأرسلت الدولة جواباً للحكومة البلغارية بأنها لا تستطيع الاعتراف بعمل مخالف لمعاهدة برلين ، وكتبت إلى الدول تدعوهم إلى عقد مؤتمر لأجل النظر في ما أقدمت عليه بلغاريا من خرق هذه المعاهدة وكذلك احتجّت الدولة على استلحاق النمسا والمجر لبوسنة والهرسك برغم كون النمسا والمجر اجتهدتا في استعطاف الدولة العثمانية ، وعرضتا عليها تعويضات مالية وردّت لها (سنجق نوفي بازار) من أصل بوسنة .

وفي أثناء ذلك وقع الخلاف بين جمعية الاتحاد والترقى وبين وزارة كامل باشا على مسائل داخلية لأن الجمعية كانت هى سبب إعلان الحرية ، فكانت تريد بطبيعة الحال أن تسيطر على الحكومة ، ولم يكن هذا الأمر ليحصل بدون اصطدام آراء مفض إلى النزاع ، وكانت الأمة مشغولة بانتخاب المبعوثين ، ولم تكن الآراء

متفقة في قضايا الانتخابات مما يحصل في كل مملكة ، فانهى الأمر بسقوط كامل باشا وكان مجلس الأمة قد انعقد وحضر السلطان عبد الحميد افتتاحه ، وأقسم يمين الأمانة للدستور ، ولكن لم يكبد المجلس انعقد حتى وقع الشقاق بين المبعوثين ، فمنهم مبعوثوا جمعية الاتحاد والترقي ومبدؤهم كان المركزية التامة ، أى حصر كل الادارة فى مركز الدولة ، وبناء الاصلاحات كلها على هذا الأساس ، ومن البديهي أن مبدأ كهذا سيعطى السيادة للعنصر التركى الذى له المقام الأول فى السلطنة ، فلهذا كان العرب والأرناؤوط والأروام والأرمن ضد هذا المبدأ ، لأنه يُجحف بحقوقهم ، فتألف من هؤلاء حزب تسمى بحزب « الأحرار » انضم اليهم أيضاً كثير من الأتراك المناوئين لجمعية الاتحاد والترقي ، فى مسألة كامل باشا وقع الخلاف بين الحزبين ، وتغلب الاتحاديون على خصومهم ، وهكذا سقط كامل باشا وجاء مكانه حسين حلمى باشا فى مدة هذا الصدر تسوّت بين تركيا والنمسا قضية بوسنة والهرسك ، وذلك بدون عقد مؤتمر دولى . لأن الأتراك كانوا يخشون من عقد المؤتمر الدولى فتح أبواب جديدة عليهم فاسترجعت الدولة سنجق نوڤييازار ، واستأدت مليونين ونصف مليون جنيه بدلا عن الأراضى العائدة فى بوسنة للدولة خاصة ، وتقرر بقاء التشكيلات الدينية الاسلامية فى البوسنة والهرسك مر بوطه بالدولة العثمانية ، كما كانت فى السابق وعقدت الدولة مع النمسا معاهدة تجارية ، ثم رجعت إلى مسألة البلغار فبعد أخذ ورد طويلين وحل مشكلات مالية يطول شرحها انتهى الخلاف وانعقدت المعاهدة فى ١٩ ابريل سنة ١٩٠٩ وفى هذه المعاهدة كل ما يضمن حقوق المسلمين وأوقافهم ومؤسساتهم الدينية فى مملكة البلغار ، فاستراح بال الدولة من جهة هاتين المشكلتين قضية استقلال البلغار التام ، وقضية استلحقاق بوسنه والهرسك بالنمسا .

ولكن ثار تشور الخصام فى وسط السلطنة ، وتمددت الأحزاب ، وبسبب إعلان الحرية أظهر كل ما فى نفسه ، وبدلا من أن يكون هذا القانون الأساسى سبباً للانضمام والسير على قاعدة (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) وليس امتياز فيها لفريق على فريق ؛ كانت عاقبة هذا النظام الجديد أن كل أمة من الأمم الكثيرة التى

تتألف منها السلطنة العثمانية أخذت تحاول الانفصال عن السلطنة نفسها بالطرق الممكنة وغير الممكنة ، وجاءت هذه الحالة عذراً للسلطان عبد الحميد الذي كان يدعى أنه إنما أخر إعلان الدستور وجمع مجلس الأمة خوفاً من تفكك أجزاء السلطنة وفراراً من صدع الوحدة العثمانية لأنه في ظل الحرية لا يمكن منع النزعات القومية التي هي كامنة في صدور هذه الأمم المختلفة التي لا يجمع بينها سوى رهبة الدولة .

ولكن جمعية الاتحاد والترقي مع حسن نية رجالها كان ينقصها كثير من الخبرة وكان أكثر زعمائها شباناً لم يتمرسوا بالأمور ، ولم تنجزهم الحوادث ، وقد جاء فوزهم بالقبض على ناصية السلطنة غير متظر - حتى من أنفسهم - فسكروا بخمرة العز واستخفوا بمن سواهم ، وظنوا أنهم قادرون على كل شيء ، والحال أنهم كانوا يواجهون صعباً ، ويقابلون عقاباً ، لا قبل لهم بها ، فكانت أمامهم - وهي الطامة الكبرى - دسائس الدول الأوربية التي كل واحدة منهم كانت تحرك أهالي البلاد التي تطمح إليها من أجزاء السلطنة ؛ وكان هذا مرضاً مزمناً ، فلا الجانب كانوا راجعين عن أطماعهم هذه ، ولا الأهالي الذين تعودوا رؤية نفوذ هذه الدول في بلادهم كانوا عادلين عن الانقياد إلى وساوسهم ، ولأجل وضع سد في وجه الأجانب كان ينبغي أن تكون الدولة أقوى وأرقى وأسعد حالا ، وأغزر مالا من جميع الدول العظام . ولم تكن هذه الشروط حاصلة في الدولة العثمانية كما لا يخفى . ثم إن جميع الأمم التي كانت تتألف منها هذه السلطنة كانت أهدافها مختلفة ؛ فالاروام وهم جانب كبير في المملكة لا ينسون ملكهم القديم ، وفي كل حركاتهم وسكناتهم كان هدفهم الوحيد استئناف الاستيلاء على القسطنطينية وطرد الترك منها إلى آسيا ، والأرمن كان هدفهم الوحيد استئناف ملكهم القديم في نفس الأناضول ، والبلغار يريدون ضم مكدونية إلى المملكة البلغارية الجديدة ، وهذا من جهة المسيحيين .

فأما من جهة المسلمين فإن الجامعة الوحيدة التي كانت تجمع بين الترك والعرب والكرد والأرناؤوط والجر كس هي الجامعة الدينية ، ولولاها لكانت هذه السلطنة

تفككت منذ قرون، ولكن سوء الإدارة في الداخل من جهة ؛ ودسائس الأجانب من الخارج من جهة أخرى ؛ حملا الكثيرين من العرب والأرناؤوط بنوع خاص على النزوع إلى الانفصال عن الدولة برغم الجامعة الدينية ، وقد بدأ ذلك عند الأرناؤوط قبل العرب ، فحاولت الدولة تأديب الثائرين منهم فاستلزم ذلك تجريد جحافل ووقعت معارك دموية ، فازداد الأرناؤوط من الدولة نفوراً . وأما العرب فكانت عندهم غيرة من الترك لأنهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً ، ولم تكن لهم الامتيازات التي للترك ، وكان الترك يزعمون أن العرب غير قائمين بما يجب عليهم تجاه السلطنة حتى يتمتعوا بالمساواة التامة مع الأتراك ، فمن البلاد العربية جانب كبير لا يقوم بالخدمة العسكرية الاجبارية ، بل يكلف الدولة سوق عساكر لادخال أهله في الطاعة ، وهذا النزاع بين العرب والترك لم يكن ينتهي بل كان يزداد بضعف الدولة وقد كان يظهر في مواقع كثيرة . ولكن كان المانع الوحيد من انفجار بركان الشر بين الفريقين هو الخوف على بيضة الاسلام لا غير ، إلا أن الانكسار تمكنوا قبل الحرب العامة من استجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من استجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من استجلبوه بطريقة الاقتاع ، وأوهمو العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بنى العباس ، أو دولة بنى أمية مثلاً ، ويساعدوا العرب على تجديد مجدهم القديم ، وعلى عمارة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمارتها . فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلى الانفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرسه . ولا يمكن أن يقال إن هذا كان رأى الجماهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفتقرون أنه إذا وقع الانفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الأفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ، واختياراً لأنهم الشرين .

نعم لو كانوا على يقين بأن الدول الأوروبية تحترم استقلال البلاد العربية ولا تبسط أيديها إليها بالغصب والتقسيم ، لكانوا يرجحون بدون شك الانفصال عن الترك ، والاستقلال بدولة لانفسهم . ولكن عقلاء العرب كانوا لا يجهلون مطامع

الدول الأجنبية ، في بلادهم ولم يكن يخفى عنهم تصميم أوربا على تقسيمها ، وأنه لا عهد للدول المسيحية بأزاء المسلمين مهما عاهدت ولم يكن يشذ من العرب عن هذه العقيدة سوى بعض من لا تجربة لهم ، أو من لا تهمة الجامعة الإسلامية في كثير ولا قليل . ومنهم من كان الانكليز يستخدمونهم في بث دعايتهم كأجراء لا غير .

ثم إن الاتحاديين ساعدوا بسوء تصرفهم واستخفافهم بأعدائهم هذه الأمم غير التركية في السلطنة على أنفسهم ، ودخل في الجمعية الاتحادية عناصر كثيرة مفسدة كرهت الرعية بها . وكان رجال الحكم الجديد قد أقصوا عن وظائف الحكومة أكثر الذين كانوا يشغلونها ، واستبدلوا بهم شباناً من حزبهم ، فأسفوا جمعاً عظيماً لهم تأثيراً في السلطنة ، لأنهم أصابوهم في أسباب معيشتهم ، فانكسرت خواطر وتراكت أحقاد ، وتآلفت فرقة جديدة من قدماء الرجال الذين كان يقال لهم الرجعيون ، وانتشرت لهم جرائم ، وأعصوب حولهم كثير من العوام .

ولما كان الاتحاديون يتظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بأمور الدين ، ويتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادئ الإسلامية إلى هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الاتحاد والترقي ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ «درويش وحدتي» عصبة سموها «الوحدة المحمدية» وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلى حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة على حزب الاتحاد والترقي ، فاشتدت المعارضة في وجه الاتحاديين بينما هم مهملون للاحتياط ، واثقون بأنفسهم ، مستخفون بخصومهم . فاشتدت المناقشات في الجرائد ، وازدادت العداوة بين الأحزاب ، وإذا بالناس في ٨ إبريل سنة ١٩٠٩ تسمع أن حسن فهمي بك محرر جريدة «سربستي» قد قتل غيلة على الجسر وهو راجع من بيك أوغلي إلى استانبول ، وكان هذا الكاتب من أكبر أعداء الاتحاد والترقي ، فقبل إن الاتحاديين هم الذين أرسلوا من يغتاله ، وقيل إن الذين اغتالوه هم حزب الرجعيين ، وذلك لأنهم استشاروه في القضاء على الدستور والرجوع إلى نظام الحكم القديم فأبى أن يسايرهم في هذه المسكيدة ، فخافوا أن يفشى سرهم للحكومة فأرادوا التخلص منه فقتلوه ، فهاجت الخواطر لقتل هذا الكاتب ، وقدم ستة من

مبعوثى المجلس سؤالاً لناظر الداخلية عن هذه الحادثة ، وتفاقم القلق فى الاستانة وكان الرجعيون قد اتصلوا ببعض توابير من الجيش ، واتهم السلطان عبد الحميد بأن له يدأ فى الدسياسة رأساً أو بواسطة أنصاره القدماء ، فما شعر الأهالى إلا والعساكر قد ملأت ساحة أيا صوفيا ، وأخذوا ينادون بإسقاط الوزارة ، وعزل أحمد رضا بك رئيس مجلس الأمة ، ويطلبون تسليم على رضا باشا ناظر الحربية ، وأعضاء جمعية الاتحاد والترقى ليقتلهم ، وكان بعض المشايخ علّما العسكري أن ينادوا بإعادة الشريعة وإلغاء القانون الأساسى حتى يملكوا بذلك قلوب العامة ، وفى ذلك الوقت هجموا على نادى الاتحاد والترقى ، وعلى ادارة جريدة « طنين » وعلى النادى العسكرى وعلى نادى النساء ونهبوها وجعلوا عاليها سافلها ، ثم انقضّ الجنود على ضباطهم فقتلوا منهم ثلاثمائة ، وفر من الضباط عدد كبير من الأستانة ، وتخبأ آخرون فيها . ثم هجم الجند على مجلس المبعوثين ليقتلوا منهم الاتحاديين المعروفين بمكانتهم فى الجمعية ، ولكن كان المبعوثون الاتحاديون قد علموا بالثورة وما يضمّره الرجعيون المتسترون باسم الشريعة من نية قتلهم ، فلم يحضروا إلى المجلس . وحضر الأمير محمد أرسلان رئيس لجنة الأمور الخارجية ومبعوث اللاذقية ، وقيل له فى ذلك اليوم إن ذهابه إلى المجلس خطر على حياته لأنه كان من الاتحاديين المعروفين ، فأبى إلا أن يذهب ايقوم بالواجب وكان باغى أن فى نية الثوار إحداث مذبحة فى الاستانة تحمل الأجانب على التدخل لأجل حماية رعاياهم فتسقط بذلك حكومة الاتحاد والترقى ، فذهب ابن عمنا إلى المجلس ليحمل المبعوثين على مراجعة السلطان شخصياً ليبدل كلمته ونفوذه لأجل تسكين الثورة التى قد تجر وبالاعظيا على السلطنة ، فلما ذهب رحمه الله إلى المجلس لم يجد من ينفذ أمره الجارم وماتى مبعوث إلا ثلاثين أو أربعين مبعوثاً فقط ، فتكلم معهم فى الموضوع وتقرر بينهم إرسال وفد إلى قصر يلدز ليعرض الخطب على السلطان ، ويلتمس أمره الجارم للعسكر وللشعب بالسكون ، فانتخب المجلس أحد عشر مبعوثاً منهم محمد أرسلان ليقوموا بهذه المهمة . فلما خرجوا وركبوا العربات عرف محركات هذه الثورة مقصدهم فردوهم من حيث أتوا وبينما هم على باب المجلس أوعز بعض المحركين لهذه الثورة إلى

الجند بأن يطلقوا الرصاص على محمد أرسلان - وهم لا يعرفونه - فوقع شهيداً . ثم قتلوا أيضاً ناظم باشا ناظر العدلية ، وكان مرادهم أن يفتكوا أيضاً بسائر أعضاء المجلس الذين لبثوا ينتظرون الموت مدة ساعتين ، ومنهم من رمى بنفسه من التوافذ فسقطوا وتكسرت أرجلهم ، ومنهم من تخبأ في أي مكان يتوارى به عن الأعين ، ولكن العسكر بعد أن فتك بناظر العدلية وبمبعوث اللاذقية سمعوا أنه سيأتي عسكر آخر بأمر السلطان فيقتص منهم ، فوقع الرعب في قلوبهم وأمسكوا عن قتل سائر المبعوثين وصاروا يطلقون الرصاص في الفضاء تهويلاً .

وأما حسين حلمي باشا والوزراء رفاقه فقد تخبأوا حيث لا يعلم بهم أحد ، وانسل محمود مختار باشا على باخرة انكليزية فذهب العسكر إلى بيته ليقتلوه فلم يجدوه . فأمر السلطان بتأليف وزارة جديدة تحت رئاسة توفيق باشا الذي كان سفيراً للدولة في لندرة ، وأدخل فيها أدهم باشا قائد الجيش العثماني الذي قهر اليونان ، وذهني باشا ورفعت باشا الذي كان ناظراً للخارجية في الوزارة السابقة ، فأبقوه في الوزارة الجديدة كما كان ، وأبقوا أيضاً ضياء الدين افندي شيخ الاسلام . وأبقوا نورادونغا افندي الأرمني ناظر الاشغال النافعة ، وأبقوا خليل حماده باشا ناظر الاوقاف وتعيين لنظارة العدلية ولرئاسة مجلس الشورى الوزير الشهير حسن فهمي باشا وتعيين عادل بك ناظراً للداخلية ، والقائد ناظم باشا قائداً للفيافي الخامس مكان محمود مختار باشا ، وقد كان وقوع هذه الثورة في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ وفي اليوم التالي لم ينعقد المجلس ولكن لما تم تشكيل الوزارة انعقد بحضور ١٩١ مبعوثاً وأصدر المجلس منشوراً يحاول فيه تلطيف الحادثة ، ويحث الرعية على السكون . ونقلت جثة الأمير محمد أرسلان باحتفال عظيم إلى بيروت حيث كان له مأتم لم يسبق نظيره ، وبكى الجميع شبابه لأنه كان في الرابعة والثلاثين من العمر ، وبكوا مزاياه العالية . وحزن عليه أبوه الأمير مصطفى أرسلان حزناً أثّر في صحته فلم يعيش بعد ذلك طويلاً .

ولما وصل الخبر إلى سلانيك وهي مركز الاتحاد والترقي هاج العسكر ولا سيما الضباط الذين علموا بقتل رفاقهم ، فلم يبطئوا أن زحفوا إلى الاستانة .

فاجتمع الفيالق الثالث - أى فيالق سلانيك - والفيالق الثانى - أى فيلق أدرنة - وساروا إلى العاصمة تحت قيادة محمود شوكت باشا ، فوقع الرعب فى الأستانة وخيف أن العساكر الآتية من أدرنة وسلانيك تنتقم من العساكر والأهالى الذين قاموا بالثورة الرجعية ، فأرسل الصدر الأعظم إلى محمود شوكت باشا يقول له : إن السكون تام فى الأستانة وأنه لا خوف من حرب ، وكان توفيق باشا قد نصح للسلطان بعدم المقاومة خوفاً من حرب أهلية .

ولما اجتمعت الجيوش فى «سان ستفانو» وذلك فى ٢١ ابريل أقبل عليها النواب والشيوخ وانعقد مجلس الأمة تحت رئاسة احمد رضا بك ، ونشروا منشوراً يجعل الأمر والنهى والاقتصاص من الثائرين فى يد محمود شوكت باشا قائد الجيش المسحق بجيش الحركة ، وكان العساكر البحرية قد اشتركوا فى الثورة من قبل ، ولكنهم لما رأوا القوة أقبلت أسرعوا إلى الخضوع . وبالأجمال لم يكن فى نية توفيق باشا ولا أدهم باشا ، ولا أحد من الوزارة الجديدة مقاومة الفيالقين القادمين من الروملى ولكن بعض العساكر الذين كانوا فى ثكنة « طاشقشلة » والذين كانوا هم الثائرين والفاجرين للدماء ، أطلقوا النار على جيوش الروملى فوقعت معركة انتهت بفوز جيوش الروملى ، وكذلك وقعت مناوشات خفيفة فى ثكن أخرى وانتهت بفوز قوة محمود شوكت باشا ، وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش الخاص للسلطان ، إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا . وفى ٢٦ ابريل تقرر فى مجلس الأمة خلع السلطان . وصدرت الفتوى من مشيخة الاسلام بأنه إذا كان زيد - الذى هو أمير المؤمنين - يحذف مسائل مهمة من كتب الشرع وقد يمنع تداول هذه الكتب أحياناً ، وكان يخالف الشرع فى استعمال بيت مال المسلمين ويقتل وينفى ويحبس بمجرد هواه ، ويحنث بيمينه الذى أقسمه ، ويحدث الفوضى فى المملكة أفلا يجوز تخليص الامة من ضرره ؟ أفلا يكون من مصلحة الامة خلعه الخ ؟ الجواب ؛ نعم .

السلطان محمد الخامس

وهكذا تقرر خلع عبد الحميد الثاني ، ومبايعة أخيه السلطان محمد رشاد باسم محمد الخامس . وذهبت لجنة مؤلفة من عارف حكمت باشا وآرام افندى من أعضاء مجلس الأعيان ، ومن أسعد باشامبعوث دراج ، وفراسو افندى مبعوث سلايك ؛ قبلوا السلطان قرار خلعه ، وفي يوم الأربعاء ٢٨ إبريل الساعة الثامنة والنصف مساء جاء القائد حسين حسنى باشا وعلى فتحى بك وأبلغا السلطان قرار نقله إلى سلايك ، وسفّروه في نصف الليل ، وكان معه نساؤه وإثنان من أولاده ؛ الأمير عبد الرحيم افندى وعمره ١٦ سنة والأمير محمد عابد وعمره ٦ سنوات ، ولم يصحبه إلا أربعة من الخصيان ، وتسعة من الخدم . وبعد نقل السلطان إلى سلايك ومبايعة أخيه سكنت الأمور وأعلنت الإدارة العرفية في العاصمة ، وتألف مجلس حربى لمحاكمة الذين أحدثوا الثورة وسفكوا الدماء فصدر الحكم بشنق عدد من هؤلاء ، ولا شك في أنه كان قد بقى أناس كثيرون متحفزون لاعادة السلطان عبد الحميد إلى العرش في أول فرصة ، ولكن هذا الحزب كان يرى لزوم السكينة إشفاقاً على الدولة . ولما اشتعلت الحرب البلقانية أعادت الدولة السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ، وأنزلته في قصر « بكر بك » حيث بقى إلى أن مات سنة ١٩١٧ وحضرت مأتمه وشهد الجمهور بحقه شهادة حسنة لأنهم كانوا يعتقدون إسلامه وإيمانه ، وبعد أن بوع السلطان محمد الخامس ، أعيد حسين حلمى باشا إلى الصدارة ، وبقى النفوذ الحقيقى لجمعية الاتحاد والترقى ، فحصل بين الجمعية وحسين حلمى باشا اختلاف أدى إلى استقالته . فاستدعى الاتحاديون إبراهيم حقى باشا سفير الدولة في رومة ، وجاء إلى الأستانة في ١١ يناير سنة ١٩١١ فاختار حقى باشا لنظارة الحربية محمود شوكت باشا وصار طامت بك ناظراً للداخلية ، وجاويد بك للمالية ، ورفعت باشا للخارجية ، ونجم الدين ملاّ بك للمدلية ، وحلاجيان افندى للنافعة ؛ والأميرال خليل باشا للبحرية ، والشريف على حيدر باشا للأوقاف ، وأمر الله افندى للعارف ، وتولّى مشيخة الاسلام القاضى حسين حسنى أفندى .

وعند ما قُرىء برنامج الوزارة الجديدة في المجلس نالت ١٨٧ صوتاً ضد ٣٤ من المعارضين . واستنكف ٢١ مبعوثاً عن إعطاء أصواتهم ، فكان مبدأ وزارة حقي باشا مؤذناً بالنجاح ، إلا أنه كان الأمر لا يزال في يد الاتحاديين ، فاشتدت من أجل ذلك المعارضة . وكان حقي باشا ومحمود شوكت باشا ورفعت باشا من أعضاء الوزارة معتدلين ، على حين أن طلعت بك وجاويد بك وحلاجيان افندى كانوا يريدون إجراء برنامج الاتحاد والترقي « بزره وعروته » فوقع الخلاف في وسط الوزارة وصار الاتحاديون الغلابة يريدون إسقاط حقي باشا من الصدارة ، وفي ذلك الوقت جرت ثورة الأرناؤوط وأساسها أنه بعد مؤتمر برلين تألفت جمعية في بلاد الأرناؤوط مبدؤها المحافظة على الوطن الألباني ، وهذه المحافظة كانت تقتضى مقاومة الأروام من جهة ، والسرييين من جهة أخرى . فنظر السلطان عبد الحميد إلى الموضوع فوجده موافقاً لسياسته وسياسة الدولة العثمانية ، فأخذ يقوّى الأرناؤوط عمداً ويمدّهم بالمال ، ويوليهم المناصب ويعتمد عليهم أكثر من سواهم . وما عاشت الجمعية الأرناؤوطية إلا بفضل إمداد السلطان عبد الحميد لها ، فقد كان يتخذ الأرناؤوط ردها له في مقاومة البلقانيين الذين ينوون الاستيلاء على بلاد الروملى كالسرب والبلغار ، واليونان ، وكان أيضاً يتخذ الأرناؤوط بطانة له ضد حزب «جون تورك» الذى كان يعلم أنه لن يرضى عنه . وكان بلغ عدم ثقته بالترك أنه جعل الحرس السلطاني الخاص كله من العرب والأرناؤوط ، فكان حول قصر يلدز بضعة عشر تابوراً من المساكر نصفها من العرب بزي خاص بهم يلبسون العمام وأكثرتهم من عرب اليمن ، والنصف الآخر كان من الأرناؤوط بزيهم الخاص . وكان قد اعتنى جد الاعتناء بتعليم هذا العسكر الخاص وتدريبه وترفيهه معيشته ، والتأنيق في كسوته حتى صار من الطبقة الاولى في عساكر العالم ، لا يفضلُه عسكر آخر . ولما زار امبراطور ألمانيا غليوم الثانى صديقه السلطان عبد الحميد الثانى واستعرض أمامه هذا الحرس الخاص ؛ ابتهج الامبراطور به ابتهاجاً أكيداً وقال : إنه يضاهاى أحسن عسكره في ألمانيا . وكان إذا خرج السلطان يوم الجمعة للصلاة أقيمت له مراسم حافلة

تتجلى فيها الهيبة الملوكية إلى الدرجة القصوى ، وتسير الوزراء والقواد أمام مركبة السلطان مشاة على الأقدام ، وتصطف عساكر الحرس المذكور عن الجانبين ؛ العرب من جهة ، والأرناؤوط من جهة ، فيكون لذلك أبهة وروعة لا ينكرها أحد . وكان يسمى هذا الاحتفال برسم السلك ، فتقصده كبار الأجانب والسياح من جميع الأقطار ، وقلما كان السلطان يخرج من قصره إلا لصلاة الجمعة ، وكان سفراء الدول يذهبون غالباً لشهود هذه الحفلة ، وكان اقتصار السلطان في حرسه على العرب والأرناؤوط دليلاً واضحاً على عدم ثقته في الأتراك الذين يوجد منهم غالباً من ينوي له سوء .

وقد كنا نلاحظ أيضاً أنه عند ما يخرج لصلاة الجمعة — سواء كان راكباً جواداً أو راكباً عربية — يكون عن جانبيه فارسان ؛ كلٌّ منهما سيفه مسلول في يده وهما أيضاً عربيان أحدهما محمد باشا العرقسوسى من دمشق ، والثانى على باشا قيراط من طرابلس الغرب . فلما تولّى السلطان محمد رشاد وصار الأمر إلى حزب جون ترك ثروا هذا الحرس الخاص من أرناؤوط وعرب نثراً ، ولم يبقوا له أثراً .

ونعود إلى ذكر إقبال السلطان عبد الحميد على الأرناؤوط فنقول : إنه أمتعهم بامتيازات كثيرة ، وأعلقهم بحبال الارتباط بشخصه حتى صاروا لا يبتغون منه بدلاً ولا عنه حوْلاً . ولما قام الاتحاديون بالانقلاب وإعلان القانون الأساسى ثقل ذلك على الأرناؤوط وتوجسوا خيفة قصر حريتهم ، لأن القانون الأساسى كان معناه المساواة التامة بين الرعية ، وهم لم يكن السلطان يعاملهم بالحقيقة بالمساواة ، بل كان يميزهم على غيرهم ، ويُسبغ عليهم من النعم ما لا يعرفه فريق آخر من الرعية ، ولذلك اجتهدت جمعية الاتحاد والترقى في استرضاء الأرناؤوط بجميع الوسائل حتى لا يناهضوا الدستور ، ووعدتهم بابقاء امتيازاتهم الأولى ، وافتتح مدارس تعلم فيها لغتهم ، وباعتبار اللغة الأرناؤوطية لغة رسمية في بلادهم ، وبمعاملتهم في كثير من الأحيان بحسب تقاليدهم وعاداتهم ، وبتعزيز الشرع الاسلامى فيما بينهم ، وأخذت توزع الأسلحة على الأرناؤوط ليتمكنوا من مقاومة السريين ، وأهالى الجبل الأسود

وكل هذا قصدت به جمعية الاتحاد والترقي اجتذاب الأرناؤوط إلى ناحيتها حتى لا يعارضوا نشر الدستور ، ولا يحدثوا عليه ثورة وهم أسرع الناس إلى الثورات . إلا أن الأرناؤوط كانوا لا ينسون منزلتهم الخاصة عند السلطان عبد الحميد ، وكانوا لا يثقون في حزب « جون تورك » ففي أول سبتمبر سنة ١٩٠٩ أرسلوا وفداً إلى سلانيك يطالب باعادة الاحكام في ألبانيا إلى الشرع الشريف ، وبالاعتراف بامتيازاتهم وبتأسيس مكاتب أرناؤوطية على نفقة الدولة مما لم يكن يُرضى جمعية الاتحاد والترقي التي داهنتهم في أول الامر من قبيل التسكين وتخدير الاعصاب ، حتى لا يثوروا في وجه النظام الجديد . فلما رأتهم ممعنين في الادلال ، متعنتين على الدولة بصنوف المطالب قررت بازائهم إرهاف الحد ، وإدخالهم في الطاعة كسائر أجناس الرعية . وكان بين الارناؤوط رجل اسمه « عيسى بولاطين » من زعمائهم ، ولم يكن يراعى القوانين ولا يتحرّج عن القتل والنهب إذا ألجأه الأمر . وكان السلطان عبد الحميد يصيبه بنعمه المتواترة حتى تسلم البلاد من عيشه ، فلما أعلن الدستور لزم عيسى بولاطين بيته ساكناً ولكن الاتحاديين لبثوا يحسبون له حساباً ، فأصدروا الأوامر إلى الحكومة المحلية بنزع سلاح عيسى بولاطين والجماعة التي حوله ، ومن المعلوم أن الارناؤوطي يؤثر الموت على تسليم سلاحه ، فعصى عيسى بولاطين الأمر فسأقت الدولة عسكرياً بقيادة جاويد باشا فذهب هذا الجيش ودمّر القرى وأوقع بأهلها ، ودك الحصن الذي يسكنه عيسى بولاطين ، فثار الارناؤوط في كل الجهات من أجل ذلك ، واتسعت الثورة فضاغف جاويد باشا القوة وبطش بالثائرين بطشة جبارين ، ونزع الأسلحة من أيدي الارناؤوط وتقاضاهم غرامات ثقيلة ، وقيل إنه قتل النساء والاولاد - وهذا ما لانتعده ، ولكنه أشيع يومئذ عمداً - فاجتمع ثلاثة آلاف أرناؤوطي في « فيرازوفيتش » لأجل الاحتجاج فرماهم جاويد باشا بالقنابر ، وشرّد بهم من خلفهم ، ثم أخذت الدولة باحصاء النفوس فازداد قلق الأرناؤوط ، وعلموا من هذا أن الدولة تريد إجراء الخدمة العسكرية في ألبانيا . وكان مقصد الجون تورك في الواقع أن يلغوا امتيازات الارناؤوط تدريجاً ، وأن يجبروهم على دفع الضرائب التي تدفعها سائر الرعية ، وأن ينسوم تلك الدالة

التي عودهم إياها السلطان عبد الحميد ، وكل هذا كان بعيداً عن أن يرضى به الأرناؤوط وفي ١٧ يوليو سنة ١٩٠٩ عقد الأرناؤوط في « فريز وفيتش » مجعاً عاماً للتحديث فيما بينهم في ما يجب أن يعملوه لمعالجة هذه الحالة ، فأرسلت جمعية الاتحاد والترقي نيازي بك أحد أركانها لأنه أرناؤوطي ، وأصحبته بجماعة من المخلصين لها على أمل أن يصرفوا الأرناؤوط عن المطالبة بما يخالف مصالح الدولة ، فلم تقترن مساعيها بالنجاح ، لأن المؤتمر الأرناؤوطي قرر أن يكون للأرناؤوط حق بتولي المناصب الإدارية ، وبتعليم اللغة الأرناؤوطية ، واقترح توسيع سلطة مجالس الولايات وإنشاء الطرق وعقد اجتماع سنوي للأمة الأرناؤوطية ، وعدم تقاضي الأرناؤوط شيئاً من الضرائب عدا العشر ، وأن يؤخذ معدل خمس سنوات ويجعل منه متوسط ويصير جباية ثابتة ، وغير ذلك من الاقتراحات التي رأت فيها جمعية الاتحاد والترقي مقدمة لاستقلال داخلي في ألبانيا ، وكانت بلاد البانيا الجنوبية ساكنة ، بخلاف البانيا الوسطى والشمالية إلا أن الحركة في آخر الأمر شملت الجميع ، وقرر الأرناؤوط فيما بينهم الحرب لأجل الاستقلال بآدارتهم الداخلية وتحفزوا للقتال .

وفي سنة ١٩١٠ بدأت الثورة في نواحي « برشتنه » بسبب الضرائب فأمرع الأرناؤوط من سائر الجهات إلى نجدة أرناؤوط برشتنه ، فأرسلت الدولة جيشاً نحو عشرين ألف مقاتل ، ومعهم ثلاثون بطارية من المدافع تحت قيادة شوكت طورغوط باشا ، فقاتلوا الأرناؤوط قتالاً شديداً ولكنهم لم يقدروا عليهم ولا سيما في مضيق « كاتشانيق » وهو موقع شديد المنعة في ولاية قوصوه احتله الأرناؤوط ، وعجز العسكر عن أخذه ، فما زالت ترد الامدادات إلى شوكت طورغوط باشا حتى تمكن من الاستيلاء على المضيق وهزم الأرناؤوط بعد وقائع دموية ، ودمر لهم قرى كثيرة فانتقلت مقاتلة الأرناؤوط إلى مضيق « تشرنالوفة » ولبشوا يقاتلون . فأرسلت الدولة محمود شوكت باشا ينصح للأرناؤوط بالسكف عن القتال وبالدخول في طاعة الدولة فتوفق في مهمته وأخلد الأرناؤوط إلى السكينة . إلا أن عيسى بولاطين وإدريس صقر وعدة آلاف من الثائرين معهما لاذوا بالفرار إلى جهة الجبل الأسود ، وإلى

قرى الارناؤوط الكاثوليك ، وكانت الثورة الأرناؤوطية ، في بداية الأمر قاصرة على الارناؤوط المسلمين ، ففي سنة ١٩١١ انضم إلى المسلمين قبائل الارناؤوط الكاثوليك وصارت جمعيات الارناؤوط في ايطاليا ورومانيا تعتمد الثورة ، وجاءت إلى الارناؤوط نجدات من الجبل الاسود ، وصار ثوار الارناؤوط يلجأون إذا ضاقت بهم الحال إلى أرض الجبل وعادت الثورة فازدادت اشتعالا ، وعيّبت الدولة ستين تابورا ، وأخذ شوكت طورغوط يدمر قرى المايسور الماردية من الارناؤوط الكاثوليكين ، فعند ذلك توسّطت دولة النمسا والمجر لدى الباب العالي لأجل الكف عن سفك الدماء ، فاستمعت الدولة نصيحة النمسا وأخذت في تضميد جروح الارناؤوط بما أمكن ، وسكن الارناؤوط ولكنهم رجعوا إلى اقتراحتهم الأولى وهي احترام الدولة لعاداتهم القومية واستقلال التعليم في مكاتبهم ، واستعمال الحروف اللاتينية ومنح البانيا إدارة لامركزية ، وانفاق ما يفيض من واردات البانيا على منافع هذه البلاد ، واجتمع مبعوثو الارناؤوط تحت رئاسة حسن بك مبعوث اسكوب وقرروا هذه المطالب فأجابت الدولة بالقبول وأصدرت العفو عن جميع الثائرين ، وساحت في كثير من بقايا الاموال الأميرية ورضيت بأن تكون الخدمة العسكرية سنة في الاستانة وسنتين في نفس البانية ، وأوجبت أن يكون المأمورون في البانيا عارفين باللغة الارناؤوطية ، وأخذت الدولة ترمم البيوت التي دمرتها العساكر ، ووزعت مبالغ من النقود على المصايين ، وهكذا سكنت الثائرة الارناؤوطية ، وذهب السلطان محمد الخامس بنفسه إلى بلاد الارناؤوط وصلى في صحراء قوصوه ووراءه جمع قيل إنه مائة الف مصل ، ورجع إلى الاستانة مسرورا .

وفي تلك الأيام بدأ الشقاق بين أعضاء الاتحاد والترقي أنفسهم ، واختلفت الآراء في مجرى السياسة التي يجب على الجمعية اتباعها ، فخرج منها أناس مغاضبين ، منهم أمير الألاي صادق بك الذي كان من مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي ، فانفصل عن الجمعية وألف حزبا جديدا معاكسا لها ثم استعفى طلعت بك ، وأمر الله افندي وحلاجيان افندي من النظارات ، التي كانوا يتولونها وظهر للناس ضعف الحكومة ولم يكن مجلس المبعوثين بأحسن منها حالا بل كانت تتوالى فيه المشاحنات والمهاترات

بين الأحزاب ، ومرة جرت حادثة بين نواب العرب ونواب الترك وكادوا يتضاربون والحلاصة أن العثمانيين كانوا في ذلك الوقت يمزق بعضهم بعضاً ، وكانت كل العلامات تؤذن بسوء المصير ، وإذا بحادث طرأ بغتة وهو أن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا أو تتخلى لها عن طرابلس الغرب و برقة ، وكانت مطالب إيطاليا عبارة عن خمسة وهي : خروج العساكر العثمانية من طرابلس ، و بنغازي ، و درنة ، وتشكيل جنדרمة فيها تحت قيادة ضباط من الطليان ، وأن تكون إدارة الجمارك بأيدي مأمورين من الطليان أيضاً ، وأن لا يتمتعين وال طرابلس إلا برضى إيطاليا ، وأعطى الباب العالي مدة أربع وعشرين ساعة ليجيب بالقبول . فاجتمع مجلس فوق العادة في القصر السلطاني ، وسمع حتى باشا الصدر الأعظم كلاماً مهيئاً بسبب إهماله وعدم احتياظه لأن سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان ذكر له أن مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند تركيا ، وأنه سبق لإيطاليا كونها قدمت مذكرة إلى الباب العالي سنة ١٩٠٤ بمد اتفاق إيطاليا مع فرنسا وانكلترا تقول فيها : إنها مادامت الحالة غير متغيرة في البحر المتوسط ، فإن إيطاليا لا تدعى بشيء في طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير في البحر المتوسط يخل بالتوازن الدولي فهي مضطرة أن تتخذ تدابير لوقاية مصالحها . ثم إن حتى باشا كان سفيراً في رومة ، فكان يجب عليه أن يطلع على حقيقة نيات إيطاليا وليس لحق باشا عذر في غفلته هذه . فثبت بحق حتى باشا ما أوجب استقالته ملوماً بل مغضوباً عليه ، ولم يقدر هو أن يدافع عن نفسه . ثم أجاب الباب العالي برفض مطالب إيطاليا قائلاً لها : إذا كانت ستصمم على احتلال طرابلس فإن الدولة تقوم بالواجب عليها بأزاء اعتداء إيطاليا .

وحقيقة مسألة طرابلس الغرب من أولها إلى آخرها لا تخرج عن كون انكلترا وفرنسا تقاسمتا أفريقية ، وذلك على أثر حادثة فاشودة المشهورة التي كادت توقع الحرب بين هاتين الدولتين ، فمئذ ما اقتنعت فرنسا بارجاع جنودها من فاشودة اتفقت الدولتان على تقسيم أفريقية كلها تقريباً بينهما على قاعدة أن فرنسا تسكت لانكلترا على وادي النيل وجميع توابعه ، وهن امتلاك الخط الممتد من البحر المتوسط إلى البكاب ، وبمقابلة

ذلك توافق انكلترة على احتلال فرنسا للمغرب بمخافيره وتوابعه ، وقد كانت هذه السياسة التى اتفقت فرنسا وانكلترة عليها هى الأصل الأصيل فى الحرب العامة ولولاها كان يبعد كثيراً وقوع هذه المجزرة البشرية الكبرى ، وذلك لأن المانيا وجدت فى عمل فرنسا وانكلترة هذا استخفافاً بها ، وجهالة لمكانها بين الدول العظام وأخذت من ذلك الوقت تترصد الفرصة لاطهار ما فى نفسها من عمل انكلترة وفرنسا وأبت أن تعترف لفرنسا بحق احتلال مراكش . وسيكون لهذه المسألة أدوار أخرى تمر بها وتزيد العداوة بين المانيا وانكلترة إلى أن تنشب الحرب العامة ، لأنه عند ما اشتدت الأزمة بين فرنسا و المانيا من أجل استيلاء فرنسا على مراكش ؛ كان الفرنسيين سألوا الانكليز عما يكون من موقفهم فى هذا الخلاف ؟ فأجابوهم بأن الأسطول الانكليزى حاضر للعمل فى جانب فرنسا . فكان هذا الجواب هو أعظم عامل فى زرع العداوة بين الالمان والانكليز . فالحرب العامة إذاً وإن تعددت أسبابها فقد كان السبب الأقوى فى نشوبها اتفاق انكلترة وفرنسا على تقسيم أفريقية وانتهاء الأمر باحتلال فرنسا للمغرب بمساعدة انكلترة ، فانكلترة من زمن قديم تريد أن تربط شرقى أفريقية بالهند ، وتجعل من ذلك مستعمرة واحدة ، ولأجل تحقيق هذا المشروع توصلت بوسائل لا تحصى ، أولها القضاء على الدولة العثمانية حتى يتسنى لانكلترة وضع يدها على جزيرة العرب التى هى حائلة فى الوسط بين أفريقية والهند ، الثانى القضاء على استقلال الدولة الإيرانية ، وقد كانت انكلترة اتفقت سنة ١٩١١ مع روسيا على اقتسام المملكة الفارسية فجعلوها ثلاث مناطق ؛ الشمالية تحت تصرف روسيا ، والجنوبية تحت تصرف انكلترة ، والمتوسطة مستقلة إلى حد محدود تحت نفوذ الدولتين .

وهكذا أصبح ممكناً أن تمد انكلترة خطاً حديدياً فى جنوبى فارس آتياً من الهند إلى العراق ، ثم تمدّه فى أراضي الدولة العثمانية من حدود فارس فى أرض العراق وفلسطين إلى مصر ، وهكذا إلى رأس الرجاء الصالح ، وتكون جميع البلدان التى سيمر بها هذا الخط من أملاك انكلترة خالصة لها . فما اكتفت انكلترة بالاستيلاء

على بلاد الهند التي فيها ٣٣٠ مليوناً من السكان ؛ بل حاولت أن تطفر من الهند إلى أفريقيا ، وتجعل هاتين القارتين ؛ غربي آسيا ، وشرقي أفريقيا قطعة واحدة ، لا ينازعها فيها منازع . وكأنها تريد أن تأخذ موثقاً على الدهر ، وتجعل الفلك الدوار يدور على محور إرادتها ، فجميع هذه الأمم من هنود وإيرانيين وعرب ومصريين وأحباش وصوماليين وزنوج لم يوجدوا في نظر انكلترة ليكون لهم حرية في أنفسهم ! وإنما أوجدهم الله ليكونوا رعايا لانكلترة حتى تكون لها الكبرياء في الأرض ، ولأجل إتمام تصور هذا لزم لها أن تسترضى فرنسا فتبيعها احتلال المغرب ، واسترضاء إيطاليا فتتفق مع فرنسا ويسمحان لها باحتلال طرابلس الغرب ، فهل تمكنت انكلترة من تطبيق برنامجها الواسع هذا ؟ الجواب إنها قد لقيت في تطبيقه ما لم تكن تتوقعه بل ما لم يكن يخطر لها على بال ! فأول خرق وقع في هذا البرنامج وقع من جهة فارس فان انكلترة كانت تقاسمت فارس هي والروسيا قبل الحرب العامة ، ثم جاءت الحرب العامة فكانت نتيجة الظفر الأكبر لانكلترة ، وكان من المعقول أن إيران بعد هذا الظفر تصبح - لاسيا المنطقة الجنوبية منها - مستعمرة انكليزية ، فكان الذي حصل هو عكس ذلك ، ورجعت إيران فأخرجت الانكليز والروس من بلادها ، ورجع خط الاتصال بين الهند ومصر منقطعاً .

وأما الخرق الثاني في برنامج الساطنة البريطانية هذا فقد وقع من جهة بلاد العرب ، فقد كانت انكلترة تفكر بأنها إذا قضت على الدولة العثمانية كانت هي الوارثة لها في بلاد العرب فتصرف بهذه البلاد كما تشاء ، والملك حسين بن علي الذي زعمت أنها حالفته واعترفت باستقلاله بدل قيامه على الأتراك ؛ إنما تجعل له الحكم في الحرمين الشريفين فقط ، وهو مع ذلك سيكون مضطراً إلى قبول أية كلمة تصدر منها . وأما نجد والعراق وفلسطين فهذه كانت في نظر انكلترة مرشحة لتكون من المستعمرات البريطانية ، فظهر لها بعد الحرب العامة وبعد ظفرها مع حلفائها أن العراق لا يرضى أن يكون من جملة مستعمرات انكلترة ، وما زال يشور حتى اضطرت انكلترة إلى الاعتراف باستقلاله ، وهي وإن كانت اتفقت مع العراقيين على تأمين المواصلات الأمبراطورية

كما يقال ، فهذا التأمين للمواصلات ليس بسرمد ، كما أن نجداً مع توابعه الواصلة إلى الجوف ، وإلى قرى الملح على مقربة من شرق الأردن ؛ بقي مستقلاً تمام الاستقلال ، يليه ملك عظيم الشأن هو « عبد العزيز بن سعود » وقد أوسع ملكه بالاستيلاء على الحجاز وصارت هناك دولة عربية مؤلفة من نجد والحجاز وعسير يسكنها زهاء خمسة ملايين من قبائل العرب المسلحة ، ولا يسهل على انكلترة أن تلعب بها كما تشاء ، ولا أن تجعل فيها خطوط مواصلات . فلذلك كان هو هذا الخرق الثاني في البرنامج البريطاني .

ثم بينما هي تظن أنها قد تملك مصر ولم يبق لها معارض فيها ولا في السودان و بينما هي تقيم القيامة اليوم لأجل منع إيطالية ، من الاستيلاء على الحبشة حتى تؤمن السلطنة التي تحلم بها من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ؛ ظهر لها خرق ثالث في هذا البرنامج ، وهو قيام المصريين عن بكرة أبيهم يبلغون انكلترة أن جميع مماطلاتها لن تفيدها شيئاً في حل الخلاف الذي بينها وبين مصر ، وهو الخلاف الذي يأبى المصريون أن يعرفوا له حلاً غير مؤسس على استقلال مصر التام ! . فهذه إذا ثلاثة خروق ؛ أولها إيراني ، والثاني عربي ، والثالث مصري ، في هذا البرنامج الواسع الذي حلت به انكلترة ، وليس الانكليز بأول كتلة بشرية اتسع سلطانها حتى أفقدها رشدها ، وجعلها تحاول تخليد حكمها على آفاق لا تغرب الشمس عنها . بل من قبلها سكرت أمم كثيرة بنخمة العز ! و بينما هي تظن أن لم يبق لها منازع في الدنيا ؛ جاءت بها الحوادث بما لم يكن في حسابها ، وخسرت ما كانت قد تظنته مما ملكت أيمانها ، وظهر على الأمر من لم يكونوا لها على بال . ولا بد أن يصدق فيها قوله تعالى (فأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين) ونعود إلى غارة إيطاليا على طرابلس الغرب فتقول : إنها وإن كانت قد اعتذرت بكون الانكليز والفرنسيين تقاسمتا أفريقية ، ولم تبق لها شيئاً غير طرابلس الغرب فاضطرت إلى احتلالها ؛ فانه لم يكن من ضمير حي ، ووجدان قوى ، ليقبل هذا التعليل ويجعله حجة ! ! . وإن كان مما لاشك فيه أن انكلترة وفرنسا كانتا على وفاق مع

إيطاليا في قضية طرابلس . ولذلك عند ما استغاثت تركيا بدول أوربا جمعاء مما فعلته إيطاليا أصمت انكلترة وفرنسا آذانهما عن سماع نداء تركيا !! وليتأمل المتأمل في تلوى السياسة ودناءة مبادئها ، وذلك عند ما يرى أن اعتداء إيطاليا على طرابلس لم تقابلها انكلترة بأذى كلمة استنكار ، على حين أنها اليوم تحشد انكلترة ١٨٠ بارجة حربية ، وتجمع كلمة خمسين دولة من أعضاء جمعية الأمم على مقاطعة إيطاليا التجارية بحجة أن إيطاليا شنت الغارة على الحبشة ظلماً وعدواناً ، كأن الغارة على طرابلس لم تكن ظلماً وعدواناً !! يحللونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ويفضحون أنفسهم أمام التاريخ ولا يبالون بما يقال عنهم .

أرسلت إيطاليا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أسطولاً عظيماً إلى مرسى طرابلس فأنذر البلدة بالضرب إن لم تستسلم له ، فأبت البلدة الخضوع فبدأ يرميها بالقنابر وما زال يرميها حتى تمكن من احتلالها في ٧ أكتوبر ولم يكن فيها قوة من الجيش التركي النظامي غير ألفين إلى ثلاثة آلاف عسكري ، لم يكن لها قبل بتجريدة إيطاليا لافي العدد ولا في العتاد ، وإنما كان الأهالي العرب هم الذين تولوا كبر المقاومة . وبعد أن نزل الطليان بساحة طرابلس حاول العرب أن يردوا العسكر الإيطالي إلى البحر ، فاقتتل الفريقان من ٢٣ أكتوبر إلى ٢٦ منه بشدة نادرة المثال ، وكاد العرب يقامون الطليان من طرابلس ، ولولا امتناع الطليان بقلاع طرابلس لأخرجوهم منها ولكنهم امتنعوا ريثما تكاملت جموعهم بوصول الامدادات من البحر ، وردوا العرب إلى الوراء بعد أن لحقت بالطليان خسائر جسيمة . ومن شدة ما لحق بهم من الخسائر ارتكبوا فظائع لا تزال وصمة عار عليهم في التاريخ ، وذلك في حادثة المنشية التي ذبحوا فيها الأهالي ولم يستثنوا أحداً ولا النساء ولا الأطفال !! ونشرت ذلك الصحف الأوربية - حتى الصحف المعادية منها للإسلام - فانكفأ الطرابلسيون إلى « واحة عين زارة » فتقدم الطليان بقوة كبيرة وأخرجوهم منها ، فانكفأوا إلى « غريان » وصاروا يناوشون الطليان القتال بينها وبين مدينة طرابلس . وقد طرح مبعوثو طرابلس قضية بلادهم في مجلس الامة العثمانية ، فحصلت المناقشات فيها فتبين من إهمال الحكومتها

العثمانية في ظل الدستور والحرية مالم يكن معهوداً في زمن السلطان عبد الحميد الذي رموه بكل سوء . فمن جملة ذلك أن حامية طرابلس كان ينبغي أن تكون بحسب النظام ١٧ تابوراً من المشاة و ١٠ كواكب من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء ، والحال أنه لم يوجد في كل طرابلس إلا أربعة آلاف جندي نظامي لايزيدون ، وأنه كان أهالي طرابلس قد اقترحوا التجنيد من تلقاء أنفسهم ، وقرر المجلس في السنة السابقة النفقات المالية لذلك ، وعند ما حضر الشبان للتجنّد وكانوا ستة عشر ألفاً لم تقبل القيادة منهم إلا ثلاثة آلاف وأربعمائة . وكان يوجد في طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع مرتينى ونوع شنيذر ، فاسترجعتها الحكومة إلى الأستانة على وعد أن ترسل بدلا عنها أربعين ألف بندقية موزر ، فنسيت الحكومة هذا الوعد ولم ترسل شيئاً ، وتبين أن المشير ابراهيم باشا الذي كان والياً لطرابلس قبل ذلك بسنوات اقترح تأسيس معمل سلاح وقراطيس للبنادق في نفس طرابلس وكتب إلى الباب العالي بأن أهالي طرابلس أشداء ذوو بصائر في الحروب إذا أغارت عليهم دولة أجنبية يقدرّون أن يدفعوها عن بلادهم ، بشرط أن يكون عندهم الأعتدة والأسلحة الكافية ، ولما كان لا يوجد عند الدولة قوة بحرية تؤمن إيصال الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت على هذا القطر دولة كدولة إيطاليا ، فانه يجب إرسال كمية وافرة من الأسلحة إلى ثكن طرابلس ، وتأسيس معمل للسلاح أو للارصاص بالأقل في نفس طرابلس ، بحيث يكون في أيدي الأهالي عدة كافية يدافعون بها عن أنفسهم عند الحاجة ، فهذا الاقتراح أهمله الباب العالي ولم ينظر فيه برغم النذر الكثيرة التي كان يتلو بعضها بعضها بأن إيطاليا تتأهب من زمن طويل للاغارة على طرابلس و برقة .

بل حدثني من أثق به من زعماء الطرابلسيين ، ومنهم كبيرهم السيد أحمد الشريف السنوسي رحمه الله بأن الدولة في زمن السلطان عبد الحميد كانت ترغب في تجريد أهالي طرابلس من السلاح ، وتسكّس الزوايا السنوسية التي تظن فيها وجود أسلحة وأن انتقال السيد المهدي السنوسي من واحة جغبوب إلى واحة الكفرة على مسافة ٢٥

مرحلة من بنغازى إلى الجنوب كان أصل السبب فيه اعتقاد المهدي السنوسى أن هذا القطر سيتعرض في يوم من الأيام لاحتلال إيطاليا ، وأنه سيحتاج الاهالى إلى السلاح حتما ، والحال أن الدولة العثمانية - بعناية قلب غير مفهومة - كانت تحاول تجريد الأهالى من أسلحتهم ، ولا تريد أن تدرك أن هذا القطر دون غيره هو تحت خطر غارة أجنبية لا تقدر الدولة أن تدفعها إلا إذا كان الاهالى متسلحين . فالسيد المهدي السنوسى رضى الله عنه كان يرى ضرورة التسلح في وجه الأجانب ، ولكنه لم يكن يريد أن يخاضم الحكومة العثمانية التي كانت ضد هذا الأمر ، فأوغل في الصحراء وسكن في الكفرة بعيداً عن الحكومة ، وذلك حيث يمكنه أن يتسلح هو ومن معه ، وأن يستقل بأرائه . ولما ذهبت أنا إلى برقة لأجل الجهاد بعد الغارة الإيطالية ببضعة أشهر ؛ سمعت أن متصرف بنغازى كان قبل حرب طرابلس بشهرين يكبس زاوية من زوايا السنوسيين اسمها زاوية القطفية بتهمة أنه مخبأ فيها سلاح . (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ولما اجتمعت بأنور رحمه الله بمسكر عيد منصور فوق درنه ، حيث أقمت ثمانية أشهر مجاهداً . كنت أتحدث اليه بما في نفسى من تقصيرات الدولة الفظيعة بحق طرابلس ، وكان يوافق على ذلك كله ولا يجرد عن إهمالها عذراً .

ثم إنه كان تقرر لدى الدولة تعليم أهالى طرابلس الحركات العسكرية ، وأن هذا القرار أيضاً قد أهملته الحكومة ، ولهذا طلب مجلس الأمة محاكمة حتى باشا وزملائه الوزراء لأجل ما ارتكبوه من هذه الإهمالات كلها ، فلم ينفذا القرار بسبب أن بعض الوزراء كانوا من أركان الاتحاد والترقى ، فكيف يمكن الجمعية أن توافق على إدانتهم ومحاكمتهم ؟ فبقى هذا القرار من المجلس حبراً على ورق .

وكان الصدر الأعظم سعيد باشا قد جنح إلى الصلح ، لأن إيطاليا كانت قد احتلت رودوس والجزائر التي تجاورها ، وكان البحر في يدها ، ولم يكن الأسطول العثمانى كفؤاً للأسطول الإيطالى . فكان الصدر يرى وجوب الصلح على شرط إبقاء السيادة العثمانية على طرابلس ولو بالاسم ، وحفظ حقوق الخلافة الإسلامية ، وكانت

هذه سياسة دفع الضرر الأشد بالضرر الأخف ، إلا أن الرأى العام الاسلامى كان ضد التساهل فى قضية طرابلس ، لا سيما عند ما رأى المسلمون أن عرب طرابلس لبوا داعى الجهاد بشكل لم يكن منتظراً ، ووقفوا فى وجه إيطاليا وقفة كان الأوربيون أنفسهم لا يصدقونها لو لم يروها بأعينهم ! . فإيطاليا كانت تظن بحسب المعلومات التى عندها عن ضعف الحامية العثمانية فى طرابلس ؛ أنها تستولى على هذا القطر فى مدة لا تتجاوز ١٥ يوماً ، وهى لا تشك فى ذلك ، ولما سمع اللورد كتشنر بظن إيطاليا هذا - وهو القائد المحنك المشهور - وكان يومئذ المندوب السامى البريطانى فى مصر قال : إني أرى الطليان مفرطين فى التفاؤل ، وإن تجربتى الطويلة فى حروب أفريقيا تجعلنى أخطئ . هذا الرأى وأقول : إن احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب و برقة قد يستغرق ثلاثة أشهر . . . فهذه الثلاثة الأشهر التى ضربها أمداً اللورد كتشنر القائد الانكليزى الكبير ، المنجذ فى حروب العالم الاسلامى ، والخمسة عشر يوماً التى ضربتها إيطاليا أمداً لتنام الاستيلاء على طرابلس ؛ كانت لدى الفعل عشرين سنة تامة ، وما انتهت إلا بأسر الشهيد عمر المختار وشنق الطليان إياه وذلك سنة ١٩٣١ ولو كان أهالى طرابلس يملكون ما فيه بلغة من العتاد والذخيرة لكانوا إلى اليوم حامين لساحتهم . فإيطاليا بعد غارتها على طرابلس بشهرين أو ثلاثة أوصلت جيش الاحتلال هناك إلى مئة ألف عسكرى ، ولكنها لم تقدر أن تتقدم إلى الأمام شبراً واحداً ، بل كان جيشها فى نفس مدينة طرابلس ، وفى بلدة خمس ، وفى مدينة بنغازى التى لم تقدر العساكر الإيطالية أن تنزل فيها إلا بعد معركة استمرت ثلاثين ساعة ، وجرى فيها من الوقائع ما تشيب له ذوائب الاطفال واحتل الطايان أيضاً بلدة درنة على البحر فى ذيل الجبل الأخضر ، وموقع طبرق من البطنان ، أى أنهم لم يكونوا داسوا من أرض طرابلس سوى هذه المدن الاربع ، بينما لهم هناك مائة ألف عسكرى تمدها البوارج الحربية من البحر ! !

وكان أنور ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى برلين ، وكان على فتحى ملحقاً عسكرياً بسفارة الدولة فى باريز ، فخف أنور من براين إلى الاستانة يقصد الجهاد فى طرابلس ، ولما أبدى اقتراحه وجوب تسفير جانب من الضباط إلى طرابلس لم يعتقد

أحد في الاستانة بأن ذلك يؤدي إلى فائدة عملية ، ولما استأذن لنفسه في الذهاب إلى طرابلس قال له محمود شوكت باشا ناظر الحربية : لا أرى فائدة من سفرك ، وربما يقتلك العرب في الطريق لأن الطليان يقدرّون أن يرشّوهم بالمال فيقتالوك ؟ ! فقال له أنور : لقد أهملنا طرابلس إهمالاً فظيماً ضاقت فيه فسحة المذر ، فيجب علينا أن نموض نفر يطنا في حقها ، وأن نبذل كل ما نستطيعه في سبيل الدفاع عنها ، وإذا كان العرب يقتلوننا في الطريق فيكون الذنب ذنبهم ، ونعود نحن معذورين . قال لي هذا أنور من فمه في معسكر درنه ، وقد وقعت بيني وبينه مودة أكيدة ، وخلطة ارتفع فيها التكليف بيننا ، واستمرت هذه المحبة منذ تعارفنا في عين منصور سنة ١٩١٢ إلى أن استشهد رحمه الله في أرض بخارى في محاربته للروس البلاشفة سنة ١٩٢٢ . ولما رأت الدولة إصرار أنور على الجهاد بنفسه في طرابلس ؛ أدّت إليه خمسة آلاف جنيه لاغير لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مرّوا من مصر متكرّرين ، وكان مصطفى كمال من جملة هؤلاء الضباط .

ولم يصلوا إلى السلّوم حتى وافقهم الأخبار بأن قبيلة من العرب يقال لها الشلاوية وهي من القبائل الصغرى أوقعوا بتابورين من الطليان وردوهم مدحورين إلى درنة وغنموا منها أسلّاباً كثيرة . فاشتد بهذا الخبر عزم أنور ، وأغذّ السير ، فأول ملاقى زعماء العرب ومشايخ الزوايا السنوسية في زاوية مرطوبة ، وكان العرب ناقلين على الدولة إهمالها أمر طرابلس ، ذاكرين تلك الحماقة التي كانت تظهر من عاملها في تجريدكم من سلاحهم ، فقالوا لأنور : إننا لا نعيش ولا نقاتل حتى تأتينا بالأسلحة والذخائر الكافية والمدافع . فأجابهم بأنه سيأتي بكل ذلك ، وكان مقصده بهذا الوعد الفارغ إثارة حماسهم حتى ينغمسوا في الحرب ، وإلاّ فهو كان يعلم صعوبة تهريب السلاح إلى طرابلس وبرقة ، فإن الأسطول الإيطالي كان مراقباً السواحل مراقبة شديدة فلم تتمكن تركيا من تسريب الأسلحة إلى المجاهدين إلّا في الأندر . والذي أعلمه أنه من محمول البواخر العديدة التي أرسلتها الدولة لم يصل إلّا محمول باخرتين لاغير ، إحداهما

تمكنت من التفريغ في سواحل برقة ، والأخرى تمكنت من التفريغ في ساحل طرابلس لأول هذه الحرب .

وقد كان من الممكن تهريب السلاح بواسطة سواحل مصر لولا أن الإنكليز شدّوا المراقبة إلى الدرجة القصوى بواسطة مصلحة خفر السواحل المصرية ، فلم تتمكن الدولة من تهريب بندقية واحدة بواسطة سواحل مصر . ولما كنت قد أقمت في معسكر عين منصور عدة أشهر ؛ فقد علمت أن السلاح الذي كان يقاتل به العرب هناك قليل منه كان من بقايا سلاح الدولة ، ومنه قسم من السلاح اليوناني المهرب الذي يقال له « غراء » والأكثر كان من البنادق الطليانية التي كان العرب يغمونها في أثناء الوقائع .

وقد أعجب العرب بحمية أنور و بسالته فأحبوه حباً جماً ، ولما وصلت إلى هناك وجدت في مخيم عين منصور من الجبل الأخضر على مسافة ساعتين من درنه إلى الجنوب سبعة أو ثمانية آلاف مقاتل من العرب من قبيلة العبيدات ، وقبيلة البراعة وقبيلة الحاسة ، وبينهم المشايخ السنوسية لزوايا الجبل الأخضر ، مثل سيدي محمد العالي الغماري شيخ زاوية البيضاء ، وسيدي محمد الدردفي شيخ زاوية شحات ، وسيدي محمد الغزالي شيخ زاوية تريت ، وغيرهم من أشياخ السنوسية .

وكان مع أنور بضعة عشر ضابطاً من الأتراك ، منهم مصطفى كال رئيس جمهورية تركيا اليوم ، وبضعة عشر ضابطاً آخرون من أبناء العرب . ولما مرت بطبرق كان الطليان احتلوها ، ولسكنهم بنوا استحكاماً بقرب البحر امتنعوا من ورائه فلم يكونوا يتقدرون أن يخرجوا منه ، وكان هناك أمامهم معسكر للعرب قائده أدم باشا الحلبي ، ولا يزيد عدد المقاتلين فيه على ألفين ، وبينه وبين معسكر الطليان في طبرق ساعة ونصف ، وكان عمدة المقاتلين للطليان في معسكر طبرق قبيلة يقال لها عائلة مريم من العبيدات ، وكان لها زعيم يقال له الشيخ المبري قُتل في الجهاد ، وكان القاعون بالجهاد في برقة هم السادة السنوسية تحت رئاسة السيد أحمد الشريف الذي استنفر القبائل كلها فانضوت تحت علم السنوسي ، وانقادت إلى الضباط العثمانيين تحت

رئاسة أنور القائد العام ، فكان معسكر صغير في طبرق أمام الحامية الطليانية التي نزلت في ذلك المرسى ، ومعسكر ثان في عين منصور تحت قيادة أنور بنفسه وهو يقابل الطليان الذين في درنة ، وكان عدد الطليان عشرين ألف مقاتل ، ولكنهم كانوا لا يقدرّون على الخروج ، وكلما خرجوا ردّهم العرب إلى حيث كانوا ، وقد بنوا استحكامات حول درنة يعتصمون بها إذا هاجمهم العرب إلى البلدة ، ولكن مهاجمة كهذه كان ينبغي لها مدافع ، ولم يكن في معسكر أنور إلا مدفعان صغيران لا غير . وكانت مدافع الطليان من أضخم المدافع ، وكانوا يقذفون علينا بالشرانبل بدون انقطاع ، وأظن أنه لولا المدافع الكبيرة ما استطاع الطليان الثبات في درنة نفسها . وأما المعسكر الثالث في برقة فكان في بنغازى تحت قيادة عزيز بك المصرى وكانت فيه قبائل العواقر ، والمغاربة ، والدرسة ، والعُرُفا ، والعبيد ، وفيه من زعماء السنوسية سيدى عمران السكورى ، وسيدى محمد بن عبد المولى ، وجم غفير معهما وكان المعسكر العربى مخيما في سهل يبعد ساعتين عن بنغازى إلى الجنوب ، وكنا نخمّن عدده بأربعين ألف مقاتل كلها تحت المضارب . وقد وقعت سواء في درنة أو في بنغازى وقائع في غاية الشدة ، وخسر الطليان فيها ألوفاً مؤلفة من الجنود ، وما استطاع الطليان أن يخرجوا مسافة شبر واحد إلا ردّهم العرب إلى المدن فاعتصموا بها تمّدهم بوارجهم من البحر .

وقد ذكرت هذه الحوادث في حواشى « حاضر العالم الاسلامى » في مبحث خاص بطرابلس الغرب أوسع من هذا . وبقيت هذه الحالة كما نحن واصفوها إلى أن نشبت الحرب البلقانية ، وهى التى هجمت فيها دول البلقان مجتمعة بسياسة قيصر الروسيا على تركيا مفاجأة ، فتغلبت عليها فبعثوا من الأستانة إلى أنور يستقدمونه إلى الأستانة بالحاح شديد ، فاضطر إلى ترك القيادة كارهاً ، وعاد إلى استانبول وخاض في حرب البلقان ، ولكن بعد أن كانت دارت الدائرة على الدولة . وكان لأنور بلاء حسن بمعية القائد احمد عزّت باشا الأرناؤوطى عند ما استرجع الأتراك ولاية أدرنة وبعد رجوع أنور إلى الأستانة صارت قيادة المجاهدين في يد عزيز بك المصرى

فبقى يقاوم الطليان مدة من الزمن لكنه اختلف مع السنوسية اختلافا شديداً ، وكانت إيطاليا قد اتفقت مع عباس حلمي خديوى مصر لذلك العهد ، وذلك على أنه يبذل جهده فى تسكين حركة المقاومة فاقتنع بذلك ، وأرسل وفوداً إلى السنوسية ينصح لهم بترك الجهاد فلم يقبلوا كلامه . وحدثنى السيد احمد الشريف أنه عند ما جاءه رسول الخديوى آخر مرة قال له : كئنا نتلقاك بالاكرام والاحترام مراعاة للذى أرسلاك وإن كئنا لم نستطع إجابة طلبه ، ولكن بعد أن تكرر قدومك علينا بالطلب نفسه فاننا مضطرون أن نذكرك بأنك إذا جئت بعد هذه المرة من قبل سمو الخديوى تنصح لنا بترك الجهاد فليس لك عندنا أمان على نفسك .

ولما قطع الخديوى أمله من السنوسية استقدم عزيز بك المصري إلى مصر وكانت الدولة قد عقدت معاهدة الصلح مع إيطاليا وأمرت عزيز بك على باخلاء برقة فجاء ومعه أربع مائة جندي هم بقية العسكر العثمانى الذى كان فى برقة ، والتمس السنوسية من عزيز بك أن يترك لهم الأسلحة والأعتدة التى كانت فى يد العسكر ، فاحتج بعدم إمكانه ذلك لأن الدولة كانت صالحت إيطاليا على طرابلس بعد أن هاجمتها الدول البلقانية ، ومن أجل ذلك لا يقدر هو أن يسحب العسكر إلا بسلاحه ، فحصل بينه وبين العرب من أجل قضية السلاح هذه معركة فى سهل « دَفْنَة » من البطمان غير بعيد عن السلوم ، قُتل فيها من العسكر بضعة عشر رجلاً ، ومن العرب زيادة على ستين فتكاثرت العرب واستصرخ بعضهم بعضاً وأحاطوا بالعسكر ومنعوه من المسير وكان مرادهم إصلاء عزيز بك والجنود الذى معه معركة لم تكن تنتهى إلا بفناء الأربع مائة جندي ، وعدد كبير من العرب المهاجرين ، فوصل الخبر إلى السيد أحمد الشريف بمكانه من الجبل الأخضر ، فأرسل السيد عمر المختار الشهيد المشهور يأمر العرب بالانصراف ، وترك عزيز بك المصرى بعسكره يسير إلى جهة مصر ، وكانت المسافة بين مكان السيد السنوسى ومكان عزيز بك مسيرة أربعة أيام ، فقطعها الشيخ عمر المختار فى أربع وعشرين ساعة ، ولما وصل وجد العرب كلها تجمعت وقد أحاطت بعزيز بك وعسكره تريد الأخذ بالثأر ، فأبغى عمر المختار قبائل العرب أمر السيد أحمد

الشريف وقال لهم : مهما كان قد حصل فانه لا يليق بنا أن تكون نهاية مساعدة الدولة لنا في هذه الحرب أن نفتك بعساكرها لأجل مسألة سلاح ، وهم مجاهدون ومسلمون مثلنا . وهكذا ألقى عمر المختار السلام بين الفريقين ، ومضى عزيز بك بعسكره إلى مصر وقد ترك السلاح للعرب

ولا بد من التنويه بالمقام المحمود الذي كان لأهل مصر في هذا الجهاد ، فان هجوم الطليان على طرابلس وقع بغتة ، فما مضت أيام حتى بدأوا بالتفاوض مع العرب واستجلبوا أناساً منهم إلى جهتهم لأن الطرابلسيين رأوا أن الدولة لم ترسل قوة تدافع بها عن بلادها ، ووجدوا القوة التي لها من قبل في طرابلس تكاد تكون عدماً ، فانقطعت آمالهم من إمكان الجهاد . وبينما هم في منتهى الانكسار إذ وصلت اليهم قوافل من مصر موقرة أرزاقاً يتلو بعضها بعضاً ، فكانوا كالأرض الميتة التي أصابها وابل فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ومن ذلك الوقت بدأوا بالجهاد العظيم ، وعلموا أن المسلمين من وراءهم ظهير ، ثم لم يلبث أنور أن وصل فازدادت بذلك ثقتهم واشتدت حماسهم ، وكان منهم هذا الجهاد الذي استمر عشرين سنة . على أنه لو لا دعوة السيد احمد الشريف هذه القبائل إلى الجهاد ما كان مجيء أنور من الأستانة ولا كانت جمعية الاغاثة المصرية التي ترأسها الامير عمر طوسون ليتمكنوا من تأسيس هذا الجهاد المبين على هذا الاساس المتين ، الذي أذن للعرب بأن يصدّوا دولة عظيمة كإيطاليا مدة عشرين سنة !

وأما من جهة غربي طرابلس فقد كان الجهاد لا يختلف في شيء عما كان في جهة برقة ، واجتمعت هناك الكلمة على الحرب دفاعاً عن الوطن ، والتفوا حول نشأت بك قائد الجند العثماني الذي جاءه فتحي بك الملحق العسكري العثماني في سفارة الدولة في باريز ، وصار هو رئيس أركان الحرب ، وانضم إليهم رجال طرابلس مثل الشيخ سليمان الباروني زعيم الأباضية ، وآل سيف النصر ، والمحاميد ، وأهالي مصراته وترهونه ، وزليطن ، وأرفلة ، وغيرهم . وكان للدولة معسكر أمام طرابلس ، ومعسكر آخر أمام خمس ، وكان في المعسكر الأول نشأت بك ، وفتحي بك ، وفي المعسكر

الثاني خليل بك خال أنور باشا ، ونورى بك أخوه . وكانت الحالة هناك كما كانت في برقة تماماً ، أى أن المجاهدين كانوا يصدون الطليان عن الخروج من طرابلس وخمس ، وبقى هذا الأمر إلى أن نشبت الحرب البلقانية وصالحت الدولة إيطاليا على طرابلس ، فانفضت هذه الجموع ، وركب نشأت بك وفتحى بك ببقية المساكر إلى الأستانة ، وكما أن المصريين قاموا بالواجب تحت رئاسة الأمير عمر طوسون من إمداد مجاهدى برقة ؛ فان التونسيين قاموا أيضاً بمثل ذلك من إمداد مجاهدى طرابلس وكل من الفريقين أنفق بدون حساب ، وتجلّى هناك تعاون المسلمين بما يسر الخواطر ويحقق قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) .

وأحرز أن المصريين أمدوا مجاهدى برقة بمبلغ لا يقل عن مائتى الف جنيه نقدا عدا قيمة الاقوات والارزاق التى كانت قوافلها متصلة يلاقى بعضها بعضاً بين غاد ورائج ، وقادم وقافل ، فهذه لا أعلم حسابها ، وعدا ثلاث بعثات أرسلها الهلال الأحمر المصرى ، وقام فيها بمساعدات كبيرة . وكان للدولة العثمانية أيضاً بعثات هلال أحمر متعددة وجاءت بعثة هلال أحمر أيضاً من قبل أهالى مَنتَتر فى الرومللى ، وعندما كان من معالجة الجرحى فقد وجدت هذه البعثات الصحية أن الاهالى كانوا مصابين بأمراض مزمنة ، وأوبئة مستحكة ، لا سيما مرض الزهري المنتشر . فأخذت هذه البعثات بمؤاساتهم بعد أن كانوا لا يعرفون شيئاً من أمر العلاج والوقاية ، فاستفاد الاهلون كثيراً فى صحتهم ، لا سيما عرب الجبل الأخضر . ولولا أن نشبت الحرب البلقانية والتزم المصريون تحويل إمداداتهم إلى جهة الأستانة ؛ لكان الجهاد فى القطر الطرابلسى بقي على حاله ، وكان الطليان لا يقدرّون أن يبرحوامرا كزهم وراء استحكاماتهم ولكن الحرب البلقانية شغلت المسلمين عن حرب طرابلس ، وانصرفوا عن المهم إلى الأهم ، وأخذت لجنة الاعانة تحت رئاسة الأمير عمر طوسون «أمين الأمة» ترسل الاعانات إلى الدولة ، وأراد الأمير عمر أن يبعث أيضاً مابقى من الاعانة الطرابلسية إلى الأستانة فكتبت إليه حينئذ أرجوه أن يبقى إعانة طرابلس لطرابلس لأنها فى الحرب البلقانية لا يكون لها غناء ذوبال ، وأما فى طرابلس فانها تسد أرماق المجاهدين

الذين كانوا يجاهدون مكتفين بالقوت الضروري ، فقد كان الواحد منهم يعيش بقرش ونصف في اليوم .

ولما طال القتال في طرابلس على غير نتيجة لاطاليا ؛ أخذت هذه تفكر في اشغال الحرب على تركيا في أمكنة أخرى ، فأما الدردنيل فكانت الدولة قد بادرت بتحكيمة ووضعت فيه أربعين ألف عسكري فلم يجزأ الاسطول الطلياني أن يقتحمه حذراً من الدمار ، ولكنه احتل موقعاً من جزيرة لمى .

ثم ذهب فدمر نسافتين من الاسطول العثماني كانتا في بيروت ، ولما لم يجد الطليان فائدة من هذه التهويلات أجمعوا احتلال جزيرة رودوس وبقي مع ذلك العثمانيين مصممين على القتال ، وكان فريق من الترك يود في الباطن مصالحة إيطاليا على طرابلس تخلصاً من الأخطار التي كان يخشى منها على الدولة باستمرار الحرب ، إلا أنهم خافوا هيجان العرب والعالم الاسلامي فيما إذا تخلوا عن طرابلس ، ولم يكن مساعداً لاطاليا يومئذ حسب زعم الطليان سوى الخديوي بالسبب الذي تقدم ذكره وقد أشار إلى ذلك جيولتي رئيس نظار إيطاليا السابق ، وذلك في مذكراته المطبوعة التي يذكر فيها تاريخ حياته ، فصرح بأن عباس حلمي خديوي مصر كان من أول حرب طرابلس إلى آخرها مساعداً لاطاليا بما أمكنه من الوسائل ، بحجة أن جده اسماعيل باشا عند ما خلع من إمارة مصر وسكن في نابولي أحسنت الحكومة الايطالية معاملته ! ولما اطلع الأتراك على هذا الكتاب بعد الحرب العامة ، وكان جيولتي نشره قبل ذلك ببضع سنوات كان لذلك وقع سيء لديهم ، وطعنتم جرائدهم في الخديوي السابق طعناً شديداً .

فالدولة كانت إذاً لا تجزأ على التخلي عن طرابلس حتى بعد احتلال رودوس وكان الطليان أصبحوا في حيص بيص من تمادي هذه الحرب التي كلفتهم مبالغ طائلة من المال « منذ عشر سنوات كانت ايطاليا أحصت خسائرها المالية على طرابلس بثلاثمائة مليون من الجنيهات » وعشرات ألوف من الرجال ، فحدثها نفسها أخيراً باحتلال بلاد الروملى ، وكان هذا مما يغيظ البلقانيين الطامحين إلى ميراثها من تركيا

وكانت روسيا قد بدأت بسياسة التأليف بين البلغار والسرب واليونان ، حتى يهاجموا الدولة العثمانية يدًا واحدة ، فوجدت إيطاليا في احتلال الروملى سببًا للتنازع بينها وبين البلقانيين ، فتوقفت عن ذلك وربما تكون إيطاليا كلفت روسيا اتخاذ سياسة ضغط على الباب العالي حتى يرضى بالتخلي عن طرابلس .

فأخذت روسيا تفاوض الدول العظام في التوسط لدى الباب العالي في هذا الأمر ، وأخيرا اتفقوا جميعاً على تقديم مذكرة إلى تركيا ينصحون لها فيها بوضع حد لهذا الخلاف ، فأجابت تركيا أن الصلح الوحيد الذى يمكنها أن ترضى به هو إلغاء قرار مجلس نواب إيطاليا استلحاق طرابلس الغرب ، وسحب جميع العساكر الطليانية من ذلك القطر ، وإلا فهي تقاتل إلى ما شاء الله قتال المظلوم المعتدى عليه ! وبينما تركيا على أشد ما يمكن من العزم للدفاع عن طرابلس لما شاهده من بأس الطرابلسيين وشدة بلائهم في هذه الحرب ، ولكونها لم تكن تتكلف عليهم في الشهر الواحد أكثر من مئة ألف جنيه ؛ إذ راعها اتحاد الدول البلقانية الأربع ؛ اليونان ، والبلغار ، والسرب والجبل الأسود ، وتحفزهم للزحف عليها فعند ذلك أجمعت الصلح مع إيطاليا مكرهة . وكان أنور لا يزال في الجبل الأخضر ، ووصل إلينا الخبر ونحن هناك . فعلمت أن الدولة لا تقدر أن تكافح البلقانيين جميعاً ومعهم إيطاليا . وفكرت أنه يمكنها إذا أكرهت على الصلح مع إيطاليا أن تستمر على إمداد الطرابلسيين سرّاً بواسطة مصر ، ويمكنها أيضاً أن تسحب عسكرها النظامى الباقى فى طرابلس بدون أن يحدث ذلك فتوراً فى الدفاع . فبعد أن وقعت مذاكرات بينى وبين السنوسيين من أعوان السيد أحمد الشريف لأنه كان وقتئذ لم يزل فى الكفرة ، برحت الجبل الأخضر قادماً إلى مصر ومنها قصدت إلى الأستانة ، فوجدت الحرب البلقانية على وشك الانفجار وكان الصدر الأعظم حينئذ مختار باشا الغازى ، ولكن السياسة كان أكثرها فى يد كامل باشا ، وكان ناظر الحرية ناظم باشا ، وكان شيخ الاسلام جمال الدين أفندى يقابلتهم جميعاً وأوضحتم لهم محاذير التخلي عن طرابلس ، فقال لى كامل باشا بالحرف : إننا لا نقدر أن نحارب أربع دول البلقان ، ونستمر على محاربة دولة عظيمة كإيطاليا .

فبينت له أن استمرار الدفاع عن طرابلس ممكن بدون تكليف الدولة مؤونة شاقة لأن المجاهدين هناك إذا كفلت لهم الدولة والعالم الاسلامي قوتهم الضروري فانهم يقدرون أن يصدوا العتليان عن التقدم ، وليس المقصد من مسعانا سوى إقناع الدولة بأنها إن أكرهت على الصلح لا تتخلى عن إمداد الطرابلسيين بواسطة مصر . فهذا الرأي لم يرفضه كامل باشا ، وكذلك أكد لي جمال الدين أفندي شيخ الاسلام بأن الدولة لن تهمل أهل طرابلس ، ولكنها مضطرة الآن أن تكف عن حرب إيطاليا حتى تكون انتهت من الحرب البلقانية .

و بالاختصار أرسلت الدولة نأبي بك ، ونحر الدين بك إلى سويسرة حيث اجتماعا مع برتوليني وفولبي معتمدى إيطاليا و باشرا مذاكرات الصلح ، وانتهى الأمر بأن الدولة تترك سيادتها على طرابلس لأهلها ، وتنصح لهم بالائتلاف مع إيطاليا ، وأن إيطاليا تعفو عن جميع الذين قاوموها في طرابلس من الأهالي ، والعساكر التي للدولة في طرابلس يخرجون منها ، كما أن العساكر الإيطالية تجلو أيضاً عن رودوس ، وجزر الأرخبيل التي احتلتها .

وكان أيضاً من جملة الشروط أن تبقى طرابلس مرتبطة بالدولة من الجهة الدينية فالسلطان يبقى هو الخليفة الأعظم في نظر الطرابلسيين ، ويدعى له على المنابر ، ويكون للسلطان وكيل في طرابلس يقال له نائب السلطان ، وقد تعين بعد الاتفاق شمس الدين باشا لهذا المنصب ، ومعه يوسف بك شتوان مستشاراً .

وكانت وزارة سعيد باشا قد شعرت بأن المجلس لا يمشى معها في قضية الصلح مع إيطاليا ، لا سيما بعد أن جاء يوسف بك شتوان وخطب في مجلس المبعوثين خطاباً مآله أن الحالة الحربية هي في طرابلس مرضية جداً لا تؤذن بأدنى خطر ، وأنه لا خوف على الدولة الآن من الشقاق الداخلي ، فتحمس المبعوثون وآلوا بعدم الموافقة على الصلح وكان الصدر الأعظم بدأ يشعر بقرب الحرب البلقانية ، ويرى أنه لا بد من عقد الصلح مع إيطاليا ، وكان المجلس لا يزال في شقاق بعيد بين الأحزاب ، فأقنع سعيد باشا السلطان بمحل مجلس المبعوثين حتى يتسنى للحكومة أن تمضى في سياستها ، وكان

للسلطان حق في حل مجلس النواب بموافقة مجلس الأعيان على شرط مباشرة الانتخابات لانقضاء المجلس الجديد ، فصدر الأمر بحل المجلس وانتُخب مجلس جديد ، وما كاد ينعقد المجلس حتى جاءت الأخبار بأن الأرناؤوط استأنفوا الثورة ، واتفقوا هذه المرة مسلمين وكاثوليكين وأرثوذكسيين يدأ واحدة في وجه الدولة ، وعلى رأسهم اسماعيل بك مبعوث برات ، ونجيب دراغه مبعوث درشتنه ، وبصرى بك مبعوث دبره وحسن بك ، ويحيى بك ، وغيرهم . وانضم اليهم أيضاً ضباط أرناؤوط من ضباط الجيش العثماني ، وعقد هؤلاء الأرناؤوط اجتماعاً حضره ٨٦ من رجالهم ، وقرروا طلب حل المجلس الجديد وعزل الاتحاديين الذين في الحكومة مثل محمود شوكت باشا ناظر الحربية ، وطلعت بك ناظر البوسطة والتلغراف ، وجاويد بك ناظر الاشغال النافعة ، فاشتد الخطب على الدولة ، واستعفى محمود شوكت باشا وظهر أن الاتحاديين أصبحوا بعد ثورة ألبانيا يخشون تحمّل المسؤولية ، فصار الصدر الأعظم سعيد باشا يعرض نظارة الحربية على المقتدرين فلا يقبلها أحد منهم ، فاختر الاستعفاء . فانتدب السلطان لتأليف الوزارة الفازي مختار باشا المشهور .

وكانت تألفت في الأستانة جمعية عسكرية يقال لها جمعية « الخلاص كاران » فوزعت منشوراً تطالب فيه بتبديل الحكومة ، ومنع الاشخاص غير المسئولين من التدخل في أمور الدولة ، وتقترح حل المجلس وانتخاب مجلس آخر بتمام الحرية وكانت الحكومة تريد سن قانون يمنع رجال العسكرية من التدخل في السياسة فهذه الجمعية أعلنت أن رجال العسكرية لا يمتنعون عن التدخل في السياسة إلا بعد قبول هذه المطالب . فقرأ هذا المنشور في المجلس وأثار حركة شديدة ، وأقسم المبعوثون بأنهم لا يتركون كراسيهم الأ موتى ، وطلبوا من الحكومة التحقيق عن الجمعية التي وزعت هذا المنشور ، فجاء الصدر الأعظم مختار باشا ومعه ناظم باشا ناظر الحربية الجديد وطمأننا خواطر المبعوثين ، وتعهد ناظم باشا باعادة النظام الى الجيش كما كان وتلا الصدر الأعظم برنامج الوزارة الجديدة وفيه منع الضباط من الاشتغال بالسياسة

ومنع المأمورين من التدخل في أمور الانتخابات ، والتقيد بالقوانين الموضوعة في أمر تعيين المأمورين ، وغير ذلك . وأما من جهة الصلح مع إيطاليا فلم تعلن الوزارة شيئاً ، ثم وقع الخلاف في المجلس على قضية حق السلطان في حل المجلس وعدمه وكان الاتحاديون الذين لهم الاكثريّة في المجلس يريدون إعطاء هذا الحق للسلطان على شروط كان يناقشهم فيها خصومهم حزب الحرية والائتلاف ، وكان هذا الحزب يرأسه لطفي فكري ، فاشتد الجدل بين الفريقين ، وفي أثناء ذلك كانت ثورة الارناؤوط تتفاقم يوماً فيوماً ، ثم بدأ الشقاق بين أعضاء الوزارة نفسها ، وانتدب مختار باشا الصدر السابق فريد باشا الارناؤوطي لأجل نظارة الداخلية ، وحسين حلمي باشا الصدر السابق أيضاً لنظارة العدلية ، فأبى فريد باشا الدخول في الوزارة ، ودخل حسين حلمي باشا ولكنه اضطر بعد قليل الى الاستعفاء ، وازداد تخرج مركز الحكومة التي كانت ترى ازدياد مشكلاتها في الداخل والخارج ، وبينما ثائرة الارناؤوط تتوقد إذا بعصائب البلغار في مقدونية - أي الروملي - رجعت إلى العمل ، وأخذت بنسف السكك الحديدية ثم في نهار العيد انفجرت قنبرة في « جامع أشتب » وجرح بها أناس كثيرون ، فثار المسلمون وأوقعوا بكثير من البلغار ، ثم حصلت حوادث من هذا القبيل في ولاية « أسكوب » فانتقم المسلمون أيضاً بقتل عدد من البلغار ، وأهم حادثة هي التي وقعت في « كوتشانة » في أول أغسطس سنة ١٩١٢ ؛ فانه كان قد وضع البلغار قنابر في السوق فانفجرت وقتلت عدداً من المسلمين ، فأوقع المسلمون بالبلغار ، وقيل إنهم قتلوا منهم ١٥٠ شخصاً ، وهكذا استمرت الحوادث مدة طويلة ، فعصائب البلغار تلتقي القنابر الديناميتية في الاسواق والجامع عمداً لأجل إثارة المسلمين حتى ينتقموا من المسيحيين ، وتضطر الدول المسيحية للتدخل فتتسلخ مكدونية عن تركيا ، وهذا على نمط حركات الأرمن .

وكان البلقانيون أكثر الأحيان مختلفين بعضهم مع بعض ، نفي بذلك البلغار واليونان ، والسرب ، وذلك لأن مكدونية التي يقول لها الترك الروملي فيها من جميع هذه الاجناس ، فالبلغار يدعون أنها يجب أن تكون لهم ، واليونان يحتجون بأن

الأكثرية في سلانيك ونواحيها وتراقيا هي للجنس الرومى ، والسرييون يحتجون بأن الأكثرية في شمالى مكدونيه هي لهم ، وكل فئة تعمرز دعواها بأدلة . ولم يكونوا يفكرون بشئ من حقوق المسلمين هناك ، مع أن المسلمين في البانيا ومكدونية كانوا أكثر من نصف السكان ! وكانت للدولة في أوربا ست ولايات ؛ الاولى ولاية أدرنة الواقعة على البحر الاسود ممتدة من ضواحي الأستانة إلى حدود البلغار ، والثانية ولاية سلانيك التى يتبعها أكثر مكدونيه ، والثالثة ولاية قوصوه التى هي الآن من ضمن مملكة يوغوسلافيا ، والرابعة ولاية منستر الواقعة بين يوغوسلافيا وبلاد اليونان والخامسة ولاية يانيا من جنوبى بلاد الارناؤوط ، والسادسة ولاية شقودرة في شمالى بلاد الارناؤوط . وكان عدد المسلمين في هذه الولايات الست من أرناؤوط وترك وبوماق - وهم نوع من البلغار دينهم الاسلام ولغتهم البلغارية - ومهاجرين يزيدون على عدد النصارى بقليل . فلم يكن للبلقانيين حق في ادعاء تقسيم هذه البلاد فيما بينهم لاسيما وقد كانوا هم أنفسهم غير متفقين في التقسيم ، وكل فئة تريد أن تأخذ حصة الاخرى ، ولكن ضعف الدولة العثمانية وتكالب الدول الاوربية عليها من كل جهة أوسعا مطامع البلقانيين حتى أصبحوا لا يفكرون فى شئ سوى طرد الاتراك من أوربا تماما ، بحجة أنهم طارئون على أوربا من آسيا ، وأنهم لم يكونوا ذوى ملك فى شبه جزيرة البلقان قبل القرن الرابع عشر للمسيح . ثم إن البلقانيين كانوا يعلمون أن الاتراك فى حال تغلبهم عليهم لا يقدرّون أن ينالوا منهم شيئا ، ولا أن يفتحوا من بلدانهم بلدا بخلاف ما لو تغلبواهم على الاتراك فانهم حينئذ يقدرّون أن ينالوا كل ما يريدون ، وذلك عملا بقاعدة إن ما يؤخذ من الهلال للصليب لا تمكن إعادته للهلال ، وأن ما يؤخذ من الصليب للهلال فلا بد من أن يرجع إلى مكانه . وهذه القاعدة متفق عليها فى أوربا تطبقها أوربا بقدر إمكانها ، والبلقانيون يعلمونها . وفى بداية الحرب البلقانية كان فى ظن الدول الاوربية أن تركيا تغلب على البلغار والسرب واليونان والجبل الأسود ، فأرسل الميسو بوانكاره - وهو يومئذ رئيس نظار فرنسا - مذكرة إلى تركيا وإلى الدول البلقانية المتحالفة عليها ، يبلغ الجميع بأنها - إذا حصلت حرب بين الفريقين فالدول لا تسمح

للفريق الغالب أن يأخذ شيئاً من الفريق المغلوب . وقد كتب بوانكاره هذا ترهيداً للفريقين في الحرب ، وكان مرجحاً عنده أن دول البلقان لا يقدرّون على تركيا ، فلما وقعت الواقعة وانهزمت تركيا في هذه الحرب بما كان فيها من الشقاق المستمر الذي صرف نظرها عن الاحتياط لحفظ ثغورها ؛ نسي بوانكاره بلاغه هذا الرسمي الذي كتبه باسم الدول ، وكان من جملة المساعدين للبلفار واليونان والسرب على اقتسام تركية أوربا . وكان مراد الدول - لاسيما انكلترة وفرنسا والروسيا - إلحاق ألبانيا أيضاً بمكدونية وإعطاء جنوبها لليونان ، وشمالها للسرب ، لولا معارضة النمسا وإيطاليا في ذلك . فالنمسا كانت دائماً تجتهد في منع اتساع مملكة السرب ، وقد كان هذا من أكبر عوامل الحرب العامة ، وإيطاليا نفسها كان من مصالحها حفظ ألبانيا للارناؤوط ، فلذلك بعد الحرب البلقانية وافقت الدول على تأسيس استقلال خاص لألبانيا ، ولكن بعد شدة عظيمة كادت النمسا فيها تقتتل مع روسيا ، غير أنهم ظلموا الارناؤوط أيضاً إذ أن هذه الأمة تبلغ نحواً من ثلاثة ملايين يسكنون على ساحل بحر الادرياتيك بين الجبل الأسود من الشمال ، واليونان من الجنوب ، ومكدونية من الشرق ، وهم كتلة واحدة كلهم أرناؤوط ، ولسانهم هو اللسان الارناؤوطي ، وإن كان الثلثان منهم مسلمين ، والثلث الثالث كاثوليكين وأرثوذكسيين .

وعلى كل حال فبعد أن تقرر إخراج الدولة العثمانية من أوربا وجب أن يُعطى الأرناؤوط البلدان التي هم فيها أكثرية السكان وهي ؛ ولايات يانيا ، واشقودرة وقوصوه ، ومنستر ، لاسيما أن الأتراك المسلمين كانوا بعد خروج الدولة العثمانية من الروم إلى يفضلون الانضمام إلى الأرناؤوط حتى يتخلصوا من حكم البلفار واليونان والسرب فالذي حصل في مؤتمر لندرة بعد الحرب البلقانية بتأثير روسيا ، ومساعدة فرنسا لها لم يكن مطابقاً لحقوق الأمم من الجهة التي يقال لها « الاتنوغرافية » بل بشدة الحاح النمسا ، وموافقة إيطاليا جعلوا بلاد الأرناؤوط المستقلة عبارة عن ولايتي يانيا واشقودرة وألحقوا منها شيئاً للجبل الأسود ، وشيئاً لليونان ، وكل الذي بقي للمملكة المستقلة لا يزيد عدد سكانه على مليون واحد . والحال أن جنوبي يوغوسلافيا لاسيما ولاية

قوصوه مأهول بالأرناؤوط ، فلذلك يوجد الآن من الأرناؤوط ضمن مملكة يوغسلافيا وعلى حدود ألبانيا أكثر مما يوجد في ألبانيا نفسها !! وهذه من المسائل التي لم تصب فيها الدول ، وإنما كان الاعوجاج فيها هو بسبب تعصب الروسيا للسريين . وستكون هذه من أسباب تجدد الحروب في شبه جزيرة البلقان .

ولما كان الاختلاف شديداً بين العناصر المسيحية في البلقان الرومي والسلافي والبلغاري ؛ ففي زمن السلطان عبد الحميد سمعت الروسيا كثيراً في التأليف بينهم حتى يتمكنوا من إخراج الدولة العثمانية من هناك ، ولكن السلطان عبد الحميد بدهائه ويقظته كان دائماً يمنع الاتفاق بينهم ، ويستميل هذا العنصر تارة ، وذاك العنصر أخرى . أما جمعية الاتحاد والترقي فاغترت بقوتها وظنّت أن اعلان الدستور قد نفي كل خطر عن السلطنة ، ونامت عن مراقبة السياسة الخارجية ، بل بلغ غرور بعض أعضائها في أول الأمر أن اعتقدوا حركات البغار واليونان والسريين لخلع الحكم العثماني إنما السائق فيها مجرد سوء الادارة العثمانية ، وأنه لو اصطلحت الادارة العثمانية لأخلد هؤلاء إلى السكون ! وحقيقة الحال أن هؤلاء لم يكونوا براجعين عن حركاتهم حتى يطردوا الاتراك من شبه جزيرة البلقان ، وأن المسألة عندهم تاريخية محضة لاتعلق لها بالادارة في حسنها وعدمه . فهذه البلاد لم يكن فيها مسلمون قبل السلطان مراد الأول ، فيجب أن أن تخلو تماماً من المسلمين مرة ثانية . هذه هي فكرتهم الحقيقية وأوربا كلها تميل إلى هذه الفكرة ، ولما افتتح البلقانيون سلاويك قال أحد وزراء الانكليز : لا يمكننا إلا أن نفرح باسترجاع المسيحيين للبلدة التي بها ابتداء انتشار النصرانية .

وإذا رجعنا إلى الحقائق نرى أن الحرب الصليبية وإن كانت غير مستمرة إلى اليوم تحت هذا الاسم كما كانت في القرون الوسطى ؛ فهي مستمرة بالفعل ، بالروح نفسها وإن كان قد تغير الاسم ! وكل بلاد وجدت تحت حكم المسيحيين في الغابر تجتهد الدول الأوربية في إخراجها من تحت حكم المسلمين ولو كان مضى على ذلك بضعة عشر قرناً ، أي أن الأندلس تمثل في كثير من البلدان وليست هي منحصرة

في اسبانيا ، فالمسلمون ليس لهم إلا القوة ليحافظوا على أنفسهم ، ولما كانت الدولة العثمانية قوية تغلبت ليس على بلاد اليونان والبلغار والسرب فقط ؛ بل على بلاد رومانيا ، والمجر ، وخرواطية ، وقسم من بولونيا ، وحاصرت ثيناً مرتين . فلما حل بها الضعف صارت تتقلص شيئاً فشيئاً إلى الجنوب حتى لم يبق لها في أوائل هذا القرن غير الولايات الست التي تقدم ذكرها ، ولم يكن من المأمول أن تحفظها إلا بالقوة القاهرة .

حدثني حسين حلمي باشا الصدر الأعظم السابق وهو الذي كان مقتشاً عاماً للولايات المذكورة يوم أعلن الدستور العثماني أن السرايودارد غراي ناظر الخارجية الانكليزية المشهور سأله : ألا يوجد طريقة تنحل بها مشكلات مكدونية ؟ فأجابه : نعم يوجد طريقة وهي أن يكون عندنا نحن الأتراك القوة اللازمة لكسر البلغار واليونان ، والسريين ، والجبل الأسود في وقت واحد ، وليس من طريقة غير هذه . هذا وقد كان السعي في جمع كلمة الدول البلقانية الاربع قديماً . وسنة ١٨٨٨ قدّم أمير الجبل الأسود نيقولا لائحة إلى قيصر روسيا تتضمن وجوب تحالف هذه الدول ضد تركيا تحت حماية القيصر ، وسنة ١٨٩٣ صارت مكاملة بين اليونان والبلغار في هذا الصدد ولكن لم تسفر عن نتيجة ، ثم إن البلغار والسريين اتفقوا على ذلك وبقى الخلاف بين السرب والجبل الأسود ، فتوسط البلغار بين الفريقين ومهدوا العقبات فبقى ناقصاً دخول اليونان في الاتحاد ، فالذين من اليونان قاموا بالسعي الحثيث للاتلاف مع البلغار برغم ما كان بين الفريقين من نقط الخلاف هم « باناس » سفير اليونان في صوفيا ، و « فنزيلوس » رئيس نظار اليونان . وكان إهمال الاتحاديين للسهر على هذه المسألة من جملة أسباب اتفاق البلقانيين ، حتى أنه لما علم السلطان عبد الحميد المخلوخ بخبر الاتحاد البلقاني هذا هزّ برأسه وقال : كم من مرة أوشك هذا الاتحاد أن ينعقد وسعيت كل سعي حتى منعه ! قال هذا عند ما جاؤا ينقلونه من سلانيك إلى الاستانة ، فسأل عن السبب فقالوا له : إن دول البلقان الاربع تحالفن على تركيا والحرب قريبة الوقوع . وفي ١٣ مارس سنة ١٩١٢ انمقدت أول محالفة بين السرب والبلغار

ضد تركيا . وفي ٢٩ مايو من السنة نفسها انعقدت المحالفة بين البغار واليونان ، ولكن الأولى كان أمدها ست سنوات ، أما الثانية فكانت لثلاث سنوات . وفي ١ أكتوبر من تلك السنة ذهب « دانف » رئيس مجلس النواب البلغاري إلى « ليفادية » في القريم فأخبر القيصر الروسي والمسيو سazonوف ناظر خارجيته بانعقاد جميع المحالفات اللازمة بين البلقانيين ، وانحلال جميع العقد التي كانت تفرق بينهم ، لأن القيصر كان هو الحكم في ما اذا اختلفوا . وفي ذلك الوقت كانت ثورة الأرناؤوط أجبرت الدولة العثمانية على منح الارناؤوط بعض امتيازات رآها البلقانيون مضرة بهم ، فلما تحققت الدول أن الحرب بين البلقانيين وتركيا واقعة لا محالة ؛ توسطت النمسا في الخلاف تفاديا للحرب وذلك على أساس إدخال الاصلاحات في بلاد الروملى ، وأن تكون هذه الاصلاحات تحت إشراف لجنة دولية .

وبينما الدول في المذاكرة حتى تمتع الحرب ؛ إذا بأمر الجبل الأسود يعلن الحرب على تركيا في ٨ أكتوبر سنة ١٩١٢ وفي ١٣ منه عالت الدول الثلاث اليونان والسرب والبلغار الدولة العثمانية طلب الاصلاحات في الروملى بحسب المادة ٢٣ من معاهدة برلين ، وطلبت تفريق المساكر العثمانية المرابطة في الروملى . وكانت مذكرة هذه الدول في شكلها غير مقبولة ، فلم يبق أمام تركيا سوى إعلان الحرب . ولكن كامل باشا كان يرجو فصل اليونان عن الاتحاد البلقاني بالنزول لهم عن جزيرة كريت ، فذهب سعيه سدى لأن فنزىلوس أبى بتاتا أن ينفصل عن حلفائه ففشبت إذا الحرب .

وكان البغار مستعدين للقتال من زمن طويل ، فزحفوا بمائتين وخمسين ألف مقاتل من أحسن الجيوش تدريبا ، وأكملهم عدة ، ولم يكن عند الدولة جيش متقن التدريب كهذا الجيش ، بل كان من أغلاط السلطان عبد الحميد التي لا يمكن التماري فيها منع التمرينات العسكرية خوفاً من انتقاض الجيش عليه ، واستمر هذا طول مدة سلطنته . فالعسكر الممرن الذي كان في زمن عمه السلطان عبد العزيز ، والذي بمثله انتصر عثمان باشا على الروس في باقنة ، واحد مختار باشا في القوقاس ؛ ذهب ولم يبق

مقامه عسكري آخر مثله . فجميع العسكريين في زمن عبد الحميد لم يكن يعرف شيئاً من التمرينات التي كانت في زمن عمه ، فكان الفرق إذاً كبيراً بينه وبين العسكريين البلقانية . ولما جاء الاتحاديون وخلعوا السلطان عبد الحميد أرادوا إصلاح الجيش بعملية سموها عملية التصفية ، فأخرجوا إلى التقاعد جميع الضباط القدماء المحرّبين ووضعوا مكانهم شباناً خالين من التجربة ، وبعبارة أخرى انحلت الجيش القديم ولم يمتد الوقت الكافي حتى يتكوّن جيش جديد . ومن جملة أسباب الضرر الذي وقع هو اشتغال ضباط الجيش بالسياسة ، وانصرافهم عن واجباتهم إلى إحداث القلق في المملكة ، والانتصار لفئة على فئة مما يجب أن ينزّه الجيش عنه .

فصار الجيش العثماني بعد إعلان الدستور أشبه بجيش الانكشارية القديم في الفوضى ، فهذه الفرقة تخرج عن الطاعة وتنحاز إلى العصاة مثلاً ، وهذه الجمعية من ضباط الجيش تطلب إسقاط الحكومة وحلّ المجلس ، وهذه الفرقة الأخرى تهجم على مجلس الأمة وتسفك دماء بعض المبعوثين وبعض النظار بتحريك خفي من رجال السياسة ، وكل وقع من قتل جنود لضباطهم ، وعصيان ضباط على قوادهم .

نعم أن فون غولتس باشا الألماني كان هو والضباط الذين معه أصحاباً كثيراً من حالة الجيش في تركيا ، ولكن السلطان عبد الحميد كان يمنع التمرينات العسكرية خوفاً على نفسه ، وكانت هناك مصالح ضرورية للجيش ، وكانت هي بغاية الإهمال وهي مثل مصلحة الأكل . ومصلحة الصحة ، ومصلحة إركاب العسكريين في السكك الحديدية ، وغير ذلك مما لا غنى عنه في الجيوش العصرية . وأضاف إلى كل هذه النواقص أن الدولة في حرب البلقان احتقرت البلقانيين أشد الاحتقار ، وظنّت أنها في شهر من الزمن تمزّق شملهم كل ممزّق ، حتى أن ناظم باشا ناظر الحربية أعلن الضباط وجوب أخذهم باللبستهم الرسمية إلى ميدان القتال ، حتى إذا دخلوا صوفياً وبلغراد وأثينا ووقع عرض الجيش يكونون باللبستهم الرسمية ، كأنّ أمر الظفر عنده كان لا يتطرق إليه الشك ، وهذا أشبه بزيادة أم الأمين عند ما أعطت قائد جيش ولدها قيداً من فضة وقالت له : إن المأمون هو من أولاد الخلفاء ، ومتى وقع في يدك

فلا يصح أن تقيده كما تقيده سائر الأسرى « أى بالحديد » فأنا أعطيك هذا القيد من الفضة لتقيده به ، عند ما يقع في الأسر . فكان من الأمر أن المأمون هو الذى قهر الأمين وأخذ منه الخلافة ، ثم قتل الأمين في المعركة . ثم بناء على هذا الاستخفاف لم تستنفر الدولة الجيوش التى لها في سورية ، ولا في العراق ، ولا في شرق الأناضول حيث كانت تخشى ثورة من جهة الأرمن ، فاقترنت على جيش الروملى وعساكر قسم من الأناضول . ولم يكن جيش الروملى كله ليجتمع ، لأن الأرناؤوط كانوا في حال ثورة ولم يقاتلوا في هذه الحرب إلا قتال عصابات ، وبهذا كان عدد الجيوش البلقانية أعظم من عدد الجيش العثماني ، ففى كل من الساحات الثلاث أى ساحة تراقية الشرقية أمام البغار ، وساحة مكدوننية العليا أمام السرب ، وساحة سلانيك أمام اليونان ؛ كان الجيش العثماني أقل عدداً وأقل معدات من أعدائه . وفى ١٨ أكتوبر زحف البغار لأخذ أدرنة فلم يتمكنوا من ذلك ، ولكنهم ظهروا على الأتراك في ناحية طونجة . وكان عبد الله باشا فى ٢٠ و ٢١ أكتوبر أعطى الأمر بالهجوم بدون أن يؤمن خطأ للرجعة ، فارتكب في ذلك خطأ حريياً ظهرت نتيجته حالاً . وفى ٢٢ أكتوبر تلاقت الفرقة السادسة من الجيش الرابع العثماني مع فرقة من الجيش الأول فلم تعرف إحداها الأخرى وترامتا بالنيران ، إذ كل فرقة منهما كانت تظن أنها بأزاء البغار . فمن أول الحرب ظهر سوء القيادة في الجيش العثماني .

وكان محمود مختار باشا قائداً لشطر الجيش الثالث وهو ثابت في مركزه ، وإذا بالبغار يهجمون على الجيش الذى على جناحه الأيسر هجوماً فجائياً ضعيف الأتراك فانهزموا ، فحاول محمود مختار أن يصد البغار ويوقف الهزيمة ولكن كان الجنرال الباغاري ديمتريف جاء بدون أن يشعر به الأتراك أصلاً فهاجم الجيش الذى على يمين محمود مختار ، فاضطر محمود مختار إلى التقهقر فانهزم العسكر العثماني إلى قرق كليسة وهو الجيش الرابع ، ثم الجيش الثالث ، ثم حاول الجيش الأول أن يهاجم البغار ليوقف الهزيمة فلم يقدر على شيء بل تقهقر هو أيضاً . وكل هذا من عدم وحدة القيادة ؛ وعدم وجود خطة حربية مقررة . فكل فرقة وكل جيش من الأتراك كان يقاتل بدون أدنى صلة

مع رفاقه ، ولا علم له بما عليه سائر الجيوش العثمانية . لأن الأتراك فكروا أنه لا يلزم لهم إلا أن يقابلوا البلغار في أى مكان كان ، وفي أى وقت كان ، حتى يوتى هؤلاء الادبار ، فمن شدة استخافهم بالعدو تغلب عليهم العدو . ولما تقهر عبدالله باشا بجيوشه قسم منها إلى جهة « فيزه » والقسم الآخر إلى لولى بورغاز ؛ لم يكن بين القسمين أدنى صلة ، ولا كان الواحد يعرف ما عند الآخر ، ومحمود مختار باشا هو القائد الوحيد الذى كان مالـكا حركة جيشه ، بحيث عند ما التزم إلى التقهر تقهر بانتظام حقيقى . وكان ناظم باشا ذهب بنفسه ليتولى القيادة العامة ، وناجز البلغار القتال في « لولى بورغاز » « وقره أغاتش » . وزحف محمود مختار باشا مهاجماً للعدو على ظن أن عبد الله باشا يتمكن من نجده بالجيوش الاول والجيوش الثانى ، فتمكن محمود مختار من أن يشطر فرقة الجنرال خريستوف إلى شطرين ، إلا أنه كانت وردت نجدات عظيمة للبلغار ، وفي الوقت نفسه انهزم الجيش الثانى العثماني ، فلم يقدر محمود مختار أن يتمم خطته بسبب الفشل الذى حلّ بسائر القواد ، لكنه بقي ثابتاً في مركزه . فأمر ناظم باشا القائد العام بتراجع القوات كلها إلى « شركس كوى » فتراجعت كلها ومن الجملة جيش محمود مختار .

ومن أغرب الامور أنه بقدر ما استخف الأتراك بالعدو في البداية ؛ وقع فيهم الرعب بعد أن حلت بهم الهزيمة الاولى فنكصوا جميعهم إلى « شطلجه » . ولما علمت الجيوش العثمانية التى في تراقية الغربية وفي مكدونيه بالهزيمة التى وقعت في تراقية الشرقية ؛ تلاشت قوتها المعنوية . وكان قائد الجيوش العثمانية في مكدونيه هو على رضا باشا ، فانكسر أمام السرييين في « بورنيقو » وفي « قوصوه » وفي « كومانوفو » وهى هزيمة كان أكثر السبب فيها أن عصائب الأرناؤوط في أثناء المعركة انسلت من ميدان القتال مدبرة فوق الفشل في الجيش كله . وصارت المعارك هناك عبارة عن سلسلة هزائم ، تتلو إحداها الأخرى بدون أن يوفق الترك في معركة واحدة إلا ما ندر فسقطت المراكز التركية المهمة مثل قوصوه ، ومناستر ، وأسكوب ، وجميع البلاد التى تتبعها ، وكل هذا بين ٢٣ أكتوبر و ١٨ نوفمبر . ولو قيل إنه لم تقع مع تركيا حرب

أشام من هذه الحرب من أول الدهر إلى ذلك الوقت لم تسكن في هذا القول مبالغة . وكان القائد الوحيد الذى حفظ جيشه هو جاويد باشا ، فانه لولا انهزام عصائب الأرنأوط في واقعة « كومانوفو » مع السريين لكانت الغلبة في تلك الواقعة للترك ، وكان الخبر وصل إلى الاستانة بأن السرب انهزموا فيها انهزاماً نهائياً ، ولكن المعركة انتهت بعكس ما ابتدأت . وكان جاويد باشا هزم اليونان في إحدى الوقائع ، وتمكن من اللحاق ببلاد الأرنأوط مع جيشه ، إلا أن الأرنأوط كانوا عند ما رأوا هزيمة العثمانيين قد فصلوا أنفسهم عن الدولة ، وأسّسوا في « فالونه » حكومة موقفة بمساعدة النمسا وإيطاليا .

وأما من جهة الجيش اليونانى فانه لم يكن أمامه إلا قوة تركية ضئيلة ، فكان الجيش اليونانى يتقدم إلى الأمام قاصداً سلانيك ، وكان تحت قيادة ولى عهد اليونان ستون الف جندى يقابلها ٢٥ ألفاً من الأتراك ، ولكن الترك ثبتوا برغم قلة عددهم ثباتاً عظيماً ثم تقهقروا إلى الوراء لأن السريين والبلغار كانوا اتصلوا باليونان ، واضطر تحسين باشا إلى تسليم « سلانيك » لهؤلاء . وكان جاويد باشا تغلب على اليونان في واقعة « سيروفيتش » التى استمرت يومين وانتهت بهزيمة اليونان في ٥ نوفمبر ، إلا أنه وردت إمدادات عظيمة لليونان فتمكن بها ولى العهد اليونانى من الاقبال بعد الادبار . فتراجع جاويد باشا إلى « مناستر » وهناك هاجمه السريون وجرت وقائع بين بقايا الجيوش العثمانية والسريين واليونانيين والبلغار لم يقدر الترك أن ينالوا فيها كلها خيراً بعد أن انخذلت قواهم المعنوية ، وتقطع ما بينهم ، لأن البلغار كانوا استولوا على « ديموطمه » فقطعوا ما بين الاستانة وبين مكدونيه ، واستولى الذعر على الدولة نفسها في الاستانة فأصبح رجالها لا يعلمون ماذا يفعلون ، وكان عندهم جيوش كثيرة في المملكة لا تزال في أراضيها ، وإنما كانوا في جمود تام بسبب الفشل غير المنتظر ، فلم يفكروا في استجماع قواهم . وكانت الادارة أشبه بالفوضى ، وقد رأينا ذلك بأعيننا ، وكان الهلال الأحمر المصرى أرسل بعثة عظيمة إلى الأستانة فيها المرحوم محمد باشا الشريعى ، والمرحوم كامل باشا جلال مفتشان ، وجاءنى أيضاً كتاب من رئاسة الهلال الأحمر المذكور

بأن انضم اليهما مفتشاً ثالثاً ، كما أت لجنة الاعانة المصرية التي يرأسها الأمير « عمر طوسون » كافتنا بتوزيع الاعانات على مهاجري المسلمين الذين فروا من الروملى إلى الاستانة بعد انهزام الجيوش العثمانية ، فكنا نحن الثلاثة المفتشين مضطرين أن نتصل برجال الدولة كل يوم لأجل تسهيل مهمة الهلال الأحمر ، ومهمة توزيع الاعانات على المهاجرين ، فشاهدنا من آثار الفوضى في الادارة ما لا يصدق العقل ، وذهبنا في نهار جمعة إلى نظارة الحرية للمراجعة بمصالح مستعجلة فلم نجد في نظارة الحرية أحداً وقيل لنا : أفلا تعلمون أن دوائر الحكومة لا تشتغل نهار الجمعة ! فقلت : كلا ! إن الدولة التي يحل بها من المصائب ما حل بها هذه المرة لا يحق لدوائرها أن تتمتع براحة يوم الجمعة ! نعم عند ما كنا نذهب إلى الباب العالي كنا نجد كامل باشا الصدر الأعظم دائماً حاضراً ، وكنا دائماً نراجع في أيام الجمعة أيضاً ، وكان يبيت في الباب العالي بقرب مكتبه برغم علوسه . وجاءنا مرة الخبر بأن أربعة آلاف عسكرى في سان استفانو قد أصيب أكثرهم بالكوليرة ، لأن من جملة مصائب الدولة في هذه الحرب أن الكوليرة تفشت في عساكرها تفشياً فظيماً ، وفتكت بهم فتكا ذريعاً فقيل لنا إن هؤلاء العساكر الذين في سان استفانو على مقربة من الاستانة مطروحون بالمرء بدون خيام ولا بيوت يأوون اليها ! وكان ذلك في وسط زمهرير الشتاء ، فذهبنا أنا ورفاقى إلى كامل باشا وأخبرناه بالخبر ، وروينا له ما سمعناه من أن نصف هؤلاء الجند قد ماتوا ، وأن رفاقهم جالسون إلى جانبهم في انتظار الموت ، فأعطى الأوامر اللازمة إلى الحرية حتى يرسلوا إلى سان استفانو الأطباء والمرضىين وجميع اللوازم لأجل معالجة هذه الحالة ، ولكننا ثانی يوم لحظنا أنه لم يحصل شيء ، فقلت لزملائى : إن كنتم تنتظرون في أثناء هذه الفوضى إغاثة الدولة لهؤلاء العساكر فاعلموا أنه لا يذهب إلى هناك أحد من الأطباء والمرضىين حتى يكون العسكر قد قضوا نحبهم جميعاً ، وعليه يجب أن نبادر نحن بالعمل ، فأرسلنا في اليوم نفسه النجارين وحملوا الأخشاب اللازمة وبنوا للعساكر بيوت الخشب ، وأرسلنا اليها الأسرّة والأغطية اللازمة ، والأطباء

والمعللين والأدوية ، وكل هذا تمّ في ثلاثة أيام ، وبعد ذلك جاء المأمورون العثمانيون فوجدوا كل شيء خالصاً ، وعلى هذا يمكن أن يقاس غيره .

ونعود إلى تاريخ هذه الحرب المشثومة التي انتهت بها ولاية الدولة العثمانية في شبه جزيرة البلقان فنقول : إنه بعد أن انهزمت الجيوش العثمانية في تراقية الشرقية وتراجعت إلى « شطلجة » وتشنت المسكر العثماني في تراقية الغربية ، ومكدونية بقيت بلاد الارناؤوط لم يحتلها العدو ، وبقيت القوة هناك أيضاً ضعيفة ، فتقدم اليونان من جهة الجنوب وما زالوا يهزمون أمامهم تلك الشراذم المتفرقة حتى وصلوا إلى « يانيا » وأخيراً استولوا على يانيا . ثم إن السريين وعساكر الجبل الأسود استولوا أيضاً على عدة مواقع من شمالي البانيا ، غير أن الارناؤوط صدوهم عن « شقودرة » .

أما من جهة البحر فقد كان الاسطول العثماني انحطّ انحطاطاً عظيماً ، وكان السلطان عبد الحميد يخشى الاسطول كما يخشى الجيش البري ، وكان يكره العساكر البحرية أكثر مما يكره العساكر البرية ، لأنه يتذكر أنه لما خلعوا عمه السلطان عبد العزيز في سراي طوله باعجة التي على ساحل البحر نظر السلطان إلى البحر فوجد الاسطول واقفاً أمامه ، مع أن عبد العزيز هو الذي أنشأ الأسطول ، وكان عبد العزيز شديد العناية به ، وكانت الدولة في زمانه دولة بحرية من الدرجة الثالثة .

ولما جرت الحرب العثمانية الروسية كان البحر الأسود كله في يد الدولة ، ولكن السلطان عبد الحميد أهمل الأسطول إهمالاً تاماً ، فما زالت قوة تركيا البحرية في أيامه تنحط حتى صارت دولة اليونان أقوى منها في البحر ، وبعد خلع عبد الحميد اشتغلت الدولة بالفتن الداخلية ، وقامت الأحزاب تتناحر فيما بينها ، فلم يكن عند الدولة وقت لاصلاح الأسطول . فلما نشبت الحرب البلقانية أدركت الدولة عظم الضرر الذي جرّه عليها إهمال الاسطول ، وذلك بأنها بسبب ضعف أسطولها لم تقدر أن تستحضر جيش سورية من طريق البحر خوفاً من أن الأسطول اليوناني يتعرض للبواخر التي تنقل الجيش من سواحل سورية وكيلىكية إلى الأستانة أو الرومللى ، ولم تكن يومئذ بين الأناضول وسورية سلك حديدية متصلة حتى يمكن نقل العساكر براً . فجيوش

البلاد العربية بقيت جميعاً في أرضها . وعدا هذا فقد استولى اليونان على جزائر الأرخبيل . نعم أن الأسطول اليوناني لم يجرأ أن يناطح حصون الدردنيل التي عجزت عنها جيوش الحلفاء الجرارة في الحرب العامة ، ولكنه استولى على جزيرة لمندس وانبروس ، ومدتي ، وساقس ، وسائر الجزر . وخرج الأسطول العثماني من الدردنيل لمنازلة الاسطول اليوناني ، وألحق الأول بالثاني خسائر مهمة ، ولكنه لم يتمكن من غلبة ظاهرة ، فرجع إلى الدردنيل محتفياً بالحصون .

وكان حسين رؤوف بك يومئذ قائداً لبارجة اسمها « حميدية » فأشار بالكرة على الأسطول اليوناني فلم يقبلوا كلامه ، فخرج وحده ببارجته حميدية واخترق نطاق الحصر اليوناني ، وجاء إلى بلاد اليونان ودمر ميناء « سيرا » وأغرق عدة بوارج لليونان ، وعجز الاسطول اليوناني عن مطاردته ولكنه كان يتجنب الانتظار في مكان واحد خوفاً من أن تجتمع قوة اليونان البحرية عليه . فكان ينتقل من مكان إلى آخر ، وكما صادف لليونان سفينة أغرقها . وقد أخبرني هو أنه كان ذهب إلى مرسى مالطة ونزل إلى البر ، ودعا القائد الانكليزي واحتفي به ، وبينما هو على مائدته أخبروه بأن عدة سفن حربية لليونان وصلت على مقربة من مالطة تترصد خروجه لأجل الايقاع بحميدية ، وقال لي : إنه لم يعتقد تلك المرة إمكان النجاة لأنه بسفينة واحدة لا يقدر أن يتغلب على عدة سفن ، وإن كان يمكنه أن يدمر بعضها فخرج من مالطة متوجساً بالخوف وسار ببارجته أمام البوارج اليونانية ولم يجرأوا أن يتعرضوا له ! .

ورؤوف بك هذا هو الذي صار فيما بعد ناظراً للبحرية في أيام الحرب العامة ، ثم بعد الحرب العامة كان من أكبر رجال تركيا الذين نهضوا بها ، وقاوموا معاهدة « سيفر » ونظموا المقاومة العسكرية في الاناضول ، وبعد استقلال تركيا تولّى رئاسة الوزارة في أنقرة ، ولكنه لم يوافق مصطفى كمال على سياسته الداخلية وخروجه على قواعد الاسلام ، فاختلفا وأدى الأمر إلى مغادرته تركيا ، فأقام في فرنسا عدة سنوات ذهب في خلالها الى الهند ، ثم في هذه السنة ١٩٣٥ دعت الحكومة التركية إلى العودة

وألحوا عليه فأجاب الدعوة ، ولكن على شرط أن يبقى بعيداً عن السياسة .
ثم نعود إلى الحرب البلقانية فنقول : إن سبب الفشل الفظيع الذى حل بتركيا
فى تلك الحرب كان إقدام الأتراك على القتال بدون استعداد كاف ، وعلى ظن أنهم
بمجرد اللقاء يهزمون البلقانيين كما هزموا اليونان سنة ١٨٩٤ ، فهاجموا البلغار فى تراقية
بدون منهاج حربى معين ، معتقدين أنهم سائرون إلى تأديب رعية ثائرة ، والحال أن
الجيش البلغارى كان على تمام الاستعداد من كل جهة . فلما انكسر الترك فى هذه
الجهة فى الصدمة الاولى انكسرت جميع قواهم المعنوية دفعة واحدة ، وصارت هذه
الحرب عبارة عن سلسلة مصائب . على أن البلغار كانت لحقت بهم خسائر عظيمة
ولما وصلوا أمام « شطلمجة » كان القتال قد برّح بهم ، فلما هاجموا الأتراك فى شطلمجة
لم يقدرُوا عليهم . وكان هؤلاء قد تنبهوا للخطر المحدق بهم وتأملوا فى فضاة دخول
البلغار إلى الاستانة ، وأفاقوا بعض الشيء من عمايتهم الحزبية التى كانت إلى ذلك
الوقت هى شغلهم الشاغل ، وأرسلت الحكومة عدداً من الوعاظ إلى شطلمجة يثيرون
الحمية الدينية فى رؤس العساكر ، وهذا خلاف ما كانوا عولوا عليه من قبل . فانه لما
بدأت الدول البلقانية الأربع بالقتال أعلنت فى مناشيرها الرسمية أنها فى حربها هذه إنما
تباشر حرباً صليبية ضد الهلال ، وصارت من أول الحرب على هذه الخطة ؛ ولكن
الدولة العثمانية تجنبت فى مناشيرها مقابلة البلقانيين بالمثل ، وتحاشرت فى هذه الحرب
كل صبغة دينية . وبقيت كذلك إلى أن دارت عليها الدائرة فأرسلت إلى الجيش
المرباط فى شطلمجة الوعاظ وخطباء الجوامع يستفزّون حمية الجنود باسم الاسلام الذى
أصبح على شفا جرف هار ، وكان الجنود من أنفسهم أدركوا أنه لم يبق أمام البلقانيين
ليقتضوا على الدولة سوى عقبه شطلمجة ؛ فاستجدوا عزائمهم ، ونظراً لضيق خط الدفاع
لأن شطلمجة أشبه ببرزخ واقع بين البحر الأسود من الشرق ، وبحر مرمرة من الغرب -
تمكن الجيش العثمانى من الثبات فيه برغم هجوم البلغار الشديد ، بل عند ما هجم
هؤلاء دحرم الأتراك وألحقوا بهم خسائر فادحة . وحاول البلغار مهاجمات أخرى
فانكسروا فيها .

وكان قد وصل من اليمن الجنرال أحمد عزت باشا وهو من أمهر القواد العثمانيين وأوفرهم علماً ، وأوسعهم بصيرة ، فذهب وشاهد حالة الجيش المعنوية والمادية في شطلجة ، وحادثته بعد رجوعه منها هل هناك أمل في إمكان المقاومة بعد هذا الذعر الذى حل بالجيش ؟ - وكان عنده عبد الهادى باشا الفاروقى وهو من القواد المعروفين - فقال لى : إن الجيش يقدر على المقاومة ، نعم لا يعرف كل شىء . يمكن أن ينجح فى أثناء القتال . ولكن الحالة الحاضرة التى رأيتها فى شطلجة تؤذن بالتأكد أن البلغار لا يقدرّون أن يخرقوا هذا الخط ، وأن يدخلوا الى الأستانة ، وكان كامل باشا قد باشر المساعى فى طلب الصلح ، ولا شك أنه طلب الصلح راضياً بشروط البلقانيين الثقيلة ، فجاء الجنرال محمود مختار باشا الى الأستانة ونهى الدولة عن هذا التهور فى طلب الصلح ، وأكد لها بأن الأعداء لم يقدرّوا أن يخرقوا خطوط شطلجة . ولم أشاهد محمود مختار بنفسه ؛ ولكن شاهدت والده الغازى مختار باشا ، وشكا لى أعظم الشكوى من فسولة القواد الذين تولوا تلك الحرب ، واستيلاء الرعب عليهم وقال لى : لولا محمود لدخل البلغار الأستانة ، ولكن محمود كان السبب فى تثبيت قوة الجيش ، وفى منع هذا الهلع الذى استولى على الدولة . وكان كامل باشا قال للسلطان محمد رشاد : إنه يكون الأوفق انتقال جلالته إلى بروسة خوفاً من دخول البلغار إلى الأستانة ؛ فأجابه السلطان : إننى لا أتحرك من مكاني ، فإذا كان لم يبق أمة عثمانية قادرة على منع سقوط سلطانها أسيراً فلا مانع عندي من السقوط أسيراً ! وقد جرب البلغار بكل قواهم أن يزحزحوا الأتراك عن مواقعهم فلم يقدرّوا على شىء .

فالرواية التى يذيعها بعض كتاب الاوربيين بأن الروسيا هى التى منعت البلغار من دخول الأستانة ، ولولا ذلك لدخلوها هى غير صحيحة . وقول القائد العام للجيش البلغارى : إننا لو أردنا أن نخرق خطوط شطلجة لأمكننا ذلك ، لكن لا نريد أن نتجشم خسائر الهجوم الفادحة بدون فائدة مادية ؛ هو كلام تبجح ليس عليه أدنى دليل . بل البلغار بعد أن دحرم الأتراك صاروا يخشون أن يعود الأتراك فيكروا عليهم ويخمسروا ثمرات انتصارهم ، لا سيما أن الدولة كانت بدأت تستدعى قواها

التي كانت متفرقة وتجمعها في شطلجة ، ومن جملة من زعم أن البلغار إنما ثبطهم عن دخول الاستانة نهى الروسيا لهم عن ذلك هو المسيو « دولاجونكيار » صاحب تاريخ السلطنة العثمانية .

Histoire de l'Empire Ottoman depuis les Origines Jusqu a nos
Jours por le Vte de la Jonquière

وهو المطبوع في باريز سنة ١٩١٤ وهو تاريخ غريب الشكل جداً ؛ كتابته من من أولها إلى آخرها تحامل على الأتراك وعلى الاسلام جميعاً ، ونقص من مزاياهم ونخس من أشياءهم ، وتحريف للوقائع عن حقائقها ، وليس يخلو سطر واحد من هذا الكتاب من عبارة بغضاء تخرج من فم مؤلفه مما هو مخالف لشروط التاريخ . ومع هذا فالفرنسيين يعتمدون على هذا الكتاب ويظنون به بالفعل تاريخاً للسلطنة العثمانية .

ثم نعود إلى قضية طلب الصلح فنقول إن البلغار لو كانوا علموا هم والسريين أنهم يقدر أن يناموا على ظفرهم هذا لما كانوا رضوا بالصلح ، بل كانوا مضوا في الحرب إلى آخرها ليزدادوا رجاء مادياً ، ومجداً معنوياً ، ولكنهم علموا أن الدولة العثمانية قد تستجمع قواها وتهزمهم عن شطلجة ؛ وتذهب جميع مجهوداتهم سدى .

فأما اليونان فأبو الصلح لأنه كان عليهم أن يستصفوا فتح البلدان التي يريدون ضمها إليهم ، ولم يكونوا يخشون استجماع الدولة قواها ، فأما في البحر فلم يكونوا خائفين على سواحلهم ، لأن الأسطول العثماني كان أضعف من أسطولهم . أما في البر فكان الجيش العثماني لا يقدر أن يلتحم مع الجيش اليوناني إلا بعد أن يدحر الجيش البلغاري كله في تراقية والجيش السربي كله في مكدونية ، أما في الاستانة فكان كامل باشا وحزبه مصممين على الصلح ، وكان الاتحاديون يريدون متابعة القتال حتى يغسلوا هذا العار الذي التحق بالدولة ، ولم يسبق له نظير لأنهم كانوا يقولون : إن تغلب دولة كالروسيا سكانها ١٦٠ مليوناً على تركيا التي سكانها ٢٦ مليوناً ليس بعجيب ولكن تغلب هذه الدويلات الصغيرة التي سكانها يومئذ لا يزيدون مجتمعين على اثني عشر مليوناً هو غير مفهوم ، ولا يجوز للدولة أن ترضى به بوجه من الوجوه إلا اذا

(٢٥ — تعليقات)

كانت ترضى بانحلالها التام . وكانوا يعدون الفشل الذى وقع فى الجيش العثمانى أشبه بقضاء نزل ، أو آفة سماوية لا ينبغى أن تكون قاعدة ، وعلى كل حال ينبغى متابعة الحرب حتى تسترد الدولة شأنها ، وإلا فلا حياة لها بعد ذلك . وذهب الأمير حلیم سعيد باشا ، وطلعت بك إلى كامل باشا عند ما شاع عزمه على عقد الصلح وجادلاه طويلا حتى يصرفا نظره عن ذلك فقال لهما : إن الاتحاديين هم الذين أصروا على الحرب وهم الذين كانوا السبب فى هذه المصائب ، وأنه هو لا يريد أن ينقاد إلى آرائهم فرجعا بنحى حنين .

وفى ٣ دسمبر انعقدت المتاركة بين تركيا من جهة ، وبلغارية وسربيا والجبل الأسود من جهة أخرى ، وأبرق ناظم باشا ناظر الحربية من موقع القتال إلى كامل باشا بذلك وكانوا قرروا مباشرة المفاوضات الصلحية بعد عقد المتاركة بعشرة أيام وكانت أدرنة لا تزال محصورة لا يقدر الأعداء عليها ، فكانت شروط البلقانيين هي تسليم أدرنة ، ومناستر ، وشقودرة ، لأن المدن الثلاث لم يقدر البلقانيون عليها وكذلك كان اليونان يحاصرون يانيا ولم يقدرها عليها ، وطلب البلقانيون تخليع الجيش العثمانى لشطلجة ، وعدم إرسال قوة من قبل الدولة العثمانية إلى ساحات القتال فى أوربا ، وأجاب الترك برفض تخليع شطلجة ، و باقتراح تموين المدن التركية المحصورة وبعد أخذ ورد طويلين خيف فى أثنائهما من انقطاع المفاوضات اتفق ناظم باشا والجنرال ساقوف الباغارى على أن تبقى العساكر العثمانية فى شطلجة ، وتبقى العساكر البلغارية والسربية فى مراكزها ، ويكون بين الفريقين منطقة متحايدة . ورفض اليونان الدخول فى المتاركة لأنهم كانوا يريدون فتح يانيا ، وكانت لا تزال ممتنعة عليهم .

ثم جاء ناظم باشا إلى الأستانة بعد عقد المتاركة وهو لا يشك أن الصلح واقع فذهب محرر هذه السطور لمقابلته وأبدت وأعدت معه فى أن شأن الدولة قد انكسر تماماً فى هذه الحرب ، وأن الدولة لا يمكن أن تحيى بعد أن انكسر شأنها إلى هذا الحد وأن الدولة لا يزال فى يدها قوى تقدر بها على تلافى ما فرط ، وأن فى ولاياتها الأسيوية

عساكر كثيرة تقدر أن تجرّها إلى ميدان القتال وتستأنف الكرة ، وقلت له : إن البلقانيين بعصائبهم التي كانت تعيث في تراقية ومكدونية قد شغلوا الدولة أكثر مما شغلتها جيوشهم المنظمة ، فكان يجب على الدولة أن تقابلهم بالمثل ، وأن تأتي بجانب من القبائل الكردية والعربية وتبشها بشبه جزيرة البلقان ، فانه من الصعب جداً أن يستطيع البلقانيون تأمين البلاد التي احتلوها إذا شنت هذه القبائل الغارات في أطرافها . فقال لي ناظم باشا : إن الصلح كان مقرر ، والقتال لن يتجدد ، وعبارته هكذا بالحرف « غوغا تكرر إيتمية جكدر » أي أن القتال لن يتكرر . فأبدت له عدم اعتقادي كون الحرب انتهت ، وذهابي إلى أنه لا بد من أن تشتعل الحرب من جديد ، فعلى الدولة أن تستحضر جميع عساكرها الباقية في آسيا . وخرجت من عند ناظم باشا وأنا غير متعجب من فشل الدولة في هذه الحرب .

وأما أحمد عزت باشا الأرناؤوطي الذي كان والياً في الين وجاء في آخر الحرب وكان لا يصدق بانكسار الجيش العثماني في ظروف الأحوال التي انكسر بها الكثرة مارأي من أغلاط القيادة ، فقد كاشفته بما في نفسي من قضية جمع العساكر التي في آسيا ، واستنفار القبائل العربية والكردية ، فأجابني بالموافقة على الشق الأول ، وأما الشق الثاني فقال لي : كان هذا موافقاً جداً لو وقع في أول الحرب ، أما الآن فلم يبق ميدان لشن هذه الغارات بعد أن احتل العدو جميع الروملي ، وانحصر الجيش العثماني في شطلجة . نعم قال لي هذا ولكنه رجع فيما بعد إلى رأيي . ولما استرجع الأتراك تراقية الشرقية وأدرنة كما سيأتي الكلام عليه ، واستدعت الدولة وفداً من سورية إلى الأستانة ثمانية أعضاء كنت أنا من جملتهم لبعض المذاكرات المتعلقة بالأصلاحات الداخلية ، دعتنا أن نذهب إلى أدرنة ونهني أهلها على الخلاص ، فشاهدت فريقاً من القبائل مخيمين غير بعيد عن البلدة وهم من قبائل العراق ، وكانوا يزيهم العربي أي بالعقل والكوفيات ، وزرتهم في مضاربهم وشربت القهوة عندهم ، وعلمت أنه في الكرة التي كرها الترك على البلغار وأخرجوهم فيها من أدرنة كان لهذه القبائل بلاء شديد ، وكان مجرد مشاهدتهم قبل فعلهم يوقع الرعب في البلغار . ولو كانت

الدولة تنهت لهذا الأمر وسحبت من بو ادى الشام والزور والعراق ثلاثين ألف فارس من العرب والأكراد وجعلتهم رداء للجيش المنظم لما حلّ بها هذا الفشل العظيم الذى حلّ بها فى الحرب البلقانية ، ولكن الدولة استخفت بأعدائها يومئذ استخفاً خيلاً لها أنها ذاهبة إلى حرب لا يزيد على تأديب عصاة !!

ولما جاؤا إلى المذاكرات الصلحية استندت الدولة على بيان البلقانيين أنهم لا يريدون من هذا الحرب إلا إصلاح إدارة البلدان التى يسكنها أقوام منهم، وأظيرت استعدادها لاعطاء مكدونية إدارة خاصة تحت مراقبة الدول ، فأجاب البلقانيون بأنهم إنما كانوا رضوا بذلك الاقتراح أملاً بتفادى الحرب ، والحال أن الحرب قد وقعت برفض الدولة لهذا المشروع فالآن هم يريدون العمل بنتيجة الحرب ، وهو إدخال إخوانهم فى ممالكهم رأساً ، ويطلبون غرامة حربية لتعويضهم مما تكلفوه ، وطلب البلغار أن تكون حدودهم خطأ يذهب من « ميديه » على البحر الأسود إلى بحر الأرخبيل وتكون « قوله » تابعة لهم . وطلب السربيون ولايتى « قوصوه » و « مناستر » . وطلب الجبل الأسود « شقودره » وتوابعها . وطلب اليونان جميع الجزائر وولاية يانيا ومكدونية السفلى داخلاً فيها سلانيك وتراقية الغربية ، فرفض الأتراك هذه المطالب كلها ، وانعقد مؤتمر الصلح فى لندره وتواجهت الخصوم بعضها مع بعض .

وكانت الدولة حشدت ثلاثة جيوش أتت بها من آسيا ، وصممت أنها لدى الحاجة تزحف وترفع الحصار عن أدرنة التى كان البلقانيون عجزوا عن فتحها ، وبتوسط الدول رضيت تركيا أن تتخلى للبلغار عن بعض أما كن غربى أدرنة ، وأما من جهة جزائر الأرخبيل فرفضت أيضاً تركيا التخلي عنها لليونان ، واقترحت أن تترك للدول حل مسألة كريت . وأما البانيا فقد رضيت تركيا بأن يكون لها استقلال داخلى وأن تتمين حدودها بالاتفاق مع الدول ، فلما رأت الدول أن الدولة غير مستعدة لاجابة البلقانيين إلى مطالبهم ، وأن الحرب قد يستأنف نشوبها ، أرسلت إلى الدولة فى ١٠ يناير سنة ١٩١٣ مذكرة عمومية تنصح لها فيها بقبول مطالب البلقانيين ، وبالتخلى

عن أدرنة للبلفار ، وأنه يقع اتفاق على حماية مسلمى أدرنة ، وصيانة المساجد والمقابر الإسلامية التى فيها ، وأنه إذا كانت تركيا تصر على الحرب فهذه المرة يجوز أن الحرب تمتد إلى آسيا ، وأنه لا يمكن أن تقتصر تركيا مالا من أوروبا عند الاحتياج لأجل إصلاح ممالكها فى آسيا . وكان الاتحاديون معارضين أشد المعارضة فى الصلح على هذه الصورة ، وكانوا يقدفون بكامل باشا لجنوحه إلى السلم ، ويقولون لا يحق له أن يتخلى عن شبر من أراضى المملكة بدون قرار مجلس الأمة ، والحال أن المجلس كان منفصلاً . فأجمع كامل باشا على عقد مجمع كبير من رجال الدولة وأعيانها لاستشارتهم فى هذا الخطب الجلل ، وهى عادة قديمة عند الدولة بأنها فى الخطوب الكبرى تدعوا الوزراء الذين فى الخدمة ، والوزراء السابقين ، وقواد الجيش القائمين على الخدمة والمتقاعدين ، والعلماء الكبار ، ورؤساء الطرق ، وكبار أصحاب الأملاك ، وأعيان التجار والزراع ، ومثل هذا الديوان انعقد فى ديسمبر سنة ١٨٧٦ عند ما طلبت الدول وضع مكدونية وبلغاريا والبوسنة والمهرسك تحت المراقبة الأوربية ، فرفض الديوان الذى انعقد يومئذ اقتراح الدول هذا ، وأدى ذلك إلى نشوب الحرب الروسية التركية . فالديوان الذى عقده كامل باشا هذه المرة لم يحل المسألة حلاً نهائياً ، وانقضى بالذاكرات على كيفية المقاومة . وبعد ذلك جاءت جماعة من الاتحاديين إلى الباب العالى وبيدهم طلب يتضمن رفض تسليم أدرنة ، ودخل أنور إلى مجلس الوزراء يقدم هذا الطلب إلى الصدر الأعظم ، وفى أثناء وجوده داخلاً حصلت جلبة أمام الباب العالى ، فخرج ناظم باشا ناظر الحرية وانتهر الذين كانوا يرفعون أصواتهم ليحدثوا الضوضاء ، فأطلق عليه أحدهم الرصاص فقتله . فخرج كامل باشا فوجد ناظم باشا صريعاً فاستقال من الصدارة بتلك الدقيقة ، وركب عربته وسار إلى بيته . وتولى الاتحاديون الحكومة تحت رئاسة محمود شوكت باشا بعد أن جاء أنور إلى سراى « طوله باعجة » وحصل على الأمر السلطانى بذلك .

أما زعم بعضهم بأن أنور هو الذى قتل ناظم باشا فليس بصحيح ، لأن كامل باشا نفسه روى فى مصر لمن حادثه من أصحاب الجرائد أن جماعة الاتحاديين اجتمعوا

أمام الباب العالى وكانوا نحواً من مئة شخص ، ودخل أنور عليه يقدم له الاحتجاج على تخلية أدرنة ، وبينما هو يقرأه سمع صوت الرصاص أمام الباب ، فخرج فوجد ناظم باشا صريعاً . إذاً أنور برىء من هذه التهمة بشهادة كامل باشا نفسه ، وأما كيفية قتل ناظم باشا وياوره توفيق القبرصلى فقد اختلف فيها ، والأقرب أنه انتهر الجمع فأهانوه بالكلام فتصدى ياوره للقبض على من استطالوا عليه فحينئذ أطلقوا الرصاص على الناظر والياور معاً وقتلوهما . وبعد ذلك وقع استعفاء الوزارة ، وذهب كامل باشا وجمال الدين افندى شيخ الاسلام إلى مصر ، وذهب فريد باشا الأرناؤوطى الصدر السابق أيضاً إلى مصر ، وشاهدتهم هناك ، وجرى بينى وبين فريد باشا جدال طويل فى سراى عابدين أمام جمال الدين افندى ، وكان صدره ملآن وغرا على الاتحاديين وكنت أقول له : إننى آسف من هذه المنازعات الحزبية فى أثناء ما البلغار مخيمون على أبواب الاستانة ، وأتأسف من تفكره والحالة هى هذه بعداوة الاتحاديين . فامتعض جداً مما واجهته به ، وشرع جمال الدين افندى شيخ الاسلام فى تهدئة روع كل منا .

ثم فى ٣٠ يناير سنة ١٩١٣ ردت الدولة الجواب على الدول ومال مذكرتها الجوابية وهى من جهة أدرنة التخلى عن أحد شطريها وهو ما يقع على الضفة اليمنى من نهر المريج ، فأما الضفة اليسرى التى فيها المدينة الحقيقية فتبقى لتركيا ، وكذلك لم توافق الدولة على ترك جزائر الأرخبيل . ثم اقترحت على الدول الغاء الامتيازات الأجنبية التى تمرقل سير الاصلاح الادارى فى تركيا ، وطلبت أن يكون لها الحق بضرب المكوس التى تستلزمها الحالة ، وطلبت إضافة أربعة فى المائة على رسوم الجمارك وغير ذلك مما لم تجب إليه الدول . ولما رأى البلغار أن تركيا لا تريد تسليم أدرنة جددوا الحرب وهاجموا أدرنة ، وجددوا القتال أيضاً فى شطلجة ، وبولاير .

بقرب الدردنيل ، ومع كون واقعة بولاير لم يوفق فيها الترك فانه كان يتعذر على البلغار أن يربحوا شيئاً من استمرارهم على الحرب . ثم إن الترك كسروهم فى واقعة كالكترية ، وكانت الدولة استجدت نشاطها ، وقطع البلغار آمالهم من التغلب عليها .

نعم أن مدينة يانيا فى جنوبى البانيا كانت استسلمت للجيش اليونانى بعد حصار طال

عدة أشهر ، ولم يبق فيها قوة ولا ذخيرة فاضطرت حاميتها إلى الاستسلام في ٥ مارس ومثل ذلك مدينة أدرنة التي اضطر قائدها شكري باشا إلى تسليمها في ٢٦ مارس فتكون مدة حصارها ستة أشهر وثمانية أيام ، كما أن مدة حصار يانيا كانت نحو من أربعة أشهر وكل من البلدين لم يتمكن البلقانيون من الاستيلاء عليها إلا بالجوع ولو كان فيهما الميرة الكافية والعلف الكافي للبنادق والمدافع ؛ ما كان في استطاعة البلقانيين دخولها . والدفاع الذي دافعه شكري باشا عن أدرنة يبقى صفحة تاريخية باهرة في تاريخ تركيا ، وطالما اقترح عليه البلقانيون تسليم أدرنة تحت شرائط شريفة فأبى ، وأجاب بأنه لا يسلمها إلا ميئاً ، ولكن بعد أن نفذت الذخيرة ، وانتهى القوت ، لم يبق في استطاعته المقاومة . وأما في الحرب فقد حمل عليه البلغار والسرب مراراً عديدة ، وكانوا يرتدون على أديارهم ، وقضى هو وأهالي أدرنة من الجوع وإعواز ضروريات الحياة شيئاً كثيراً علمت منه أنا بنفسى حقائق مرة يوم كنت مفتشاً للهلل الأحمر المصرى في الاستانة مع محمد باشا الشريعى ، وكامل باشا جلال . وذلك أنه جاءنا رسول من قبل شكري باشا في أثناء الحصار يقول إنه إنسل من أدرنة خفية ومعه كتابة إلى الباب العالى بطلب مبلغ من المال لشراء حنطة للعسكر ، وأن الجوع قد حرس العسكر بنابه ، ولم يجدوا مالا فى الخزينة ذلك الوقت . فهل من الممكن أن الهلال الأحمر المصرى أو لجنة الاعانة المصرية تقرض الدولة مبلغاً لأجل إغاثة حاميه أدرنة ، فتذاكرت مع رفاقى وأرسلنا بواسطة الدولة سرّاً عشرة آلاف جنيه من مبلغ الاعانة المصرية إلى شكري باشا تحت اسم إغاثة لجياع أدرنة

ثم إننا قررنا بعد ذلك إرسال بعثة من الهلال الأحمر المصرى إلى أدرنة ، فأبرقت إلى الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الأحمر المصرى وإلى الأمير عمر طوسون رئيس لجنة الاعانة المصرية بوجوب السعى لدى الدول حتى تتوسط مع البلغار لأجل إدخال بعثة إلى أدرنة لمعالجة الجرحى والمرضى ، وتم الأمر ودخلت البعثة المصرية وأعانت الجيش العثمانى ومسلمي أدرنة إغاثة فوق الوصف ، وعرفت مقدارها . بنفسى وذلك أنه بعد استرداد الدولة لأدرنة كما سيأتى الكلام عليه ، استدعت الدولة

وفداً من سورية كان مؤلفاً من ثمانية أشخاص ؛ محمد فوزى باشا العظم ، وعبد الرحمن بك اليوسف ، وأمين افندى التريزى من دمشق ، ومحمد باشا الخزومي ، والدكتور حسنين الأسير من بيروت ، والشيخ أسعد الشقيرى من عكا ، ونصرى افندى الشنتيرى من بيروت ، والأستاذ الشيخ عبد المحسن افندى الاسطوانى قاضى الشام الحالى ، وهذا العاجز كاتب السطور ، ولم يبق فى الحياة من هذا الوفد غيرى وغير الأستاذ الاسطوانى والشيخ الشقيرى ونصرى الشنتيرى . وكان ذهابنا من بيروت إلى الأستانة فى شهر أغسطس ١٩١٣ لأجل مذاكرات مع الدولة تتعلق بالاصلاحات الداخلية فى سورية وبتسكين الأمور بين العرب والترك ، وكانت الدولة استرجعت أدرنة ، فدعتنا إلى زيارتها لأجل تهنئة أهلها بالرجوع إلى حضن السلطنة العثمانية فذهبنا إلى هناك واحتفل الجيش المرابط بوصولنا ، وفى حضور الجيش تلوت قصيدة منشورة فى ديوانى الذى هو الآن تحت الطبع مطلقاً :

فدى لمانا كل من يمنع الحى ومن ليس يرضى حوضه متهدماً
فما العيش إلا أن نموت أعزّة وما الموت إلا أن نعيش ونسلم
وخطب فى الجمع الشيخ الشقيرى وخطب فى صلاة الجمعة الشيخ أحمد الفقيه المكي
الذى جاء معنا خطبة بصوته الشجى وفصاحته الحجازية مما حقق قولى فى قصيدتى :
أدرنتنا لو كان للصخر ألسن بها يوم عاد الراجعون تسكماً
فما من فتى إلا وأجهش بالبكا ولا من جواد عاد إلا وحمماً
ولا غادة إلا وكفكف دمعها مكر حماة العرض كالسيل مفعماً
ولا منبر إلا وأورق بهجة وقام عليه ساجع مترنماً
وقرت عيون المصطفى فى ضريحه وهناه فى الفردوس عيسى ابن مريماً
ومنها :

فمن مبلغ البلغار أنا إلى الوغى وإخواننا الأتراك نزحف توأماً
وأن جميع العرب والترك أمة حنيفة بيضاء لن تنقسماً
وقولوا لهم بانت سعاد فلا يزل فؤادكم صباً عليها متياً

فلا يُطعمنكم في أدرنة مطعم ولا تفتحوا في شأنها أبداً فما
أدرنة صارت عندنا تلو مكة وماء المريج اليوم أشبه زمزما
ولما أقبل الليل كان الوالى الحاج عادل بك أعدّ لنا مكاناً للمبيت فاستعفيت منه
قائلاً : إننى كنت مفتشاً للهِلال الأحمر المصرى ، ولا يزال له بعثة في أدرنة وكنت
أنا السبب في دخولها ، فأرغب في المبيت بدائرة الهلال الأحمر المصرى . فذهبت وبت
هنالك وعند الصباح رأيت مئات من مسلمى أدرنة أمام دائرة الهلال الأحمر وبأيديهم
سطول ، فسألت عن ذلك فقالوا : إنه كل يوم يتوزع عليهم حساء وخبز ، ولكنهم
قالوا إنه في أثناء حصار أدرنة بعد أن قاتت الأقوات واشتد الجوع كان الأربعون ألف
نسمة من مسلمى أدرنة يعيشون كلهم من الهلال الأحمر المصرى ، ولولاه لهلكوا
بأجمعهم من الجوع ؛ لأنه لم يبق بأيديهم شيء من طول الحصار ، حتى أن الذين في
أيديهم شيء من النقود لو أرادوا شراء القوت لم يجدوه ، فالله تعالى أغاثهم بوجود
هذه البعثة المصرية ، ولما استرجعت الدولة أدرنة درّت الخيرات ، وارتفع الضيق
ووزعت الدولة عليهم الأقوات ، فلم يعودوا محتاجين إلى الهلال الأحمر ، وقالوا لى إن
الذين تراه الآن إنعامهم خمسمائة أو ستمائة شخص من المساكين والعاجزين .

وبمناسبة هذه المعاونة التى لقيتها أدرنة من حمية أهل مصر ينبغى لى أن أذكر
على وجه الاجمال ما قامت به مصر كنفانة الله فى أرضه من إمداد الدولة العثمانية فى
الحرب البلقانية المشنومة ، وأن لا أدع هذه الواقعة غفلاً قياماً بواجب الأمانة مع
التاريخ ، وتوفيراً للحق لأهله ، فأهل مصر يومئذ حققوا قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة)
وقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون فى توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألم منه
عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » فأول شيء أنهم جمعوا إعانة للدولة مبلغ
نصف مليون جنيه ، وذلك بهمة لجنة الإعانة التى كان يرأسها الأمير « عمر طوسون »
الذى هو يرأس كل عمل خيرى تقريباً فى مصر ، وأرسلوا بعثة من الهلال الأحمر المصرى
قامت بأعظم الاعمال فى معسكر شطابجة ، ثم إن مسلمى الروملى بالنظر لما وقع عليهم
من اعتداء البلقانيين - لاسيما البلغار واليونان - فرّوا من وجه العدو اتقاء القتل للنفوس

والهتك للأعراض ؛ فالتجأوا جميعاً إلى الأستانة ليجوزوا إلى بلاد الاناضول ، وجاء منهم فريق إلى غاليبولى ليجوزوا منها أيضاً إلى البلاد نفسها ، وبديهي أن هؤلاء الذين فروا من وجه العدو هاموا على وجوههم لا يلوون على شيء خوفاً على دمائهم وأعراضهم ، ولم يكن ليتيسر لهم التريث حتى يستحضروا النفقات اللازمة لهم من أجل السفر ، وأكثرهم خرجوا بعيالهم وهم لا يملكون القوت الضروري ، وكان ذلك في قلب الشتاء ، وكان عددهم لا يقل عن مائة وخمسين ألف نسمة .

فلما دخلوا الأستانة أنزلتهم البلدية في الجوامع والمدارس . فاستوعبتهم جميعاً ، ومن هنا يعرف الانسان فائدة هذه الجوامع العظيمة التي شيدها سلاطين آل عثمان بالحجر الصلب ، وتوسعوا في عمارتها إلى الدرجة القصوى ، حتى أن الجامع الواحد منها مع مضافاته والمدارس المتصلة به يكاد يكون بلدة ، فأبرقنا إلى مصر بحالة هؤلاء المهاجرين وكنت أنا المتولى الكتابة إلى الأمير عمر طوسون ، والأمير محمد علي توفيق ووصفت لهما حالة إخواننا المهاجرين وما هم عليه من البأساء ، فلم نلبث إلا أياماً قللاً حتى فوضوا إلينا هذا العاجز ومحمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال وعدة أشخاص آخرين من مستخدمي الهلال الأحمر توزيع الاعانات على هؤلاء المهاجرين على معدل ثلاثة ريالات مجيدة للنسمة ، فطلبنا من أمانة البلدة جداول أسمائهم جميعاً وأخذوا بتنظيمها لنا ، فكنا نذهب بأنفسنا إلى جامع جامع ومعنا البوايس يدعو كل رئيس عائلة باسمه ليأتى أمام اللجنة مع جميع أفراد عائلته ، فننظر في الجدول الذى فى أيدينا ونسأله عن اسمه وأسماء أفراد عائلته فإذا طابق ما فى الجدول أدينا له ما يستحقه ، فكان صاحب العائلة يقبض عشرين ريالاً ، أو ثلاثين ريالاً ، أو أربعين ريالاً بحسب عدد عائلته . وهكذا حصل لهؤلاء المهاجرين من الفرج ما لا يوصف فى زمن كانت الدولة فى شغل شاغل عنهم بسبب الحرب وإعداد لوازم الجيوش .

وقد بقينا أكثر من شهر نوزع هذه الاعانات عليهم حتى أخذ كل من المائة والخمسين ألف نسمة نصيبه ، وأرسلنا اللجنة إلى غاليبولى فدفعت مثل ذلك من الاعانات إلى المهاجرين الذين اجتمعوا فيها ، وجميع هؤلاء المهاجرين عبروا إلى

الأناضول وسلموا من الاهانات والاعتداءات ، لا بل من الفظائع التي حلت بالذين تخلفوا من المسلمين في بلاد البلقان ، وهي وصمة عار على البلقانيين لا يمحوها الدهر فقد ارتكبوا من الفظائع والفجائع بحق مسلمي الروملى الساكنين بعد انهزام العساكر العثمانية ما لو ارتكب المسلمون بحق المسيحيين عشر معشاره لقامت أوروبا وقعدت وملاً صراخها الآفاق ، وملأت أساطيلها مرافئ الشرق ، وتوالى احتجاجاتها في العشى والاشراق ، ولكن هذه الدول التي تدعى المحافظة على حقوق الانسانية وتزعم أنها تعلم الناس قواعد المدنية ؛ عرفت بجميع فظائع البلقانيين بحق المسلمين وما أنت بأدنى حركة .

ولى في ذلك الوقت برقية شديدة إلى السر ادورد غراى ناظر الخارجية الانكليزية أيتن له فيها دهشة العالم من وقوفهم بدون أدنى اكتراث لما هو واقع على مسلمي الروملى الوادعين في بيوتهم من اعتداءات الدول البلقانية ، على حين أنهم كانوا يقيمون القيامة لو كان الاعتداء واقعاً من المسلمين على البلقانيين . وبعد ارسال البرقية طلب كامل باشا الصدر الاعظم صورتها وأعجب بها ، وجرى حديث بينى وبين فيسموريس مستشار السفارة الانكليزية في الاستانة في هذا الموضوع فلم يقدر أن يعترض بكلمة واحدة ، وغاية ما قدر أن يقول لى إن السريين كانوا أقل أذى للأهالى المسلمين من غيرهم .

ولما سقطت سلانيك في أيدي البلقانيين كان قد اجتمع فيها جميع المسلمين الذين في جوارها ، والذين فروا من وجه جيوش الأعداء فدخل اليونان والبلغار إلى سلانيك وفيها مائة وخمسون ألف نسمة من المسلمين اللاجئين اليها ، فضلا عن المسلمين الذين هم من أهلها ، وقد ضبط الأعداء جميع الأقوات والأرزاق التي في البلدة لأجل جيوشهم ، فصار المسلمون على شفا الهلاك جوعا ، وحرص اليونان والبلغار على قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعلم أحد ماذا يجري فيها ، وهذا قد كان من أسوأ أعمالهم ، وكأنهم أرادوا أن يمحوها ولا المسلمين الذين اجتمعوا هناك بواسطة الاجاعة فلم يجدوا وسيلة أحسن من قطع أخبار سلانيك عن العالم حتى لا يعرف المسلمون

ماذا جرى ، ولا يرد منهم أدنى مدد إلى مسلمي سلانيك ، ولكن أبى الله إلا أن يغاثوا فجاء رئيس أطباء الجيش العثماني في سلانيك إلى الاستانة واسمه سلامى باشا وكان خروجه من سلانيك بمجرد دخول العدو ، فلم يظأ أرض الاستانة حتى اجتمعنا به ومنه أخذنا الخبر عن سقوط تلك البلدة لأن البلقانيين كانوا قطعوا الأسلاك التلغرافية ، فكان لم يمض على سقوطها غير ثلاثة أيام . وهو الذى أخبرنا بأن في سلانيك مائتى ألف مسلم بالآقل إذا مضى عليهم عشرة أيام ، ولم تأتهم أقوات يموتون كلهم جوعاً . فسرعان ما حركت قلمي بالابراق إلى مصر سواء إلى الأمير عمرطوسون أو إلى الهلال الأحمر ، وحيى الله لجنة الاعانة المصرية والهلال الأحمر المصرى ، فانه ما مضى أسبوع حتى كانت البواخر دخلت مرفأ سلانيك ملأى بالاقوات والارزاق والأكسية وجميع اللوازم الضرورية ، ومعها الرجال الموكلون بها ، فأغاثوا المسلمين وأنتاشوهم من خطر الهلاك جوعاً ، وكذلك سمعت أن الخديوى السابق أرسل بواخر إلى مرسى « قوالة » موقرة أرزاقاً لأن قوالة هى موطن محمد على باشا جد العائلة المالكة فى مصر . وكان اجتمع إليها أيضا عشرات ألوف من المسلمين الفارين من وجه البلقانيين .

وخلاصة القول أن المقام الذى قامه أهل مصر أبقاهم الله ركناً للاسلام من إغاثة مسلمي البلقان فى الحرب البلقانية يبقى لهم مآثرة خالدة لاتبليها الأيام فى تاريخ الاسلام ونعود إلى وقائع الحرب فنقول : إن الحكومة العثمانية بعد أن تولى الوزارة محمود شوكت باشا كانت ترغب فى الصلح ، ولكنها لم تكن ترضاه على أى الوجوه ، وكان رجال الاتحاد والترقى يريدون استمرار الحرب على أمل الكثرة على البلغار وأخذ الثأر منهم ، لأنهم كانوا جميعاً يعتقدون أن الهزيمة التى انهزمها الجيش العثماني فى الحرب البلقانية كانت حادثة على خلاف القياس . ولكن الدول بدأت تضغط على الدولة فى أمر الصلح وفى ٣١ مارس سنة ١٩١٣ أرسلت الدول مذكرة إلى الباب العالى تلج فى عقد الصلح ولكنها تصرّح بأنها لا تدعو الدولة إلى دفع غرامة حربية ؛ أما الخط الفاصل بين الأملاك العثمانية والمملكة البلغارية فكان خطاً ممتداً من البحر الأسود

إلى بحر الأرخبيل يقال له خط « ميديا - أنوس » وهو في الواقع خط لا يبعد كثيراً عن شطلجة ؛ وكان مؤتمر الدول في لندرة قرر إرسال لجنة عسكرية لتحديد الخط المذكور بالفعل على قدر ما تسمح حالة الأراضي من تقويمه . وأما ألبانيا فقرر المؤتمر سلبها عن تركيا ، وجعلها مملكة مستقلة ، وكذلك جزائر بحر الأرخبيل كان المؤتمر يريد أن يجعل لها نظاماً خاصاً ، ماعدا كريت فكانوا قرروا إلحاقها ببلاد اليونان .

• وكل ما جرى على الدولة من المصائب لم يضع حداً للشقاق في الاستانة ، فقتل ناظم باشا ناظر الحربية بأيدي الاتحاديين أثار غضب أصدادهم حزب الائتلاف والحرية فصاروا يكيدون في الخفاء للانتقام وإسقاط الوزارة الاتحادية ، وبلغ الخبر الاتحاديين فأهملوا الاحتياط اللازم ، وقيل لمحمود شوكت باشا : إن أناساً يأترون بك ليقتلوك فهزأ أكتافه لالكونه لم يصدق الخبر بل لأنه لم يبالى بالحياة ، وكان متوكلاً معتقداً قوله تعالى (لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) وهكذا تم لحزب الائتلاف والحرية ما أرادوا من الكيد ، وكان المتآمرون محيي الدين بك مدير الأمن العام في وزارة كامل باشا ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، وصالح خير الدين باشا ابن خير الدين باشا التونسى الذى كان صدراً أعظم ، وكان صالح باشا من أصحاب العائلة السلطانية ، وكان في هذه المؤامرة أيضاً صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، فانتدبوا بعض الأشرقياء وبعض الجناة من أصحاب السوابق في القتل ورشوم وكانوا يعتقدون أنه بمجرد قتل محمود شوكت باشا يستولونهم على الحكم حالا ويقتلون رفاقه مثل أنور وطلعت وجمال وغيرهم ، فذهبت هذه العصابة وترصدت محمود شوكت باشا عند مروره بسيارته من ساحة بايزيد آتيا من نظارة الحربية إلى الباب العالى وكان ذلك في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣ نحو الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر ، فقتلوه وهو في سيارته ، وقتلوا معه ياوره إبراهيم بك .

وأما الياور الآخر أشرف بك فأمكنه الخلاص وذهب مستنجداً بالبوليس . فنقل محمود شوكت باشا إلى نظارة الحربية حيث مات بعد عشرين دقيقة من الواقعة لأنه كان خرق جسمه خمس رصاصات . فكان بين قتل ناظم باشا وقتل محمود شوكت

باشا أقل من ستة أشهر بخمسة أيام ، وأفزع شيء في قتل محمود شوكت باشا أن اثنين من الذين تأمروا بقتله كانا سيقتلان بعد واقعة الثورة على الدستور ومجى جيش الحرية من سلانيك إلى الأستانة ، فغفعا عنهما محمود شوكت باشا القائد يومئذ وأنقذهما من القتل ، وعفا عن مجرمين سياسيين كثيرين برغم جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تريد الاقتصاص منهم ، فكان أن الذين عفا عنهم محمود شوكت باشا هم أنفسهم المتآمرين على قتله . ولكنهم لم يبلغوا هذه المرة أمنيتهم ، فما أغض محمود شوكت باشا عينه حتى تولى الحكم الأمير سعيد حليم باشا مكانه ، وهو ابن الأمير حليم باشا المصرى ابن محمد على باشا والى مصر ، وكان الأمير حليم باشا يسكن الأستانة وأولاده نشأوا فيها ، وانضم كبيرهم الأمير سعيد حليم وأخوه الأمير عباس إلى جمعية الاتحاد والترقي ، وكانا من أمثال الرجال ، وكان الأمير سعيد واسع العلم ، ثابت الجفنان عظيم الحمية ، وفي أيام صدارته استرجعت الدولة نشاطها ، وزال ما كان طراً عليها من الوهل ، وتعين طلعت بك ناظرا للداخلية ، وكان هو روح الاتحاد والترقي ، وهو أجراً الاتحاديين وأشدّهم إقداماً ، وأسرعهم فهماً ، وأمضاهم في الامور ، وقد جمع إلى الذكاء والحزم عفة النفس ، فانه كان مأموراً في التغرّاف من الدرجة الثانية ، فلما صار الانقلاب كان هو من أشد الاتحاديين مضاء ، وأعظمهم أثراً بالجمعية ، فصار ناظراً للتغرّاف ، ثم صار ناظراً للداخلية ، وفي الحرب العامة تولى الصدارة وبقى فيها إلى نهاية الحرب . ودخل في الحكومة فقيراً وخرج منها فقيراً ، وكان يقول : ألا يكفي أن هذه الامة تحملت جهلى ، أفأجعلها تتحمل انحطاط أخلاقى . كان يتكلم عن جهله لأنه لم يكن من العلماء ، أو ممن لهم تحصيل للعلم كاف ، ولكن كان ذكاؤه الفطرى أعجوبة ، وكانت جرأته خارقة للعادة ، فصار سيد الاتحاد والترقى بدون منازع . وكانت نهايته في برلين قتيلاً بيد أرمنى أرسلته جمعيات الأرمن لاغتياله وكنا في ذلك الوقت في برلين ، وكنت بالذاكرة معه أسست نادياً يجمع جميع الشرقيين وانتخبت رئيساً له باتفاق الكلمة ، فاحتفلنا له باسم النادى الشرقى بمأتم عظيم ، وأبقينا تجاليده في مكان خاص بالجبانة الاسلامية في برلين .

وكانت الجبانة قد ضاقت جداً ولم يبق فيها مكان للدفن ، فراجعت الحكومة الألمانية فسمحت لنا بألف وخمسمائة متر مربع أضفناها اليها ، وأدرنا حولها جداراً وبنينا فيها مسجداً صغيراً لايواء المصلين على الجنائز في أيام المطر والثلج ، وأنشأنا بجانبه منزلاً لأجل حارس الجبانة ، فجعلنا جثة المرحوم طلعت باشا في غرفة من ذلك المحل ، وجرى تحنيطها حتى يتيسر نقلها إلى الأستانة ودفنها هناك . فلما استقلت تركيا وجاءت الحكومة السكالية الانقرية لم تسمح بدفن طلعت في تركيا . فكان من الغرائب أن أعظم الاتراك حمية على وطنه لم يمكن دفنه فيه ، وما أبت الحكومة السكالية دفن طلعت في الأستانة إلا خوفاً من أن يكون له مأتم تقوم له تركيا وتقدم وتتجدد فيها قوة الاتحاد والترقي . فسبحان الله الذي جعل طلعت ممن يخافه الناس في حياته و بعد مماته ! وكان مع هذا من ألطف الناس خلقاً ، وأحلام عشرة ، وأودعهم نفساً . وأيام كنا في برلين سنة ١٩٢٠ كنا نجتمع كل يوم تقريباً ، وقد ترجمته في حواشي «حاضر العالم الاسلامي» ترجمة وافية .

هذا ودخل في الوزارة أحمد عزت باشا الارناؤوطى ناظرالحرية وقائداً للجيش وعثمان نظامى باشا للاشغال النافعة ، وبقى أكثر النظار الآخرين في مناصبهم وبدأت الوزارة بمحاكمة الذين قتلوا محمود شوكت باشا ، والذين دخلوا في مؤامرة قتله فـ ٢٤ شخصاً منهم بالقتل ، منهم من كانوا قروا من الوجه مثل صباح الدين بك ابن أخت السلطان ، ورشيد بك ناظر الداخلية السابق ، واسماعيل بك مبعوث كوملجنة ، ومنهم من وقع في اليد مثل صالح باشا خير الدين صهر العائلة السلطانية وجماعة يبلغون عشرة اشخاص فشنقوهم وصلبوا في ساحة بايزيد .

وقد اجتمعت سنة ١٩٣٦ باسماعيل بك مبعوث كوملجنة في جنيف وروى لى كيفية فراره في تلك الحادثة وتخلصه من أيدي الاتحاديين .

ثم إن الدول البلقانية اختلفن بعضهن مع بعض فالحكومة البلقانية تنازعت مع الحكومة السربية والحكومة اليونانية ، على اقتسام الأسلاب التي أخذوها من تركيا في الرومللى ، ووصل الأمر بينهما إلى القتال . وكانت رومانيا أرادت أن

تستفيد من قتال هؤلاء الحلفاء ، فطلبت تعديل حدود « الدبروجة » بينها وبين بلغاريا فوق الخلاف بين رومانيا وبلغاريا فرأت تركيا الفرصة سانحة لاسترداد ولاية أدرنة ، وفي ٦ يوليو أرسلت تركيا بواسطة عثمان نظامى باشا إلى الحكومة البلغارية إنذاراً بوجوب تخليتها للأراضي التي كان البلغار قد احتلوها ، وكانت الوقائع الحربية قد انتهت من شهر ابريل بموجب مشاركة بين البلغار والعثمانيين ، ولكن بقيت الجيوش البلغارية محتلة جميع ولاية تراقية التي يفصلها عن تركيا خط انوس - ميديه الذي قرره المؤتمر الدولي بين الفريقين ، فأرسلت الحكومة البلغارية المسمى «نتشيفيتش» معتمد بلغاريا سابقاً في الاستانة لأجل الاتفاق مع تركيا لاسيما أنه كان من أنصار التقرب بين تركيا وبلغاريا ، فرضى نتشيفيتش بتغيير خط انوس - ميديه الذي كان الأتراك غير راضين به ، وجعل الفاصل خطأً ماراً بقصبة شورلو ، ولكن الأتراك طلبوا أن بلغاريا تقبل النصيب المفروض عليها من الدين العثماني على نسبة ما أخذته من أملاك تركيا ، وتقبل أيضاً باعطاء تأمينات متعلقة بحقوق المسلمين الذين في المملكة البلغارية والبلاد التي استولت عليها هذه المرة ، وتتعهد بعدم تقاضى تضمينات حربية فلم يقدر نتشيفيتش أن يتعهد صريحاً بقبول هذه المطالب ، فزحف الجيش العثماني بقيادة احمد عزت باشا من جهتين؛ شطر منه سار من جهة رودوستو والآخر من جهة شورلو وفي ٢٢ تموز وصل المتطوعون وخيالة العرب والأكراد إلى أدرنة تحت قيادة أنور باشا .

وأما البلغار فلما وجدوا الجيش العثماني زحف عليهم نكصوا بدون قتال ولم يباشروا إلا مدافعات جزئية قتل فيها صاحبنا رشيد بك ابن المشير فؤاد باشا ، كنا معا في حرب طرابلس ولم تكن من البلغار مقاومة إلا بعد أن وصلوا إلى حدود بلغاريا الأصلية ولكنهم لم يقدرُوا على مقاومة تذكر ، ولو شاء العثمانيون يومئذ أن يتوغلوا في نفس بلغاريا الأصلية لأمكنهم ذلك ، لكنهم كانوا يخشون اعتراض الدول فأرسل الباب العالي إلى الدول مذكرة يقول فيها إن الدولة أبلغت بلغاريا بوجوب سحب عساكرها من الأراضي التي احتلتها جنودها وذلك لأجل وضع حدود تتمكن بها تركيا من

المحافظة على الأستانة وعلى الدردنيل . وهذه الحدود غير ممكنة إلا باتباع مجرى نهر المريج ، بحيث كل ما هو جنوبي هذا النهر يبقى لتركيا .

فلما لم يجب البلغار طلب تركيا اضطرت الدولة إلى احتلال هذه الأراضي تاركة تعيين الحدود الموافقة لهذا كرات السياسية ، فغضبت الدول من أجل إخلال تركيا بقرار مؤتمر لندرة الذي عين خط أنوس - ميديه فاصلا بين تركيا وبلغاريا ، وأرسلت إلى الدولة تنذرها بأنها إن لم تسحب عساكرها من أدرنة فإنها تتخذ جميع التدابير اللازمة لأجل تثبيت قرار المؤتمر ، فهذا الجواب لم يرع تركيا وقتئذ ، وذلك لأن الأتراك كانوا يرون الدول متمسكات بالقرار الذي يصدرنه في مصلحة أعداء تركيا ويقلن لا يجوز تبديل هذا القرار بوجه من الوجوه ، بخلاف ما لو كان القرار في مصلحة تركيا فإنه يتبدل حالا . وقبل الحرب البلقانية أبلغت الدول الفريقين بأن هذه الحرب يكون الغالب والمغلوب فيها سواء ، وتبقى الحدود مكانها . فلما تغلب البلقانيون على الأتراك نسيت الدول بلاغها هذا كما تقدم الكلام عليه ، فلهذا لم يكن لاندثار الدول هذه المرة موقع خوف في قلوب الأتراك ، وأبرق عزت باشا قائد الجيش من أدرنة يقول : إن الجيش لا يمكن أن يتخلى عن أدرنة .

وكان بالفعل لو ضغطت أوروبا على تركيا ، والحكومة ضغطت على الجيش والأهلين ، لجرت ثورة دموية ، فأجابت تركيا الدول بأن مذكرتها إلى الباب العالي تشير إلى أن الدول حاضرة للمذاكرة مع تركيا في الشروط اللازمة لتأمين حدودها والحال أن خط أنوس - ميديه لا يتأمن به شيء ، وأن تركيا إنما احتلت البلاد التي كان احتلالها البلغار محافظة على حياة الأهالي الذين كانوا صائرين لا محالة إلى الانقراض فتركيا ترجو من الدول إعادة النظر في قضية الحدود . فلما وصلت هذه المذكرة إلى الدول خطب السراي غراي خطبة فيها شيء من التهديد لتركيا إذا أصرّت على استرداد أدرنة . وأما روسيا فأشارت بمنع كل معاملة مالية بين أوروبا وتركيا ؛ ولكن كل هذا لم يرعب الترك ، لأن قضية أدرنة هي لهم قضية حيوية ، فأدرنة مفتاح (٢٦ - تعليقات)

الأستانة كما لا يخفى ، وفي ولاية أدرنة مئآت ألوف من المسلمين كانوا سينقرضون أو سيرحلون بأجمعهم لو بقي الباغار هناك ، لما كان عند الباغار من الوجد لاستئصال الاسلام من تلك البقعة . فالأتراك كانوا مصممين على عدم الرجوع عن أدرنة وتهددوا الباغار باعلان الحرب عليهم إذا لبثوا يطالبون بأدرنة ، فخاف الباغار من أن ينهزموا ويفقدوا ثمرات طوائفهم في أول الحرب فجنحوا إلى السلم ، واتمسوا من تركيا المذاكرة رأساً . وكان مسلمو تراقية الغربية قد ثاروا وأسّسوا حكومة مستقلة لأنفسهم مركزها كوملجنة في ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ تقرر شروط الصلح بين الفريقين واستعادت تركيا بموجب هذا الصلح أدرنة ، وقرق كليس ، وديموطقة ، وأعيدت الحدود الأصلية التي كانت بين تركيا وبلغاريا قبل الحرب البلقانية ، سوى بعض قرى إلى جهة البحر الأسود أكثر سكانها من الباغار فهذه سمحت بها تركيا لبلغاريا .

وكذلك خسرت بلغاريا الخط الحديدي من أدرنة إلى دده آعاج البلدة التي على ساحل بحر الأرخبيل ، وكان الباغار سيجعلونها منفذاً لهم إلى البحر المتوسط ، وكذلك تقرر بين الدولتين أن يضرب أمد لسكان مكدونية وتراقية أربع سنوات ليختاروا التابعة العثمانية أو التابعة البلغارية ، فإذا مضت السنوات الأربع ولم يختاروا التابعة العثمانية يصيرون رعايا بلغاريا ، وإلا فيبقون كأجانب مرجعهم الدولة العثمانية . وإذا كان في هذه البلدان يسكن عثمانيون من ولايات أخرى تابعة لتركيا فيبقون على تابعيتهم العثمانية ، ثم حصلت مذاكرات في قضية الأوقاف الاسلامية ، وتقرر أن تكون إدارتها بأيدي الجماعات الاسلامية وفقاً للاتفاق التركي البلغاري المنعقد سنة ١٩٠٩ بحق الأوقاف الاسلامية في بلغاريا القديمة فاشتترط تركيا أن تكون الأوقاف الاسلامية في الأراضي الملحقة جديداً ببلغاريا تحت إشراف شيخ الاسلام في الأستانة ، بخلاف الأوقاف في بلغاريا القديمة التي كان للحكومة البلغارية حق لإشراف عليها . ثم تقرر أن يكون مسلمو الباغار تابعين للشرع الشريف في أحوالهم الشخصية ، فيحكم بينهم فيها قضائهم كما في تركيا ؛ ويكون للمسلمين في بلغاريا

منتون تلتخبهم الجماعات الاسلامية بتمام الحرية ؛ ويجرى تصديق انتخابهم بمعرفة شيخ الاسلام في تركيا ، وتقرر أن تكون المدارس والمسكاتب الاسلامية في بلغاريا معدودة من مؤسسات الحكومة البلغارية التي يجب أن تنفق عليها . واستغرب الناس تساهل بلغاريا هذا مع تركيا ، وقد كانت هي الظافرة في الحرب البلقانية ، والحقيقة أن قواد الجيش البلغاري وجدوا أنفسهم لو أصروا على العناد لسكرت القوك عليهم ، وكانوا من بعد غلبهم سيفلبون ، لأن الجيش التركي في المدة الأخيرة كان غير الجيش التركي في أول الحرب ، ثم إن البلغار كانوا اقتتلوا مع السرب من أجل « مَنستر » التي كان البلغار والسرب يتنازعون عليها . وكذلك كانوا اقتتلوا مع اليونان من أجل مكدونيه فصارت بلغاريا مضطرة بحكم الضرورة أن تسالم تركيا . وانعقدت معاهدة الصلح النهائي بين تركيا وبلغاريا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٣ واتفقت الدولتان على عدم اعتبار المعاهدة السابقة المنعقدة في لندرة في كل المواد المخالفة فيها للمعاهدة الأخيرة .

ثم جرت المذاكرات بين تركيا واليونان لأجل الصلح ، ولم تصل الدولتان إلى وفاق ، أولا لأن اليونان طلبوا التمتع بالامتيازات الأجنبية التي كانت الدولة حرمت اليونان إياها عند ما كسرتهم سنة ١٨٩٧ فتركيا أبت إرجاع الامتيازات وقالت : إن الدول العظام أنفسها أصبحت مستعدة لالغاء هذه الامتيازات ، ثم إن تركيا طلبت الحرية التامة في اليونان لشعائر الدين الاسلامي ، وأن تكون إدارة الأوقاف الاسلامية في بلاد اليونان تحت مراقبة شيخ الاسلام ، وتكون قضاء المسلمين هي الحاكمة في الأحوال الشخصية ، فطلب اليونان بمقابلة ذلك أن تعاد إلى بطريرك الروم في الاستانة الامتيازات الدينية القديمة التي كان منحها السلطان محمد الفاتح ، فأجابت تركيا بأن لا مدخل لدولة أجنبية في أمور داخلية في تركيا .

ثم اختلفوا في قضية الأوقاف لأن اليونان رضوا بالاعتراف بالأوقاف العائدة إلى المساجد رأساً ، فأما الأوقاف التي يقال لها وقف ذرية فادعت دولة اليونان أنها محل فيها محل الدولة العثمانية ، واختلفوا أيضاً في قضية الخدمة العسكرية ، فاقترحت اليونان

إعفاء الأروام الذين في تركيا من الخدمة العسكرية على أن تعفى اليونان المسلمين الذين في بلادها من الخدمة نفسها ، فرفض الباب العالي ذلك ، فاقترحت اليونان وجهاً آخر وهو أن يكون للأروام في تركيا توأبير مخصوصة لا يدخلون فيها مع سائر العسكر وأن اليونان بمقابلة ذلك تجمل لمسلمي بلادها توأبير خاصة ولا تجبرهم على نزع الطربوش فرفض الباب العالي هذا أيضاً . وطلبت اليونان العفو العام عن الأروام العثمانيين الذين ساعدوا اليونان ، فأجابت تركيا هذا الطلب . ثم طلبت اليونان ثلاثة ملايين جنيه عثماني تعويضاً لها عن ضبط مائة سفينة يونانية قبضت عليها تركيا في أول الحرب فأبى الباب العالي دفع شيء ، وانقطعت المفاوضات مدة . ثم استؤنفت بميل الفريقين إلى الصلح ، وانعقدت المعاهدة في ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٣ وفازت تركيا بتأييد كلمتها في قضية الامتيازات ، وفي قضية الأملاك السلطانية ، وكذلك فازت في معاملة الجماعات الإسلامية في أحوالهم الشخصية بموجب الشرع الشريف ، كما جرى الاتفاق مع البلغار . ولكن لم يمكن تركيا أن تنال من اليونان حق إشراف شيخ الإسلام على الأوقاف الإسلامية في اليونان بل طلبت اليونان أن تكون إدارة هذه الأوقاف بأيدي مسلمي بلاد اليونان وهكذا تم . وبقيت مسألة الجزر معلقة وكانت الدول تريد إلحاق جميع الجزر باليونان عدا « تندرُس » و « إمبروس » و « كستيلوريزو » وذلك لقربها الشديد من السواحل العثمانية .

وبينا الدول تفكر في فض الخلاف بين تركيا واليونان إذ وقعت الواقعة الكبرى وهي الحرب الكبرى فتوقف كل شيء منذ سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢٣ أي مدة تسع سنوات في خلالها جرت الحرب العامة ثم تبعها حرب أخرى بين تركيا واليونان التي سلمتها انكلترا قسماً من بلاد الأناضول ، فاستمرت الحرب بين الأتراك والأروام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٢ وانتهت بانهزام اليونان ، فعند ذلك انعقد بين الدول و تركيا مؤتمر لوزان ، وتقرر الصلح ، وبموجبه ألحقت جميع الجزائر في الأرخبيل إلى اليونان ، إلا الجزر التي أمام الدردنيل مثل منى وتندس ، ولكن تقرر أيضاً مبادلة الأراضي والسكان ، فجميع المسلمين الذين في بلاد اليونان جاءوا إلى تركيا

كما أن جميع الأروام الذين في تركيا أخرجوا إلى بلاد اليونان وأخذت تركيا أملاك اليونان فيها ، وبمقابلة ذلك أخذت اليونان أملاك المسلمين فيها . واستلمحت إيطاليا رودوس والجزر العشر التي حولها . ولم يبق في مملكة اليونان سوى مسلمي تراقية الغربية ، فقد جرى استئناؤهم من المهاجرة ، ولم يبق من الأروام في تركيا غير الأروام الذين في القسطنطينية ، إذ أت الدول في لوزان جعلن هؤلاء في مقابلة هؤلاء .

وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامة وذيولها ، ونحن أحببنا الوقوف في تاريخ الدولة العثمانية عند هذا الحد ، لأننا لو دخلنا في موضوع الحرب العامة لطلال بنا الموضوع جداً . ولما كنا نريد أن نفرد الحرب العامة وذيولها إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ بتأليف خاص - إن شاء الله - لم نجد لزوماً للدخول في هذا التاريخ بموضوع أكبر حرب عرفها العالم مما يجب أن يفرد بتأليف على حدة .

وربما يؤخذ علينا في هذا الكتاب كوننا تكلمنا عن أنفسنا في بعض وقائع شهدناها بأعيننا ، وربما عد ذلك بعضهم من قبيل تزكية المرء نفسه ، والله يعلم أننا من أبعد الناس عن هذا الأمر (بل الله يزكّي من يشاء) وإنما قصدنا بذلك زيادة توثيق الوقائع التي نرويها بذكر ما شهدناه منها عياناً ، إذ هناك فرق كبير بين السماع والعيان وكثيراً ما روى المؤرخون أخباراً لم يكن لها أصل ، أو كان لها أصل ضعيف ، وذلك بسبب تلقفهم هذه الأخبار من أفواه الناس ، أو نقلهم لروايات غير ممحصّة . فإنا إذا رويت ما شهدته بعيني ، وما سمعته باذني ؛ فإنما يكون مقصدي في ذلك زيادة التحري والانتهاز إلى أقصى درجات التوثيق « وما راء كمن سمعا » وهكذا تظهر الوقائع بشكل بارز ، حتى كأن الإنسان يراها بالعيان ، وليس هذا بمذهب لم يسبق إليه المؤرخون ، والله تعالى وحده من وراء السداد .

فهرس مواضيع

تعليقات الأمير شبيب أرسلان

على الجزء الأول من كتاب تاريخ ابن خلدون

من صفحة	الى صفحة	
١	٢	الصقالبة . نشأتهم . حدود بلادهم . اشتقاق اسمهم .
٣	٢٢	الأنساب . حدود علم الأنساب . الأنساب عند العرب البادية . الأنساب في الحواضر . شدة اعتناء العرب به . نسب العدنانية والقحطانية وفروعهما . قبائل العرب المشهورة . بقيتهم في العصر الحاضر . مساكنهم وبلادهم . الأنساب عند الأفرنج . اعتناء الأورباويون بأنسابهم . النبلاء والأشراف . أنساب الحيوانات . سجلات نسب الخيل
٢٣	٢٩	الخلافة واشتراط القرشية فيها . وجوب الخلافة في الاسلام . مبحث في عصمة الخلفاء . رئاسة الخليفة الدينية والزمنية . الخلفاء الراشدون . حصر الخلافة في قریش من يصح له تولي الخلافة . وظيفة الخليفة .
٣٠	٤٤	مذهب النشوء والارتقاء . الأب الأول . نصوص التوراة . الجاهم التاريخية . القرد والانسان . مبحث في مذهب دروين . رد جمال الدين الأفغاني . أتباع مذهب دروين . استحالة تسلسل الانسان من القروء . أول من عرف مذهب دروين في البلاد الشرقية .
٤٥	٥٠	نوح وولده وقضية الطوفان والسلائل البشرية . قصة الطوفان في جميع الأديان . أنواع البشر .
٥١	٦٨	التوراة وهل وقع فيها تبديل أم لا ؟ مذهب المسلمين في تحريف التوراة اختلاف نسخ التوراة بأيدي اليهود . تعدد الأناجيل . التناقض الواقع فيها . رجال الأناجيل الأقدمين . أقدم الأناجيل الموجودة .
٦٩	٨٧	تاريخ العرب الأولين . غموض تاريخهم القديم الكتابات الاشورية والبابلية . أقدم الكتابات العربية . الخط المسند . ملكة سبأ وسد مأرب

- بعثات جزيرة العرب . اكتشافاتها . صفة جزيرة العرب للهمداني
بحث عن اليمن ورفاهيتها . اشتقاق لفظة عرب .
آ
- ٨٨ - ١٥٧ الترك . أصل الأتراك القديم . غزوات بني أمية لبلاد الترك . نشر
الاسلام في بلاد الترك . الأتراك في الدولة العباسية . أصل الترك
العثمانيين . دولة بني عثمان . نشأة عثمان مؤسسها . السلطان أورخان بن
عثمان . تأسيس جيش الانكشارية في أيامه . فتوحات أورخان . من نبغ
في زمانه من العلماء . السلطان مراد بن أورخان . حروبه مع البلقانيين .
قتله . من نبغ في أيامه . السلطان بايزيد . محاربه تيمورلنك . أسره . موته
من نبغ في أيامه . السلطان محمد الأول . من نبغ في أيامه . السلطان مراد
الثاني . حروبه . فتوحاته . السلطان محمد الثاني الفاتح . فتح القسطنطينية
قوانينه العادلة . من نبغ في أيامه . حصار العرب للقسطنطينية . شهاب محمد
الفاطح . وفاته . السلطان بايزيد الثاني . حروبه . أول ظهور روسيا .
من نبغ في زمانه . السلطان سليم الأول . حروبه ، فتح مصر وقتل
السلطان الغوري . فتوح الشام . نشاط سليم الأول . من نبغ في أيامه .
١٨٧ - ٢١٨ السلطان سليمان القانوني . الفتن في أيامه . حروبه . فتوحاته . استيلاؤه
على النمسا والمجر خير الدين بربروس أمير الاساطيل الإسلامية . قوة
الدولة في زمنه . فتوحاته في أوروبا وآسيا . من نبغ في أيامه
٢١٩ - ٢٣٨ السلطان سليم الثاني . ثورة الانكشارية . حروبه . الثورات في مدته
وفاته . من نبغ في أيامه . السلطان مراد الثالث . من نبغ في أيامه . وفاته
السلطان محمد الثالث . حروبه . حالة السلطنة في زمانه . من نبغ في أيامه .
السلطان احمد الأول . ظهور التبغ في أيامه . من نبغ في زمانه
٢٢٩ - ٢٥٦ السلطان مصطفى . خلعه . السلطان عثمان الثاني . خلعه . السلطان
مصطفى ثانياً . خلعه . السلطان مراد الرابع . حروبه مع الايرانيين .
الثورات في زمنه . حزم السلطان مراد الرابع وشدة بأسه . موته .
السلطان ابراهيم . قتله . السلطان محمد الرابع حروبه . الثورات في زمنه
حروبه مع فرنسا حروبه مع النمسا والمجر . خلعه .
٢٥٧ - ٢٧٩ السلطان سليمان الثاني . الحوادث في أيامه . موته . السلطان احمد الثاني

من
صفحة
الى
صفحة

السلطان مصطفى الثاني ، حزمه . وعزمه . حروبه . خلعه . السلطان أحمد الثالث الحوادث في أيامه . دخول المطبعة في زمنه إلى القسطنطينية . السلطان محمود الأول : حروبه . السلطان عثمان الثالث . موته . السلطان مصطفى الثالث . حروبه . السلطان عبد الحميد الأول . حروبه . السلطان سليم الثالث : حروبه . الفتن في أيامه

٢٨٠ - ٣١١ محمد علي باشا . رأس العائلة الخديوية . السلطان مصطفى الرابع . الحوادث في أيامه . السلطان محمود الثاني . حروبه . الثورات في مدته . حروب ابراهيم باشا بن محمد علي باشا مع الأتروام وفتح المورة . السلطان عبد الحميد . الفتن في زمنه . السلطان عبد العزيز . اصلاحاته . خلعه . السلطان مراد الخامس . جنونه . خلعه .

٣١٢ - ٣٤٥ السلطان عبد الحميد الثاني . السلطنة في زمنه . ثورات الأرمن . جمعية الاتحاد والترقي . إرجاع الدستور العثماني . خلع السلطان عبد الحميد . السلطان محمد الخامس . ثورة الأرتاؤوط . انسلاخ طرابلس وحروب إيطاليا . ضعف الدولة في أيامه . الحرب العامة . حوادث سلسلة .

(تم الفهرس)



الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
esclave	esclaves	٩	١
والخزوات	والخزوات	٦	٢
و	او	٢	٧
مَذْحَج	مُذْحَج	١٠	٧
بنصرايتهم	بنصرايتهم	٧	٩
هو هنزولرن	هو هنزولون	٥	٢١
جديراً	جدير	٥	٢٢
المفهومة	المفهومة	١٩	٢٩
بآدم	بدم	٧	٣٠
دون	بدون	١	٣٢
دون	بدون	٥	٥٨
Joseph	Goseph	١٩	٦٩
Edoard	Edoird	١٩	٦٩
امرؤ القيس	امرىء القيس	٢١	٧٢
صلحه	صلحة	١٣	٨٩
سيكونون امرآنا	سيكونوا امراؤنا	٧	١٠٤
ومعه خمسون	ومعه خمسين	٨	١١٢
فهزمه	وهزمه	٧	١٢٨
المرديت	المردريت	١٢	١٢٨
نيغروبون	نيفروبون	١٠	١٣٦
اوزون حسن	لوزون حسن	١١	١٣٦

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣٦	١٩	بلاد الشركى	بلاد الشركس
١٣٧	٢٣	المتعلقة للقضاة	المتعلقة بالقضاة
١٤٠	٢٢	الشير بالخيالى	الشهير بالخيالى
١٤٣	٩	ثم معلماً	ثم صار معلماً
١٦١	٢١	ان علياً بن ابى طالب	ان على بن ابى طالب
١٨٧	٦	قبر الامامى	قبر الامام
٢٠٠	٧	Szilgeth	Szigeth
٢٠٢	١٩	وما ذلى	وما دى
٢٢١	٢٢	الموقعة	الواقعة

